

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) اَللّٰمُ (٢) ذٰلِكَ اَلْكِتٰبُ لَا رَيْبَ فِيْهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِيْنَ

(الم) هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به ، ولا يضر وضع الاسم الواحد كـ (ألم) لعدة سور ، لأنه من المشترك الذي يعين معناه اتصاله بعسماه . وحكمة التسمية والاختلاف في (الم) و (المص) نفوض الأمر فيها إلى المسمى سبحانه وتعالى . [ويسعدنا في ذلك ماوسع صحابة رسول الله ﷺ وتابعهم ، وليس من الدين في شيء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العمل ، التي قلما يسلم مخترعها من الزلل .]

هذا ملخص ما قاله شيخنا الأستاذ الامام . وأقول الآن - أولاً - إن هذه الحروف تقر أمقطعة بذكر أسمائها لامسمياتها فنقول : أَلِفٌ ، لَامٌ ، مِيمٌ ، ساكنة الأواخر لأنها غير داخلية في تركيب الكلام فتعرب بالحركات - ثانياً - إن عدم إعرابها يرجع أن حكمة افتتاح بعض السور المخصوصة بها للتنبيه لما يأتي بعدها مباشرة من وصف القرآن والإشارة إلى إعجازه ، لأن المكي منها كان يتلى على المشركين للدعوة إلى الاسلام ، ومثل هذه السورة وما بعدها ندعوة أهل الكتاب إليه وإقامة الحجج عليهم به ، وسيأتي توضيح ذلك بالتفصيل في تفسير أول سورة (المص - الأعراف) - ثالثاً - اقتصر على جعل حكمتها الإشارة إلى إعجاز القرآن بعض المحققين من علماء اللغة وفنونها كالفراء وقطرب والمبرد والزخشرى وبعض علماء الحديث ، كشيخ الإسلام أحمد تقي الدين ابن تيمية والحافظ المزى ، وأطال الزخشرى في بيانه وتوجيهه بما يراجع في كشفه ، وفي تفسير البيضاوى وغيره - رابعاً - إن أضعف ما قيل في هذه الحروف وأسخفه أن المراد بها الإشارة بأعدادها في حساب الجمل إلى مدة هذه الأمة أو ما يشابه ذلك . وروى ابن إسحق

حديثاً في ذلك عن بعض اليهود عن النبي ﷺ وهو ضعيف من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله - خامساً - يقرب من هذا ما عني به بعض الشيعة من حذف المكرر من هذه الحروف وصياغة جمل مما بقي منها في مدح على المرتضى رضي الله عنه أو تفضيله وترجيح خلافته وقبولها بجملة أخرى مثلها تنقض ذلك كما وضحناه في مقالنا (المصلح والمقلد) - سادساً - انه لا يزال يوجد في الناس حتى علماء التاريخ واللغات منهم من يرى أن في هذه الحروف رموزاً إلى بعض الحقائق الدينية والتاريخية ستظهره الأيام .

﴿ ذلك الكتاب ﴾ الكتاب بمعنى المكتوب وهو اسم جنس لما يكتب . والمراد بالكتاب هذه الرقوم والنقوش ذات المعاني . والإشارة تفيد التعمين الشخصي أو النوعي . وليس المراد هنا نوعاً من أنواع الكتب بل المراد كتاب معروف معهود للنبي ﷺ بوصفه . وذلك العهد مبني على صدق الوعد من الله بأنه يؤيده بكتاب (*) [تام كامل كافل لطلاب الحق بالهداية والارشاد ، في جميع شؤون المعاش والمعاد] فأشار بذلك إليه . ولا يضر أنه لم يكن موجوداً [كله وقت نزول أمثال هذه الاشارة ، فقد يكفي في صحتها وجود البعض . وقد كان نزل من القرآن جملة عظيمة قبل نزول أول هذه السورة وأمر النبي ﷺ بكتابتها فكتبت وحفظت ، فالإشارة إليها إشارة إليه] بل يكفي في صحة الاشارة أن يشار إلى سورة البقرة نفسها لأنه يصح فيها وصف «هدى للمتقين» والاول أشبه ، والإشارة إلى الكتاب كله عند نزول بعضه إشارة إلى أن الله تعالى منجز وعده للنبي ﷺ باكمال الكتاب كله ومن حكمة الاشارة إليه بهذا الكتاب (أي المكتوب المرقوم) ان النبي ﷺ أمر بكتابتها دون غيره فهو الكتاب وحده ، ولا يضر أنه عند النزول لم يكن مكتوباً بالفعل لأنك تقول: أنا أملئ كتاباً ، أو هم أمل عليك كتاباً . والإشارة البعيدة بالكاف يراد بها بعد مرتبته في السكال ، وعلوها عن متناول قريحة شاعر أو مقول خطيب قوال ، والبعد والقرب في الخطاب الإلهي إنما هو بالنسبة إلى

(*) كل ما وضع بين هاتين العلامتين [فهو زيادة كتبها شيخنا بخطه في حواشي المصنف الأول من هذا الجزء كما تقدم في فاتحتنا

الخلقين ، ولا يقال : إن شيئاً بعيداً عنه تعالى أو قريباً منه في المكان الحسى لأن كل الأشياء بالنسبة إليه تعالى سواء . وإنما القرب منه والبعد عنه تعالى معنوى وهو أقرب إلينا من أنفسنا بعلمه .

﴿ لاريب فيه ﴾ الريب والريبة الشك والظنة (التهمة) والمعنى : أن ذلك الكتاب مبرأ من وصيات العيب فلا شك فيه ، ولا ريبة تعتريه ، لا من جهة كونه من عند الله تعالى ، ولا في كونه هادياً مرشداً ، ويصح أن يقال : إنه في قوة آياته ، ونصوح بيناته ، بحيث لا يرتاب عاقل منصف ، غير متعنت ولا متعسف ، في كونه هداية مفاضة من سماء الحق ، مهداة إلى الخلق ، على لسان أمي لم يسبق له قبله الاشتغال بشيء من علومه ، ولا الاتيان بكلام يقرب منه في بلاغته ، ولا في أسلوبه حتى بعد نبوته ، - ولهذا قال فيها يأتي قريباً (٢٣) وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله (وحاصله : أنه كذلك في كل من نظمه وأسلوبه وبلاغته ، ومن معانيه وعلومه وتأثيره في الهداية - لا يمكن أن توجه إليه الشبهة ، أو تحوم حوله الريبة ، سواء أشك في ذلك أحد بجهالة وعى بصيرته - أو بتكلفه ذلك عناداً أو تقليداً - أم لا

﴿ هدى للمتقين ﴾ خبر بعد خبر ^(١) والهدى مصدر في الأصل كالنقى والسرى . والمراد بالهداية هنا الدلالة على الصراط المستقيم مع المعونة الخاصة والأخذ باليد على ما تقدم في تفسير المراد من (اهدنا الصراط) لأن كونه هادياً للمتقين بالفعل غير كونه هادياً - دالاً - لسائر الناس من غير مراعاة أخذهم بدلالته ، واستقامتهم على طريقته ، وكلمة « المتقين » من الانقاء والاسم التقوى وأصل المادة : وقى يقى : والوقاية معروفة المعنى ، وهو البعد أو التباعد عن المضر أو مدافعته ، ولكن نجد هذا الحرف مستعملاً بالنسبة إلى الله تعالى كقوله (فأتوا فاتقوا الله - واتقوا الله - واتقوا أولي الألباب لعلمكم تفلحون) فعنى اتقاء الله

« ١ » بعض القراء يقف على لفظ « ريب » ويجعل « فيه هدى للمتقين »

جملة مستقلة ، وهو ضعيف خلاف المتبادر من النظم . ويرجى قراءة الجمهور وتفسيرهم أول سورة السجدة (ألم . تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين)

تعالى اتقاء عذابه وعقابه ، وإنما تضاف التقوى إلى الله تعالى تعظيماً لأمر عذابه وعقابه ، وإلا فلا يمكن لأحد أن يتقى ذات الله تعالى ولا تأثير قدرته ، ولا الخضوع الفطري لمشيئته .

ومدافعة عذاب الله تعالى تكون باجتناب مانهى ، واتباع ما أمر ، وذلك يحصل بالخوف من العذاب ومن المعذب ، فالخوف يكون ابتداء من العذاب وفي الحقيقة من مصدره ، فالتقى هو من يحمى نفسه من العقاب - ولا بد في ذلك أن يكون عنده نظر ورشد يعرف بهما أسباب العقاب والآلام فيتقيها .

وأقول الآن : إن العقاب الإلهي الذي يجب على الناس اتقاؤه قسمان : دنيوي وآخرى : وكل منهما يتقى باتقاء أسبابه ، وهى نوعان : مخالفة دين الله وشرعه . ومخالفة سنته فى نظام خلقه . فاما عقاب الآخرة فيتقى بالإيمان الصحيح ، والتوحيد الخالص ، والعمل الصالح ، واجتناب ما ينافى ذلك من الشرك والكفر والمعاصى والردائل ، وذلك مبين فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأفضل ما يستعان به على فهمهما واتباعهما سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والأئمة الأولين من آل الرسول وعلماء الأمصار ، وأما عقاب الدنيا فيجب أن يستعان على اتقائه بالعلم بسنن الله تعالى فى هذا العالم ، ولا سيما سنن اعتدال المزاج وصحة الأبدان ، وأمثلتها ظاهرة ، وسنن الاجتماع البشرى ، فاتقاء الفشل والخذلان فى القتال يتوقف على معرفة نظام الحرب وفنونها ، وإتقان آلاتها وأسلحتها ، التى ارتقت فى هذا العصر ارتقاءً عجيباً . وهو المشار إليه بقوله تعالى (٨ : ٦٠) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) كما يتوقف على أسباب القوة المعنوية من اجتماع الكلمة واتحاد الأمة والصبر والثبات والتوكل على الله واحتساب الأجر عنده (٨ : ٤٥) يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ٤٦ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم واصبروا إن الله مع الصابرين) ونحن نبين معنى التقوى فى القرآن فى كل موضوع بما يناسبه كالتقوى فى الأكل من الطيبات فى سورة المائدة (٥ : ٩١) ومثله فى سياق تحريم الخمر منها (آية ٩٠) وغير ذلك فبراجع كل شئ فى موضعه . وقال شيخنا فى بيان المراد بهؤلاء المتقين مامعناه :

كان من الجاهليين من مقت عبادة الأصنام ، وأدرك أن فاطر السموات والأرض لا يرضيه الخضوع لها ، وأن الإله الحق يحب الخير ، ويبغض الشر . فكان منهم من اعتزل الناس لذلك . وكانوا لا يعرفون من عبادة الله إلا الالتجاء والابتهال وتعظيم جانب الربوبية ، وذلك ما كان يسمى صلاة فيلسافهم . وبعض الخيرات التي يهتدى إليها العقل في معاملات الخلق .

وكان من أهل الكتاب من وصفهم الله تعالى بمثل قوله (٣ : ١١٣) من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ١١٤ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) وبقوله (٥ : ٨٢) ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى : ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون * ٨٣ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) فأشبال هؤلاء من الفريقين هم المراد بالمتقين . ولا حاجة إلى تخصيص ما جاء في وصفهم بالمؤمنين منهم بعد الإسلام أو بالمسلمين ، بل أولئك هم الذين كان في قلوبهم اشتزاز بما عليه أقوامهم ، وفي نفوسهم شيء من التشوف إلى هداية يهتدون بها ، ويشعرون باستعدادهم لها ، إذا جاءهم شيء من عند الله تعالى . فالتقون في هذه الآية إذن هم الذين سلمت فطرتهم فأصابت عقولهم ضرباً من الرشاد ووجد في أنفسهم شيء من الاستعداد لتلقى نور الحق يحملهم على توقى سخط الله تعالى والسعى في مرضاته ، بحسب ما وصل إليه علمهم ، وأداهم إليه نظرهم واجتهادهم .

(٤) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ

الايمان هو التصديق الجازم المقترن بإذعان النفس وقبولها واستسلامها . وآيته العمل بما يقتضيه الايمان عند عدم الصارف الذي يختلف باختلاف درجات المؤمنين في اليقين . والغيب ما غاب عليه عنهم ، كذات الله تعالى وملائكته والدار

الآخرة . وإقامة الصلاة : الايمان بهذه العبادة الروحية البدنية على أكل وجه ممكن . وللصلاة صورة وروح ، فصورتها عبادة الأعضاء ، وروحها عبادة القلب ، كما يعلم مما يأتى ، وجمهور المفسرين على أن هذه الآية فى المسلمين من العرب أو مطلقاً ، وما بعدها فيمن أسلم من أهل الكتاب خاصة . وفسرها شيخنا تفسيراً هو أقرب إلى مدلول النظم ، وإن كان أبعد عن الروايات فقال مامثاله :

الناس قسمان مادى لا يؤمن إلا بالحسيات ، وغير مادى يؤمن بما لا يدركه الحس ، أى بما غاب عن المشاعر متى أرشد إليه الدليل أو الوجدان السليم . ولا شك أن الايمان بالله ، وملائكته . وهى جنود غائبة لها مزايا وخواص يعلمها سبحانه وتعالى . وباليوم الآخر : إيمان بالغيب . ومن لا يؤمن بالله لا يمكن أن يهتدى بالقرآن ، ومن يتصدى له دايته لا بد له أن يقيم الحجة العقلية على أن لهذا العالم إلهاً متصفاً بصفات الكمال التى لا تتحقق الألوهية إلا بها ثم يقنع به بأن هذا القرآن هداية من لدنه تعالى لذلك وصف الله المتقين الذين يهتدون بالقرآن بقوله : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ والايان بالغيب هو الاعتقاد بوجود وراء المحسوس . وقد كتب الأستاذ الامام فى صاحبه مائنه :

[وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد وقائم على أول النهج ، لا يحتاج إلا الى من يده له على المسلك ، ويأخذ بيده إلى الغاية . فإن من يعتق بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل ، وإن كانت لا يأتى عليها الحس ، إذا أثبت له الدلائل على وجود فاطر السموات والأرض المستعلى عن المادة ولواحقها ، المتصف بما وصف به نفسه على السنة رسله ، سهل عليه التصديق وخف عليه النظر فى جلى المقدمات وخفيها ، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر أو بذكر عالم من العوالم التى استأثر الله بعلمها ، كعالم الملائكة مثلاً . يشق على نفسه تصديق ما جاء به الخبر بعد ثبوت النبوة . لهذا جعل الله سبحانه هذا الوصف فى مقدمة أوصاف المتقين الذين يهتدون فى القرآن هدى لهم .

[وأما من لا يعرف من الموجود إلا المحسوس ويظن أن لاشئ وراء المحسوسات وما اشتملت عليه ، فنفسه تنفر من ذكر ما وراء مشهوده أو ما يشبه مشهوده ،

وقلما نجد السبيل إلى قلبه إذا بدأته بدعواك ، نعم قد توصلك المجاهدة بعد مرور الزمان في إيراد المقدمات البعيدة ، والأخذ به في الطرق المختلفة ، إلى تربيته مما تطلب ، ولكن هيهات أن ينصرك الصبر ، أو يخضعه القهر ، حتى يتم لك منه الأمر ، فمثل هذا إذا عرض عليه القرآن نبا عنه سمعه ، ولم يحمل من نفسه وقعه فكيف يجد فيه هداية ، أو منقذاً من غواية ؟

[ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدي الذي لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر في الأفعال ، لأنه لم يقع تحت نظر العقل ، ولم يلحظه وجدان القلب ، بل أغلقت عليه خزنة الوهم ، ومثل هذا الذي يسمونه إيماناً لا يفيد في إعداد القلب للاهتمام بالقرآن - لما كان هذا شأنهم من الله علينا ببيان يشعُر بحقيقة ما أراده تعالى من معنى الإيمان] فذكر علامات المؤمنين بالغيب الذين ينتفعون بهداية القرآن بالجل الآتية ، قال ، ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ الخ . الصلاة إظهار الحاجة والافتقار إلى المعبود بالقول أو العمل أو كليهما ، وهو المراد بقولهم « الصلاة معناها الدعاء » لأن إظهار الحاجة إلى العظيم الكريم ولو بالفعل فقط التماس للحاجة واستدراة للنعمة ، أو طلب لدفع النقمة ، رأيتم أولئك الذين يقفون بين أيدي الملوك ناكس رؤسهم حاني ظهورهم ، وتارة يقعون على أقدامهم يقبلونها ، أليس الباعث على هذا العمل إما خوف من عقوبة يطلبون به دفعها ، وإما حذر على نعمة يتوقون سلبها ورفعها ، فيلتمسون بقاءها ، ويرجون زيادتها ونماءها ؟

هذه الصلاة كانت توجد عند بعض الجاهليين وهم الذين كانوا يعرفون بالحنيفيين والحنفاء ، وعند بعض أهل الكتاب . وكتب الأستاذ في وصفها ما نصه : [والصلاة بالمعنى الذي ذكرناه قد ظهر في الإسلام في أفضل أشكاله ، وهو

تلك الصلاة التي فرضها الله على المسلمين ، فإن هذه الأقوال والأفعال المفتحة بالتكبير والختمة بالتسليم على النحو الذي جاءت به السنة المتواترة من أفضل ما يعبر به عن الاحساس بالحاجة إلى المعبود ، وشعور النفس بعظمته لو أقامها المصلون وأنوا بها على وجهها] ولذلك قال (ويقيمون الصلاة) ولم يقل يصلون

وفرق بينهما ، فإن الصلاة متى حددت بكيفية مخصوصة يقال لمن يؤديها بتلك الكيفية: إنه صلى ، وإن كان عمله هذا خلواً من معنى الصلاة وقوامها المقصود من الهيئته الظاهرة ، فاحتسب إلى لفظ يدل على هذا المعنى الذى به قوام الصلاة ، وهو ما عبر عنه القرآن بلفظ الإقامة . وقد قالوا إن إقامة الصلاة عبارة عن الإتيان بجميع حقوقها من كمال الطهارة ، واستيفاء الأركان والسنن . وهو لا يعدو وصف الصورة الظاهرة ، وإنما قوام الصلاة الذى يحصل بالإقامة : هو التوجه إلى الله تعالى والخشوع الحقيقي له ، والإحساس بالحاجة إليه تعالى .

وكتب شيخنا عند تفسير الصلاة هنا بما تقدم أخذاً عنه مانصه :

[فإذا خلت ضرورة الصلاة من هذا المعنى لم يصدق على المصلى أنه أقام الصلاة فإنه قد هدمها بإخلائها من عمادها ، وقتلها بسلبها روحها ، ومن غريب مزاعم من يسمون أنفسهم بالمسلمين : أن حضور القلب فى جميع أجزاء الصلاة واستشعار الخشية من أصعب ما تتجشمة النفس ، بل يكاد يكون مستحيلاً لغلبة الخواطر على ذهن المصلى . هذا وأخشى أن يكون هذا جحوداً لمعنى الصلاة ، وإنما عرض لهم هذا ألهم الباطل من شدة الغفلة ، واستحكام العلة ، وإنى أدلهم على طريقة لو أخذوا بها لشغلوا بمعنى الصلاة حتى عن الصلاة نفسها ، تلك الطريقة : هى أن لا ينطق المصلى بلفظ إلا وهو يستورد معناه على ذهنه ، فإذا قال (الحمد لله رب العالمين) يستحضر معنى الحمد وإضافته إلى ذات الله تعالى ، مع وصفه بالربوبية لجميع الأكوان العلوية والسفلية ، وإذا قال مثل (مالك يوم الدين) تصور معنى الملك وتعلقه بذلك اليوم يوم الجزاء ، وهكذا — فإذا أخذ المصلى على نفسه أن يتصور المعانى من ألفاظها التى ينطق بها فقد أقام الصلاة ، أما وهو ينطق ولا يفقه ولا يلاحظ بذهنه معنى لفظ ما يقول ، فكيف يزعم أنه يصلى ، فضلاً عن أنه يقيم الصلاة ؟]

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أقول: الرزق فى اللغة النصيب والعطاء ويطلق على الحسى والمعنوى ، كالمال والولد والعلم والتقوى . ويخص بأمور المعاش بقريضة حالية أو لفظية ، وقال علماء أهل السنة : الرزق ما انتفع به ، حلالاً كان أو حراماً ، وخصه « تفسير القرآن الحكيم »

المعتزلة بالحلال . ونفاق الشيء كنفاده . وأنفقه جعله ينفق بصرفه وإخراجه من يده . وقال الجمهور : إن الانفاق هنا يشمل النفقة الواجبة على الأهل والولد وذى القربى وصدقه التطوع ، إذ الآية نزلت قبل فرض الزكاة المعينة . وقوله تعالى (ومما رزقناهم) يدل على أن النفقة المشروعة تكون بعض ما يملك الإنسان لا كل ما يملك — فهو ركن من أركان الاقتصاد . والانفاق في سبيل الله أظهر آيات الايمان الصحيح . وقال شيخنا شارحاً ذلك على طريقته بما مثاله :

هذا الوصف من أقوى أمارات الايمان بالغيب ، لأن كثيراً من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم ، ومتى عرض لهم ما يقتضى بذل شيء من المال لله تعالى بمسكون ولا تسمح أنفسهم بالبذل ، وليس المراد بالانفاق هنا ما يكون على الأهل والولد ، ولا ما يسمونه بالجود والكرم ، كقرى الضيوف ابتغاء عوض كالشهرة والجاه ، أو الأناش بالاصحاب ، لأن هذا ليس من آثار الايمان بالغيب ، وإنما هو الإنفاق الناشئ عن شعور بأن الله تعالى هو الذى رزقه وأنعم عليه به ، وأن الفقير المحروم عبد لله مثله ، وأنه حرم من سعة العيش لضعف أو حرمان من الاسباب التى توصل إلى الرزق [أو عن إحساس بأن مصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافعهم العامة لا تقوم أو لا تصل إليهم الا ببذل المال ، وقد أوجب الله علم من أوتي المال أن ينفق منه فى ذلك السبيل وهو أفضل سبل الله] فمن يجد من نفسه داعية لبذل أحب الأشياء إليه - وهو ماله - ابتغاء مرضاة الله تعالى وقياماً بشكره ، ورحمة لأهل العوز والباأسين من خلقه ، فهو لاشك مستعد لقبول هداية القرآن أتم الاستعداد ، حتى إذا ما دعى إليه لى وأجاب ، وأسلم إلى الله تعالى وأتاب .

فهذا بيان حال الفرقة الأولى ممن يهتدى بالقرآن فعلاً ويشملها العظ المتقين بالمعنى السابق ، وكان منهم بعض العرب الخنفاء ، و بعض أهل الكتاب الصالحاء كما سبق بيانه . والمراد من كون القرآن هدى لهذه الفرقة أنها مستعدة لقبوله ، ومهيئة للاسترشاد به ، لأن الايمان الاجمالى بالله وبحياة أخرى بعد هذه الحياة يوفى الناس فيها أجورهم بحسب أعمالهم الدنية والنفسية ، واتقاء ما يحول دون

السعادة في هذه الحياة بحسب الاجتهاد الناقص والتعليم الذي لم يقتنع به العقل . ولم تسكن إليه النفس ، قد هياهم لقبول القرآن وأن يقتبسوا من نوره ما يذهب بظلمات الجهل والحيرة ، ويمنح الأرواح ما تتشوف إليه بمقتضى الفطرة .
و بعد أن بين حال هذه الفرقة التي يكون الكتاب هدى لها [يخرجها من ظلمات الشك إلى نور اليقين ، وينكب بها عن مهاب رياح الفكر إلى مستقر السكينة . ومستكن الطمانينة ، بما تتعرفه النفس من جانب القدس -] عطف عليها بيان حال الفرقة التي اهتدت به فعلا ، وصار إماما لها تتبعه في جميع أعمالها ، دون أن تغض عينها عنه . بعد أن أضاء لها ما أضاء منه ، فقال عز من قائل .

(٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .

أقول: روى عن ابن عباس (رض) أن المراد بالمؤمنين هنا من يؤمن بالنبي والقرآن من أهل الكتاب ، وبالمؤمنين فيما قبلها من يؤمن من مشركي العرب . واختاره ابن جرير وآخرون . وعن مجاهد وأبي العالية والربيع بن أنس وقتادة أن المؤمنين في الآيتين قسم واحد، وهو كل مؤمن وإنما تعدد ما يؤمنون به . فالعطف فيهما عطف الصفات لا عطف الموصوفين . ونم قول ثالث شاذ، وهو أن الآيتين في مؤمنى أهل الكتاب . وقد بينا قول شيخنا وسيأتى شرحه . والمراد على كل رأى من قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الإيمان التفصيلي بكل ما أنزله الله تعالى في القرآن . وأما قوله ﴿ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فيكفي فيه الإيمان الإجمالي . وقال شيخنا ما مثاله :

هذه هي الطبقة الثانية من المتقين وأعيد لفظ (الذين) لتحقيق التمايز بين الطبقتين . وهذه الطبقة أرق من الطبقة الأولى، لأن أوصافها تقتضى الأوصاف التي أجريت على تلك وزيادة ، فالقرآن يكون هدى لها بالأولى ، ومعنى كونه هدى لها : أنه يكون إماما في أعمالها وأحوالها ، لا نعيم عن النهج الذي نهجه لها ، كما ذكرنا .

ما كل من أظهر الإيمان بما ذكر مهتد بالقرآن . فالؤمنون بالقرآن على ضروب شتى ، ونرى بيننا كثيرين ممن إذا سئل عن القرآن قال : هو كلام الله ولا شك ولكن إذا عرضت أعماله وأحواله على القرآن تراها مباينة له كل المباينة . القرآن ينهى عن الغيبة والنميمة والكذب ، وهو يغتاب ويسعى بالنميمة ولا يتسائم من الكذب . القرآن يأمر بالفكر والتدبر ، وهو كما وصف القرآن المكذبين بقوله تعالى فيهم : (٥١ : ١١ الذين هم في غمرة ساهون) لا يفكر في أمر آخرته ، ولا في مستقبله ولا مستقبل أمته ، ولا يتدبر الآيات والنذر ، ولا الحوادث والعبر .

إن المؤمن الموقن المذكور في الآية السكرية هو الذى يزين أعماله وأخلاقه باستكمال ما هدى إليه من القرآن دائماً ، ويجعله معياراً يعرض عليه تلك الأعمال والأخلاق ، ليتبين : هل هو مهتد به أم لا ؟ مثال ذلك : الصلاة . يصفها القرآن بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقال فى المصلين (٧٠ : ٢٩ - ٢٢) إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جرحاً * وإذا مسه الخير منوعاً * (إلا المصلين)

فبين أن الصلاة تقطع الصفات الذميمة الراسخة التى تسكد تكون فطرية . فمن لم تنه صلواته عن الفحشاء والمنكر ، ولم تقطع من نفسه جذور الجبن والهلوع . وتصطلم جرائم البخل والطمع ، فليعلم أنه ليس مصلياً فى عرف القرآن ، ولا مستحقاً لما وعد عباده الرحمن .

أما لفظ «الإنزال» فالمراد به ماورد من جانب الربوبية الرفيع الأعلى ، وأوحى إلى العباد من الإرشاد الإلهى الأسمى ، وسعى إنزالاً لما فى جانب الألوهية من ذلك العلو . علو الرب على المربوب ، والخالق على المخلوقين ، الذين لا يخرجون بالتكريم والاصطفاء عن كونهم عبيدا خاضعين . وقد سعى القرآن غير الوحي من إهداء النعم الإلهية إنزالاً فقال (٥٧ : ٢٥) وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) فنكتفى بهذا من معنى الإنزال ، وهو ما يفهمه كل عربى ، من حاضر وبدوى .

وأقول الآن : إننى كنت اكتفيت بهذا القدر فى تفسير الإنزال ، تحامياً لما فى المسألة من خلاف وجدال ، ولكننى عدت فى التفسير إلى فصل المقال فى مسائل النزاع ، فأريد عليه أن إنزال الحديد فيه أقوال أخرى للسلف والخلف ، كقوله تعالى

(٦:٣٩) وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) أوضحها أن المراد إنزال الأحكام المتعلقة بها . وقيل : إن الحديد نزل من الجنة مع آدم . ومن المعلوم أن الانزال في أصل اللغة وهو نقل الشيء من مكان على إلى مادونه ، ويطلق العلو مجازاً في الأمور المعنوية ، فهو علو مكان وعلو مكانة . ومن الثاني (٨٣.١٠ وإن فرعون لعال في الأرض)

والتحقيق أن علو المكان الحسى أمر نسبي يختلف باختلاف موقع الناس من الأشياء ، والجهات كلها أمور نسبية لاحقيقية ، وأن الله سبحانه وتعالى فوق جميع خلقه بأشئ منهم ، بلا تشبيه ولا تمثيل ، لا متصل بشيء ولا حال فيه ، مستوعب عرشه بالمعنى الذى أراده ، وهذا وجه تسمية ما يأتى من لدنه إنزالاً ، فملك الوحى كان يتلقى الوحى منه عز وجل وينزل به من السماء إلى الأرض فيتلقاه منه النبي ﷺ ولا نعلم صفة تلقى الملك عن الله تعالى لأنه من الغيب الذى يؤمن به مجمل كما بلغناه ، ولا صفة تلقى النبي ﷺ من جبريل لأنه من شأن النبوة ولسنا بأنبياء ، وهو من الصلة بين عالم الغيب والشهادة . ولكن الله وصف لنا تكليمه للبشر بقوله (٥١:٤٢) وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بأذنه ما يشاء) الآية - وقوله (٢٦ : ١٩٣ نزل به الروح الأمين ١٩٤ على قلبك لتكون من المنذرين ١٩٥ بلسان عربى مبين) ووصفه لنا رسوله (ص) فى جوابه لمن سألته عنه ، وهو الحارث بن هاشم الخزومى فقال « أحيانا يأتينى مثل صالصة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت ما قال . وأحيانا يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعنى ما يقول » رواه الشيخان من حديث عائشة (رض) ثم قال تعالى :

﴿ وبالأخرة هم يوقنون ﴾ أما لفظ (الأخرة) فقد ورد فى القرآن كثيراً والمراد به الحياة الآخرة أو الدار الآخرة حيث الجزاء على الأعمال ، ويتضمن كل ماوردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء على الأعمال ، ويتضمن كل ماوردت به النصوص القطعية من الحساب والجزاء بالجنة والنار

وأما اليقين فهو الاعتقاد المطابق للواقع الذى لا يقبل الشك ولا الزوال ، فهو اعتقادان - اعتقاد أن الشيء كذا ، واعتقاد أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا - وأقول الآن : هذا مقاله شيخنا فى الدرس ، وهو عرف علماء المعقول من المنطقيين والمتكلمين وقد جاريناه عليه فى مواضع ، وأما اليقين فى اللغة فهو

الاعتقاد الجازم في غير الحسيات والضروريات كما صرحوا به ، فالجزم بخبر الصادق والاعتقاد المبني على الأدلة والامارات يسمى يقيناً إذا كان ثابتاً لا شك فيه . وفي لسان العرب : أن اليقين العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر ، وهو نقيض الشك ، والعلم نقيض الجهل . فالإيمان الشرعي يشترط فيه اليقين اللغوي فقط وهو التصديق الجازم الذي لا شك فيه ولا تردد ، ولا ملاحظة طرف راجح على طرف مرجوح فان هذا هو الظن . واليقين المنطقي أكمل . وهو ما نبني عليه شيخنا ما يأتي مبسوطاً لاملخصاً ، قال مامعناه :

[وصفهم بأنهم موقنون بالآخرة لأنهم مؤمنون بالقرآن ، ولم يصف بهذا الوصف الطائفة الأولى لأنها وإن كانت تؤمن بالغيب وتتوجه إلى الله تعالى بالصلاة المخصوصة بها وتنطق بمارزقها الله ، فذلك لا ينافي أنها في حيرة من أمر البعث والجزاء ، وكذلك كانت قبل الإيمان بالقرآن . وكان من هداية القرآن لها : أن خرج بها من غمرات تلك الحيرة

لا يعتمد بما دون اليقين في الإيمان . وقد قال الله تعالى في اعتقاد قوم (٥٣ : ٢٨) وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً) وإذا لم يكن الظان موقناً وعلى نور من ربه في اعتقاده ، فما حال من هو دونه من الساكنين والمترابين ؟ ويعرف اليقين في الإيمان بالله واليوم الآخر بآثاره في الاعمال .

إننا نرى الرجل يأتي إلى المحكمة بدعوى زور يريد أن يأكل بها حق أخيه بالباطل أو يجامل آخر بشهادة زور ، أو ينتقم بها من ثالث ، وهو يعلم أنه مزور ومبطل ، فيقال له : اتق الله أن أمامك يوماً (بعض الظالم فيه على يديه) فيقول أعود بالله أنا أعلم أن أمامي يوماً ، وأن أمامي شبراً من الأرض - يعني القبر - والدنيا لا تمنني عن الآخرة . ويحلف اليمين الغموس باسم الله تعالى أنه محق في دعواه أو في شهادته ، ثم يظهر التحقيق أنه مزور ، ويضطره إلى الاعتراف والاقرار بذلك ، فكان الإيمان بالله واليوم الآخر عنده خيال يلوح في ذهنه عند ما يريد الخلافة والخداع لأجل أكل الحقوق أو إرضاء الهوى ، ولا يظهر له أثر في أعماله وأحواله كأثر الاعتقاد

ببعض المشايخ الميتين ، كما بينا ذلك من قبل]

[فَيُثَلِّ هذا الإيمان - وإن تعارف الناس على تسميته تلك - ليس من الإيمان الذي يقوم على ذلك المعنى من الايقان ، ويظهر أثره في الجوارح والأركان]
 ثم قال بعد كلام في آثار اليقين : اليقين إيمانك بالشئ ، والاحساس به من طريق وجدانك كأنك تراه [بأن يكون قد بلغ بك العلم به أن صار مالكاً لنفسك مصراً لها في أعمالها ، ولا يكون العلم محققاً للإيمان على هذا الوجه حتى تكون قد أصبته من إحدى طريقتين (الأولى) النظر الصحيح فيما يحتاج فيه إلى النظر كالإيقان بوجود الله ورسالة الرسل ، وذلك بتخليص المقدمات ، والوصول بها إلى حد الضروريات ، فأنت بعد الوصول إلى ما وصلت إليه كأنك تراه ما استقر رأيك عليه (والطريق الأخرى) خبر الصادق المعصوم بعد أن قامت الدلائل على صدقه وعصمته عندك ، ولا يكون الخبر طريقاً لليقين حتى تكون سمعت الخبر من نفس المعصوم عليه السلام أو جاءك عنه من طريق لا تختمل الريب ، وهى طريق التواترون سواها ، فلا ينبوع لليقين بعد طول الزمن بيننا وبين النبوة إلا سبيل المتواترات التي لم يختلف أحد في وقوعها ، فالإيقان بالمغيبات كالآخرة وأحوالها والملا الأعلى وأوصافه ، وصفات الله التي لا يهتدى إليها النظر^(١) لا يمكن تحصيله إلا من الكتاب العزيز ، وهو الحق الذي جاءنا من الله لا ريب فيه ؛ فعملينا أن نقف عند ما أنبأ به من غير خلط ولا زيادة ولا قياس .

وأكد الإيقان بالآخرة بقوله (هم) اهتماماً بشأنه وليبين أن الإيقان بالآخرة خاصة من خواص الذين آمنوا بالقرآن وبما أنزل قبله من الكتب لا يشركون فيه سواهم . وقد علمت أنه لا بد أن يكون الموقن به من أحوال الآخرة قطعياً . فهذه الإضافات التي أضافوها على أخبار الغيب وخلقوا لها الأحاديث بل أضافوا إليها أيضاً أقوال أهل الكتاب وأشياء أخرى نسبوها إلى الساف ، وبعض

(١) يعنى أن صفات الربوبية منها ما يعرف بالنظر والاستدلال كعلمه تعالى وقدرته ومشيئته وحكمته ووحدته . ومنها ما لا يعرف به بل يتوقف على الوحي وخبر المعصوم عنه ، ومنها ما جعله المتكلمون من التشابهات كالرضى والغضب والوجه واليد . وسأأتى بيانه في محله . وراجع تفسير التشابهات في تفسير أوائل سورة آل عمران

غرائب جاءت على لسان المنتسبين للتصوف لاتدخل فيما يتعلق به اليقين ، بل الجهل بالكثير منها خير من العلم به ، فإنما الوصف الذى يمتاز به أهل القرآن هو اليقين ، ولا يكون اليقين إلا حيث يكون القطع . وأما الظن فهو وصف من عابهم القرآن وأزرى بهم ، فلا علاقة له بأحوالهم ^(١)

(٤) أَوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

ههنا إشارتان والمشار إليه عند الجمهور واحد وهو مافى الآيتين السابقتين من المؤمنين من غير أهل الكتاب والمؤمنين منهم ، وكرر الإشارة للاعلام بأنه لا بد من تحقق الوصفين لتحقيق الحكم بأنهم على هدى وأنهم هم المفلحون . كذا قال بعضهم وهو تكلف ظاهر ، وكذا قولهم : إن تنكير هدى هنا للتعظيم . وشيخنا قد جعل الإشارتين لنوعى المؤمنين المذكورين فى الآية السابقة بأسلوب ألف والنشر المرتب قال إن الإشارة الأولى (أولئك على هدى من ربهم) فى هذه الآية للفرقة الأولى وهم الذين ينتظرون الحق لأنهم على شئ منه — كما يدل عليه تنكير «هدى» الدال على النوع — وينتظرون بياناً من الله تعالى ليأخذوا به ، ولذلك تقبلوه عند ما جاءهم . فقد أشعر الله قلوبهم الهداية ، بما آمنوا به من الغيب ، وأقاموا الصلاة بالمعنى الذى سبق ، وأنفقوا مما رزقهم الله ، وأما الفرقة الثانية وهم المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ فعلى هدى تشرك فيه تلك الفرقة الأولى ، لكن على وجه أكل ، لأنها مؤمنة بالقرآن وعاملة به . وقوله «على هدى» تعبير يفيد التمكن من الشئ . كتمكن المستقر عليه ، كقولهم «ركب هوا» ولقد كان أفراد تلك الفرقة (أى الأولى) على بصيرة وتمكن من نوع الهدى الذى كانوا عليه ، فإن كان هذا غير كاف لإسعادهم وفلاحهم ، فهو كاف لإعدادهم وتأهيلهم لها بالإيمان التفصيلى المنزل ، ولذلك قبلوه عند ما بلغتهم دعوته .

وإلى الفرقة الثانية وقعت الإشارة الثانية ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ كما هو ظاهر ، وهم المفلحون بالفعل لاتصاقهم بالإيمان الكامل بالقرآن وبما تقدمه من

(١) بين القطع والظن المنطقيين يقين هو اليقين اللغوى كما تقدم .

السكنب السماوية واليقين بالآخرة - لا مطلق الايمان بالغيب إجمالاً ، ويرشد إلى التباين بين مرجع الاشارتين ترك ضمير الفصل « هم » في الأولى وذكره في الثانية . ولو كان المشار إليه واحداً لذكر الفصل في الأولى ، لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام ، فهو خاص بهم دون سواهم ، لكنه اكتفى عن التنصيص على تمكنهم من الهدى بمحصر الفلاح فيهم . ومادة الفلاح تفيد في الأصل معنى الشق والقطع ، ومثلها مادة الفلج بالجم والفلق بالخاء والفلق والفلم والفلق ، والفلق والفلم . ويطلق الفلاح والفلق على الفوز بالمطلوب ، ولكن لا يقال أفلح الرجل إذا فاز برغوه به عفواً من غير تعب ولا معاناة ، بل لابد في تحقيق المعنى اللغوي لهذه المادة من السعي إلى الرغبة والاجتهاد لا درا كها ، فهو لا ما كانوا مفلحين إلا بالايمان بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله . واتباع هذا الايمان بامتثال الأوامر واجتناب النواهي التي نيط بها الوعد والوعيد فيما أنزل إليه ﷺ مع اليقين بالجزاء على جميع ذلك في الآخرة ، ويدخل في هذا كله ترك السكذب والزور وتركية النفس من سائر الرذائل كالشره والطمع والجبن والهمع والبخل والجور والقسوة وما ينشأ عن هذه الصفات من الأفعال الذميمة ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، والانقياس في ضروب اللذات . كما يدخل فيه الفضائل التي هي أضداد هذه الرذائل المتروكة وجميع ماصحاح القرآن عملاً صالحاً من العبادات وحسن المعاملة مع الناس | والسعي في توفير منافعهم العامة والخاصة مع التزام العدل والوقوف عند ما حذره الشرع القويم ، والاستقامة على صراطه المستقيم [وجملة القول : أن الايمان بما أنزل إلى النبي ﷺ هو الايمان بالدين الإسلامي جملة وتفصيلاً ، فما علم من ذلك بالضرورة ولم يخالف فيه مخالف يعتد به ، فلا يسم أحدًا جهله ، فالإيمان به إيمان ، والاسلام لله به إسلام ، وإنكاره خروج من الاسلام ، وهو الذي يجب أن يكون معقد الارتباط الإسلامي وواسطة الوحدة الإسلامية ، وما كان دون ذلك في الثبوت ودرجة العلم فهو كقول إلى اجتهاد المجتهدين ، ولا يصح أن يكون شيء من ذلك مثار اختلاف في الدين زاد الأستاذ هنا بخطه عند قولنا : اجتهاد المجتهدين مانصه :

[أ] أو ذوق العارفين أو ثقة الناقلين بمن نقلوا عنه ليكون معتمد في معتقدهم فيما يعتقدون بعد التحري والتحصيل. وليس لهؤلاء أن يلزموا غيرهم ما ثبت عندهم، فإن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به لا يمكن لغيره أن يشعر بها حتى يكون له مع المنقول عنه في الحال مثل الملائق معه، فلا بد أن يكون عارفاً بأحواله وأخلاقه ودخائل نفسه، ونحو ذلك ما يطول شرحه، ويحصل الثقة للنفس بما يقول القائل [وأقول: معنى هذا أن بعض أحاديث الأحاد تكون حجة على من ثبتت عنده واطمأن قلبه بها، ولا تكون حجة على غيره يلزم العمل بها، ولذلك لم يكن الصحابة رضي الله عنهم يكتبون جميع ما سمعوا من الأحاديث، ويدعون إليها مع دعوتهم إلى اتباع القرآن والعمل به وبالسنة العملية المتبعة المبينة له إلا قليلاً من بيان السنة، كصحيفة على رضي الله عنه المشتملة على بعض الأحكام كالدية وفكك الأسير وتحريم المدينة كمكة. ولم يرض الإمام مالك من الخلفيتين المنصور والرشد أن يحملوا الناس على العمل بكتبه حتى الموطأ. وإنما يجب العمل بأحاديث الأحاد على من وثق بها رواية ودلالة. وعلى من وثق برواية أحد وفهمه الشيء منها أن يأخذه عنه، ولكن لا يجعل ذلك تشريعاً عاماً. وأما ذوق العارفين، فلا يدخل شيء منه في الدين، ولا يعد حجة شرعية بالإجماع، إلا ما كان من استفتاء القلب في الشبهات، والاحتياط في تعارض البينات.

(٦) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

قال الأستاذ: كان الذي تقدم بياناً من الله تعالى لصنفين من الناس لهم في القرآن هداية ولنفسهم إلى الاهتداء به انبعاث (الأول من الصنفين) أولئك الذين يبلغهم لأول مرة، وهم من يخشى الله ويهاب سلطانه، وفي أصول اعتقادهم الإيمان بما وراء الحس على ما تقدم (والثاني) أولئك الذين آمنوا بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله

[وهذا الصنف قد يجتمع مع الذي قبله فيمن كانوا متقين مؤمنين بالغيب ، ثم آمنوا بالنبي وبما جاء به ، وقد يفترق الصنفان فيمن بقي إلى اليوم لم تبلفه الدعوة ، وهو على تلك الأوصاف ، ومن ولد من آباء مؤمنين ثم صدق إيمانه بعد أن أبلغ رشده وملك عقله]

أما هاتان الآيتان فقد بينتا حال طائفة ثالثة من الناس ، وهم الكافرون ، ثم يبين قوله تعالى (ومن الناس من يقول) الخ حال طائفة أخرى أخص منها وهم المنافقون ، الذين يظهر من أقوالهم وفي بعض أفعالهم أنهم مؤمنون ، ولكنهم في حقيقة أمرهم كافرون ، بل شر من الكافرين [فهذه أقسام أربعة ينقسم إليها الناس إذا بلغهم القرآن ونظروا فيه ، ودعوا إلى الإيمان والاخذ بهديه]

بين الله تعالى لنبيه أنه إذا كان يوجد في الناس من لا يؤمن بالقرآن فليس هذا عيباً وتقصيراً في هداية الكتاب ، وإنما العيب فيهم لافي الكتاب ، لأنه هداية كسائر الهدايات الطبيعية التي أعرض الناس وعموا عنها [كهداية العقل والسمع والبصر ونحوها مما أكرم الله به هذا النوع البشري ، وقد يحكم الرجل بأن في العمل مضرة تلحق به ، ومع ذلك يعدل عن حكمه انتهازاً للذة [زينها له حسه أو وهمه ، ويأتي ذلك العمل على ما يعلم من سوء مغيبته ، فاحتقار الرجل لعقل نفسه لا يعد عيباً في تلك الموهبة الالهية ، ولا يحط من شأن النعمة فيها . أنظر إلى رجل يغمض عينيه ويمشي في طريق لا يعرفها فيسقط في حفرة وتتحطم عظامه ، هل ينقص ذلك من قدر بصره ، ويبخس من حق الله في الاحسان به ، على هذا الذي لم يرد أن يستعمله فيما خلق له] ففي الكلام تسليية لأهل الحق ، وسيدهم هو النبي ﷺ ، فهو تسليية له أولاً وبالاولى

قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أقول : هذا بيان لحال القسم الثاني من أقسام الناس تجاه هداية القرآن ، وقد قطعه وفصله مما قبله ، فلم يعطفه عليه للإشارة إلى ما بينهما من طول شقة الانفصال وعدم المشاركة في شيء ما ، بخلاف القسم الثالث الآتي ، فإن لهم حظاً منه في الدنيا ولهم يتوب منهم حظ في الآخرة أيضاً .
والكفر في اللغة : ستر الشيء وتغطيته وإخفاؤه ، ولذلك وصف به الليل والبحر

والزراع في قوله تعالى (٢٠: ٥٧) كمثل غيث أعجب الكفار نباته) لأنهم يغطون الحب بالتراب - وفعله من باب نصر - وقال الفارابي وتبعه الجوهري من باب ضرب وهو خطأ كما في المصباح - ومن الجاز: كفر النعمة بعد شكرها وذكرها تنويهاً بها ، وكذا الكفر بالله أو بوحدايته وصفاته ، أو كتمه ورسله وما جاء به عن الله تعالى ، أى إنكاره وعدم التصديق به والاذعان له ولا سيما الشرك في عبادته - كل ذلك من ضروب الستر والتغطية السلبية في الأمور المعنوية ، فهو مجازفة - وحقيقة شرعية في معناه الشرعى المشار إليه آنفاً . والمراد بالذين كفروا هنا من علم الله تعالى أن الكفر رسخ في قلوبهم حتى فقدوا الاستعداد للإيمان . وقال شيخنا : الكفر هنا عبارة عن جحود ما صرح الكتاب المنزل أنه من عند الله أو جحود الكتاب نفسه ، أو النبي الذى جاء به ، وبالجملة ما علم من الدين بالضرورة [بعد ما بلغت الجاحد رسالة النبي (ص) بلافاً صحيحاً ، وعرضت عليه الأدلة على صحتها لينظر فيها فأعرض عن شيء من ذلك وجحد عناداً أو تساهلاً واستهزاءً ، نعى بذلك أنه لم يستمر في النظر حتى يؤمن] ولم نسمع أن أحداً من الصحابة رضى الله تعالى عنهم كفر أحداً بما وراء هذا . فما عداه من الأفاعيل والأقويل المخالفة لبعض ما أسند إلى الدين ولم يصل العلم بأنه منه إلى حد الضرورة - أى لم يكن سنده قطعياً كسند الكتاب - فلا يعد منكراً كافراً إلا إذا قصد بالإنكار تكذيب النبي ﷺ متى كان للمنكر سند من الدين يستند إليه فلا يكفر [وإن ضعفت شبهة في الاستناد إليه مادام صادق النية فيما يعتقد ، ولم يستن بشيء مما ثبت بالقطع وروده عن المعصوم ﷺ]

وقد تجرأ بعض المتأخرين على تكفير من يتناول بعض الظنيات ، أو يخالف شيئاً مما سبق الاجتهاد فيه ، أو ينكر بعض المسائل الخلافية ، فخرأوا الناس على هذا الأمر العظيم ، حتى صاروا يكفرون من يخالفهم في بعض العادات ، وإن كانت من البدع المحظورات [ثم هم على عقائد الكافرين ، وأخلاق المنافقين ، ويعملون أعمال المشركين ، ويصفون أنفسهم بالمؤمنين الصادقين]

الكافرون أقسام : (منهم) من يعرف الحق وينكره عناداً ، وهؤلاء هم الأقلون

(البقرة س : ٢) الكفار الذين غلبتهم هموم الشهوات والأوهام على الحق ١٤١

ولا ثبات لهم ولا قوام ، وكان منهم في زمن النبي ﷺ جماعة من المشركين واليهود ولم يلبثوا أن انقرضوا

قال الأستاذ : كنت قلت في هذا المعنى كلمة جديدة بأن تحفظ وهي « إن وجود الحق مع العلم به كاليقين في العلم ^(١) كلاهما قليل في الناس »

(ومنها) من لا يعرف الحق ولا يريد ولا يحب أن يعرفه وهم الذي قال الله تعالى فيهم (٨: ٢٢، ٢٣) إن شر الذواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لا سمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون (فهؤلاء كلما صاح بهم صائح الحق فرغوا ونفروا ، وأعرضوا واستكبروا ، ففي أنفسهم شعور بالحق ولكنهم يجدون فيها زلزلة ، كلما لاح لهم شعاعه يحجبونه عن أعينهم بأيديهم ، وسبب ذلك : أنهم لم يستعملوا أنظارهم في فهم الحق ، ويخافون لو استعملوها أن ينقصهم شيء مما يظنونه خيراً ، ويتوهونه معقوداً بعقائدهم التي وجدوا عليها آباءهم وساداتهم

[ومنها : من مرضت نفسه واعتل وجدانه ، فلا يذوق للحق لذة ، ولا يجد نفسه فيه رغبة ، بل انصرف عنه إلى هموم آخر ملكت قلبه وأسرت فؤاده ، كاهموم التي غلبت أغلب الناس اليوم على دينهم وعقولهم ، وهي ما استغرقت كل ما توفر لديهم من عقل وإدراك ، واستنفدت كل ما يملكون من حول وقوة ، في سبيل كسب مال أو توفير لذة جسمانية ، أو قضاء شهوة وهمية ، فعسى عليهم كل سبيل سوى سبيل ما استهلكوا فيه ، فاذا عرض عليهم حق أو ناداهم إليه مناد ، رأيتهم لا يفهمون ما يقول الداعي ، ولا يميزون بين ما يدعو إليه ، وبين ما هم عليه ، فيكون حظ الحق منهم الاستهزاء والاستهانة بأمره ، فاذا وعدهم أو أوعدهم النذير ، قالوا لا نصدق ولا نكذب ، حتى تنتهي إلى ذلك المصير ، وهذا القسم كالذي قبله كثير العدد في الناس في كل زمان ومكان ، خصوصاً في الأمم التي يفشو فيها الجهل ، وتنطمس من أفرادها أعين الفطرة ، وتنضب من أنفسهم ينابيع الفضائل ، فيصبحون كالبهائم السائمة ، لا هم لهم إلا فيما يملأ بطونهم ، أو يداعب أوهامهم ،

(١) يعنى اليقين المتطابق الذي ينتهي العلم به إلى حد الضرورة ، كالتقدم واشتراطه في الإيمان الشرعى يقتضى قلة المؤمنين في كل زمان .

ويصح جمع هذين القسمين تحت قسم واحد وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين ، والقسم الأول هو قسم المعاندين المنكابين [

فكل من هذه الفرق ﴿سواء عليهم﴾ أنذرتهم^(١) أم لم تنذرهم﴾. الانذار الاخبار والاعلام بالشيء المقترب بالتخويف مما يقترب عليه من فعل يتضمن ذمه وطلب تركه أو ترك الأمر يتضمن مدحه وطلب فعله، نصاً أو اقتضاء ، والسواء اسم مصدر بمعنى الاستواء . والمعنى : أن الذين كفروا ولم يدخلوا في قسم المستعدين للإيمان فرسوخهم في الكفر ، يستوى الانذار وعدمه بالنسبة إليهم في الواقع ، فالذي يعرض عن النور مع العلم به ويغض عيفيه كيلا يراه بغضاً له لذاته أو تأذياً به ، أو عناداً وعدواة لمن دعاه إليه - ماذا يفيد النور ، وماذا يعيب النور من إعراضه ؟ والذي لا يعرف النور ولا يحب أن يعرفه لأن فساد طبيعته وخبث تربيته أنه عنه وأبعده ، وجعله يألف الظلمة كالخفاش ، [أو أفسد الجهل وجدانه فأصبح لا يميز بين نور وظلمة ، ولا بين نافع وضار ، ولا بين لذيد ومؤلم ، ماذا عساه يفيد النور مهما سطع ، أو يؤثر فيه الضوء مهما ارتفع ؟]

﴿لا يؤمنون﴾ أقول : هذه جملة مفسرة لتساوى الانذار وعدمه في حقهم لا في حقه ﷺ وحق دعاة دينه ، فهم يدعون كل كافر إلى دين الله الحق ، لأنهم لا يميزون بين المستعد للإيمان وغير المستعد له ، إذا هو أمر لا يعلمه إلا الله تعالى ثم وصف سبحانه فقدم لهذا الاستعداد ، ورسوخهم في الكفر الذي لم يبق

(١) في اجتماع مثل هاتين المهمتين قرأت تتعلق بالأداء دون المعنى : قرأها الكوفيون وابن ذكوان بتحقيق المهمتين ، وهى لغة بنى تميم ، وأهل الحجاز يخففون فقرأ الحريمان من القراء وأبو عمرو وهشام بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية وأبو عمرو وقالون واسماعيل عن نافع وهشام يدخلون بينهما ألفا في هذه الحالة ، وابن كثير لا يدخل . وروى عن هشام تحقيقهما مع إدخال ألف بينهما . وعن ورش كابن كثير وكفالون إبدال الثانية ألفا فيلنقى بها كتمان على غير حده ، وفاقاً للكوفيين وخلافاً للبصريين . والبصريون إنما يمنعون جملة قياساً ولكنهم لا يستطيعون رد ما ثبت بالتواتر سماعاً ولا سيما القرآن .

معها محل لغيره بهذا التعبير البليغ ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ قال الراغب : الختم والطبع يقال على وجهين : مصدر ختمت وطبعتم ، وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم والطابع (والثاني) الأثر الحاصل عن النقش ، ويتجاوز بذلك تارة في الاستيشاق من الشيء والمنع منه اعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب نحو (ختم الله على قلوبهم) ﴿ وختم على قلبه وسمعهم ﴾ - إلى أن قال - فقوله (ختم الله على قلوبهم) ... إشارة إلى ما أجرى الله به العادة أن الانسان إذا تناهى في اعتقاد باطل وارتكاب محظور - ولا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق - يورثه ذلك هيئة تمرنه على استجسان المعاصي ، وكأنما يختم بذلك على قلبه . وعلى ذلك (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم) اه المراد منه .

وأقول : إن مراده أن هذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر في قلوبهم حتى فقدوا الدواعي والأسباب التي تعطفهم إلى النظر والفكر في أدلة الايمان ومحاسنه . ختم الله على قلوبهم فلا يدخلها غير ما رسخ فيها ، وعلى أسماعهم فلا يسمعون آيات الله المنزلة سماع تأمل وتفقه ، وقوله (وعلى أبصارهم غشاوة) جملة معطوفة على جملة (ختم) والغشاوة ما يغطى به الشيء ، ومعنى هذه المادة : غشى - التغطية . والمراد أن أبصارهم لا تدرك آيات الله المبصرة الدالة على الايمان ، فكل من الفريقين لا يرجي إيمانه وقد أسند الختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلى الله تعالى لأنه بيان لسنته تعالى في أمثالهم ، وعبر عنه بالماضي للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه ، وهو لا يدل على أنهم مجبورون على الكفر ، ولا على منع الله تعالى إياهم منه بالقهر ، وإنما هو تمثيل لسنته تعالى في تأثير تمرنهم على الكفر وأعماله في قلوبهم بأنه استحوذ عليها وملك أمرها حتى لم يعد فيها استعداد لغيره ، كما تقدم مثله عن الراغب . ويوضح ما قلناه : قوله تعالى في سورة المنافقين (٦٣ : ٣) ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) وقوله في اليهود من سورة النساء (١٥٤ : ٤) فما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم : قلوبنا غلف . بل طبع الله عليها بكفرهم ، فلا

يؤمنون إلا قليلا) فذكر أن الطبع على قلوبهم إنما هو بسبب كفرهم وتلك المعاصي التي أسندها إليهم وقوله تعالى في سورة الجاثية (٤٥ . ٢٢) أفأريت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة - فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ؟) فقد ذكر من فعله المسند إليه أنه اتخذ إلهه هواه ومن صار هواه معبوده لا يفيد معه شيء . وقد صرح هنا بأن الغشاوة على بصره من جعل الله تعالى ، ولم يصرح بذلك في آية البقرة التي تفسرها ، والمعنى واحد . واشيخنا الأستاذ الإمام دقائق في هذه التعبيرات ادخراها الله تعالى له وهي مع هذا تفنيك عن تمارى الأشعرية والمعتزلة في الآيات تعصبا لمذاهبهم . قال :

يقولون : إن الختم والطبع والرين . ألفاظ تجري على شيء واحد ، وهو : تغطية الشيء وإخيلولة بينه وبين ما من شأنه أن يدخله ويمسه ، والقلوب مراد بها العقول ، والمراد بالسمع الأسباع ، وإفراده لأن أصله مصدر ومن شأن المصادر أن لا تجمع ، وقد لوحظ هنا الأصل ، والأبصار العيون التي تدرك المبصرات من الأشكال والألوان .

(قال) وأنا أرى في مسألة هذا الجمع والافراد رأيا آخر ، إذ لو صح ما قيل فإن البصر أيضا مصدر فلماذا جمعه ؟ والذي أراه أن العقل له وجوه كثيرة في إدراك المعقولات ، فليس الناس فيه سواء ؛ فجمع لاختلاف الناس فيه ، وأنواع تصرفهم في وجوهه ، بخلاف السمع فإن أسمع الناس تتساوى في إدراك المسموعات فلا تشعب تشعب العقول في إدراك المعقولات . وأما الأبصار فهي مثل العقول في التشعب ، وأعظم معين للعقول في إدراكها ، لأن أنواع المبصرات كثيرة فتعطي للعقل مواد كثيرة ، والسمع لا يدرك إلا الصوت ، وليس في الكلام عند النقل طريق من طرق العلم اليقيني إلا التواتر [بخلاف ما نقطع فيه بالضرورة من طريق العقل والبصر ، فهو كثير ، فالأوليات ^(١) كالحكم بأن الجزء أصغر من الكل

(١) الأوليات : هي القضايا الضرورية التي يحكم العقل بها بمجرد توجهه إليها بدون حاجة إلى شيء آخر ، وهي أخص من الضروريات مطلقا !

وأن التقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، والقضايا التي قياساتها معها^(١) - من المعقولات المحضة . والتجريدات والحدسيات^(٢) يشترك فيها العقل والبصر . والقسم الأعظم من المشاهدات سبيل الإدراك فيه البصر . فالعقول والابصار بمنزلة ينابيع كثيرة تنبجس من كل منها عيون للعالم مختلفة ، بخلاف السمع فإنه ينبوع واحد لا اختلاف فيما يصدر عنه [فالحاصل أن العقول والابصار تنصرف في مدركات كثيرة فكانها صارت بذلك كثيرة فجمعت ، وأما السمع فلا يدرك إلا شيئاً واحداً وأفراد سألته سائل : كيف هذا ، وقد قالوا : إن السمع أفضل من البصر ؟ فقال : أنا لا أتكلم في التفضيل ، ذلك إلى الله ورسوله ، وإنما أشرح موجوداً وأبين مناسبة اللفظ له ، [وإن المشاهدة قاضية بأن العقل لا منتهى لتصرفه ، وبأن أقل ما قيل في البصر أنه يدرك الألوان ، والاشكال ، والمقادير ، والسمع لا يدرك إلا الأصوات فقط ، كما أن الذوق لا يحس إلا بالمذوقات وحدها ، وإن كان ما يصل من طريق السمع قد يتضمن حكاية عن معقول أو مبصر ، ولكن وروده على الحكاية لا يغير من حقيقته ، فهو معقول أو مبصر ، فمن ذكر لك برهاناً على حقيقة علمية فأتى تسمع منه الأصوات والحروف . وأما فهمك المقدمات ووصولك منها إلى النتائج فهو من طريق عقلك لا من طريق سمعك ، فإن كان حديث الأفضلية يستند إلى أن جميع المدركات قد يمكن أن يعبر عنها بالكلام - وهو مسموع - فقد بينا لك ما فيه ، وبعارضه أن جميع ضروب الكلام يصح أن تكتب وطريق فهمها من الرقم

(١) هي ما يحكم العقل فيه بواسطة لا تغيب عن الذهن عند تصور طرف القضية كقولنا : الاربعة زوج ، بسبب وسط حاضر في الذهن وهو الانقسام بتساويين
(٢) هي ما يحتاج العقل في الجزم بالحكم فيها إلى تكرار التجربة حتى تثبت بالمشاهدة مرة بعد أخرى . والحدسيات هي ما يجزم العقل بالحكم فيها بسبب تكرار المشاهدة ، كقولنا : بخار الماء ذو قوة ضاغطة رافعة ، ونور القمر مستفاد من نور الشمس ، وكل هذا من اصطلاح علم المنطق ، ونحن نحامي أمثال هذه الاصطلاحات فيما نقوله وفيما نقله في التفسير ليفهمه جاهل القراء ، ولكن هذا شيء كتبه شيخنا بخطه ، فمن الامانة نقله بحروفه .

إنما هو البصر، والحق أن المعول عليه في تعدد الطريق ليس ما يكون من قبيل الحكاية ؛ بل ما يكون من طبيعة القوة.

وأما انطباق الكلام على تلك الأقسام السابقة وبيان حرمانهم وكونهم كما وصفوا - فهو بالنسبة إلى الطائفة التي عانت الحق وهي تعرفه - ظاهر لأنهم لما عاندوا الحق لأنه لم يأت على أيديهم [فقد طبع على قلوبهم بطابع ذلك العناد نفسه ، فإنه قد حيل بين عقولهم وإدراك ما يصيرون إليه بالإصرار على الباطل من ضعف أمر وفساد حال في الدنيا ، وشقاء وخلود في نكال الآخرة ، ثم هم قد حجّبوا به عن إدراك ما يتبع] ذلك الحق من المعارف والحقائق الأخرى ؛ فقد ختم على قلوبهم بالنسبة إلى ما حجّبوا عنه .

وأما الختم على سمعهم فلا أنهم صموا عن سماع الحق واستماع القول لفهمه ، فمن أعرض عن فهم الحق فهو لم يسمع إلا صوتاً لم ينفذ شيء من معناه إلى موضع الإدراك الحقيقي منه ، فقد ختم على سمعه فلا ينفذ إليه شيء ينتفع به

وأما الأبصار فإما كانت عليها غشاوات عند هؤلاء الجاحدين ، لأن فائدة البصر ، هي التوفى من الخطر ، والعبرة بما يبصر ، فمن لم ينظر في الآيات الكونية التي تقع تحت بصره كل يوم كأنه لم يبصر شيئاً منها ، فقد ضرب على بصره بغشاوة . [وأما بالنسبة إلى القسمين الآخرين اللذين جمعا تحت قسم واحد وهو قسم المعرضين الجاحدين الجاهلين كما سبق فالختم على القلوب والسمع والأبصار ظاهر لأنهم لم ينتفعوا بشيء من هذه القوى حتى في فهم ما يعرض عليهم ، ورؤية ما يقع تحت حواسهم] والكلام كله ضرب من التمثيل يعرفه اللسان وتمهذه اللغة . والمعنى هو ما بينا والله أعلم : [ولما كان حديث الختم تمثيلاً لفقد حقيقة الفهم والحرمان من فوائد تلك المواهب الإلهية : مواهب العقل والسمع والأبصار - كان إسناده إلى الله تأكيداً لمعنى الحرمان ، وتقديراً لمصيبة الخسران ، لأن ما ختم بيد الله لا تنفض يد سواه]

وأما النكتة في استعمال الختم مع القلب والسمع ، والغشاوة مع البصر ؛ فهي أن الختم من شأنه أن يكون على الممكنون المستور . وهكذا موضع حس السمع ، وموضع الإدراك من العقل ، والاسماع في ظاهر الحلقة ، وأما البصر فالحاسة منه

ظاهرة منكشفة (قال) ومثل هذه الدقائق هي المرادة بقول صاحب التلخيص «ولكل كلمة مع صاحبها مقام»

﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أقول : العذاب اسم لما يؤلم ويذهب بعذوبة الحياة من ضرب ووجع وجوع وظلمة . قال الراغب : واختلف في أصله ، فقال بعضهم : هو من قولهم : عَذَبَ الرجل إذا ترك المأكل (زاد غيره من شدة العطش) والنوم فهو عاذب وعذوب ، فالتعذيب في الأصل هو حمل الانسان أن يعذب ، أى يجوع ويسهر . وقيل : أصله من العذب ، فعذبه : أزلت عذب حياته . على بناء : مرّسته وقذّيته^(١) وقيل أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السوط أى طرفه اه . وقال البيضاوى العذاب كالنكال بناء ومعنى تقول أعذب عن الشيء . ونكل عنه إذا أمسك ومنه الماء العذب لأنه يجمع العطش ويردعه ، ولذلك يسمى نقلها وفراثها ثم اتسع فأطلق على كل ألم فادح وإن لم يكن عقاباً يردع الجاني عن المعاودة الخ . والعظيم ضد الحقيق فهو فوق الكبير الذى هو ضد الصغير . وتنكير العذاب هنا للإشارة إلى أنه نوع منه مبهم مجهول عند أهل الدنيا ، بناء على أن المراد به عذاب الآخرة التى هي من عالم الغيب . وقال شيخنا تبعاً للجمهور : التنكير فيه للتعظيم والتهويل ووصفه مع ذلك بعظيم يدل على أنه بالغ حد العظمة كَمَا وكيفاء ، فهو شديد الإيلام ، وطويل الزمان . وهل هذا العذاب فى الدنيا أم فى الآخرة ؟ قال فى آية أخرى (٤١: ٥) لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) فيؤخذ من هذه الآية ومن آيات أخرى أن الاعراض عن هدى الإسلام ، وما أرشد إليه من إصلاح المعاش والمعاد ، جزاؤه الضنك والضيق وفقد العزة والسلطة فى الدنيا ، والعذاب العظيم فى العقبى .

وهنا سأله سائل : هل الآية نص فى التكليف بالحال ؟ فقال : لا ، وأنا لأحب أن أحشر المسائل الخلافية فى تفسير القرآن بل أحب أن أبين المعنى الذى كان يفهمه الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، وما كان يخطر على بال أحد منهم التكليف بالحال . على أن الاتفاق واقع بين الأئمة بل بين الأمة على أن التكليف

بالحال غير ؟ واقع ، وأن الله (لا يكلف نفساً إلا وسعها) كما صرح به الكتاب وتضافرت عليه الأحاديث النبوية ، فما بقي من مواضع الخلاف لا يمس نصوص الكتاب العزيز الذي (٤١ : ٤٢) لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

- (٨) وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِعَوْنٍ
(٩) يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ آمَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ
(١٠) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ، فَرَّادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا . وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

قدمنا أن الكلام من أول السورة في القرآن وأقسام الناس بإزائه ، وذكرنا منهم ثلاث فرق - فرقتان لها فيه هدى (إحداهما) المتقون وبين حالهم بقوله (الذين يؤمنون بالغيب) الخ ، ومنهم الذين كانوا يدعون الخيفيين والمنصفون من أهل الكتاب الذين كانوا ينتظرون إشراق نور الحق ليهتدوا به كما تقدم . (والثانية) هي المذكورة في قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) الخ وهم كل من آمن بالنبي ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم على التحقيق . وبيننا أنه يوجد بإزاء هاتين الطائفتين طائفتان أخريان لا ترجى هدايتهما بالقرآن . الأولى منهما هي المشروح حالها في قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) الخ وهي كما قدمنا تنقسم إلى قسمين جاحدين لا يسمعون ، ومعاذين يعرفون الحق ولا يدعون .

وهذه الآيات التي نحن بصدد تفسيرها الآن هي المبينة لحال الفرقة الرابعة وهي فرقة من الناس توجد في كل آن وفي كل عصر . وليست الآيات كما قيل في أولئك النفر من المنافقين الذين كانوا في عصر التنزيل ، ولذلك قال تعالى في بيان حالهم (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر) ولم يقل عنهم . إنهم يقولون مع ذلك « وآمنا بك يا محمد » وما كان القرآن ليعتنى بأولئك النفر الذين

لم يلبثوا أن انقضوا كل هذه العناية ، ويطلق في بيان حالهم أكثر مما أطال في الأصناف الثلاثة الذين هم سائر الناس

نعم إن الآيات على عمومها تتناول من كان منهم في عصر التنزيل تناولاً أولياً وتصف حالهم وصفاً مطابقاً ، وهى مع ذلك عبرة عامة شاملة لمن مضى ولمن يجىء من هذا الصنف إلى يوم القيامة ، وقد كان ويكون من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس ومن كل طائفة تدعى إليها على دين . ولم يحك عنهم دعوى الإيمان بالأنبياء والأعمال الصالحة - مع أن منهم الذين يدعون ذلك - لأن الإيمان باليوم الآخر يتضمن ذلك ، فهو إنما يعرف من قبل الأنبياء ، وهذا من ضروب إيجاز القرآن التى بلغت حد الإعجاز

قد يقال : كان في أولئك القوم من كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر كسابقى اليهود ، فلم كذبهم ونفى عنهم الإيمان نفياً مطلقاً مؤكداً بدخول الباء في خبر « ما » . فقال ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ أى بداخلين في جماعة المؤمنين الصادقين البتة . وهو أبلغ من نفي فعل الإيمان المطابق للفظهم والمقيد بالإيمان بالله وباليوم الآخر ؟ والجواب : أن اعتقادهم التقليدى الضعيف لم يكن له أثر في أخلاقهم ولا في أعمالهم ، فلو حصل ما في صدورهم ، ومحض ما في قلوبهم ، وعرفت مناشىء الأعمال من نفوسهم ، لوجد أن ما كان لهم من عمل صالح كصلاة وصدقة فائداً مبعثه رثاء الناس ، وحب السمعة ، وهم من وراء ذلك منقسمون في الشرور ، كالفساد والكذب والغش والخيانة والطمع وغير ذلك من الرذائل التى حكها عنهم الكتاب ونقلها رواة السنة ، وهذه الأعمال تدل على أنهم لا يؤمنون بالله كما يحب ويرضى أن يؤمن به ، وهو أن يشعر المؤمن بعظيم سلطانه ، ويعلم أن الله سبحانه مطلع على سره وإعلانه ، لأنه مهيم على السرائر ، وعالم بما في الضمائر ، فيرضيه بظاهره وباطنه . بل كانوا يكتفون ببعض ظواهر العبادات يظنون أنهم يرضون الله تعالى بذلك . ولذلك قال فيهم : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ أقول : الخدع أن توهم غيرك بخلاف ما تخفيه من المكروه له لتنزله عما هو بصده من قولهم : خدع الضب إذا توارى في جحره ، وضب خادع - إذا أوهم الصائد إقباله عليه ثم خرج من باب آخر ،

وأصله الإخفاء. هذا ما حرره البيضاوى، وقد جعله الراغب أعم، فلم يعتبر فيما يخفيه الخداع أن يكون مكروها، وهذا المعنى لا يمتنع إسناده إلى الله تعالى وإلى المؤمنين وهو ما تدل عليه صيغة المشاركة «يخداعون» وقالوا: إنه محال على الله وغير لائق بالمؤمنين بل يستقبح لأنه عمل المنافقين، وقد جاء في سورة النساء (١٤٢:٤) إن المنافقين يخداعون الله وهو خادعهم) ولما كان إخفاء شيء عن الله تعالى محالاً ففسروا مخادعتهم لله هنا وهناك بأنه خداع في الصورة لا في الحقيقة، وذلك أنه شرع أن يعاملوا معاملة المؤمنين ولكنهم لا يجزون جزاءهم في الآخرة، بل يكونون في الدرك الأسفل من النار - فمعاملتهم الظاهرة غير جزائهم المغيب عنهم في الآخرة، كما أن عملهم الظاهر غير كفرهم الخفي في أنفسهم، فالجزاء من جنس العمل، ولكن عملهم خداع - ومقابله حق صورته صورة الخداع، ولكنه لا غش فيه لأن النصوص صريحة في كفر المنافقين - والتحقيق: أن فعل المشاركة هنا خاص بالفاعل المسند إليه فعله وهم المنافقون، وصيغة «فاعل» لا تطرد فيها المشاركة بالفعل كما عاقبت اللص، وقد تكون مقدرة أو باعتبار الشأن أو القصد، ومن التكلف قول بعضهم إنه عبر عن مخادعتهم للرسول ﷺ بمخادعة الله تعالى

وقال شيخنا: العمل الظاهر الذي لا يصدق به الباطن إذا قصد به إرضاء آخر يسمى في اللغة مداواة ومخادعة، فإن كان يقصد به المخادعة فظاهر، وإلا فيكفي لصحة الإطلاق أن العمل عمل الخداع، لأعمل الطائع الخاضع، وهذا مراد القرآن من مخادعة هؤلاء الذين هم من أهل الكتاب المؤمنين بالله أيماناً ناقصاً، لم يقدرُوا الله فيه حق قدره، ويستحيل أن يقصد المؤمن بالله تعالى مخادعته، ولكنهم لجلبهم بالله ظنوا به ما سوغ وصفهم بما ذكر عنهم.

قال تعالى ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ أقول: وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (وما يخداعون إلا أنفسهم) وهو دليل على ما قلنا آتفاً في صيغة «فاعل» والمشاركة هنا للإشارة إلى أنهم هم الخادعون المخدوعون، وقرأه الجمهور (يخدعون) نص في أن مخادعتهم لله والمؤمنين لا تأمير لها فيهما، فهي بالنسبة إليهما صوراً في الحقيقة أن القوم يخدعون أنفسهم لأن ضرر عملهم خاص بهم، وعاقبته وبال عليهم

وحدهم . وقال الاستاذ في الدرس فيها مأمثاله :

إذا رجع الانسان إلى نفسه، وأصغى لمناجاة سره، يجد عندما بهم بعمل شيء . أن في قلبه طريقتين ، وفي نفسه خصمين مختصمين ، أحدهما يأمره بالعمل وسلوك الطريق الأعوج ، وآخر ينهيه عن العوج ، ويأمره بالاستقامة على النهج ، ولا يترجع عنده باعث الشر ، ولا يجيب داعي السوء ، إلا إذا خدع نفسه بعد المشاورة والمذاكرة المطوية فيها ، وصرفها عن الحق ، وزين لها الباطل ، وهذه الشؤون النفسية في غاية الخفاء ، تكون المنازعة ثم المحادعة ثم الترجيح ويمر ذلك كله كلعج البصر ، وربما لا يلتفت إليه الانسان بفكره ، ولذلك قال ﴿ وما يشعرون ﴾ فان الشعور هو إدراك ماخفي .

أقول: قال الراغب بعد ذكر الشعر : بفتح الشين وسكون العين وفتحها - من مفرداته وشعرت أصبت الشعر ، ومنه استعير شعرت كذا أي علمت علماً هو في الدقة كإصابة الشعر ومنه يسمى الشاعر شاعراً لفطنته ودقة معرفته ، فالشعر في الأصل اسم للعلم الدقيق في قولهم: أليت شعري . وصار في التعارف اسماً للموزون المقفى من الكلام اه
أقول : ويناسب هذا الشعر - بالكسر - للكساء الباطن الذي يحس شعر الانسان . والمعروف في كتب اللغة أن شعر به - كنصر وكرم - يشعر شعراً - بالكسر والفتح - وشعوراً معناه علم به وفطن له وأدركه . والفطنة تتعلق بالأمر الدقيقة وأطلق بعض المفسرين : أن الشعور إدراك المشاعر أي الحواس الخمس ، والتحقيق أنه إدراك مادي من حسي وعقلي ، فلا تقول : شعرت بحلاوة العسل وبصوت الصاعقة وبألم كية النار ، وإنما تقول : أشعر بحرارة مافي بدني ، وبملوحة أو مرارة في هذا الماء ، إذا كانت قليلة - وبهينة وراء الجدار ، وما ورد في القرآن من هذا الحرف يدل على هذا المعنى أي إدراك ما فيه دقة وخفاء .

فمعنى نفى الشعور عن المنافقين في مخادعتهم لله تعالى أنهم يجرون في كذبهم وتلييسهم وريائهم على ما ألقوا وتعودوا ، فلا يحاسبون أنفسهم عليه ، ولا يراقبون الله فيه ، وما كلهم يؤمنون بوجود الله وإحاطة علمه ، ومن يؤمن بوجوده لم يترب على خشيته ومراقبته ، ولا يفكر فيما يرضيه وفيما يفضيه ، فهو يعمل عمل المخادع له

وما يشعر بذلك . وأما مخادعتهم للمؤمنين فظاهرة لأنهم اتخذوهم أعداء وهم عاجزون عن إظهار عداوتهم ، فأعمالهم التي يقصدون بها إرضاء المؤمنين كلها خداع ورياء وقد فصل شيخنا سر مخادعتهم وفلسفتها ببيان علمي جلي ، فقال ما معناه :

هؤلاء المغرورون إذا عرض زاجر الدين بينهم وبين شهواتهم قام لهم من أنفسهم ما يسهل لهم أمره من أمل في الغفران ، أو تأويل إلى غير المراد ، أو تحريف إلى ما يخالف القصد من الخطاب ، وذلك بما رسخ في نفوسهم من ملكات السوء ، المغشاة بصور من العقائد الملونة بما قد يتجلى للأعين فيما يسمونه إيماناً . وما هم في الحقيقة بمؤمنين ، وإنما هم خادعون مخدوعون ، ولكنهم لما عى عليهم من أمر أنفسهم ، لا يشعرون ، لأن ذلك يمر في أنفسهم وهم عنه غافلون .

وفرق ظاهر بين ما تستحضره النفس من المعلومات وتستعرضه عند ما تسأل عنه ، وما هو راسخ فيها من تلك المعلومات ، بصيرورته ملكة في النفس متصرفة في الإرادة ، باعثة لها على العمل . فمن العلوم ما هو ثابت في النفس ممتزج بها . [على النحو الذي ذكرنا فيتبع امتزاجه هذا تمكن ملكات أخر تصدر عنها الأعمال ، وهي ما يعبر عنه بالأخلاق والصفات الكريمة والشجاعة ونحوها فانها إنما تنطبع في النفس تبعاً للعلم الذي يلائمها] وهو العلم الحقيقي الذي تصدر عنه الأعمال وربما يغفل الانسان عنه ولا يلاحظه عند ما يعمل . وفارق بين ملاحظة العلم واستحضاره وبين وجوده وتحقيقه في نفسه .

ومن العلوم ما يلاحظ الانسان أنه عنده فهو صورة عند النفس تستحضره عند المناسبة ويغيب عنها عند عدمها ، لأنه لم يُشربه القلب ولم يمتزج بالنفس فيصير صفة من صفاتها الراسخة التي لا تزيلها [وهذا النوع من العلم يتعلق بما تعلق به النوع الأول ، كعلم الحلال والحرام الذي يحصله طلبه الفقه الاسلامي مثلاً . وكعلم مزايا الفضيلة ، ورزايا الرذيلة الذي يخزنه طلاب علوم الآداب والأخلاق والنظار في كتب الأواخر والأوائل . لتغزير مادة العلم وتوسيع مجال القول وتوفير القدرة على حسن المنطق ونحو ذلك ، فهذا العلم كالأداة المنفصلة عن العامل ، يبقى في خزانة الخيال ، تستحضره النفس عند ما تدفعها الشهوة إلى تزيين

ظاهر المقال ، إلى تحسين باطن الحال ، ولن يكون لهذا الضرب من العلم أدنى أثر في عمل من أعمال صاحبه . وتسميته علماً لأنه يدخل في تعريفه العام «صورة من الشيء حاضرة عند النفس» وعند التدقيق لا ترتفع به منزلته إلى أن يندرج في معنى العلم الحقيقي [فاستحضار هذا العلم كاستحضار الكتاب واللوحي وإدراك مافيه ، ثم الذهول عنه ونسيانه عند الاشتغال بشيء آخر .

فهؤلاء - الذين يخدعون أنفسهم ويخدعون الله تعالى - عندهم علم حقيقي تنبعث عنه أعمالهم ، وإن كان باطلاً في نفسه ، وهو تصديقهم بما في شهواتهم ، من المصلحة لذواتهم ، وهو الذي رجح عندهم اختيار مافيه قضاؤهما ولا انصباب إلى ما تدعو إليه ، وهو ما أنساهم ما كانوا خزّنوا في أنفسهم من صور الاعتقادات الدينية ، فأبعدهم ذلك عن الاعتقاد الحقيقي الذي يعتد به وجعله رسماً مخزّناً في الخيال ، لا أثر له في الأفعال ، يدعونه بالسنيهم ، وتكذبهم في دعواهم أعمالهم وأحوالهم ، ولذلك نسبهم إلى الدعوى القولية ولم يقل فيهم ما قال في ذلك الفريق الأول (الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) فانه هناك ذكر إيمانهم وقفي عليه بذكر العمل الذي يشهد له . ومن هنا يعلم ما الايمان الذي يعتد به القرآن وهو يظهر لمن يقرأ القرآن ليحاسب به نفسه ، ويزن إيمانه وأعماله بما حكم به على إيمان من قبله وأعمالهم ، لا لمن يقرؤه على أنه قصة تار يخية مات من يحكى عنها ، واستغنى القارىء نفسه من حكم عليهم فيها فان كان مات من كانوا سبب النزول فالقرآن حي لا يموت ، ينطق حكمه ويحكم سلطانه على الناس في كل زمان [فكل مؤمن بالله واليوم الآخر ومع ذلك يصدر في عمله عن شهواته ، ولا يمنعه إيمانه عن ركوب خطيئاته ، فاعتقاده انما هو خيال ، لا يعمل عن لفظ في مقال ، ودعوى عند جدال ، فاذا ركن إلى هذا المعتقد فهو خادع لنفسه ، مخادع لربه يظن أن علام الغيوب ، لا ينظر إلى مافى القلوب]

﴿ في قلوبهم مرض ﴾ عهد عند العرب التعبير عن العقول بالقلوب والمرض هو ما يطرأ على العقول فيضعف تعقلها وإدراكها ، والشك والوهم من أعراض هذا المرض ، فهو ظلمة تعرض للعقل فتقف بشعاعه أن ينفذ إلى ما وراء النكاليف والأحكام من الأسرار والحكم . وهذا النفوذ هو الفقه في الدين الذي يسوق النفس

إلى الأخذ به ظاهراً وباطناً . وقد عبر القرآن عن فقد أمثال هؤلاء لهذا بقوله (١٧٩ : ٧) لهم قلوب لا يفقهون بها) وبما كان التعبير عن العقول بالقلوب في مثل هذا المقام ، لأن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذي هو السائق إلى الأعمال [يظهر لك ذلك بما تجده من اضطراب قلبك عند اشتداد الخوف أو اشتداد الفرح ، فانك تحس بزيادة ضرباته وشدة نبضاته] فصوره الاعتقاد إذا تناولها العقل من طريق التقليد والتسليم ، فجعلها في زاوية من زوايا الدماغ ، لم يكن لها سلطان على القلب ولا تأثير في الوجدان ، واعتقاد لا يصحبه هذا السلطان ولا يصدر عنه هذا التأثير ، لا يعتد الله تعالى به ولا يستفيد الإنسان منه كما تقدم آنفاً ، فمن لم يطرق الإيمان قلبه بقوة البرهان ولم يحل مذاقه منه في الوجدان ، بحيث يكون هو المصرف له في أعماله لا ينفعه إيمانه ، إلا إذا تمرن على الأعمال الصالحة عن فهم وإخلاص ، حتى يحدث لقلبه الوجدان الصالح ، فأهل اليقين ببعثهم يقينهم على العمل الصالح ، وأهل التقليد تلهيهم أعمالهم الصالحة بأهل اليقين في الانتفاع بإيمانهم ، وهذا الفريق الذي تحكى عنه الآيات ، وتصفه بالكذب والخداع ، قد فقد الأمرين معاً ، ولا صحة للقلب إلا بهما ، فمن فقدهما مريض ولا يلبث مرضه أن يقتله .

قال الأستاذ الامام ما معناه : ولضعف العقل أسباب . منها : ما هو فطري كما هو حال أهل البله والعتة ، وهو الذي لا يكلف صاحبه ولا يلام ، ومنها : ما يكون من فساد التربية العقلية كما هو حال المقلدين الذين لا يستعملون عقولهم ، وإنما يكتفون بما عليه قومهم من الأوهام والخيالات ، ويرين على قلوبهم ما يكسبونه من السيئات ، وما يكونون عليه من التقاليد والعادات ، ولا يعيتون بما أمر الله به من تمزيق هذه الحجب ، وإزالة هذه السحب ، للوقوف على ما وراءها من مخدرات العرفان ، ونجوم الفرقان وشموس الإيمان ، بل يكتفون بما حكى الله عنهم في قوله (٢٣ : ٤٣) إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) حتى يحبىء اليوم الذي يقولون فيه (٦٧ : ٣٣) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل) . وأقول : إن المرض في أصل اللغة : خروج البدن عن اعتدال مزاجه وصحة أعضائه فيختل به بعض وظائفها وأعمالها ، وتعرض الآلام لها . ويطلق مجازاً

على اختلال مزاج النفس ، وما يخل بكها من نفاق وجهل ، وارتباب وشك ، وغير ذلك من فساد الاعتقاد الحق ، واضطراب حكم العقل وفساد الخلق ، والمرض هنا من النوع الثاني كما تقدم آنفاً ، وخصه شيخنا بمناقض اليهود ، فقال مامعناه . كان في قلوبهم مرض قبل مجيء النذير ، وبيان الرشد من الغي ، عندهما كانوا في فترة حظهم من الكتب قراءة ألفاظها ، ومن الأعمال إقامة صورها ؛ ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ بعد ما جاءهم البرهان المنير ببعثة البشير النذير ، ووجدوا منه زعزعة في أنفسهم ، ولكن أخذتهم العزة بالأنتم فأبوا الإيمان ؛ ونبوا عن القرآن ؛ [وزاد تمسكهم بما كانوا عليه واشتد حرصهم عليه] فكان شعاع النور الذي جاء به الرسول عى في أعينهم ؛ ومرضاً على مرضهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى عذاب مؤلم فوق هذه الأمراض ؛ و« أليم » صيغة فعيل من ألم يألّم فهو أليم وصف به العذاب نفسه ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ [في دعواهم الإيمان بالله واليوم الآخر ؛ فانهم لم يصدقوا بأعمالهم ؛ ما يزعمونه من حالهم]

أقول : وأما مرض مناقض المدينة من العرب فهو الشك في نبوته ﷺ كما روى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما وعن الأول : أنه النفاق . وعن بعض تلاميذه : الرياء . وحسبك في زيادة مرضهم قوله تعالى (٩ : ١٢٥) وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أئكم زادته هذه إيماناً ؟ - إلى قوله - وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون)

أقول : قرأ عاصم وحمره والكسائي (يكذبون) بالتخفيف أى بسبب كذبهم ، وقرأ الباقر (يكذبون) بالتشديد أى ولهم عذاب أليم بسبب تكذيبهم النبي ﷺ والحكمة في القرائتين : اثبات جمعهم للرذيلتين ، أى الكذب في دعوى الإيمان ، وتكذيب النبي ﷺ والسلام ، والثانية سبب الأولى ؛ وهم إنما كانوا يكذبونه في أنفسهم ، وفيما بينهم إذا خلوا إلى شياطينهم والعذاب عقوبة عليهما معاً ، أى على التكذيب وهو الكفر وعلى الكذب في دعوى الإيمان وهو النفاق . وهؤلاء في باطنهم شر من الذين كفروا عناداً من رؤساء قريش ، فانهم لم يكونوا يكذبونه ﷺ وإنما كانوا يجحدون جحد استكبار . قال تعالى (٦ : ٣٣) فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)

قال شيخنا: والقراءة الأولى هي المشهورة والعذاب فيها مقرون بالكذب لا بالكذب. وقد يقال: لم جعل العذاب جزاء الكذب دون الكفر؟ والجواب: أن الكفر داخل في هذا الكذب، وإنما اختير لفظ الكذب في التعبير للتحذير عنه، وبيان فظاعته وعظم جرمه، وليبيان أن الكفر من مشتملاته، وينتهي إليه في غايته، ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير، وتوعد عليه أسوأ الوعيد، وما فشا الكذب في قوم الإفشت فيهم كل جريمة وكبيرة، لأنه يشأ من دناءة النفس وضعف الحياء والمروءة، ومن كان كذلك لا يترك قبيحاً إلا بالمعززة، نعوذ بالله تعالى من عمله ومنه. أه يا معنى وقد علمت أن السؤال لا يرد إلا على قراءة التشديد

(١١) فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ
(١٢) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ

تنطق هذه الآيات بأن ما عليه هذا الصنف من الغرور بما عنده من التقاليد قدسول له الباطل وزين له سوء عمله فراه حسناً، وشوه في نظره كل حق لم يأت به على لسان رؤسائه ومقلديه بنصه التفصيلي، فهو يراه قبيحاً، وقد صورت الآيات هذا الغرور بما حكته عن بعض أفرادهم وهو: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بما تصدون عن سبيل الله من آمن وتبعونهم أعوجاء، وتنفرون الناس عن اتباع محمد ﷺ والأخذ بما جاء به من الإصلاح، الذي يحتمل أصول الفساد، وبصطلم جزائهم الآداد، ويحي ما أماتته البدع من إرشاد الدين، وبقيم ما فوضته التقاليد من سنن المرسلين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ بالتمسك بما استنبطه الرؤساء، وما كان عليه الأحبار والعرفاء، من تعاليم الانبياء، فانهم أعرف بسنتهم، وأدرى بظريقتهم، فكيف ندع ما تلقيناه منهم، ونذر ما يؤثره آبائنا وشيوخنا عنهم، ونأخذ بشيء جديد، وطارف ليس له تليد؟

هكذا شأن كل مفسد: يدعى أنه مصلح في نفس إفساده ، فإن كان على بينة من إفساده عارفاً أنه مضل - وإنما يكون كذلك إذا كان إفساده لغيره لعداوة منه له - فأنما يدعى ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الإفساد بالقويه والمواربة . وإن كان مسوقاً الى الإفساد بسوء التقليد الاعمى الذى لا ميزان فيه لمعرفة الاصلاح من الإفساد الا الثقة بالرؤساء المقلدين ، فهو يدعيه عن اعتقاد ولا يريد أن يفهم غير ماتلقاه عنهم . وإن كان أثر تقليدهم ، والسير على طريقتهم ، مفسداً للأمة في الواقع ونفس الامر ، لأن الوجود والحقيقة الواقعة لقيمة لها ولا اعتبار في نظر المقلد ، بل هم لا يعرفون مناشئ الفساد ومصادر الخلل ، ولا مزلق الزلل ، لأنهم عطلوا نظرهم الذى يميز ذلك ، وأرادوا أن يوقعوا غيرهم بهذه المهالك ، بصددهم عن سبيل الاسلام ، الداعى الى الوحدة والالتئام . فكان ذلك منهم دعاء الى الفرقة والانفصام ، والثبات على عبادة الملائكة أو البشر أو الاصنام . وأى إفساد في الارض أعظم من التنفير عن اتباع الحق ، وعن الاعتصام بدين فيه سعادة الدارين ، والارض إنما تفسد وتصلح بأهلها ؟ ولذلك قال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ فابتدأ الكلام المؤكد لاثبات إفسادهم بكلمة « ألا » التى يراد بها التنبيه والايقاظ وتوجيه النظر ، وتدل على اهتمام المتكلم بما يحكيه بعدها ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ بأن هذا إفساد غرزي طبايعهم ، بما تمكن فيها من الشبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم . وهذا دليل على أنهم لم يكونوا معاندين ولا مرائين ، وأنهم على اعتقاد ضعيف لا يشهد له العمل كما تقدم في تفسير آية (يخادعون الله)

وإذا كانت الآيات في وصف طائفة من الناس توجد في كل أمة كما قدمنا فليحاسب بها نفسه كل مسلم يعتقد أن القرآن إمامه ، وأن فيه هدى له فانها حاجة على كثير ممن يدعون الاسلام بالقول ويعملون بخلاف ما جاء به ، ويتبعون غير سبيله . وأقول الآن : هذه جملة ما قرره شيخنا في الدرس واضعاً نصب عينيه منافق اليهود ، ولا سيما فقهاءهم الذين كانوا مجاورين للنبي ﷺ في المدينة ، وشدة الشبه بينهم وبين فقهاء السوء ، ولا سيما فقهاء عصرنا هذا - ولذلك نبه لعموم الآيات وشموعها لهم لما عوداً على بدء ، وإنما مراده بنفي الرياء عنهم أنهم يعتقدون ما قالوا ههنا ،

وهو لا ينفي رياءهم في غيره من أقوالهم وأفعالهم. وقد كان لأوثك الأخبار والرؤساء من الإفساد غير ما ذكر، ومنه إغراء المشركين بقتال النبي ﷺ والمؤمنين ووعدهم بمساعدتهم عليه، وهذا إفساد كبير في الأرض، وكانوا يستبيحونه بأنه توسل إلى حفظ سلطتهم ورياستهم المهددة باتباع محمد ﷺ

ولم يذكر فيما كتبت عنه رأيه فيمن سألهم وقال لهم ماذا كر وأجابوه بهذا الجواب، هل هو الله تعالى أو الرسول ﷺ أو المؤمنون؟ وهي الاحتمالات التي ذكرها المفسرون - وزاد بعضهم رابعا وهو أن يكون بعضهم سأل بعضا لما كانوا عليه من اختلاف الحال وتباين الآراء، كما قال تعالى فيهم (١٤: ٥٩) تحسبهم جميعا وقلو بهم شتى) فأى مانع لذهي لبعض لبعض عن نكث ما عاهدوا عليه النبي ﷺ من إقرارهم على دينهم وحفظ أموالهم وأنفسهم بأن لا يؤلبوا عليه المشركين ولا يساعدوهم عليه - وأن يقولوا لنا كثيرين المفسدين: إن الحرب فساد عظيم لا يؤمن أن يتعدى إلينا شرها فيطير من شررها ما يحترق به، فدعوا تأليب قوم محمد عليه؟ - ثم أى مانع يمنع أن يجيبهم أوثك المفسدون ككعب بن الأشرف: إنما نحن مصلحون بمساعدة قومه عليه، لأننا نخشى منه ما لا نخشى منهم، فقد غشنا معهم أجيالا لم ينارعنا منهم أحد في صحة ديننا، لأنهم لا يدعون إلى شركهم ولا يحتقرون ما نحن عليه من الدين، بل يرونا فوقهم في العلم، ومنهم من يعطينا أولاده لتربيتهم ولا يكرهون أن نلقنهم ديننا، وأما محمد فيقول إننا ضلنا عن ديننا نفسه وبعيننا بتحريف سلفنا وخلفنا لكتابنا، وبما كان من مخازي تاريخنا، كقتل الأنبياء، ونكث العهود، وأكل السحت. فإذا كان له الغلب على مشركي قومه لأننا نحن أن يبقى لنا ديننا ومكانتنا السامية في بلاد العرب، وإن هو حفظ عهده لنا، ولم يغدر فيقائلنا، فكيف إذا هو غدر بنا وقتلنا بعد الفراغ من قومه؟

هذا أقرب إلى المعقول مما قاله المفسرون في السؤال والسائل، وفيه وجه آخر لعله أقوى، وهو أن السؤال والجواب مفروضان فرضا، والمراد بيان حالهم في هذا الأمر وما تنطوي عليه جوانبهم بصيغة السؤال والجواب التي هي أقوى أساليب الكلام تنبيهاً للذهان، وتوجيهاً لها إلى الاحاطة بمعانى الكلام، ولذلك يستعملها العلماء

في بيان مهمات المسائل وحل عويص المشاكل ، يقولون : إذا قيل كذا قلنا كذا ، وإن سئلنا عن هذا أجبنا بكذا . وأما الفرق بين الشرطين في مثل هذا الأسلوب فالבלاغة تقتضي أن يكون السؤال باذا عما كان سببه قويا من شأنه ألا يسكت عنه ، ويصدر بيان إذا كان سببه ضعيفا ولكنه محتمل ، فيجاب عنه احتياطاً

نم أقول : إن ما تقدم مبنى على أن السؤال والجواب في بيان حال منافقي اليهود ، وهو المختار عند شيخنا . وقد ورد في التفسير المأثور جملة في بيان حال منافقي المدينة من العرب كعبد الله بن أبي ابن سلول وحزبه . فأنهم كانوا يفسدون في الأرض بالتشكيك في الدين ، وبتفريق كلمة المؤمنين ، كما فعلوا في غزوة أحد ثم في غزوة تبوك ، فكان هذا شأنهم وإن كانت الغزوتان بعد نزول هذه السورة . وروى تفسير إفسادهم بالكفر والمعاصي ، وما قلناه منه ولكنه أخص وهو المتبادر . ودعواهم أن هذا إصلاح كدعواهم الإيمان ، وكل مفسد وضال يسمى إفساده وضلاله بأسماء حسنة ، كما يسمون الشرك بالله في زمننا بدعاء غيره : توسلاً . وعن ابن عباس أنهم كانوا يقولون : إنما تريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب ثم صورت الآيات ذلك الجهل والغرور في الفريقين بصورة أخرى أشد تشويها مما قبلها ، لأن تلك صورتهم في عملهم ، وهذه صورتهم في جوهر إيمانهم ، وهي ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ آمَنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ﴾ الذين تعتقدون كما لهم وترون تعظيمهم وإجلالهم ، كإبراهيم وموسى وعيسى وأتباعهم ، الذين كان الإيمان راسخاً في جناتهم ، ومؤثراً في وجدانهم ، ومصرفاً لأبدانهم ، أو كعبد الله بن سلام وأمثاله من علمائكم ، ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ أقول : المراد بالسفه الطيش وخفة العقل وضعف الرأي . ومن لوازمه سوء التصرف . ومنه قيل : زمام سفیه : كثير الاضطراب لمرح الناقة ومنازعتها إياه - وثوب سفیه : ردء النسيج ، واستعمل في خفة النفس لتقصان العقل ، وفي الأمور الدنيوية والآخرية . فقليل سفه نفسه ، ويعنون بالسفهاء أتباع النبي صلى الله عليه وسلم الواقفين عند ما كان عليه ، المعرضين عن غير ما أنزل إليه ، لما تضمنته الأمر من الشهادة لهم بانهم في إيمانهم كأتباع أولئك

الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم سلف اليهود الذين كان الكلام معهم ، وكانوا يفتخرون بما يتناقفونه من سيرتهم . فرد الله تعالى عليهم بقوله :

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السَّفَهَاءُ ﴾ أى وحدهم دون من عرّضوا بهم ، لأن لهم سلفاً صالحاً تركوا الاقتداء بهم ، زعماً أن المتأخر ، لا يمكن أن يكون على هدى المتقدم لأنه يصعب أو يتعذر عليه اللحاق به ، واحتذاء عمله ، لعلوه في الدرجة ، وبعده في المنزلة ، وأن حظهم من سلفهم انتظار شفاعتهم ، وإن لم يسيروا على سننهم ، فأى الفريقين أجدر بلقب السفهاء ، أم أولئك اليهود الذين لهم أسوة صالحة ولكنهم لا يهتدون بها وهذه حالهم من سوء العقيدة وقبح العمل ؟ أم لاسلف له إلا عبدة الأوثان ، وقلبه مع ذلك مطمئن بالإيمان ، وأعماله تشهد له بالاحسان ، كالصحابة الذين هداهم الله بنور الاسلام ، فكانوا كأتباع أولئك الأنبياء السكرام ، بل ربما سبقوهم بالفضائل ، وزادوا عليهم في الفواضل ؟ لاشك أن أولئك المفسدين بعد ما تقدم لهم من سلف صالح ، ودين قيم ، هم السفهاء ، دون هؤلاء القتلاء

﴿ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أن السفه محصور فيهم ، ومقتصور عليهم ، وإنما عندهم شعور ما بأنهم ركبوا هواهم ، ولم يتبعوا هدى سلفهم ولا هداهم ، فيتحلون له العمل الضعيفة ، ويتمحلون له الاعذار السخيفة ، فهو لم يصل إلى حد العلم الذي تتكيف به النفس . ويكفى في إثبات سفههم أنهم يعرفون حسن حال سلفهم ، ويعترفون به ، ولكن لا يقتدون بهم ، ولا يقتفون أثرهم ، وإنما يعتمدون في نجاحهم وسعادتهم على تلك الآمانى والتعلات ، كقولهم (٣ : ٢٤) لن نمسنا النار إلا أياماً معدودات) وقولهم (٥ : ١٨) نحن أبناء الله وأحباؤه) وشعبه وأصفيائه ؛ ولا يصح نفى الشعور عنهم في هذا المقام مع ذلك الاعتراف ، وإنما هو نفى العلم الكامل الذى يزيل الشبه وينهض بالعلل ، ويبعث على الاقتداء بالعمل

وهذا أيضاً حجة على كثير من اللابسين لباس الاسلام ، وهم من هذا الصنف يعتقدون كمال سلفهم ، ولا يقتدون بهم ، وإنما يطعمون في سعادة الدنيا والآخرة بانقسابهم إلى أولئك السلف العظام ، ولكونهم من أمة النبي عليه الصلاة والسلام وهى خير الامم بشهادة الله في القدم ، ولكنهم لا يعلمون أنها فضلت سواها

بكونها أمة وسطا تقوم على جادة الاعتدال ، في العقائد والأخلاق والأعمال ، وتسعى في إصلاح البشر ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كما سيأتى في تفسير (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) وتفسير (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وليس عند هؤلاء السفهاء شىء من هذه الصفات ، إلا الأمانى والتعلات .

وأزيد في هذا السياق الذى شرحت به قول شيخنا في الدرس : تذكير هؤلاء المرضى القلوب من المسلمين ، الذين اتبعوا سنن من قبلهم في هذا كما اتبعوهم في غيره « شبراً بشبر وذراعاً بذراع » كما ورد في حديث الصحيحين - أزيد فيه تذكيرهم بقوله تعالى في أهل الكتاب الآتى في هذه السورة - (لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) وقوله فيهم وفي أفضل سلف هذه الامة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضى عنهم : (٤ : ١٢٢) ليس بأمانىكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجذله من دون الله ولياً ولا نصيراً) الآيات

ثم أقول : إن جريان هذا السؤال والجواب في منافق العرب أظهر مما قبله - فعبد الله بن أبى ابن سلول وأصحابه من منافق المدينة كانوا أبعد عن الإيمان وأدنى إلى مخادعة الله ورسوله والمؤمنين من منافق اليهود في أنفسهم وقومهم ومع المؤمنين . ولا شك أنهم كانوا يعدون المؤمنين الصادقين سفهاء الأحلام ، في اتباعهم للرسول عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، أما المهاجرون منهم فلائهم عادوا قومهم وأقاربهم وهجروا وطنهم وتركوا ديارهم ليكونوا تابعين له . وأما الأنصار فلائهم شاركوا المهاجرين في ديارهم وأموالهم . وكون هذا من السفه عند غير المؤمن بهذا الرسول ﷺ وما جاء به ظاهر جلى ، ولذلك نفى عنهم الشعور بأنهم هم السفهاء دون المؤمنين ، ويؤيد ما قلته : ما حكاه الله تعالى عنهم في سورتهم بقوله (٦٣ : ٧) هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . والله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون)

هذا - وإننا أشرنا إلى نكتة اختلاف التعبير في نفى الشعور عن المنافقين في موضعين ونفى العلم في موضع واحد من هذه الآيات . وأزيد عليه في نكتة نفى العلم الآن ما ينبه الأذهان ، إلى دقة التعبير في القرآن . وهو أن أمر الإيمان لا يتحقق « تفسير القرآن الحكيم »

إلا بالعلم اليقيني ، فموضوعه علمي ، ثم إن ثمرته السعادة في الدنيا والآخرة ، ولا يدرك ذلك إلا من علم حقيقته . فبقي عنهم العلم بأنهم هم السفهاء فيما زعموا به المؤمنون بالسفاه ، بشبهة أنهم أخطأوا مصلحتهم ومصلحة قومهم الأنصار ومصلحة أمتهم العربية في اتباع النبي ﷺ لأن عدم العلم بذلك سببه عدم العلم بكنهه الإيمان وعاقبته . ومن جهل الملزوم كان بلوازمه أجهل ، فكأنه قال : ولكن لا يعلمون ما الإيمان ، حتى يعلموا أن المؤمنين سفهاء غاوون ، أو عقلاء راشدون ، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، وهم جاهلون به ويجهلون أنهم جاهلون

ومن مباحث الأداء في الآيات : ما في اجتماع الهمزتين من آخر السفهاء وأول « ألا » من قراءة تحقيقهما بالنطق بهما معا وقرائن تحقيق الأولى وتليين الثانية وعكسه ، وقراءة بعضهم بهمزة واحدة وكذلك أمثالها من كل همزتين في كلمتين

(١٤) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٥) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهِمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَيْئِ الْمَأْمُورَةِ رَبِّكَ نَجَسُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

الآيات التي تقدمت في وصف هذا الصنف من الناس الذي قلنا إنه يوجد في كل أمة وملة وفي كل عصر ، كانت عامة تصور حال أفرادها في كل زمان ومكان وكان أسلوبها ظاهراً في العموم كقوله (يخادعون) الخ ، وقوله : وإذا قيل لهم كنذا قالوا كيت وكيت . وأما قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ الآية ، فهو وصف قد يختص ببعض أفراد هذا الصنف ممن كان في عصر التنزيل ، جاء بعد الأوصاف العامة ، وحكي بصيغة الماضي ، ليكون كالنصرح بمتوحيش تلك الفئة من هذا الصنف ، التي بلغت من التهلكة في النفاق ، والفساد في الأخلاق ، أن تظهر بوجوهين ، وتتكلم بلسانين ، وما بلغ كل أفراد الصنف هذا المبلغ من الفساد والضعف

ولهذه الخصوصية في الآية قال بعض الواهمين : إن جميع تلك الآيات في منافق ذلك العصر . وقد مرتقنيده فلا نعيده . على أن هذه الفئة أيضا توجد في كل عصر وزمان ، يكون فيه لأهل الحق قوة وسلطان ، والحكاية عنها بصيغة الماضي الواقع لا تنافي ذلك . لأن « إذا » تدل على المستقبل ، فعنى الفعل مستقبل ، وإنما اختيرت صيغة الماضي لتوبيخ أولئك الأفراد وإيذانهم بأن بضاعة النفاق والمداجاة ، لا تروج في سوق المؤمنين لأنها مزجاة ، وأن استهزاءهم مردود إليهم ، ووباله عائد عليهم .

كان أولئك نفر يدهنون في دينهم ، فاذا لقوا المؤمنين قالوا آمنا بما أنتم به مؤمنون ، ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ من دعاة الفتنة وعمال الإفساد وأنصار الباطل ، الذين يصدون عن سبيل الحق بما يقيمون أمامه من عقبات الوسواس والأوهام ، وما يلتقون فيه من أشواك المعاييب وتضاريس المذام ، وقال مفسرنا (الجلال) إنهم الرؤساء ، والصواب ما قلنا ، وكمن رئيس مغمول ، لما في نفسه من الضعف والخلول ، لا ينصر اعتقاده ، وإن كان معترفا بأن فيه رشاده ، وفي عزته عزه وإسماعده . وكمن مرءوس شديد العزيمة ، قوى الشكيمة ، يكون له في نصر ملته ، والمدافعة عن أمته ، ما يعجز عنه الرؤساء ، ولا يأتي على أيدي الأمراء .

وللذبابة في الجرح الممدد يد تنال ما قصرت عنه يد الأسد

(قالوا إنا معكم إنا نحن مستهزون) أي إنا معكم على عقيدتكم وعملكم ، وإنا مستهزون بالمسلمين ، ودينهم ، فكشف القرآن عن هذا التلون وهذه الذبذبة ، وقابلهم عليها بما هدم بنيانهم ، وفضح بهتانهم ، فقال (الله يستهزي بهم) أصل الاستهزاء الاستخفاف وعدم العناية بالشئ في النفس ، وإن أظهر المستخف الاستحسان والرضاهما . وهذا المعنى محال على الله تعالى ، والمحال بذاته يصح إطلاق لازمه ، والمستهزيء بالإنسان في نحو مدح علمه واستحسان لعمله مع اعتقاد قبحه ، غير مبال به ولا معتن بعلمه ولا بعمله ، حيث لم يرجعه عنه ولم يكرهه عليه ، ويلزمه استرسال المستهزأ به في عمله القبيح . فعنى :

الله يستهزئ بهم [أنه يعلمهم فتطول عليهم نعمته، وتبطل عنهم نعمته] ثم يسقط من أقدارهم ويستدرجهم بما كانوا يعملون * ويمدهم في طغيانهم يعمهون * والعمه عى القلب وظلمة البصيرة، وأثره الخيرة والاضطراب، وعدم الاهتمام للصواب .
أقول : هذا ملخص سياق الدرس . وقال الراغب : العمه التردد في الأمر من التخير . يقال : عمه فهو عمه وعماه وجمعه عمه (بالتشديد) اهـ والاستهزاء فعل الهزء . بسكون الزاي وضمها . وقصده بالعمل . وهو اسم من اهزئت به ومنه ، وفي لغة هزأت . فهو من بابي تعب ونفع . واستهزأت به أى استخفت به وسخرت منه .
وقال البيضاوى : والاستهزاء السخرية والاستخفاف ، يقال : هزأت به واستهزأت بمعنى - كأجبت واستجبت - وأصله الخفة ، من الهزؤ وهو القتل السريع ، يقال : هزأ فلان إذا مات ، وناقته تهزأ به ، أى تسرع وتخف . وقال الراغب : الهزء مزح فى خفية ، وقد يقال لما هو كالمزح . ثم قال : والاستهزاء ارتياد الهزؤ وإن كان قد يعبر به عن تعاطي الهزؤ كالاستجابة فى كونها ارتيادا للإجابة، وإن كان يجرى مجرى الإجابة . ثم قال بعد ذكر آيات من الشواهد : والاستهزاء من الله فى الحقيقة لا يصح كما لا يصح من الله اللهو واللعب تعالى الله عنه . وقوله (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) أى يجازيهم جزاء الهزؤ ، ومعناه : أنه أمهلهم مدة ثم أخذهم مغافصة (أى مفاجأة على غرة) فسمى إمهاله إياهم استهزاء من حيث إنهم أغتروا به اغترارهم بالهزؤ فيكون ذلك كالاستدراج من حيث لا يعلمون . اهـ . وأشهر الأقوال : أن معناه يجازيهم بالعقاب على استهزائهم أو يعاملهم معاملة المستهزئ بهم (٥٧ : ١٣) يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : أنظرونا نقتبس من نوركم ، قيل أرجعوا وراءكم فتمسوا نوراً (الآية وقال تعالى (٨٣ : ٢٩ - ٣٥) إن الذين أخرجوا من الدين آمنوا يضحكون * وإذا مررا بهم يتغامزون - الى قوله - فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون) وقيل : إن استهزاه تعالى بهم إجراؤه أحكام المسلمين عليهم فى الدنيا كما مر فى خداعه لهم
والطغيان مجاوزة الحد فى العصيان . مأخوذ من طغيان الماء وهو تجاوز

فيضائه الحد المألوف . والمدّ الزيادة في الشيء متصلة به ، يقال : مد البحر زاد وارتفع ماؤه وانبسط . ومده الله قال تعالى (٣١: ٢٨) والبحر يمد من بعده سبعة أبحر) ومد البحر يقابله الجزر ، وهو انحسار مائه عن الساحل وتقصان امتداده . ويسمى السيل مداً من قبيل التسمية بالمصدر ، ومنه المدة من الزمان ، والمدد - بالتحريك - للجيش . يقال مده وأمده . قال تعالى (١٩ : ٧٥) قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً حتى إذا رأوا ما يوعدون - إما العذاب وإما الساعة - فسيعلمون من هو شرمكاناً وأضعف جنداً) وسأأتى مزيد بيان لهذا المعنى في تفسير قوله تعالى من سورة الانعام (٦ : ١٠٩) وتقلب أفئدتهم وأبصارهم . كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) والمعنى : أن سنة الله تعالى في الذين وصلوا إلى هذه الغاية من فساد الفطرة هو ما بينه بقوله فيهم : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ المشار إليه بأولئك هم الذين بينت حالهم الآيات السابقة بأنهم يقولون : آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين الخ وهو صريح في أن طغيانهم وعمهم من كسبهم ، ولم يجبروا عليه بخناق ربهم . قال الأستاذ : وقد فسرنا « اشتروا » باستبدلوا وهو غير سديد لأن بين اللفظين فصلاً في المعنى ، وكلنا نعتقد - والحق ما نعتقد - أن القرآن في أعلى درج البلاغة لا يختار لفظاً على لفظ من شأنه أن يقوم مقامه ، ولا يرجح أسلوباً على أسلوب يمكن تأدية المراد به ، إلا الحكمة في ذلك وخصوصية لا توجد في غير ما اختاره ورجحه . ووجه اختياره « اشتروا » على استبدلوا أن الأول أخص من وجهين :

أحدهما : أن الاستبدال لا يكون شراء إلا إذا كان فيه فائدة يقصدها المستبدل منه ، سواء كانت الفائدة حقيقية أو وهمية

ثانيهما : أن الشراء يكون بين متبايعين بخلاف الاستبدال ، فإذا أخذت ثوباً من ثيابك بدل آخر ، يقال إنك استبدلت ثوباً بشوب ، فالعنى الذى تؤديه الآية : أن أولئك القوم اختاروا الضلالة على الهدى لفائدة لهم بازائها يعتقدون الحصول عليها من الناس ، فهو معاوضة بين طرفين يقصد بها الربح ، وهذا هو معنى الاشتراء والشراء ، ومثلهم البيع والابتيع ، ولا يؤديه مطلق الاستبدال ذلك بأنه كان عندهم كتب سماوية فيها مواعظ وأحكام ، وفيها بشارة بأن الله

يرسل اليهم نبياً يحمل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصر التقاليد ، وأغلال التقيد بارادة العبيد ، ويرعى جميع الامم بقضيب من حديد ، فيرجع للعقول نعمة الاستقلال ، ويجعل إرادة الأفراد هي المصرفة للأعمال فكان عندهم بذلك حظ من هداية العقل والمشاعر وهداية الدين والكتاب ، ولكن نجمت فيهم الاحداث والبدع ، وتحكمت فيهم العادات والتقاليد ، وعلاسلطان ذلك كله على سلطان الدين ، فضل الرؤساء في فهمه ، بتحكيم تقاليدهم في أحكامه وعقائده ، بضروب من التحريف والتأويل . وأهل المرءوسون العقل والنظر في الكتاب يحظر الرؤساء وأمرتهم ، فكان الجميع على ضلالة في استعمال العقل وفي فهم الكتاب ، بعد أن كانوا هدايتين ممنوحتين لهم لاسعادهم ، وكانت المعاوضة عند الفريقين في ذلك بالمنافع الدنيوية : للرؤساء المال والجاه والتعظيم والتكريم باسم الدين ، وللمرؤوسين الاستعانة بجاه رؤساء الدين على مصالحهم ومنافعهم ، ورفع أثقال التكليف ، بقتاوى التأويل والتحريف . هكذا استحبوا العمى على الهدى — وهو العقل والدين — رغبة في الحطام ، وطمعاً في الجاه الكاذب ﴿ فماربحت تجارتهم ﴾ في الدنيا ، إذ لم تشمر لهم ثمرة حقيقية ، بل خسروا وخابوا باهمالهم النظر الصحيح الذى لا تقوم المصالح ولا تحفظ المنافع إلا به . وإسناد الربح إلى التجارة غريب في غاية الفصاحة لأن الربح هو النماء في التجرة ، وهذه المعاوضة هي التي من شأنها أن تشمر الربح ، فإسناده إليها نفياً أو إثباتاً إسناد صحيح لا يحتاج إلى التأويل [كأنه قيل فلم يكن نماء في تجارتهم . على أن ذلك التأويل المعروف من أن إسناد الربح إلى التجارة لأنها سببه والوسيلة إليه وأن العبارة من الحجاز العليل — تأويل يتفق مع البلاغة ولا ينافيها ، ولا زال الحجاز العقلى من أفضل ما يزين البلغاء به كلامهم ، ويبلغون به ما يشاءون من تنعيم معانيهم] . وما كانوا مهتدين ﴿ في دينهم ﴾ لأنهم لم يأخذوه على وجهه ولم يفهموه حق فهمه أو ما كانوا مهتدين في هذه التجارة لأنهم باعوا فيها ما وهبهم الله من الهدى والنور بظلمات التقاليد وضلالات الاهواء والبدع التي رجوا أنفسهم فيها — أو ما كانوا مهتدين في طور من الاطوار ولا مس الرشد قلوبهم في وقت من الأوقات لأنهم نشؤوا على التقليد الاعمى من أول وهلة ولم يستمعوا لعقولهم قط في فهم

أسرارها ، واقتباس أنوارها . ولا يذهبن الوهم إلى أن اشتراء الضلالة بالهدى يفيد أنهم كانوا مهتدين ثم تركوا الهدى للضلالة ، فيقتاض أول الآية مع آخرها ، إذ ليس لكل من منح الهدى يأخذ به فيكون مهتدياً ، وهؤلاء يحملوه ، فباعوه ولم يحملوه ، وينظر إلى هذا الاشتراء ، ويشبهه الاستحباب في قوله تعالى (١٧: ٤١) وأما محمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) والله أعلم

ومن مباحث الأداء قراءة حمزة والكسائي (الهدى) بالامالة أى جعل مدھا بين الالف والياء ، وهى لغة بنى نعيم ، وعدم الإمالة لغة قریش وهى الفصحى ، ولما كان يعسر على لسان من اعتادها تركها أذن الله تعالى بها فيما أقرأ جبريل النبي ﷺ

(١٧) مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا ، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٨) صَمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ .

أقول : المثل مفتحتين والمثل بالكسر والمثيل كالشبه والشبه والشبيه وزناً ومعنى فى الجملة ، وهو من مثل الشيء مثولاً إذا انتصب بارزاً فهو مائل . ومثل الشيء - بالتحريك - صفته التى توضحه وتكشف عن حقيقته أو ما يراد ببيان من نوعه وأحواله . ويكون حقيقة وبجازاً ، وأبانه : تمثيل المعانى المعقولة بالصور الحسية وعكسه ومنه الأمثال المضروبة وتسمى الأمثال السائرة ، وسيأتى تحقيق معناها فى تفسير (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما) ومنه ما يسميه البيانون الاستعارة التمثيلية وهو خاص بالمجاز . والتمثيل أمثل أساليب البلاغة وأشدها تأثيراً فى النفس وإقناعاً للعقل ، قال تعالى (٢٩ : ٤٣) وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وما رأيت أحداً من علماء البلاغة وفاه حقه من البيان المقنع إلا إمامهم الشيخ عبد القاهر الجرجاني فى كتابه (أسرار البلاغة) وهاك ما كنت كتبت فى تفسير هذا المثل ثم ما بعدة إجمالاً ثم تفصيلاً ، مقتبساً معانيه من دروس أستاذنا الامام : هذا مثل من مثلين ضربهما الله فى هذه الآيات للصنف الثالث من الناس الذين قرع القرآن أبواب قلوبهم . وكان من عناية الله تعالى فى بيان حاله أن

قفى على ذلك التفصيل في شر فرقه وأطوارهم بضرب المثل الذى يقصد به تجلى المعنى فى أتم مجاليه ، وتأثر النفوس بما أودع فيه ، ناهيك بما فى التنقل فى الأساليب من توجيه الذهن إلى سابق القول ودعوة الفكر إلى مراجعة ماضى منه . ولولا أن بلاء هذا الصنف عظيم ، وداءه دفين ، وعلاجه متعسر — لأنه متولد من الدواء الذى كان يجب أن تكون فيه الصحة ونعمة العافية — لما كان من البلاغة ولا من الحكمة ، أن يعنى بشأنه كل هذه العناية ، كما قلنا فى تزييف رأى من ذهب إلى أن الكلام فى تلك الشذمة من المنافيين فى عصر التنزيل ضرب الله تعالى لهذا الصنف فى مجموعه مثلين ، يفتشان بانقسامه إلى فريقين ، خلافاً لما فى أكثر التفاسير فى أن المثليين لفريق واحد ، وأن معناهما وموضوعهما واحد

(الأول) من آتاهم الله ديناً وهداية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها ، وصلاح حالهم بها ، أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ، آخذين بإرشاد الوحي ، واثقين عند حدود الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم فى الأخذ بها ظاهراً وباطناً ، ولم ينظروا فى حقائق ما جاءهم ، بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة إنما كان أمراً خصوصاً به ، أو خيراً سبق إليهم ، لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم ، وإن كان ذلك العمل لم يخالف سرائرهم ، ولم تصلح به ضمائرهم ، فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع فى نفوسهم مجالاً لغيرها ، ولذلك لم يتفكروا قط فى كونهم أخرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم ، لأن حفظ الموجود ، أيسر من إيجاد المفقود ، بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذى اقتدى من قبلهم بما فيه من شמוש العرفان ، ونجوم الفرقان ، لزعمهم أن فهمه لا يرتقى إليه إلا أفراد من رؤساء الدين ، يؤخذ بأقوالهم ما وجدوا ، ويكتسبهم إذا فقدوا

فمثل هذا الفريق من الصنف المخدول فى فقهه لما كان عنده من نور الهداية الدينية ، وحرمانه من الاهتداء بها بالمرّة ، وانطباس الآثار دونها عنده — مثل من استوقد ناراً الخ . والوجه فى التمثيل : أن من يدعى الإيمان بكتاب نزل من عند ربه قد طلب بذلك الإيمان أن توقد له نار يهتدى بها فى الشبهات ، ويستضىء

بها فى ظلمات الريب والمشكلات، و يبصر على ضوءها ما قد يهجم عليه من مفترسة
الاهواء والشهوات، فلما أضاءت ماحوله بما أودعته من الهدى والرشاد، وكاد بالانظر
فيها يمشى على هداية وسداد — هجمت عليه من نفسه ظلمة التقليد الخبيث،
وعصب عينيه شيطان الغرور، فذهب عنه ذلك النور، وأطبق عليه جو الضلالة
بل طفىء فيه نور الفطرة، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه، فهم بمنزلة الأعمى
الأصم الذى لا يبصر ولا يسمع.

وأما الفريق الثانى فقد ضرب الله له المثل فى قوله (أو كصيب من السماء) الخ،
وهو الذى بقى له بصيص من النور، فله نظرات ترمى إلى ما بين يديه من
الهداية أحياناً، ولعمانى التنزيل لمعان يسطع على نفسه الفينة بعد الفينة، ويأتلق
فى نظره الحين بعد الحين، عند ما تحرك الفطرة، أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين
يديه، ولكنه من التقاليد والبدع فى ظلمات حوالاك، ومن الخبط فيها على حال
لا تخلو من المهالك، وهو فى تحبطه يسمع قوارع الانذار الإلهى و يبرق فى عينيه
نور الهداية، فاذا أضاء له ذلك البرق السماوى سار، وإذا انصرف عنه بشبه
الضلالات الغرارة قام ونحير لا يدري أين يذهب. ثم إنه ليعرض عن سماع نذر
الكتاب ودعاة الحق، كمن يضع إصبعيه فى أذنيه حتى لا يسمع إرشاد المرشد
ولا نصيح الناصح، يخاف من تلك القوارع أن تقتله، ومن صواعق النذر أن تهلكه
هذا هو شأن فريقى هذا الصنف بما يشير إليه المثالن إجمالاً. وفى تفسير
الآيات تفصيل ما أشرنا إليه

قال تعالى ﴿مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً﴾ العرب تستعمل لفظ «الذى»
فى الجمع كلفظي «ما» و«من» ومنه قوله تعالى (٦٩: ٩) وخضتم كالذى خاضوا) وإن شاع
فى «الذى» الافراد لأن له جمعاً وقد روى فى قوله «استوقد» لفظه، وفى قوله «ذهب»
الله بنورهم» معناه، والفصيح فيه مراعاة اللفظ أولاً، ومراعاة المعنى آخرًا. والتفتن
فى إرجاع الضمائر متفرقة ضرب من استعمال البلغاء، يقرر المعنى فى الذهن ويهيه
فضل تمكن وتأكيده، بما يحدث فيه من الروية والتوجه إلى الإحاطة بمعانى الختلفات.

أقول : استوقد النار طلب وقودها بفعله أو فعل غيره ، قالوا : إنه بمعنى أوقدها ويرجع إلى الأول بأنه طلب باضرامها وإيرائها أن تقد . يقال : وقدت النار تقد وتوقدت واتقدت واستوقدت - لازم - ومعنى الجملة في مناقبي اليهود قد تقدم آنفاً بالإجمال ، وسيمحيء تفصيله . وأما مناقبو العرب - الذين قال تعالى فيهم من سورتهم (٣: ٦٣) ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا (الآية) - فيقال فيهم : مثلهم وضقتهم في إسلامهم أولاً وكفرهم آخرًا كمثل فريق من الناس أوقد ناراً لينتفع بها في ليلة حالكة الظلام ، وينصر ماحوله مما عساه يضره ليتقيه ، أو لينتفعه ليجتنيه

﴿ فلما أضاءت ماحوله ﴾ يقال أضاءت النار والشمس وأضاءت - لازم - ويقال أضاء المكان وأضاءته النار أى أظهرته بضوئها . قال العباس (رض) في النوى صلوات الله وسلامه عليه

وأنت لما ظهرت أشرقت الأَرْضُ وضاءت بنورك الأفق

والمعنى المتبادر : فلما أضاءت النار ماحوله من الأمكنة والأشياء وتمكن من الانتفاع بها والاستضاءة بنورها ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ باطفاء نارهم بنحو مطر شديد نزل عليها ، أو عاصف من الريح جرفها وبددها ، وهذا بالنسبة إلى المثل ، وأما بالنسبة إلى المضروب فيهم المثل من العرب ، فالتور نور الاسلام الذي أضاء قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين (٢٢: ٣٩) أفن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه (وذهابه في الدنيا ما عرض لهم من الشك أو الجزم بالكفر حتى لم يعودوا يدركون منافعه وفوائده ، وأما ذهابه بعدها فأوله الموت . فإن المناقبي يرى بالموت أو قبيل خروج روحه منزله بعدها ، وبعده ظلمة القبر أى حياة البرزخ ، وبعدها موقف الحساب والجزاء (٥٧: ١٣-١٥) يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقبَس من نوركم - قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرِبَ بينهم بسورة باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم : ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ، وغرركم الأماني ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور) الخ الآية التالية ، وفي هاتين الآيتين أصدق بيان المراد من ذهاب الله بنورهم ، وكونه ليس إجباراً لهم على الكفر ، ولا عبارة عن سلبهم التمكن من الإيمان ، وإنما هو تعبير عن سنة الله تعالى في عاقبة فتنهم لأنفسهم الخ

وقال شيخنا في تطبيق المثل على اليهود وأمنائهم من هذه الأمة ما معناه : استوقدوا بفطرتهم السليمة نار الهداية الآتية بتصديقهم ، فلما أضاءت لهم يروقها ، ووضح لهم طريقها ، فاجأتهم التقاليد الموروثة ، و باغتتهم العادات المألوفة ، وشغلهم ما يتوهمونه فيها من المنافع والفوائد ، وما يتوقعونه في الاعراض عنها من المضار والمغاسد ، عن الاستعانة بذلك الضوء على سلوك ذلك الصراط المستقيم ، والتميز بين نهاره المشرق وظلمات ليلها البهيم ، بل استبدلوا هذا اللبجور ، بذلك الضياء والتور ، وهذا هو معنى ذهاب نورهم . وإنما قال (ذهب الله بنورهم) ولم يقل ذهب نورهم ، أو أذهب الله نورهم . للاشعار بأن الله تعالى كان معهم بموعته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت ، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التي فطر الناس عليها ، معتقدين صحة شريعته التي دعا الناس إليها ، وبأنه تخلى عنهم عند ما نكبوا عن تلك السبيل ، وعاقوا ذلك المورد السلسيل .

ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية في التوجه إليه وقصد اتباع هداه ، والاستضاءة بنوره الذي وهبه إياه ، فإذا أعرض عنه وكاه الله إلى نفسه ، وذهب بتوره . وإذا ذهب النور لا يبقى إلا الظلمة ، وما كان هؤلاء في ظلمة واحدة ، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض ، متعددة بتعدد أنواع التقاليد التي فتنوا بها ، وبتعدد أنواع الهداية التي أعرضوا عنها ، ولذلك قال : **وتركهم في ظلمات لا يبصرون** * شيئاً . حذف مفعول يبصرون إيذاناً بالعموم ، أي لا يبصرون مسلكاً من مسالك الهداية ولا يرون طريقاً من طرقها ، لأنه صرف عنايته عنهم بتركهم سنته ، وإهالهم هدايته . ووكلمهم إلى أنفسهم . ويأويل من وكاه الله إلى نفسه ، وحرمة توفيقه ، نسأل الله العافية

هذا المثل مضروب لغريق لا ترجى هدايته ، لأنه سد على نفسه جميع أبواب الهداية فلا يثق بعقله ولا بجواسه ولا بوجدانه إذا خالفت تقاليده - وعدم الابصار بذهاب النور غير كاف لتمثيل هذا اليأس والحرمان ، لجواز أن يلوح بارق ، أو يذر شارق ، أو يصيح طارق ، فتكون الهداية ، وتنكشف الغواية ، ولذلك عقبه بقوله تعالى **اللهم بكم عسى** * أي إنهم فقدوا منفعة السمع الذي يؤدي إلى النفس ما يلقى

المُرشدون إليها من الحجج القاطعة ، والدلائل الناصعة ، فلا يصيخون إلى وعظ واعظ ، ولا يصغون لتنبيه منبه ، « فما أضيع البرهان عند المقلد » بل لا يسمعون وإن أصاخوا ، ولا يفقهون إن سمعوا ، فكأنهم صم لم يسمعوا - وفقدوا منفعة الاسترشاد بالقول وطلب الحكمة من معاهدها ، فلا يسألون بياناً ، ولا يطلبون برهاناً ، وفقدوا خير منافع الأبصار ، وهو نظر الاستفادة والاعتبار ، فلا يرون ما يحل بهم من الفتن فينزعجوا ، ولا يبصرون ما تنقلب به أحوال الأمم فيعتبروا ، ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ عن ضلالتهم ، ولا يخرجون من ظلماتهم ، لأن من وقع في أرض فلاة في ليلة مظلمة وفقد فيها جميع حواسه لا يمكنه أن يسمع صوتاً يهتدى به ، ولا أن يصيح هو لينقذه من يسمعه ، ولا أن يرى بارقاً يؤمّه ويقصده ، فهو لا يرجع من تيهه ، بل يظل يعمه في الظلمات ، حتى يفترسه سبع ضار ، أو يصل إلى شفا جرف هار ، فينهار به في شر قراره (وما للظالمين من أنصار)

(١٩) أَوْ كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ، وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (٢٠) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ، كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ . وَأَبْصَارِهِمْ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

هذا هو مثل الفريق الثاني من هذا الصنف من الناس ، الذي كان أفرادهم ولا يزالون فتنه للبشر ، ومرضاً في الأمم ، وحجة على الدين ، لأنهم بغرورهم بتقليدهم التي اكتفوا بها من دينهم الموروث ، يعيشون بمقولهم ، ويلبسون بخيالاتهم ، ويحجون على مشاعرهم ومداركهم فيضعفونها ، ويضارعون الفطرة الإلهية فيصرعونها ، حتى يكون بعضهم كالجمادات (صم بكم عى) كما تقدم في المثل الأول ، ويألف البعض الآخر الظلمة بطول التقليد ، ويكون أفرادهم في نور البرهان كالحفافيش في نور الشمس ، ولكنهم أمثل من الفريق الذي ضرب له المثل الأول

لأن فيهم بقية من الرجاء ورمقاً من الحياة ، يوجههم إلى الاقتباس من نور الهداية كلما أضاءت لهم بروقها ، والمشي في الجادة كلما استبانوا طريقها ، ولكن تحول دون ذلك ظلمات التقاليد العارضة ، وتقف في السبيل عقبات البدع المعارضة ، وقد يعدم لاستماع قوارع الآيات التي تنذرهم بما حرفوا ، وضوابع الحجج التي تبين لهم كيف انحرفوا ، ولا يصدم عنها إلا أنها نزعهم إلى ترك ما صنفوا وألفوا ، وهجر ما أحبوا وألفوا ، وعدم المبالاة بسنة الآباء ، وقلة الاحتفال بعظمة الرؤساء ، فهم يتراوحون بين الخوف والرجاء ، مذنبين بين أهل الجحود وأهل اليقين (لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) ، ولا ينقطع منهم الأمل ، حتى ينقطع بهم الأجل .

ألا تراهم عندما يقرع أسماعهم من كتاب ربهم ما يبين فساد سيرتهم ، والتواء طريقهم ، كقوله تعالى في الذم على أمثالهم : وحكاية مالم يرهم من أقوالهم ، (٤٣) بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) الخ : وقوله في بيان ندمهم على التقليد ، عند ما يحل بهم الوعيد ، (٣٣) ربنا انا اطعنا سادتنا وكرهنا فاضلونا السبيلا) يأخذهم الزلزال ، ويتولاهم الاضطراب والقلق ، وتنشق لهم الظلمة عن فلق ، ويأبى في نفوسهم نور الهداية الفطرية فيمشون فيه خطوات ، ثم تحيط بهم الظلمات ، وينقطع بهم الطريق كما ألمعنا آنفاً . وأسباب غلبة الظلمات على النور هي موافقة ما عليه الجمهور ، والاخلاق إلى الهوى ، وتفضيل عرض هذا الأدنى ، وانتظار المغفرة ولو بما تألوده في معنى الشفاعة ، وتعنى الرجح من غير بضاعة (٧: ١٦٩) يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا سوا إن يأتيهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ؟) بلى هو عندهم مدروس بحديثات النحو والكلام ، واسكنه دارس الصوى والاعلام ، المنصوبة لهداية القلوب والاحلام ومقروء بالتجويد والانغام ، واسكنه متروك الحكم والأحكام ، يقرؤه الكسب الخطام ، لا لمعرفة الحلال والحرام ، ولا يتلونه لاصلاح القلب واللسان ، بتزكية النفس وتغذية الايمان ، ويكتبونه لشفاء الأبدان من الأسقام ، لا لشفاء ما في الصدور من الأوهام والآثام ، ولو كان له أنصار يدعون إليه ، وهداة يعتصمون به ويعولون عليه ، لتبددت الظلمات أمام الانوار ، ومحت آية الليل آية النهار .

تلك الارشادات الالهية بمنزلة المطر الذى ينزل من السماء، والزلازل والاضطراب الذى أشرنا إليه بمنزلة الرعد، واستبانة الصراط المستقيم الذى يلمع فى أنفسهم من ذلك كالبرق، والعادات والتقاليد والشهوات والخوف من ذم الجاهير عند العمل بما يخالفهم كالظلمات التى تصد عن سلوك الطريق بل تعميه على طالبه وتحجبه عنه، ولذلك قال تعالى فى تمثيل حال هذا الفريق ﴿أو كصيب من السماء﴾ أى قوم نزل بهم صيب، ووصفه بأنه من السماء مع العلم بأن الصيب لا يكون إلا من السماء للأشعار بأنه أمر لا يملكون دفعه وليس ملاكه فى أيديهم، ومن المعهود عند بلغاء العرب التعبير عما يلم بالناس مما لا دافع له بأنه نزل من السماء، ولا جرم أن تلك السوانح التى تسنح فى الأفكار، والالهامات الالهية، لأصحاب الفطرة الزكية، التى يكون من أثرها ما أشار إليه المثل، وتقدم التنبيه عليه، هى أمر روهى واقع، ماله من دافع.

قال تعالى فى وصف الصيب ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ الظلمات هى ظلمة الليل وظلمة السحب وظلمة الصيب نفسه، والرعد هو الصوت المعروف الذى يسمع فى السحاب عند اجتماعه أحياناً، والبرق هو الضوء الذى يلمع فى السحاب فى الغالب وقد يلمع من الأفق حيث لا سحاب، وقال مفسرنا الجلال السيوطى: إن الرعد ملك أو صوته، والبرق سوطه يسرق به السحاب، كأن الملك جسم مادى لأن الصوت المسموع بالأذان من خصائص الأجسام، وكأن السحاب حمار بليد لا يسير إلا إذا زجر بالصراخ الشديد والضرب المتتابع. وما ذكرناه هو الذى كان يفهمه العرب من اللفظين، وهو الذى يفهمه الناس اليوم، ولا يجوز صرف الالفاظ عن معانيها الحقيقية إلا بدليل صحيح، ولا سيما إذا صرقت عن معانى من عالم الشهادة الذى يعرفه الواضعون والمتكلمون، إلى معانى من عالم الغيب لا يعلمها إلا الله تعالى ومن أعلمهم الله تعالى بإياها بالوحى، ولكن أكثر المفسرين ولعوا بحشو تفاسيرهم بالموضوعات التى نص المحدثون على كتبها، كما ولعوا بحشوها بالقصص والاسرائيليات التى تلقوها من أفواه اليهود وألصقوها بالقرآن لتسكون ببياناً له وتفسيراً، وجعلوا ذلك ملحقاً بالوحى، والحق الذى لا مريّة فيه: أنه لا يجوز إلحاق شىء بالوحى غير ما تدل

عليه ألفاظه وأساليبه، إلا ما ثبت بالوحي عن المعصوم الذي جاء به ثبوتاً لا يخالطه الريب أقول : هذا ما قاله الأستاذ في الرعد والبرق رداً على الجلال فيما تبع فيه ما روى في التفسير المأثور عن بعض الصحابة والتابعين ، ولا يصح منه شيء ، وأمثلة ما رواه الترمذى بسند ضعيف من سؤال اليهود للنبي ﷺ وقد رأينا السيوطى لم يذكر من هذه الروايات شيئاً في تفسير الآية من كتابه (الدر المنثور) المخصص لنقل المأثور ، وكذلك ابن كثير ، وكأن هذا عده من الاسرائيليات مع عدم صحة الرواية فيه . وفسرها البغوى بمفهومها اللغوى . فقال في الرعد « هو الصوت الذى يسمع من السحاب » وفي البرق « هو النار التى تخرج منه » ثم قال : قال على وابن عباس وأكثر المفسرين : الرعد اسم ملك يسوق السحاب . والبرق لمعان سوط من نور يزجر به الملك السحاب . وقيل الصوت زجر السحاب وقيل تسبيح الملك ، وقيل الرعد نطق الملك والبرق ضحكه . وقال مجاهد : الرعد اسم الملك ويقال لصوته أيضاً رعد ، والبرق اسم ملك يسوق السحاب . وقال شهر بن حوشب : الرعد ملك يزجى السحاب فإذا تبددت ضمها ، فإذا اشتد غضبه طارت من فيه النار فى الصواعق ، وقيل : الرعد انخراق الريح بين السحاب ، والأول أصح اه . ولم يذكر الحديث المرفوع لأنه أضعف عنده مما ذكره فيما يظهر .

أقول : ولا شك عندى فى أن هذه الأقوال كلها مما كان يذيعه مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه بين المسلمين ، من الصحابة والتابعين ، ولو صح فى حديث مرفوع يسمع صحيح لا يمتثل أن يكون من الاسرائيليات لما وقع فيه مثل هذا الخلاف ، ولأمكن حمله على أن المراد به الإشارة إلى أن هذه المظاهر الكونية تقع بفعل ملك موكل بالسحاب ، ولكن لا حاجة إلى ذلك مع عدم صحة شيء فى المسألة والملائكة من عالم الغيب ، وهم لا يراهم الناس إلا إذا تمثلوا لنبي أو ولى على سبيل المعجزة أو الارهاص كتمثل الروح للسيدة مريم عليها السلام ورؤية الصحابة لجبريل فى حضرة النبي ﷺ بصورة رجل يسأل عن الإيمان والاسلام والاحسان والبرق من عالم الشهادة لا من عالم الغيب .

وقول البغوى : وقيل الرعد : انخراق الريح بين السحاب - يريد به قول

فلاسفة اليونان الذى اغتر به بعض المسلمين ، قال البيضاوى : والرعد صوت يسمع من السحاب . والمشهور أن سببه اضطراب اجرام السحاب واصطكاكها إذا حدثها الريح من الارتعاد اه . وهو قول باطل والسحاب بخار لا يحدث اضطرابه صوتا .

وقال تعالى فى أصحاب الصيب ﴿ يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ الصاعقة هى ما كان يعرفه العرب ويعرفه كل واحد وهو ما ينزل فى أثناء المطر والبرق والرعد فيصعق ما ينزل به ، بأن يهلك أو يلحقه ضرر ، وما تفسيرنا للبرق والرعد والصاعقة مع كونها معروفة لكل الناس إلا لأن المفسرين صرفوا أفهامهم عن المعروف إلى غيره ، كما حكى عن (ارسطو) حكيم قدماء اليونان أن تلاميذه سألوه عن تعريف الحركة ، فقام ومشى ، وما أنطقهم بالسؤال عنها على بدايتها إلا أنهم اعتادوا أن يسمعوا من الفلاسفة أقوالا فى الأمور الخلية . تجعلها غامضة خفية .

وأما حقيقة البرق والرعد والصاعقة وأسباب حدوثها فليس من مباحث القرآن لأنه من علم الطبيعة - أى الخلية - وحوادث الجوائى فى استطاعة الناس معرفتها باجتهدهم ولا تتوقف على الوحي . وإنما تذكر الظواهر الطبيعية فى القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال ، وصرف العقل إلى البحث الذى يقوى به الفهم والدين ، والعلم بالكون ينمى ويضعف فى الناس ويختلف باختلاف الزمان . فقد كان الناس يعتقدون فى بعض الأزمنة أن الصواعق تحدث من أجسام مادية لما كان يشمون فى محل نزولها من رائحة الكبريت وغيره ، ورجعوا عن هذا الاعتقاد فى زمن آخر ملاحظين أن تلك الرائحة لا تكون دائما فى محل الصاعقة . وقد ظهر فى هذا الزمان أن فى الكون سيلا يسمى سمونه الكهرباء ، من آثاره ماترون من التلغراف والتليفون والترامواى . وهذه الأضواء الساطعة فى البيوت والأسواق ، من غير شموع ولا زيت ولا ذبال وإنما تكون باتصال سلكين دقيقين كالخيوط التى تخاط بهما الثياب ، أحدهما يحمل أو يوصل السيل الكهربائى الذى يسمى سمونه الموجب ، والآخر يوصل السيل المسمى بالسالب ، و باتصال السلكين ، يتولد النور من تلاقى السيلين . و بانقطاعهما أو للفصل بينهما ينقطع السيلان فينقطع الضوء من المصابيح والحركة من الآلات

والكهر بائية موجودة في كل شيء ، والبرق في السحاب يتولد من اتصال نوعيهما الموجب والسالب بقدره الله تعالى ، كما يتولد في الأرض بعمل الانسان . وقد استنزل بعض علماء الكهر بائية قبس الصاعقة من السحاب إلى الأرض ، والصاعقة من أثر الكهر بائية ، وهي تفرغ السحاب طائفة منها في مكان لجاذب في الأرض يجذبه ، وكثيراً ما حصل الصعق لعمال التلغراف ، لما بين السحاب والاسلاك من الجاذبية . ومعرفة الناس بالسبب الحقيقي للصواعق هداهم إلى حفظ الابنية الشاهقة منها باتخاذ القضيب المعروف الذي يسمى قضيب الصاعقة ، فلا تنزل الصواعق على بناء رفع فوقه هذا القضيب ، ولا مجال في تفسير القرآن للتطويل في أمثال هذه المسائل الطبيعية لأنها تطلب من فنونها الخاصة بها ، فلنعد إلى بيان المثل

استحضر حال قوم مشاة في فلاة من الأرض نزل عليهم بعدما أقبل ظلام الليل صيب من السماء قصفت رعوده ، ولعلت بروقه ، وتصوّر كيف يهويون بأصابعهم إلى آذانهم كلما حدث قاصف من الرعد ، ليدفعوا شدة وقعه بسد منافذ السمع برؤوس الأنامل ، وعبر عن الأنامل بالأصابع هذا التعبير المجازي اللطيف للاشعار بشدة عنايتهم بسد آذانهم ، ومبالغتهم في إدخال أناملهم في صما ليخها ، كأن كل واحد منهم يحاول بمادهم من الخوف أن يغرس إصبعه كلها في أذنه ، حتى لا يكون للصوت منفذ إلى سمعه ، لما يحذره على نفسه من الموت الزؤام ، ومعالجة الحمام ، وهذا هو الجبن الخالص ، ومنتهى حدود الحماقة ، لأن سد الأذان ليس من أسباب الوقاية من أخذ الصاعقة ونزول الموت ، والموت فقد الحياة بمفارقة الروح للبدن ، وخلق الله له عبارة عن تقديره أو عن قبضه للروح وتوفيه للنفس

وقوله تعالى ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ يرشدنا في أثناء شرح المثل وتقريره إلى حال من ضرب فيهم المثل لئلا يذهلنا ما نتصوره من حال المشبه به عن حال المشبه المقصود بالذات . وهو أن التصلم والهروب من سماع آيات الحق والحذر من صواعق براهينه الساطعة أن تذهب بتقاليدهم التي يرون حياتهم الملية مرتبطة بها لا يفيدهم شيئاً ، لأن الله تعالى محيط بهم ، ومطلع على سرائرهم ، وعالم بما في

« تفسير القرآن الحكيم » « ١٢ » « الجزء الأول »

ضماؤهم ، وقادر على أخذهم أينما كانوا ، وفي أى طريق سلكوا ، فلا يهربون من برهان إلا ويفاجئهم برهان آخر ، كالغريق يدفعه موج ويتلقاه موج حتى يقذف به إلى ساحل النجاة ، أو يدفعه إلى هاوية العدم ، ولهذا قال (محيط بالكافرين) ولم يقل محيط بهم . أقول : فوضع الاسم المظهر موضع المضمرة للائذان بأنهم إنما كانوا كذلك بكفرهم ، وأن ذلك يرد في أمثالهم . والمراد بالاحاطة هنا إحاطة القدرة ، فمن لم يمتعه بأخذ الصاعقة أمانته بغيرها * تنوعت الاسباب والموت واحد * والمحيط بالشيء لا يمكن أن يفوته وينقلت من قبضته .

* يكاد البرق يخطف أبصارهم ، كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا * إذا لمع البرق بشدة مفاجئا من هو في ظلمة فانه يؤثر في بصره تأثيرا يكاد يخطفه ، والخطف هو الأخذ بسرعة ، ولكنه يثبت به جزءا من الطريق فيمشى فيه خطوات ثم يعتكر عليه الظلام ، وتستحوذ عليه المخاوف والالهام ، فيقف في مكانه ، أو يعود البرق إلى لمعانه ، ويحاجي هذا من حال الممثل بهم أنه عند ما يدعوهم الداعي إلى أصل الدين ، ويوضح لهم سبب ما هم فيه من البلاء المبين ، ويتلو عليهم الآيات البينة ، ويقيم لهم الحجج القيمة ، على أنهم تنكبوا الصراط السوى ، وأصيبوا بالداء الدوى ، يظهر لهم الحق فيعزمون على اتباعه ، وتسير أفكارهم في نوره بعض خطوات ، ولكن لا يعتمدون أن تعود إليهم عتمة التقليد وظلمة الشهوات ، وغلبة الأهواء والشبهات ، فتقيد الفكر وإن لم تقف سيره ، وإنما تعود به إلى الخيرة — كما تقدم في أول الكلام — ثم يتكرر النظر في تضاعفها بطريق الالتفات والالمام . وفيه : أنهم على سوء الحال وخطر المساك ، لم تنقطع منهم الآمال ، كما انقطعت من أصحاب المثل الأول الذين وصفوا بالصم البكم

العمى ولذلك قال فيهم * ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم * حتى لا ينجع فيهم وعظ واعظ ولا تفيدهم هداية هاد ، ولم يقل : إنه ذهب بنورهم كإذهب بنور أولئك وسلمهم كل أنواع الهدى والرشاد ، فوقع اليأس من رجوعهم إلى الحق . وقوله تعالى (ولو شاء الله) الخ رجوع إلى بيان حال من ضرب فيهم المثل . لا من تمة المثل ، وقد

كفى عنهم بالضمير هنا لأن المثل قد تم ، بعد ما ذكرهم في قوله (والله محيط بالكافرين) بالوصف الذي اقتضى التثني . هذا ما قاله شيخنا ، وهو أحد قوانين المفسرين ، ومنهم من جعله تنمة للمثل نفسه ، والمقصود من ضرب فيهم المثل ، على أن كلاما من المعنيين صحيح لا ينافي الآخر ، وكلام بعضهم يمنع الجمع فقد قال البغوي : ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم الظاهرة . كما ذهب بأسماعهم وأبصارهم الباطنة اه وهو خطأ بياني فإن الباطنة هي المقصود من الظاهرة بأسلوب التشبيه البليغ وهو الاستعارة . ومع هذا فقد جعله شيخنا في صنف منهم غير الموصوفين بقوله (صم بكم عى) وكلامه أظهر

﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ ليس عندى عن أستاذنا شىء ، في هذه الجملة ومعناها واضح لا يحتاج إلى تفسير ، ولكن قال بعض المفسرين : إن قدير بمعنى قادر ومثله كل صيغة مبالغة في أسمائه تعالى لأنه لا تفاوت فيها . وفيه أن المبالغة في الكلام ، لأجل التأثير في الأفهام ، فقلوه (علام الغيوب) أبلغ من قوله (عالم الغيب) ولكل منهما موقع ، وهما لما هدد المنافقين بأنه لو شاء أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ، علله بأنه على كل شىء قدير ، الاعلام بأن تعلق مشيئته يتصل به تعلق قدرته ، فما شاء كان قطعاً لأنه لا يعجزه شىء ، وتأثير الأسباب في مسبباتها منوط بمشيئته تعالى

﴿ تنبيه صادع . في تطبيق القرآن على ما هو واقع ﴾

(وظهور معاني الأمثال المضروبة للمنافقين ، في كثير من العلماء والعامة من المسلمين) عجب الأستاذ تفسير هذه الآيات بتنبيه ، ارتاع له الخامل والنبية ، ذلك أنه بين أن القرآن هاد ومرشد إلى يوم القيامة ، وأن معانيه عامة شاملة ، فلا يعد ويوعد ويعظ ويرشد أشخاصاً مخصوصون ، وإنما فيط وعده ووعيده وتبشيريه وإنذاره بالعقائد والأخلاق والعادات والأعمال التي توجد في الأمم والشعوب . فلا يغتر أحد بقول بعض المفسرين : إن هذه الآيات نزلت في المنافقين الذين كانوا في عصر النبي ﷺ فيتوهم أنها لا تتناولوه وإن كانت منطبقة عليه . لأنه لم يتخذ القرآن إماماً وهادياً ، ولم يستعمل عقله ومشاعره فيما خلقت له ، بل اكتفى

عن ذلك بتقليد آباءه ومعاصريه ، في كل ما هم فيه ، ذكر ذلك عند بيان وجه الاتصال بين الآيات السابقة وما بعدها ، فقال بعد تلاوة الآية التالية مامعناه :

(٢١) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

في الناس المنادون هنا وجهان : أحدهما . أنهم الذين يقولون : آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ذلك الايمان الذي يملك القلب ويصرف النفس في الأعمال ، وهو المقبول عند الله تعالى ، وإنهم آخذون بتقاليد ظاهرية ليس لها ذلك الأثر الصالح في أخلاقهم وأعمالهم . فهم يخادعون الله تعالى بالتلبس ببعض صور العبادات والأفعال و « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ^(١) والكلام على هذا لا يزال في الصنف الرابع من أصناف البشر المخاطبين بالقرآن كما تقدم ، فلا حاجة إلى بيان وجه الاتصال بين الآيات (الوجه الثاني) - وهو الرابع - أن الخطاب عام للناس كافة ، ووجه الاتصال بين الآيات على هذا أنه لما بين تعالى في أصناف الناس هذا الصنف الذي احتقر أفراداه نعم الله تعالى عليهم . واستعظموها وأكبروها على من قبلهم . فحرموا أنفسهم من أجل المزاي الانسانية . وأجلوا سلفهم حتى رفعوهم إلى مرتبة الربوبية . خاطب الناس عامة بأن يعبدوه ملاحظين معنى الربوبية والخالقية التي تشملهم ومن قبلهم من السلف فتتظمهم جميعاً في سلك العبودية للخالق تعالى شأنه . ولا يكون كذلك الصنف الخاسر الكفور بنعم المشاعر والعقل وهداية الدين . إذ لم يستعملوا عقولهم في فهم ما أنزل عليهم . بل اكتفوا بتقليد بعض

« ١ » حديث صحيح رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعاً وفي رواية أخرى لمسلم « إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم »

رؤسائهم وعلمائهم ، زاعمين أنه لا يقوى على فهم كتاب الله تعالى غيرهم ، كأن الله تعالى أنزل كتبه وخاطب بها نفراً معدودين في وقت محدود ، ولم يجعله هداية عامة للأمة ، وإنما ألزم سائر الناس في سائر الأوقات الاكتفاء باتباع أولئك الرؤساء وأتباعهم وأتباع أتباعهم وهم جراً^(١) ثم تركوا أتباعهم اتكالا على شفاعتهم ، واكتفاء بالانتساب إليهم ، وزعموا أن الله أعطاهم ما لا يعطى مثله لأحد سواهم ، وإن عملوا مثل عملهم ، تعالى الله عن الظلم والحجابه وهو ذو الرحمة التي لا تنتهى وذو الفضل العظيم

هذا النداء الإلهي المشعر بأن نسبة الناس الأولين إلى الله تعالى كنسبة الآخرين واحدة : هو الخالق وهم المخلوقون ، وهو المستحق للعبادة وهم المأمورون بها أجمعون ، - حجة علينا وعلى جميع من استن بسنة ذلك الصنف من قبلنا (قال شيخنا) وأخص طلاب علوم الدين بالذكر^(٢) فينبغي للطالب أن يوجه نفسه إلى فهم القرآن ، ويحملها على الاهتداء به ، فإذا هو فعل ذلك تظهر عليه آداب الإسلام التي أشار إليها الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله «أدبني ربي فأحسن تأديبي^(٣)» وإنما كان أدبه القرآن^(٤) ومن اشتغل بهذا حق الاشتغال وصل إلى معرفة أمراض

(١) مما يرد به عليهم : أن الذين يكتبون ويعلمون كثيرون . فإذا زعم المقلد أن الله تعالى أمر أتباعهم من غير نظر ولا استدلال وهم غير معينين فلاشك ان اتباع أى مذهب أو دين واجب ، ولا فرق بين سنى ومبتدع ولا بين مسلم وكافر

(٢) قد خص طلاب العلوم بالذكر لأنه يرى أن علماء الأزهر وأمثالهم من كبار الشيوخ هم الفريق الميثوس منهم ممن شرح حالهم ، بل قال لى : إن من تطول مدة طلبه للعلم فى الأزهر وأمثاله فانه يفقد الاستعداد للعلم

(٣) رواه العسكرى فى الأمثال من حديث على رضى الله عنه مرفوعاً وسنده ضعيف ، ومعناه كما قالوا صحيح

(٤) يشير الأستاذ إلى حديث عائشة عند أحمد ومسلم وغيرهما وقد سألها سعد بن هشام عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت «ألست تقرأ القرآن؟ قال قلت : بلى ، قالت : فان خلق نبي الله كان القرآن»

المسلمين الحاضرة ، ومنابع البدع التي فشت فيهم ، ومثارات الفتن التي فرقهم ، ويسرف علاج ذلك . وأن من ذاق حلوة القرآن لا ينظر في كتاب ولا يتلقى علماً^(١) إلا ما يفتح له باب الفهم في القرآن أو ما يفتح له بابه القرآن فيجده مرآته ، وما عدا ذلك مبعد عنه ، والبعد عن القرآن هو عين البعد عن الله تعالى وذلك هو الضلال البعيد

كل ما أمرنا به القرآن وأرشدنا إلى النظر فيه فلاشتغال به اشتغال بالقرآن ، فإذا قال : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) فذلك تنبيه وإرشاد إلى الاعتبار بما خلقنا من الحكم والأسرار ، وينبغي لنا البحث عنها كما قال في آية أخرى : (٥١ : ٢٠ ، ٢١ وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وإلى الاعتبار بتأريج من قبلنا ، كما قال في آية أخرى : (٤٢ : ٣٠ قل سبروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) وأمثال ذلك كثير لا يتعظ الإنسان بالقرآن فتطمئن نفسه بوعده وتحشع لوعيده إلا إذا عرف معانيه ، وذاق حلوة أساليبه ، ولا يأتي هذا إلا بمزاولة الكلام العربي البليغ مع النظر في بعض النحو ، كنحو ابن هشام وبعض فنون البلاغة كبلاغة عبد القاهر^(٢) وبعد ذلك يكون له ذوق في فهم اللغة يؤهله لفهم القرآن . قال الامام أبو بكر البقلاني : من زعم أنه يمكنه أن يفهم شيئاً من بلاغة القرآن بدون أن يمارس البلاغة بنفسه فهو كاذب مبطل

(١) قد يقال : إن هذا التمايضح في العلوم الشرعية ووسائلها من ائمتن العريمة دون العلوم العقلية والكونية والاجتماعية. والصواب أن هذه العلوم تفتح من باب الفهم في القرآن ما لا يفتحه علم الفقه وعلم الكلام ، وستأتي الإشارة الى ذلك .
(٢) يعنى في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لان كلا منهما مصداق جلى لاسمه، فهو يعلم قارئه البلاغة بعبارة ومباحثه ويعينه على جعلها ملكة في نفسه وذوقا له بأسلوبه وبلاغته . ولذلك حثنا الاستاذ على طبعهما وقرأهما لطلاب البلاغة في الجامع الازهر . وأما مختصر السعد ومطوله فلا يتعلم قارئهما الا الاصطلاحات الجافة التي تفسد ملكة البيان وتبعد بقارئها عن ذوق البلاغة

فهل يصلح لمسلم بلغ ورشد وطلب العلم أن لا يجعل القرآن إمامه ويتخذهُ نوراً يمشي به في الناس ويهتدي به في ظلمات البدع ؟

أمامنا عقبتان كؤودان لا نرتقي عما نحن فيه إلا باقتحامهما ، وهما الكسل وتسجيل القصور على أنفسنا بجهل قيمة نعم الله تعالى علينا . وصاحب هاتين الخلفتين يمقت كل من يرشده إلى الخير ويهديه للحق . لأنه يكافئه ضد طبعه . فلا يرى مهرباً من الاعتراف بضلاله وغيه . إلا بالقدح بمُرشدِهِ وناصحه على كل منا أن ينظر في نفسه وينظر في القرآن العظيم ويزن به ما هو عليه من العقائد والأخلاق والأعمال . فان رجح به ميزانه فهو مسلم حقيق فليحمد الله تعالى . والا فليسمع فيما يكون به الرجحان .

لا بد لنا من النظر الطويل والفكر القويم فيما نحن فيه . فمن لم يتفكر لم يهتد إلى الحق . ومن لم يهتد إليه فهو ضال . فإذا بعد الحق إلا الضلال) هذا ما تذكرناه من التنبيه الذي قلنا إن الأستاذ قفى به على تفسير الآيات التي وردت في صنفى المنافقين ومرضى القلوب بازاء القرآن ، ووصل به بينها وبين قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) الآيات . وهاك تفسيرها بالتفصيل

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ أقول : إن الله تعالى قد افتتح هذه السورة بذكر كتابه القرآن وكونه حقاً لا ريب فيه . وذكر بعد ذلك أصناف البشر تجاهه من المهتدين به بالقوة وبالفعل . ومن الكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهدى . ومن المنافقين المذبذبين بين المؤمنين والكافرين . وفيه ما يفهم منه أن هؤلاء متفاوتون ، منهم المستعد للاخلاص في الايمان ومن فقد الاستعداد له . وحكمة بيان حال الميؤس من إيمانهم أنهم ليسوا حجة على هداية القرآن بل هو حجة عليهم بعد هذا التمهيد جاءت هذه الآية والآيات الأربع بعدها مصرحات بدعوة جميع الناس إلى دين الله تعالى الحق ببيان أصوله وأساسه وهي (١) توحيد الألوهية بعبادة الله تعالى وحده . مع ملاحظة توحيد الربوبية (٢) القرآن . آيته الكبرى ودينه التفصيلي (٣) نبوة محمد ﷺ المرسل بهذا القرآن (٤) الجزاء في الآخرة على الكفر وأعماله بالنار . وعلى الايمان وأعماله بالجنة

تقدم تحقيق معنى العبادة ومعنى الرب في تفسير سورة الفاتحة و بدء الدعوة بالأمر بعبادة الله تعالى وحدده سنة جميع المسلمين قال تعالى (١٦: ٣٦) ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فكان كل رسول يبدأ دعوته بقوله (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وذلك أن جميع تلك الأمم كانت تؤمن بأن الله خالق الخلق هو ربهم ومدير أمورهم، وإنما كان كفرهم الأعظم بعبادة غير الله تعالى بالدعاء الذي هو ركن العبادة الأعظم في وجدان جميع البشر، وبغير الدعاء والاستغاثاة من العبادات العرفية، كالتقرب إلى المعبود بالنذور وذبح القرابين أو الطواف والتسبح به، إن كان جسما أو تمثالا ملكا أو بشر أو حيوان أو قبرا لإنسان، ومنهم من كان ينكر البعث أيضاً، ولما كان المخاطبون بالدعوة هنا أولا وبالذات في ضمن الدعوة العامة، وهم اليهود والعرب في المدينة وما حولها يؤمنون برب العالمين ووحدا نيته ويعبدون غيره إما بدعائهم مع الله أو من دون الله وإما بجملة شارعا يتبعونه فيما يصدره من أحكام التعبد أو الحرام والحلال - لما كانوا كذلك احتج على دعوتهم إلى توحيد الله تعالى بالتعبير بلفظ «رب» مضافا إليهم فقال (اعبدوا ربكم) ووصفه بما يدل على انفراده بالربوبية من الصفات المسماة عندهم وهي الخلق والتكوين والرزق فقال ﴿الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾ إلى آخر الآية التالية - أي إذا كان ربكم هو الذي خلقكم وخلق من قبلكم وهو الذي سخر لكم السماء والأرض لرزقكم ومنافعكم فيجب أن تعبدوه وحده ولا تشركوا بعبادته أحدا من خلقه فتجعلونه مساويا له وتفضلونه على أنفسكم تفضيلا من نوع تفضيل الخالق على المخلوق والرب على المربوب - وهاك تفصيل ذلك بما كتبه من سياق درس شيخنا مفصلا له تفصيلا :

يقول تعالى (يا أيها الناس) الذين يدعون الايمان بالله قولا بأفواههم ولم يس الإيمان الحق سواد قلوبهم، ولا كان له سلطان على أرواحهم، ويدعون الايمان باليوم الآخر ولم يستعدوا له بتهذيب أنفسهم واصلاح أعمالهم، وإنما يأتون ببعض صور العبادات بحكم العادات الموروثة، وقلوبهم مشغولة عن الله الذي لا تفيد العبادة عنده إلا بالنوجه إليه وابتغاء مرضاته، والشعور بعظمته وجلاله، فهم يخادعون الله بهذه الظواهر التي لا معنى لها، والصور التي لا روح فيها، وإنما يخدعون في

الحقيقة أنفسهم لأن أعمالهم هذه لا تفيدهم في الدنيا عزة وسعادة ولا تنجيهم في الآخرة
ويا أيها الناس الذين لم يرزقوا بهذا الخذلان ، ولم يبتلوا بهذا الافتتان ، سواء
كانوا من أهل الكفر أو من أهل الإيمان ، (اعبدوا ربكم) جميعا عبادة خشوع
واخلاص وأدب وحضور : كأنكم تنظرون إليه وتروونه ، فإن لم تكونوا ترونه فإنه
يراكم ، وينظر دائما إلى محل الاخلاص منكم وهو قلوبكم ، واستمعينوا على إشعار
نفوسكم هذا الخشوع والحضور والاخلاص في العبادة باستحضار معنى الربوبية
فانه هور بكم الذي أنشأكم فيما لانهامون (١٦ : ٧٨) وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
لعلكم تشكرون) وغذاكم بنعمه ، ونماكم بكرمه ، كما فعل مثل ذلك بسلفكم الصالح
فشكروه وعبدوه وحده مقرين بهذه التربية ، ومعظمين لهذه المنة ، فليدع ذلك
الصنف احتقار النعم التي هو فيها والاقتصار على تعظيم نعمة الله على السلف فقط
فإن هذا الرب العظيم (الذي خلقكم و) خلق (الذين من قبلكم) قدر بكم كما
ربى سلفكم ، ووهبكم من الهدايا مثلما وهبهم ، فمن شكر منهم ومنكم زاده نعماء
ومن كفر بهذه النعم جعلها عليه نقما . ليكون عبرة ومثلا للآخرين . وذلك من
رحمته بالعالَمين . وقد أقسم تعالى على ذلك في كتابه المجيد . فقال (١٤ : ٧) إئن شكرتم
لأزيدنكم وإئن كفرتم إئن عذابى لشديد) وفي القصص حياة لأولى الألباب .
وما يتذكر إلا من أناب .

هكذا أمر الله تعالى عباده أجمعين . بأن يعبدوه وحده مخلصين له الدين .
وأرشدهم بأعلامه إياهم أنه ساوى بينهم وبين من قبلهم في المواهب الخلقية - إلى
الاستقلال بالعمل . وقدر نعمته عليهم قدرها . ليعلموا أن كل النعم التي تكتسب
بالشكر - وهى ماعدا النبوة - مقدورة لهم . كما كانت مقدورة لمن قبلهم .
وأنهم إذا زادوا على سلفهم شكراً يزدادون نعماء . وما الشكر إلا استعمال المواهب
والنعم فيما وهبت لأجله . فالذين يقولون إئننا لا نقدر على فهم الدين بأنفسنا من
الكتاب والسنة لأن عقولنا وأفهامنا ضعيفة . وإنما علينا أن نأخذ بقول من قبلنا
من آباؤنا . لأن عقولهم كانت أقوى . وكانوا على فهم الدين أقدر . بل لا يمكن

أن يفهمه غيرهم ، أولئك كافرون بنعمة العقل ، وغير مهتدين بهذه الآية الناطقة بالمساواة في المواهب وسعة الرحمة والفضل . وكذلك الذين يتخذون وسطاء بينهم وبين الله تعالى لأجل التقريب إليه زلفى بغير ما شرعه لهم من الدين وما جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم الوسائل في الهداية والارشاد أو لأجل الشفاعة لهم عنده لينالوا جزاء ما شرعه من الدين . من غير طريق العمل به واتباع المرسلين - قد احتقروا نعم الله تعالى ولم يبتدوا بهذه الآية لأنهم قد جعلوا لله أنداداً يبغيون أن ينالوا بأشخاصهم ما حكم الله بأن يطلبه الناس بإيمانهم وأعمالهم . فجعلوا هؤلاء الأنداد شركاء لله يغيثونهم عن شريعته . شعروا بذلك أم لم يشعروا

يقول تعالى لجميع عباده : اعبدوني ملاحظين معنى الربوبية . والمساواة في المواهب الخلقية . التي تؤهلهم للسعادة الحقيقية ﴿ لعالمكم تتقون ﴾ فإن العبادة على هذا الوجه هي التي تعدكم للتقوى . ويرجى بها بلوغ غاية الكمال القصى . قال الأستاذ : الشائع أن « لعل » للترجى في ذاتها وإذا وقعت في كلام الله تعالى يكون معناها التحقيق . وغرض القائلين بهذا تنزيه الله سبحانه عن الترجى بمعناه اللغوى الآتى . ولكنه رعى للكلام بدون بيان . وحقيقته أن « لعل » للترجى ولكنها تستعمل للأعداد والتهيئة للشيء وفى هذا معنى الترجى . فحيث وقعت « لعل » فى القرآن فالمراد بها هذا المعنى الأخير كما فسرناها به آنفاً . وهو يستلزم التحقيق [لأن الأعداد بما تأتى « لعل » بعده أمر محقق لا ريب فيه] فإن العبادة على الوجه الذى أرشدت إليه الآية من ملاحظة معنى الربوبية الخ ما تقدم شرحه تطبع فى النفس ملكة خشية الله وتعظيمه ومراقبته . وتعالى همه العابد وتقوى عزيمته وإرادته . فتزكو نفسه وتنفر من المعاصى والذائل . وتأبى الطاعات والفضائل . وهذه هي التقوى . وإذا قلنا: إن الرجاء متعلق بالناس فالأعداد فيه ظاهر ومحقق ، إذ لو لم يخلقهم مستعدين للتقوى لما اتقاه منهم أحد .

ومعنى الترجى فى أصل اللغة : توقع حصول الشيء القريب بحصول سببه والاستعداد له . سواء كان الاستعداد كسبياً أو طبيعياً فاستعملنا « لعل » المعبرة عن التوقع فى سببه وهو الاستعداد أو الأعداد الذى هو جعل المرء مستعداً .

والتعبير عن المسبب بلفظ السبب شائع في استعمال اللغة ، وقد عدوا الترجى والتمنى من الأخبار وصيغهما صيغ انشاء فقط

وأقول : إن ما ذكره من الاعداد صحيح ولكنه غير مطرد والتحقيق أن الترجى عبارة عن كون الشيء مأمو لا بما يندكر من سببه غير مقطوع به لذاته بل يقع قوة أسبابه مع انتفاء الموانع ويتعلق تارة بالمتكلم وتارة بالمخاطب وتارة بالمتكلم عنه وتارة بغيرهما ، فنأمل قوله تعالى (٦٥: ١) لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) وقوله حكاية عن قوم موسى (٣٦: ٤٠) لعلنا نتبع السحرة) وقوله (وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب) الخ وقوله لموسى وهارون (فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) وقد علم أن هذا مقطوع بعدم وقوعه عند الله ولكن الرجاء فيه متعلق بموسى وهارون أى (٢٠: ٤٤) فقولاً له قولاً ليناً) راجعين به أن يتذكر أو يخشى لا قولاً غليظاً منفراً. وتأتى «لعل» نلاشفاق وإفادة التحذير من أمر وقعت أسبابه فكان بهامظنة الوقوع كقوله تعالى لرسوله ﷺ (١٨: ٦) فلعلك باخع نفسك) الآية وقوله (١١: ١١) فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك) الآية .

لما ذكر الله عباده بنعمة الإيجاد ونعمة المساواة فى المواهب التى تقتضى التقوى وعدم إطرأ السلف برفعهم إلى مقام الربوبية كما وقع من الذين (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله) ذكرهم ثانياً بعض خصائص الربوبية التى تقتضى الاختصاص بالعبودية ، فقال ﴿الذى جعل لكم الأرض فراشا﴾ بمأهدها وجعلها صالحة للافتراش والاقامة عليها والارتفاق بها ، أى فهو القادر على جلائل الفعال ، العظيم الذى يستحق العبادة والاحلال ، المنعم بجميع النعم ، الجدير بأعلى مراتب الشكر ، جعل الأرض بقدرته فراشا لأجل منفعتكم ﴿ والسما بناء ﴾ متماسكا لكيلا تقع على الأرض فتسحقكم . السما مجموع ما فوقنا من العالم والبناء وضع شيء على شيء بحيث يتكون من ذلك شيء بصورة مخصوصة : وقد كون الله السما بنظام كنظام البناء . وسوى أجرامها على هذه الصفة المشاهدة وأمسكها بسنة الجاذبية فلا تقع على الأرض : ولا يصطدم بعضها ببعض ، إلا إذا جاء يوم الوعيد

وبطل نظام هذا العالم ليعود في خلق جديد ، والواجب ملاحظته في هذا المقام :
هو تصور قدرة الله تعالى وعظمته ، وسعة فضله ورحمته

ثم بعد أن امتن بنعمة الابداد ، ونعمة الفرائض والمهاد ، ونعمة السماء ، التي
هي كالبناء ، ذكر نعمة الامداد ، الذي تحفظ به هذه الاجساد ، وهي مادة الغذاء ،

التي بها النمو والبقاء ، فقال ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾
الثمار ما يخصها من النبات نجما كان أو شجراً : يصلح الزارع والغارس الأرض ،

ويبذر البذر ، ويفرس الفسيل ، ويتعاهد ذلك بالسقي والعذق ، فيكون له كسب
في رزقه ، وليكنه ليس له كسب في إنزال المطر الذي يسقي به ، ولا في تغذية

النبات بماء المطر أو النهر المختمع من المطر ، وبأجزاء الأرض وعناصرها الأخرى ،
ولا في تولد خلاياه التي بها نموه ولا في إثماره إذا أثمر ، وإنما كل ذلك بيد الله

القدير - فعملينا أن نتفكر في ذلك لنزداد تعظيماً له واجلالاً فلا نعبد معه أحداً
وبعد أن عرفنا الله تعالى بأنفسنا ، وبنعمته علينا وعلى سلفنا . وبعد أن عرفنا

ذاته الكريم . بأنار رحمته ومنه العظيمة ، وصرنا جديرين بأن نعرف أن العبد
عبد فلا يعبد . وأن الرب رب فلا يشرك به ولا يحجد . قال تفرعاً وترتيباً على

ما سبق ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً ﴾ من سلفكم الخلقين مثلكم تطلبون منهم
ما لا يطلب إلا منه . وهو كل ما تعجزون عنه . ولا يضل كسبكم إليه ، لا تفعلوا

ذلك فانهم في الخلق والعبودية مثلكم
الانداد جمع ند بكسر النون وفسر بالشريك وهو في اللغة المضارع والكف .

يقال فلان ند فلان ومن أنداد فلان أى يضارعه ويمائله ولو في بعض الشؤون . والانداد
الذين اتخذوا في جانب الله هم الذين خضع الناس لهم وصمدوا إليهم في بعض

الحاجات ، بمعنى يعتقده فيهم الخاضعون المخاطبون بترك الانداد أولاً وبالذات ،
وهم مشركو العرب وأهل الكتاب . فالعرب كانت تسمى ذلك الخضوع والضمود

عبادة إذ لم يكن عندهم وحى ينهاهم عن عبادة غير الله فيتحاموا هذا اللفظ « العبادة »
ويستبدلوا به لفظ التعظيم أو التوسل مثلاً تأويلاً لظواهر نص التنزيل . وأما أهل

الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم وروهبانهم أنداداً وأرباباً فكانوا يؤولون فلا يسمون

هذا اتخاذ عبادة ولا أولئك المعظمين آلهة أو أنداداً أو أرباباً . و الفرق بين اتخاذ بالفعل والتسمية بالقول . والجميع متفقون على أنه لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله وإنما كانوا يسمون دعاءهم غير الله والتقرب إليه توسلاً واستشفاعاً . ويسمون تشريعهم لهم العبادات وتحليلهم لهم المنكرات . وتحريمهم عليهم بعض الطيبات . فقها واستنباطاً من التوراة . إلا أن من النصارى من لا يتحامون التضريح بعبادة السيدة مريم وبعض القديسين استعمالاً للفظ في مدلوله اللغوى

وصور العبادة تختلف عند الأمم اختلافا عظيماً وأعلاها عند المسلمين الأركان الخمسة والدعاء . وقالوا : كل عمل غير محظور تحسن فيه النية لله تعالى فهو عبادة . كأن المعنى الذى يجعل جميع الأعمال عبادة هو التوجه إلى الله تعالى وحده وابتغاء مرضاته ، ولها عند أهل الكتاب صور أخرى . والمؤولون يخصوصون هذه الصور بالله تعالى وإذا ابتدعوا صورة فيها معنى العبادة يسمونها باسم آخر يستحلونها بل يستحبونها به . ولكنهم لا يخرجون بالتسمية أو التأويل عن حيز من يتخذ من دون الله أنداداً كما ذكر الله عنهم في قوله (٩: ٣٠) اتخذوا أربابهم و رهبانهم أرباباً من دون الله) ولم يكن منهم سوى التوسل بهم والأخذ فى الدين بقولهم تقليداً لهم بدون فهم لما جاء على لسان الوحي ، كما صرح ذلك عن رسول الله ﷺ . وقد ماء الفرس جعلوا لله نداً فى الخلق والابجاد ، فقالوا : إن للخير إلهاً هو الاله الأول . وإن للشر إلهاً يضاده . وليس النهى فى الآية عن هذا الند الشريك لأن المخاطبين لا يدينون به كما قلنا وتبدل عليه الآيات السكثيرة

اذلك وصل النهى بقوله عز وجل ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ أى والحال أنكم تعلمون أنه لا ند له لأنكم إذ سئلتهم : من خلقكم وخلق من قبلكم ؟ تقولون الله . وإذا سئلتهم : من يرزقكم من السموات والأرض ومن يدبر الأمر ؟ تقولون الله . فلماذا تستغيثون إذن بغير الله وتدعون غير الله ؟ ومن أين أتيتم بهذه الوسائط التى لا تنفع وادعيتهم أنهم شفعاؤكم عند الله ؟ ومن أين جاءكم أن التقرب والتوسل إلى الله يكون بغير ما شرعه من الدين حتى قلتم (٣: ٣٩) ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله) يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خفكم . وخلق وسائطكم وشفعاءكم .

وأعدكم جميعاً للتقوى التي تقرّبكم إليه زلفى ، وساوى بينكم فى أنواع المواهب إلا أنه خصّ الأنبياء عليهم السلام بالوحي ليعلموكم ما اخطأ نظركم ورأيكم فيه ، فعلمكم أن تهتدوا بما جاءوا به ، فإن صد الرؤسّين عن ترك تعاليدهم واتباع الوحي من غير زيادة فيه ولا نقصان منه خوفهم الرؤساء . فقد آثروا رؤساءهم على الله وجعلوهم له أنداداً ، وإن صد الرؤساء عن هذا الاتباع توقع زوال المنفعة والجاه لدى الرؤسّين فقد اتخذوهم أنداداً ، فالنذهو المكافئ والمثل ، وأنتم بترككم الحق لخوفهم ورجائهم تفضلونهم على الله تعالى وتجمّلونه أقلّ الأنداد تعظيماً ، ففروا رحمكم الله إلى الله ، ولا تخافوا غيره ولا ترجوا سواه ، فعار على من يعرف الله أن يؤثّر رضاه أحد على رضاه ، لافرق بين رئيس ومرءوس ، وتابع ومتبوع ، بل هذا لا يقع من مؤمن حقيقى لأن الله تعالى يقول (١٧٥:٣) فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين

(٢٣) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

(٢٤) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ .

قلنا: إن الكلام من أول السورة فى القرآن وتفصيل أحوال الناس فى الإيمان به وعدمه ، وهذه الآية دليل على عدم الخروج عن هذا الموضوع فى كل ما تقدم فالآيات متصل بعضها ببعض ، كحبات من الجوهر نظمت فى سلك واحد ، فانه بعد ما ذكر المتقين الذين يهتدون بالقرآن وعلاماتهم ، وبين خصائصهم وصفاتهم ، وذكر الجاحدين المعاندين ، وما هم عليه من العمى عن جليلة الحق المبين وما رزئوا به من الصمم المعنوى حتى لا يسمعون الحجج والبراهين ، وما أصيبوا به من البكم بالنسبة لقول الحق أو سؤال المرشدين ، ثم ذكر المذبذبين بين ذلك فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وذكر فرقهم وأصنافهم ، وبين خلائقهم وأوصافهم ، وضرب لهم الأمثال ، ونضلهم فى ميدان الجدل ، بسهام الحجج النافذة ، وسيوف

البراهين القاطعة - بعد هذا كله نهداهم بالكتاب الذى يدعو إليه ويناضل عنه
ويكافح دونه (ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه) فقال :

﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ أى يا أيها
الناس عليكم بعد أن تنسلوا من مضايق الوسواس ، وتنسلوا من مآرق الهواجس
وتنزعوا ما طوقكم به التقليد من القلائد ، وتكسروا مقاطر ماورثتم من العوائد ،
أن تهرعوا إلى الحق فقطلبوه ببرهانه ، وأن تبادروا إلى مادعيتكم إليه فتأخذوه
بريانه ، فإن خفى عليكم الحق بذاته ، فهذه آية من أظهر آياته ، وهى عجركم عن
الإتيان بسورة من مثل سور القرآن من رجل أمى مثل الذى جاءكم به ، وهو عبدنا ورسولنا محمد
ﷺ ، وإن عجركم عن الإتيان بسورة من مثله تساوى سورة فى هدايتها ، وتضارعها
فى أسلوبها وبلاغتها ، وأنتم فرسان البلاغة ، وعصركم أرقى عصور الفصاحة ،
وقد اشتهر كثير منكم بالسبق فى هذا الميدان ولم يكن محمد ﷺ من يسابقكم
من قبل فى هذا الزمان ، لأنه لم يؤت هذا الاستعداد بنفسه ، ولم يتمرن عليه
أو يتكلفه لمباراة أهله - فاعلموا أن ما جاء به بعد أربعين سنة فأعجزكم بعد سبقكم
لم يكن إلا بوحى إلهى ، وإمداد سماوى ، لم يسم عقله إلى علمه ، ولا بيانه إلى
أسلوبه ونظمه .

وعبر عن كون الريب بأن للأيذان بأن من شأن هذا التنزيل أن لا يرتاب
فيه ^(١) لأن الحق فيه ظاهر بذاته ، يتلأأ نوره فى كل آية من آياته ، ولكن
إذا لم تكن للمرء عين صحيحة فلا غرو أن يرتاب والصحيح مسفر

« ١ » هذا مبنى على قاعدة معروفة فى العربية ، وهى أن شرط « إذا » يقتضى
الوقوع ، و شرط « إن » يقتضى عدم الوقوع أو الشك فيه ، وكذا ما شأنه عدم
الوقوع لذاته وإن وقع لعارض ، كما فى هذه الآية ، ومرتبضحيح هذا الشأن فى تفسير
(لا ريب فيه) ومثله ما شأنه عدم الوقوع أو ما ينزل منزله لآلذاته بل بسبب آخر
كالمنوع شرعاً فمن شأنه ألا يقع من مؤمن مدع للشرع وإن وقع لضعف فى الإيمان
وتغلب للشهوات كقوله تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) وقوله (إن جاءكم فاسق
بنبأ فتبينوا) وراجع تفصيل هذه القاعدة فى (دلائل الإعجاز) للإمام عبد القاهر الجرجانى

والتنزيل من مادة النزول كالإنزال وتقدم تفسيره إلا أن صيغة «التفعيل» الدالة على التدرج أو التكميل. تفيد أن القرآن نزل بنحو ما متفرقة وهو الواقع وصيغة أنزل لا تنافي فيه وقوله تعالى (من مثله) فيه وجهان (أحدهما) أن الضمير في «مثله» للقرآن المعبر عنه بقوله (مما نزلنا) (والثاني) أنه لعبدنا . قال شيخنا وهو أرجح بدليل «من» الداخلة على «مثله» الدالة على الشئ، أي فإن كان أحد ممن يماثل الرسول بالأمية يقدر على الإتيان بسورة فليفعل قال تعالى ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ الذين يشهدون لكم أنكم أتيتهم بسورة من مثله، وهؤلاء الشهداء هم غير الله تعالى بالضرورة أي ادعوا كل من تعتمدون عليه ليشهد لكم ﴿ من دون الله ﴾ أو ادعوا كل أحد غير الله تعالى ليؤيد دعواكم ، كما أيد الله تعالى دعوة عبده محمد ﷺ ، وانظروا هل يغنيكم دعاؤكم شيئاً ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في دعواكم [أن عندكم فيه ريباً ، وإنما يصدق المرتاب في ريبه إذا خفيت الحجة ، وغلبت الشبهة ، وكان جاداً في النظر ، فهو يقول : إن كنتم صدقتم في أنكم مرتابون فلا بدكم ما يحص الحق تجدوا في الفكر ، ولا تتوانوا في النظر ، وتدبروا هذا الكتاب وها هو ذا معروض عليكم ، واثبوا بسورة واحدة من مثل هذا النبي الأُمي ، فإذا أمكن لكم ذلك فلخاطر الريب أن يمر بنفوسكم ، والافما وجه إعراضكم عن عودته ، وإبطائكم عن تلبيته ؟]

(أقول) هذا محصل سياق الأستاذ في الدرس وقد قرأه بعد كتابتنا له وكتب العبارة الأخيرة لإيضاحه بخطه بعد طبع التفسير في المنار . وترجيحه كون الضمير في مثله للنبي ﷺ خاص بهذه الآية وهو لا ينافي العجز عن الإتيان بسورة مثل سور القرآن من غير الأميين ورجح الجمهور الأول لموافقة الآيات الأخرى في هذا التحدي . وأول ما نزل في هذا المعنى : قوله تعالى في سورة الإسراء (١٧ : ٨٨ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ثم نزل بعدها آية يونس (١٠ : ٣٨ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) ثم آية هود (١١ : ١٣ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مقتريات وادعوا من استطعتم من

دون الله ان كنتم صادقين) وهذه السور الثلاث نزلت بمكة متتابعات كما رواه العلماء بهذا الشأن ولكن في رواية عن ابن عباس ان سورة يونس مدنية والرواية الأخرى هي الموافقة لقول الجمهور وأسلوبها فانه أسلوب السور المكية . وقال بعض علماء الكلام ان الله تعالى تحدى الناس أولا بالقرآن في جملته في آية الاسراء ثم تحداهم بعشر سور مثله في آية هود ثم تحداهم بسورة واحدة مثله في آية يونس وكل ذلك بمكة ثم بسورة من مثله في آية البقرة بالمدينة . وهذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول والظاهر ان التحدى في سورتي يونس وهود خاص بدمض أنواع الاعجاز وهى ما يتعلق بالاخبار كقصص الرسل مع أقوامهم وهو من أخبار الغيب الماضية التى لم يكن لمن أنزل عليه القرآن علم بها ولا قومه كما قال تعالى عقب قصة نوح من سورة هود (١١ : ٤٩) تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) وكما قال في سورة القصص عقب قصة موسى (٢٨ : ٤٤) وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر) إلى آخر الآية ٤٦ وكما قال في سورة آل عمران عقب قصة حريم (٣ : ٤٤) ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) الآية .

ولعل وجه التحدى بعشر سور مفتريات دون سورة واحدة هو ارادة نوع خاص من أنواع الاعجاز وهو الاتيان بالخبر الواحد بأساليب متعددة متساوية في البلاغة وإزالة شبهة تخطر بالبال بل بعض الناس أوردوها على الاعجاز بالبلاغة والاسلوب وهى أن الجملة أو السورة المشتملة على القصة يمكن التعبير عنها فى اللغة بعبارات مختلفة تؤدى المعنى ولا بد أن تكون عبارة منها يفتى إليها حسن البيان مع السلامة من كل عيب لفظى أو معنوى يخل بالفهم أو التأثير المطلوب فمن سبق إلى هذه العبارة أعجز غيره عن الاتيان بمثلها لأن تأليف الكلام فى اللغة لا يحتمل ذلك ومن الامثال التى وضحوها بها هذه الشبهة قوله تعالى (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟) قالوا ان هذه الجملة تحتمل بالتقديم والتأخير بضعة ترايب أفصحها وأبلغها وأسلمها من الضعف والابهام تركيب

الآية . ولكن القرآن عبر عن بعض المعاني وبعض القصص بعبارات مختلفة الأسلوب والنظم من مختصر ومطول ، والتحدى بمثله لا يظهر في قصة مخترعة مفتراة بل لابد من التعداد الذي يظهر فيه التعبير عن المعنى الواحد والقصة الواحدة بأساليب مختلفة وتراكيب متعددة كما نرى في سورة فتح بـ ٢٨ سورة مائدة في هدايتها وبلاغتها وأسلوبها واشتمالها على الحكيم والعبر والاسوة الحسنة المعينة على التربية والتهذيب كما هو شأن القرآن في قصصه . كأنه يقول أدع لكم مافي سور القصص من الاخبار عن الغيب ، واتحداكم انتم وسائر الذين تستطيعون الاستعانة بهم على الاتيان بعشر سور مثل سور القرآن في قصصها ، مع السماح لكم بعملها قصصا مفتراة من حيث موضوعها ، فان جئتم به مثل سورة القصص ، في سائر مزاياها اللفظية والمعنوية ، فأنا أعترف لكم بدحض حجتى عليكم

وأما اكتشافه في سورة يونس بعدها بالتحدى بسورة واحدة في مقام الرد على قولهم « افتراء » فلأنه لم يقيد بكونها مفتراة ، لا من باب التخفيف عليهم بالواحدة بعد عجزهم عن العشر ، فيدخل فيه خبر الغيب والقرآن الصدق .

فعلم من هذا التفصيل ان التحدى بإعجاز القرآن لذاته في جملة والتحدى ببعض انواع إعجاز في عشر سور مثله و بسورة مثله - كلاهما ثابت في السور المسكية قبل نزول آية البقرة وسورتها بعد الهجرة في المدينة المنورة ، ولما كان كفار المدينة الذين يوجه اليهم الاحتجاج أولا وبالذات هم اليهود وهم يعدون اخبار الرسل في القرآن غير دالة على علم الغيب تحداهم بسورة من مثل النبي ﷺ في أميته ليشمل ذلك وغيره مع بقاء التحدى المطلق بسورة واحدة مثله على إطلاقه غير مقيد بكونه من مثل محمد ﷺ وسيأتى بحث وجوه هذا الإعجاز قريبا

ثم قال تعالى ﴿ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ الخ أى فان لم تأتوا بسورة من مثله ، ومجتنبوا دليله من أصله ، وما أنتم بفاعلين ، لان هذا ليس في طاقة الخلقين ، فاتقوا النار التي أعدت لامثالكم من الكافرين ، الذين يحدون الحق بعد البرهان المبين ، وقوله تعالى (ولن تفعلوا) جملة معترضة بين الشرط وجوابه وهي مقصودة هنا في ذاتها لما فيها من تقوية الدليل وتقرير عجزهم بما يشير حميتهم ويعزيتهم

بتكلف المعارضة ، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا النفي الاستقبالي المؤكد أو المؤبد من عاقل كالنبي عليه الصلاة والسلام في أمر ممكن عقلا لولا أن أنطقه الله الذي خصه بالوحي ، وهو الذي يعلم غيب السموات والأرض ، بأنه غير ممكن لأحد وعبر عن نفي وقوع الفعل منهم بأن التي يعبر بها عما يشك في شرطه ، أو يحزم المتكلم بعد وقوعه ، ومقتضى القاعدة أن يكون الشرط هنا باذا لأن الحق أنهم لن يفعلوا كما صرحت به الآية مع القطع بأن الله تعالى منزّه عن الشك . ولكن القواعد التي تذكر في علم البلاغة قد ينظر فيها إلى حال المخاطب لا حال المتكلم ، والمعول عليه هو ما يقصد المتكلم أن يبلغه من نفس المخاطب ويودعه في ذهنه ، فوهنا يخاطب الله المرتابين ، والذين هم في جحودهم وعنادهم كالوائقين الموقنين ، خطابا يؤذن أوله بأن عدم الإتيان بما نحداهم به مشكوك فيه ، ولازمه أن المعارضة جائزة منهم ، وداخله في حدود إمكانهم ، خاطبهم بهذا مراعاة لظاهر حالهم التي توميء إلى القدرة على المعارضة ، وتشير إلى إمكان الإتيان بالسورة . ثم كر على هذا الايدان بل الإيهام بالنقض بلا تلبث ولا ترايث ، وأبطل مراعاة الظاهر بل حولها إلى تهكم ، بالنفي المؤكد الذي ذهب بذلك الذماء ، واستبدل اليأس بالرجاء ، كأنه يقول إن إعراضكم عن الإيمان ، بعد سماع هذا القرآن . الذي أفاض العلوم على أمي لم يترتب في معاهد العلم ، وأظهر معجزات البلاغة على من لم تكن يعرف منه التبريز بها في نثر ولا نظم ، يدل على أنكم تدعون استطاعة الاتيان بسورة من مثله وما أنتم بمستطيعين ، ولو استعنتم عليه بجميع العالمين . (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)

كان يتحداهم بمثل هذه الآيات الصاعدة التي تثير النخوة ، وتهيج الغيرة مع علو كعبهم في البلاغة ورسوخ عرقهم في أساليبها وفنونها ، في عصر ارتقت فيه دولة الكلام ، ارتقاء لم تعرف مثله الأيام ، حتى كانوا يتبارون فيه ويتنافسون . ويباهون ويفاخرون ، ويعقدون لذلك الحجامع ويقيمون الأسواق ، ثم يطيطرون بإخبارها في الآفاق ، ومع هذا لم يتصد أحد منهم للمعارضة ، ولم ينهض بلميسغ

من مصاقعهم إلى المناهضة (أقول) بل تواتر عنهم ما كان « من الاعراض عن المعارضة بأسلات أسنتهم ، والفرز إلى المقارعة بأسنة أسلمهم » ^(١) وسفك دماهم بأسيافهم ، وتخريب بيوتهم بأيديهم ، أفلم يكن الأجدر بمداة قریش وفحولها . وغرر بني معد وحجولها ، أن يجتمعوا على تأليف سورة يبلاغتهم التي كانوا يتبارون فيها بسوق عكاظ وغيرها من مجامع مفاخراتهم ويؤثروا هذا على سوق الخديس بعد الخديس من صناديدهم إلى يثرب لقتال محمد ﷺ ومن آمن به « رض » في بدر وأحد ووراء الخندق لو كان ذلك مستطاعا لهم ؟ ومثل هذا يقال في اليهود الذين كانوا بجواره في المدينة فأمנם على دينهم وأموالهم وأعراضهم ، فأبوا إلا إعانة مشركي قومه عليه حتى اضطروه إلى قتلهم ، وإخراج بقية السيف من ديارهم . فلا شك أن الله تعالى قد رفع هذا الكلام إلى درجة لا يرتقي البشر إليها ، وهو تعالى جده العالم بمبلغ استطاعتهم ، والمالك لأعنة قدرتهم .

قال المتكلمون في بلاغة القرآن إننا نجد لم يلتزم شيئا مما كانوا يلتزمون بسجعهم وإرسالهم ، ورجزهم وأشعارهم ، بل جاء على النظم الفطري ، والأسلوب العادي ، الذي يتسنى لكل إنسان أن يحذوا مثاله ، ولكنهم عجزوا فلم يأتوا ولن يأتى غيرهم بسورة من مثله ، ثم نلاحظ أيضاً أن القرآن بهذا الأسلوب قد تحدى به كل من بلغه من العرب ، على تفرق ديارهم ، وتنائي أقطارهم ، وأرسل الرسول إلى الأطراف يدعو الناس إلى الإيمان به ، فعمت الدعوة وبلغت مبلغها ولم ينبر أحد للمعارضة كما قلنا . ألا يدل هذا على نهاية العجز وعمومه ، وإحساس كل بليغ بالضعف في نفسه عن الانبراء لمبائراته ، والتساعى لمحاكاته ، وعلى أن الله تعالى جملة فوق القدر ، خارق لما يعتاد من كسب البشر ؟ بلى ، وإن لهذا الإعجاز وجهين . أحدهما : كونه معجزا بذاته لأنه في مرتبة لا يمكن لبشر أن يرتقي إليها ، وثانيهما : أنه جاء على لسان أمي لبث أربعين سنة لم يوصف بالبلاغه ولم يؤثر عنه شيء من العلم . وقد ذكروا وجوها أخرى للإعجاز ينطوى عليها القرآن . منها قوله هنا (ولن تفعلوا) بناء على أن المخبر هو الله تعالى . عالم الغيب وما يكون في

المستقبل . ومن فائدة هذا القول في عهد نزوله . وقبل ظهور تأويله : أن قرعه لسمع من لا يؤمن بالغيب يقتضى أشد التحريض على المعارضة التى يظهر بها العجز ويقوم البرهان . بالاعجاز المقتضى للايمان . لولا مكابرة المستكبرين لوجدانهم . وجحود ألسنتهم لما استيقنته قلوبهم . (٢٧ : ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين (وأما من يؤمن بالغيب ويعتقد الخوارق فما عليه إلا أن ينتهى إلى عجزه ويبادر إلى الايمان به ورسالة من أنزل عليه . للعالم القطعى بأنه لا يمكن لعاقل أن يجزم بذلك إلا اذا كان مطلعاً على الغيب . فهو خبر عن الله عز وجل .

قال تعالى مخاطباً للفرعيين بعد تسجيل العجز عليهم ﴿ فاتقوا النار ﴾ وهى موطن عذاب الآخرة تؤمن بها لانها من عالم الغيب الذى أخبر الله تعالى به ولا نبحت عن حقيقتها . ولا نقول انها شبيهة بنار الدنيا ولا إنها غير شبيهة بها . وإنما ثبت لها جميع الأوصاف التى وصفها الله تعالى بها كقوله ﴿ التى وقودها الناس والحجارة ﴾ المراد بالحجارة الاصنام كما فى قوله تعالى (انكم وماتعبدون من دون الله حطب جهنم) ولا يسبقن إلى الفهم أنها لا توجد إلا بوجود الناس والحجارة إذ يصح أن يكونوا وقودها بعد وجودها . والوقود بالفتح ما توقد به النار . وبالضم مصدر وقد . وسمع المصدر بالفتح أيضاً

وقال بعضهم فى تفسير « وقودها » إن الناس بأعمالهم وعبادة بعضهم بعضاً وانحرافهم عن صراط الحق المستقيم . والحجارة بعبادة الناس لها - سببان فى إيجاد النار وإعدادها لهم . فبذلك كانوا كالوقود الذى تضرع به النار . وفى الكلام تقديم السبب ، وهو الناس والحجارة على المسبب ، وهو قوله تعالى (أعدت للكافرين) وبهذا التفسير يظهر الحصر فى جملة (وقودها الناس والحجارة) فانها اسمية معرفة الطرفين . وخص الحجارة بالذكر لأنها أظهر المعبودات عند العرب والمراد بالكافرين الذين لا يجيبون دعوة الانبياء عليهم السلام والذين ينحرفون عن أصولها بعد الأخذ بها لبدع يبتدعونها . وتقاليد يحدثونها .

وتأويلات يلفقونها . فهؤلاء هم الذين أعدت وهبئت النار لهم لأنهم الذين يستحقون الخلود فيها ، ومن وردوها وروداً وانتهى إلى موطن آخر فذلك الموطن هو الذي أعد له . وليس بعد الدنيا موطن إلا الجنة جعلنا الله من أهلها بالتوفيق للتقوى ، أو النار نعوذ بالله منها ومما يقرب إليها من قول وعمل

فصل في تحقيق وجوه الإعجاز ، بمنتهى الاختصار والإيجاز

إعجاز القرآن : قد ثبت بالفعل ، وتواتر فيه النقل ، وحسبك منه وجود ما لا يحصى من المصاحف في جميع الأقطار التي يسكنها المسلمون ، وكذا في غيرها ووجود الألوف من حفاظه في مشارق الأرض ومغاربها ، وهي تحكي لنا هذه الآيات في التحدى بإعجازه ، ولو وجد له معارض أتى بسورة مثله لتوفرت الدواعي على تقلها بالتواتر أيضاً ، بل لكانت فتنة ارتد بها المسلمون على أديارهم

ولما كان إعجازه لمزايا فيه تعلق قدرة الخلق علماً وحكماً وبياناً للعلم والحكمة حار العلماء في تحديد وجه الإعجاز بعد ثبوته بالعلم اليقيني الذي بلغ حد الضرورة في ظهوره ، حتى قال بعض علماء المعتزلة : إن إعجازه بالصرفة ، يعنون أن الله تعالى صرف قدرة بلغاء العرب انخلص في عصر التنزيل عن التوجه لمعارضته فلم يهتدوا إليها سبيلاً ، ثم تسلسل ذلك في غيرهم واستمر إلى عصرنا هذا ، وهذا رأى كسول أحب أن يريح نفسه من عناء البحث وإجالة قدح الفكر في هذا الأمر ، والباحثين فيه أقوال ، كتبت فيها فصول وألفت فيها رسائل وكتب ، وقد عقدت هذا الفصل عند طبع هذا الجزء من التفسير لبيانها وإيضاحها ، لما علمت من شدة حاجة المسلمين أنفسهم إليها ، دع أمر دعوة غيرهم أو الاحتجاج عليهم بها .

إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه

(الوجه الأول) اشتماله على النظم الغريب ، والوزن العجيب ، والأسلوب الخالف لما استنبطه البلغاء من كلام العرب في مطالعته وفواصله ومقاطعته . هذه عباراتهم وأوردوا عليها شبهتين وأجابوا عنهما ؛ وحصرنا نظم الكلام منشوره مراسل وسجماً ، ومنظومه قصيداً ورجزاً ، في أربعة أنواع لا يمكن عد نظم القرآن وأسلوبه

واحداً منها ، كما يدل عليه كلام الوليد بن المغيرة من أ كبر بلغاء قريش الذين عاندوا النبي ﷺ وعادوه استكباراً ، وجاحدوه استعلاء واستنكاراً . أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في دلائل النبوة عن ابن عباس قال « إن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال يا عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، فانك أتيت محمداً لتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش أني من أ كثرها مالا ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكروه ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه هذا الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عذبه اطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ^(١) وإنه ليعلو وما يعلو ، وإنه ليحطم ماتحته . قال : والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه . قال فدعني أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يآثره عن غيره . وكان هذا سبب نزول قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيداً) الآيات

واعمرى إن مسألة النظم والأسلوب لإحدى الكبر ، وأعجب العجائب لمن فكر وأبصر ، ولم يوفها أحد حقها ، على كثرة ما أبدوا وأعادوا فيها ، وما هو بنظام واحد ولا بأسلوب واحد ، وإنما هو مائة أو أكثر : القرآن مائة وأربع عشرة سورة متفاوتة في الطول والقصر : من السبع الطول التي تزيد السورة فيه على المائة وعلى المائتين من الآيات — إلى السور المئتين — إلى الوسطى من المفصل إلى ما دونها من العشرات فلا حاد كالثلاث الآيات فما فوقها ، وكل سورة منها تقرأ بالترتيل المشبه للتلحين ، المعين على الفهم المفيد للتأثير ، على اختلافها في الفواصل ، وتفاوت آياتها في الطول والقصر ، فمنها المؤلف من كلمة واحدة ومن كلمتين ومن ثلاث ، ومنها المؤلف من سطر أو سطرين أو بضعة أسطر ، ومنها المتفق في أكثر الفواصل أو كلها ، ومنها المختلف في السورة الواحدة منها ، وهي على ما فيها متشابه وغير متشابه في النظم ، متشابهة كلها في مزج المعاني العالية بعضها ببعض ، من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، وآياته في الأنفس والآفاق ، والحكم والمواظف والأمثال ،

و بيان البعث والمآل ، ودار الأبرار ودار الفجار ، والاعتبار بقصص الرسل والأقوام وأحكام العبادات والمعاملات والحلال والحرام .

يقول قائل : إن أساليب جميع الفصحاء والبلغاء متفاوتة كذلك ، لا يشبه أسلوب منها أسلوبا ، ولا يستويان منظوما ولا منثورا ، فمجرد اختلاف الأسلوب والنظم لا يصح أن يعد معجزا (وتقول) من قال هذا فقد أبعد النجعة ، وأوغل في مهامه الغفلة . فهما تختلف منظومات الشعراء فلن تعدو بحور الشعور المنقولة عن المتقدمين . والتوشیحات والأزجال المعروفة عند المولدين . ومهما تختلف خطب الخطباء والمرسلين من الكتاب . والمؤلفين في العلوم والشرائع والآداب فلن تعدو أنواع الكلام الأربعة التي بدأنا القول بها . ولا يشبه شيء من هذولا تلك نظم سورة من سور القرآن ولا أكثرها . ولكل منهم نظم وأسلوب خاص فإن شئت أن تشعر سمعك وذوقك بالفرق بين نظم الكلام البشري ونظم الكلام الإلهي فإنت بقارئ حسن الصوت يسمعك بعض أشعار المفلتين . وخطب المصاقع المفوهين . المتقدمين والمتأخرين . بكل ما يستطيع من نغم وتحسين . ثم ليتل عليك بعد ذلك بعض سور القرآن المختلفة النظم والأسلوب كسورة النجم وسورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة وسورة الحديد مثلا - ثم حكم ذوقك ووجدانك في الفرق بينها في أنفسها . ثم في الفرق بين كل منها وبين كلام البشر في كل أسلوب من أساليب بلغاتهم . وتأثير كل من الكلامين في نفسك . بعد اختلاف وقعه في سمعك .

بل تأمل المعنى الواحد من المعاني المكررة في القرآن . لأجل تقريرها في الأنفس ونقشها في الأذهان . كالاختبار بأحوال أشهر الرسل مع أقوامهم من مختصر ومطول . وافطن لاختلاف النظم والأساليب فيها . فمن المختصر ما في سور الداريات والنجم والقمر والفجر . ومن المطول ما في سور الأعراف والشعراء وطه . اعلمك إن تدبرت هذا تشعر بالبون الشاسع بين كلام المخلوقين وكلام الخالق . وتحكم بهذا الضرب من الإعجاز حكما ضروريا وجدانيا لا تستطيع أن تدفعه عن نفسك . وإن عجزت عن بيانه بقولك

ومن اللطائف البديعة التي يخالف بها نظم القرآن نظم كلام العرب من شعر ونثر : أنك ترى السور ذات النظم الخاص والفواصل المقفاة تأتي في بعضها فواصل غير مقفاة، فتزيدها حسناً وجالاً وتأثيراً في القلب ، وتأتي في بعض آخر آيات مخالفة لسائر آياتها في فواصلها وزناً وقافية ، فترفع قدرها وتكسوها جلالاً وتكسبها روعة وعظمة ، وتجدد من نشاط القارئ، وترهف من سمع المستمع ، وكان ينبغى للخطباء والمرسلين أن يحاكيوا هذا النوع من محاسنه ، وإن كانوا يعمزون عن معارضة السورة في جملتها ، أو الصعود إلى أفق بلاغتها ، ومن أعجب هذه السور أوائل سور المفصل بل المفصل كله . قال شيخنا الأستاذ الإمام : كان المعلوم أن يحدث القرآن في هذه اللغة من البلاغة في البيان فوق ما أحدثه بدرجات .

إعجاز القرآن ببلاغته

(الوجه الثاني) بلاغته التي تقاصرت عنها بلاغة سائر البلغاء قبله وفي عصر تنزيله وفيما بعده. ولم يختلف أحد من أهل البيان في هذا ، وإنما أورد بعض المخالفين بعض الشبه على كون بلاغة كل سورة من قصار سورته بلغت حد الإعجاز فيه ، والمقائلون به لا يقتصرون إعجاز كل سورة فيه ، ويتحقق التحدى عندهم بإعجاز بعض السور القصيرة بغيره . كأخبار الغيب في سورة الكوثر التي هي أقصر سورة ، على أن مسيلمة تصدى لمعارضتها بمحاكاة فواصلها ، فجاء بخزى كان حجة على عجزه وصحة إعجازها ومن الناس من لا يفقه سر هذه البلاغة ويمارى فيما كتب علماء المعاني والبيان من قواعدها ، زاعمين أنه يمكن حمل كل كلام عليها ، وأن الإحالة على الذوق فيها إحالة على مجهول ، لا تقوم به حجة ولا يثبت به مدلول ، لأن الذوق المعنوي كالخسب الخاص بصاحبه « من ذاق عرف » وسبب هذا جهلهم باللغة العربية الفصحى نفسها ، فقد مرت القرون في أثر القرون على ترك الناس لمدرسة الكلام البليغ منها واستظهاره واستعماله ، واقتصار مدارس الأمصار على قراءة كتب النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع وهي أدنى ما وضع في فنونها فصاحة وبياناً ، وأشدّها عجمة وتعقيداً ، وهي الكتب التي اقتصر مؤلفوها على

على سرد القواعد بعبارة فنية دقيقة بعيدة عن فصاحة أهل اللغة وعن بيان المتقدمين الواضحين لهذه الفنون ومن بعدهم إلى القرن الخامس، كالتحليل وسيبويه وأبي علي وابن جني وعبد القاهر الجرجاني، حتى صار أوسع الناس علماً بهذه الفنون أجهل قراء هذه اللغة بها. وأعجزهم عن فهم الكلام البليغ منها، بله الاتيان بمثله، فمن لم يقرأ من كتب البلاغة إلا مثل السمرقندية وشرحي جوهر الفنون وعقود الجمان فشرحي التلخيص للسعد التفتازاني وحواشيهما لا يرجي أن يذوق للبلاغة طعماً، أو يقيم للبيان وزناً، فأتى بهتدى إلى الإعجاز بهما سبيلاً، أو ينصب عليه دليلاً؟ وإنما يرجي هذا الذوق لمن يقرأ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر فإنهما هما الكتابان اللذان يحيلانك في قوانين البلاغة على وجدانك، وما تجد من أثر الكلام في قلبك وجنانك، فترى أن علمي البيان شعبة من علم النفس، وأن قواعدهما يشهد لها الشعور والحس، ولكن لا بد مع ذلك من قراءة الكثير من منظوم الكلام البليغ ومنشوره، واستظهار بعضه مع فهمه، كما قرر حكيمنا ابن خلدون في الكلام على علم البيان من مقدمته.

فهذا هو الأصل في تحصيل ملكة البلاغة فهماً وأداءً، والقوانين الموضوعات لها مستنبطة من الكلام البليغ وليس هو مستنبطاً منها، وقد عكست القضية منذ القرون الوسطى حتى ساغ لمستقل الفكر أن يقول في الكتب التي أشرنا إليها وهي التي تقرأ في مدرسة الجامع الأزهر وأمثالها: إن قواعدنا تقليدية لا يمكن أن يعلم بها تفاضل الكلام، إذ يمكن حمل كل كلام عليها، ولذلك كان أكثر الناس مزاولاً لها أضعفهم بياناً، وأشدهم عيلاً وفيهاة.

فعرفة مكانة القرآن من البلاغة لا يحكمها من الجهة الفنية والذوقية إلا من أوتي حظاً عظيماً من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور، من مرسل ومسجوع، حتى صار ملكة له وذوقاً، واستعان على فهم فلسفته بمثل كتابي عبد القاهر والصناعتين لأبي هلال العسكري والخصائص لابن جني، وأساس البلاغة للزخشي، ومعنى اللبيب لابن هشام. هذه مقدمات البلاغة ونتيجتها الملكة ولها غاية يمكن العلم بها من التاريخ، وهي ما كان للقرآن من التأثير في الأمة العربية، ثم فيمن حذقها من الأعاجم أيضاً. الحد الصحيح للبلاغة في الكلام هي أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بأصالة

موضع الإقناع من العقل ، والوجدان من النفس (وقد يعبر عنهما بالقلب) ولم يعرف في تاريخ البشر أن كلاما قارب القرآن في قوة تأثيره في العقول والقلوب ، فهو الذي قلب طباع الأمة العربية وحولها عن عقائدها وتقاليدها ، وصرفها عن عاداتها وعداواتها ، وصدف بها عن أثرها وناراتها ، وبدلها بأمتها حكمة وعلمها ، وبجاهليتها أدبا رائعا وحلما ، وألف من قبائلها المتفرقة أمة واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها وعدلها وحضارتها ، وعلومها وفنونها

اهتدى إلى هذا النوع من إعجازه بعض حكماء أوربة مستنبطاه من هذه الغاية التاريخية و بينه في الرد على من زعم من دعاة النصرانية أن محمدا ﷺ لم يؤت مثل ما أوتي موسى وعيسى من الآيات المعجزة فقال ما معناه : إن محمداً كان يتلو القرآن مولهاً مدلهاً ، خاشعاً متصدعاً^(١) فيفعل في جذب القلوب إلى الإيمان به ، فوق ما كانت تفعل جميع آيات الأنبياء من قبله .

وقد رأينا وروينا عن بعض أدباء هذه اللغة من غير المسلمين أنهم يذهبون في بعض ليالي رمضان إلى بعض بيوت معارفهم من المسلمين ليسمعوا القرآن ويمتعوا ذوقهم العربي وشعورهم الروحاني الأدبي بسماع آياته المعجزة ، وقد شهد له أهل العلم والانصاف منهم بهذا الإعجاز في النظم والأسلوب ، والبلاغة يغوص تأثيرها في أعماق القلوب ، ولكنهم لم يفقهوا دلالة ذلك على أنه من عند الله عز وجل ، وسفينته في آخر هذا البحث ولو شئت أن أورد الشواهد على هذا الوجه ، لخرجت عن الإختصار الذي التزمته في هذا الفصل ، وإنك لتجد من التنبيه على عجائباتها في كل جزء من هذا التفسير ما لا تجده في غيره حتى الدقة في معاني مفرداته ، وتحديد الحقائق في جملة ، ومرج المعاني الكثيرة في أسلوبه ، ولطف التناسب بين آياته وبين سورة . ومن أعجبها ضروب إعجازه التي انفرد بها ، وكثرة تكراره للمعنى الواحد بعبارات لا يعلم أقرىء ولا سامع وقد نهى في هذا التفسير على الكثير منها . ومن العجب غفلة أكثر طلاب البلاغة عنها

(١) قوله : مولها الخ ترجمة للكلمة إفريقية معناه في حال يؤثر فيها الكلام في نفسه وفي نفس سامع . تأثيرا يملك عليهما أمرهما أي فيكون في قراءته فاعلا منفعلا ، وهاديا مهديا

عجاز القرآن بما فيه من علم الغيب

(الوجه الثالث) اشتماله على الاخبار بالغيب من ماض كقصص الرسل مع أقوامهم، وقد تقدم بعض الكلام فيه، ومن حاضر في عصر تنزيله كقوله تعالى (١: ٣٠-٥ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين، الله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون، بنصر الله) الآية وفيها خبران عن الغيب ظهر صدقهما بعد بضع سنين من نزول الآية، وكان الصديق رضى الله عنه راهن بعض المشركين على صدق الخبر فربح الرهان، وكقوله تعالى (١٥: ٢٨) سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى معانم لتأخذوها : ذرونا تتبعكم) الآية، وقوله (١٦: ٤٨) قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقوله (٢٧: ٤٨) لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلفين رءوسكم ومقصرين لا تخافون) وهذه الثلاثة في سورة الفتح وفيها غيرها أيضاً، وفي سورة التوبة أمثالها من الاخبار عما في قلوب المنافقين وعما سيقولون في بعض المسائل، ومن أظهر هذه الاخبار وعده تعالى بحفظ القرآن من النسيان والتغيير والتبديل في قوله (١٠: ١٥) إنا نحن نزلنا الذكر وإنه لحافظون) وعده بحفظ الرسول في قوله (٦٧: ٥) والله يعصمك من الناس) دع ما تكرر في عدة سور من وعد الله لرسوله وللمؤمنين، ومن وعيده للكافرين، كقوله تعالى (٥٥: ٢٤) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبيدنهم من بعدهم أمناء يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً) وكان الأستاذ الإمام يقول : إن الله تعالى لما ينجز لنا وعده هذا كله بل بعضه، ولا بد من إتمامه بسيادة الإسلام في العالم كله حتى أورة المعادية له. وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه في قوله تعالى (٦٥: ٦) قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) الآية أنه قال «إنها نبأ غيبى عن يأتى بعد» بل ورد هذا المعنى في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ أيضاً. وتجد بيان ذلك في تفسيرها من سورة الأنعام، ومنه ظهور مصداقها في حرب الأمم الكبرى الأخيرة. فهذه الاخبار الكثيرة بالغيب دليل واضح على نبوة نبينا وكون القرآن من

عند الله تعالى إذ لا يعلم الغيب غير دسبجانه ولا يمكن معارضتها بما يصح بالمصادفة أو القرائن أحياناً من أقوال السكهان والعرافين والمنجمين ، فان كذب هؤلاء أكثر من صدقهم ، ان صح تسمية ما يتفق لهم صدقا منهم ، ولكن الناس لا يحصون عليهم أقوالهم ولا يبحثون عن حيلهم وتلبساتهم فيها ، وانما يذكرون بعض ذلك إذا اقتضته الحال ، كتشنيع أبي تمام على المنجمين في زعمهم أن عمورية لا تفتح إلا عند نضج التين والعنب ، في قصيدته المشهورة التي مطلعها * السيف أصدق أنباء من الكتب * ويقول فيها :

سبعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب
وقد قتل في عصرنا وزير من وزراء مصر فوجد الناس في تقويم (نتيجة) تلك السنة لأحد المنجمين نبأ عن قتله ومن شأن هذا التقويم أن يكون طبع قبيل دخول السنة التي قتل فيها ، وقد بحث بعض المدققين في ذلك فتبين له أن صاحب هذا التقويم قد طبع الورقة التي ذكر فيها هذا النبأ بعد وقوع القتل ووضعها فيه موضع ورقة أخرى أخرجها منه فأحرقها ، ولكن كان قد بيع بعض النسخ من التقويم فوجد المدقق المشار إليه بعضها ، على أن دأب هؤلاء المنجمين أن يعبروا عما يتوقعون من أنباء المستقبل بآرائهم وبقرائن الأحوال وأخبار الصحف الدورية برموز وكنيات وإشارات يفسرون بها الوقائع بأهوائهم ، فان لم يجدوها تحتل شيئاً منها كنموها ، وتعذر على غيرهم تكذيبهم فيها ، وأما ما يعرفه الفلكيون بالحساب كالخسوف والكسوف ومطالع الكواكب ومغاربها فليس من التنجيم ولا من علم الغيب في شيء

إعجاز القرآن بسلامته من الاختلاف

(الوجه الرابع) سلامته على طوله من التعارض والتناقض والاختلاف ، خلافاً لجميع كلام البشر وهو المراد بقوله تعالى (٤: ٧٢) ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) وإننا نجد كبار العلماء في كل عصر يصنفون الكتاب فيسودون ، ثم يصححون ويبيضون ، ثم يطبعون وينشرون ، ثم يظهر لهم وغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والأغلاط اللفظية والمعنوية ولا سيما إذا طال الزمان ، وهذا أمر مشهور في جميع الأمم

(فان قيل) إن غير المؤمنين بالقرآن قد استخرجوا منه بعض الاختلاف والتعارض ، فاضطر علماء المسلمين إلى الجواب عنها بما يزعمون أنه دفع الإيراد، وأظهر بطلان الانتقاد، وإن المسلم يقبل ذلك منهم تقليداً، وإن لم يكن في نفسه سديداً (قلت) إذا كانت عين الرضى متهمة فعين السخط أولى بالتهمة، وإننا إذا لم نأنتفت إلى كلام أعداء القرآن الذين يخترعون التهم أو يزينونها بخلاصة القول - ولا إلى المقلدين من المسلمين وعرضنا ما ذكر من ظواهر الاختلاف على فريق المستدلين المستقلين من الفريقين نرى أنه ليس في القرآن تعارض حقيقى معنوى يعد مطعنا صحيحاً فيه ، ويرى الناظر في تفسيرنا هذا وفي مجملتنا (المنار) بيان كل ما علمناه من ذلك مع الجواب المعقول عنه، ولكن هذا التوسع من الإعجاز إنما يظهر في جملة القرآن في السور الطويلة منه لا في كل سورة، فإن سلامة السورة القصيرة من ذلك لا يعد أمراً معجزاً يتحدى به إعجاز القرآن بالعلوم الدينية والتشريع

(الوجه الخامس) اشتماله على العلوم الإلهية ، وأصول العقائد الدينية، وأحكام العبادات وقوانين الفضائل والآداب وقواعد التشريع السياسى والمدنى والاجتماعى الموافقة لكل زمان ومكان ، وبذلك يفضل كل ما سبقه من الكتب السماوية ، ومن الشرائع الوضعية ، ومن الآداب الفلسفية ، كما يشهد بذلك أهل العلم المنصفون من جميع الأمم الشرقية والغربية ، من آمن منهم بكونه من عند الله تعالى أنزله على رسوله الأسمى، ومن لم يؤمن بذلك ، حتى كبراء السياسين من خصوم الدول الإسلامية كلورد كرومر عميد الدولة البريطانية بمصر ، فانه شهد في تقريره السنوى الأخير عن مصر بنجاح الإسلام الباهر فى التشريع الدينى دون التشريع الاجتماعى والسياسى وعلل الأخير بأن ما وضع منذ أكثر من ألف سنة لا يمكن أن يوافق مصالح جميع الناس الآن وفي كل آن ، فككتبت إليه يومئذ كتاباً سألته فيه هل يعنى بأحكام الشريعة الكتاب والسنة أم الفقه الذى وضعه العلماء ومزجوا فيه آراءهم بما يأخذونه عنهما وخالف فيه بعضهم بعضاً ؟ وأنه إن كان يعنى الكتاب والسنة فأنا مستعد لإظهار خطئه له . فككتب إلى كتاباً قال فيه : «أتى عنيت بما كتبت مجموع القوانين

الاسلامية التي تسمونها الفقه لأنها هي التي تجري عليها الأحكام ولم أعن الدين الاسلامي نفسه . الخ

ولا شك أن هذا الوجه من أظهور وجوه الاعجاز، فان علوم العقائد الالهية والغيبية والآداب والتشريع الديني والمدني والسياسي هي أعلى العلوم ، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الافراد القليلون ، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلد علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقاً وكلاماً ، ويؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئاً منها ، ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها ، ولا حكم بفرع من فروعها إلا أن يكون ذلك وحياً من الله تعالى ؟

إعجاز القرآن بعجز الزمان عن إبطال شيء منه

(الوجه السادس) أن القرآن يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات من الجماد والنبات والحيوان والانسان ويصف خلق السموات وشمسها وقمرها ودرارها ونجومها والأرض والهواء والسحاب والماء من بحار وأنهار وعيون وينابيع ، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم ، وبيان لطريق التشريع السوي الأمم ، وقد حفظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ ثلاثة عشر قرناً ونيف ، ثم عجزت هذه القرون ، التي ارتقت فيها جميع العلوم والفنون ، أن تنقض بناء آية من آياته ، أو تبطل حكماً من أحكامه ، أو تكذب خبراً من أخباره ، وهي التي جعلت فلسفة اليونان دكا ، ونسخت شرائع الأمم نسخاً ، وتركت سائر علوم الاوائل قاعاً صنفصفاً ، ووضعت لأخبار التاريخ قواعد فلسفية ، ورجعت في تحقيقها إلى ما عثر عليه المنقبون من الآثار العادية ، وحكمت فيها أصول العمران ، وما يسمونه سنن الاجتماع ، بحيث لم يبق لعلماء الاوائل كتابا غير مدعثر الأعضاء ، ساقط العماذ وهذا النوع من أنواع الاعجاز ، غير ما تقدم من سلامته من التعارض والاختلاف ، فتلك في الماضي ، وهذه في الحاضر والمستقبل ، ذلك الاختلاف يقع من الناس بقلة العرفان ، وبضعف البيان ، أو بما يطرأ على صاحبه من الذهول والنسيان ، بر يد بيان شيء فيخونه قلبه ولسانه ، ويعوزان يحيط بأطرافه ، وأن بحملته تمام التجلي لقاريء كلامه أو سامعه

ثم يقول فيه قولاً آخر على علم فتوأتيه العبارة فيؤدي المراد ، فيختلف ما أبدأ مع ما أعاد ، أو يقول القول ثم ينسأه ، فيأتي بما يخالفه في معناه ، أو يتكلم بما لا يعلم ، فيعرف بما لا يعرف ، وذلك عيب في الكلام وضعف في المتكلم هو من شأن البشر .

إن ما يأخذ به الناس من المسائل العلمية والفلسفية بالتسليم في زمانهم ثم يظهر ما يبطل تلك المسلمات ، وينقض ما بذت عليه من النظريات ، لا يعد عيباً في قائله ، ولا ضعفاً في بيانه ، وإن كان موضوعه بيان تلك المسائل نفسها : لأنه مما لا يسلم منه البشر ، وأما من يتكلم في بعض مسائل الموجودات لبيان العبرة فيها ، أو الحث على الاستفادة منها ، لا لبيان حقيقتها في نفسها ، أو صفاتها الفنية عند أهل فنها ، فهو لا يكلف أن يبين تلك الحقيقة أو تلك الصفات التي لا تتعلق بفرضه من الكلام بالاصطلاحات العلمية والفنية ، وقد ينتقد منه هذا إذا كان مما يصرف السامع عن مراده منه ، أو يوجب نقصاً في استفادته منه ، كما هو شأن الذين يعطون دهاء الناس من جميع الطبقات ويضربون لهم الأمثال بآيات الله تعالى ونعمه فيما سخر لهم من الخلق ، فإذا كان هذا النوع من الكلام الذي لا يعاب فيه مخالفته للمسائل الفنية - وقد يعاب فيه تكلف موافقتها - جاء مع ذلك إماماً وافقوا إما غير مخالف لمعارف أهل العصر الذي خوطب أهله به ، ثم تبين أن بعض هذه المعارف كانت جهلاً ، وظهور أنه هو موافق لما تجدد من العلم الحق والتشريع العدل أو غير مخالف له ، فلا شك في أن هذه تعد له ميزة خارقة للمعتاد في البشر ، وقد ثبت هذا للقرآن وحده ، فهو كتاب مشتمل على كثير من أمور العالم الكونية والاجتماعية مرث العصور وتقبلت أحوال البشر في العلوم والأعمال ولم يظهر فيه خطأ قطعي في شيء منها ، لهذا صح أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضرباً من ضروب إعجازه للبشر ، وإن لم يكن هذا مما يتحدث به الرسول ﷺ من عجز البشر عن مثله ، لأنه لم يكن يظهر إلا من بعده ، فادخر ليكون حجة على أهله .

فان قيل : إن الطاعنين في الاسلام من الملاحدة ودعاة النضرية يزعمون أن العلوم والفنون العصرية ، من طبيعية وفلكية وتاريخية ، قد نقضت بعض آيات القرآن في موضوعها ، وأن التشريع العصري أقرب إلى مصالح البشر من تشريعه .

قلت : إننا قد أطلعنا على أقوالهم في ذلك فألفينا أن بعضهم اجاء من سوء فهمهم

أوفهم بعض المفسرين، ومن جهود الفقهاء المقلدين، وبعضها من التحريف والتضليل. وقد رددنا نحن وغيرنا ما وقفنا عليه منها. وإنما العبرة بالنقض الذي لا يمكن لأحد أن يمارى فيه وراء ظاهراً مقبولا، ولو وجد شيء من هذا في القرآن لاضطرب العالم له اضطراباً عظيماً، كأن العبرة في التشريع بما جمع بين المصلحة العامة والفضيلة والرحمة، والتشريع الاسلامي بفضل التشريع الأوربي المادي بهذا ويسبقه إلى السؤال، وقد سبقه إلى العدل والمساواة

(فإن قيل) إن كنهة أهل الكتاب يدعون مثلكم أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة ويتكفون مثلكم إرد ما يورده عليهم علماء الكون والمؤرخون مخالفاً لتلك الكتب

(قلت) إن هذا النوع من مخالفة كلام الخالق لكلام الخلق يجب أن يكون مشتركاً بين القرآن وغيره من الكتب الالهية كاللتوراة والانجيل، لو بقيت كما أنزلت من غير تحريف ولا تبديل، ومن المعلوم من التاريخ بالقطع عندنا وعندهم أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في التابوت (صندوق العهد) وأخذ الميثاق على بني إسرائيل بحفظها كما هو منصوص في آخر سفر (تنثية الاشتراع) قد فقدت من الوجود عندما غار البابليون على اليهود وأحرقوا هيكل بيت المقدس، والتوراة الموجودة الآن يرجع أصلها إلى ما كتبه عزرا الكاهن بأمر أرتخشستا ملك فارس الذي أذن لبني إسرائيل بالعودة إلى أورشليم، وأذن له أن يكتب لهم كتاباً من شريعة الرب وشريعة الملك، ولذلك تكثر فيها الألفاظ البابلية كثرة فاحشة، وقد بينا تحقيق ذلك في تفسير أول سورة آل عمران وبعض آيات من سورة النساء والمائدة.

كما بينا أن إنجيل المسيح عليه السلام لم يدون في عصره ولم ينقل عنه وعن الحواريين كما نقل القرآن تواتراً بالحفظ والكتابة، ولا كتنقل الحديث بالأسانيد المنصلة. وإنما ظهرت هذه الأناجيل التي هي قصص مختصرة له واشتهرت بعد ثلاثة قرون كظهر عشرات غيرها فاعتمد أربعة منها رؤساء الكنيسة التي أسسها قسطنطين ملك الروم الذي تنصر تنصراً سياسياً وأدخل النصرانية في دور جديد ممزوج بالوثنية ورفضوا الباقي، كما بيناه مفصلاً في الآيات التي أشرنا إليها آنفاً في الكلام على التوراة

إعجاز القرآن بتحقيق مسائل كانت مجهولة للبشر

(الوجه السابع) اشتغال القرآن على تحقيق كثير من المسائل العلمية والتاريخية التي لم تكن معروفة في عصر نزوله ، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين من طبيعة الكون وتاريخ البشر وسنن الله في الخلق ، وهذه مرتبة فوق ما ذكرناه في الوجه السادس من عدم نقض تقدم العلوم لشيء مما فيه ، ولا تدخل في المراد من أخبار الغيب المبينة في الوجه الخامس وإن كان لبعضها اتصال بقصص الرسل عليهم السلام ونحن ننبه على كل ما علمناه من هذا النوع في محله من تفسيرنا هذا ، ونشير هنا إلى بعضه فمن ذلك قوله تعالى (١٥ : ٢٢) وأرسلنا الرياح لواقح (كانوا يقولون فيه إنه تشبيه لتأثير الرياح الباردة في السحاب بما يكون سبباً لنزول المطر بتلقيح ذكور الحيوان لإبائهم ، ولما اهتمدى علماء أوربة إلى هذا وزعموا إنه مما لم يسبقوا إليه من العلم صرح بعض المطلعين على القرآن منهم يسبق العرب إليه . قال مستر (أجنيري) المستشرق الذي كان أستاذاً للغة العربية في مدرسة كسفورد في القرن الماضي . إن أصحاب الأبل قد عرفوا أن الريح تلقح الأشجار والثمار قبل أن يعلمها أهل أوربة بثلاثة عشر قرناً . اه نعم إن أهل التخيل من العرب كانوا يعرفون التلقيح إذ كانوا ينقلون بأيديهم اللقاح من طلع ذكور النخل إلى إبنائها ولكنهم لم يكونوا يعلمون أن الرياح تفعل ذلك ، ولم يفهم المفسرون هذا من الآية بل حملوها على المجاز

ومنه قوله تعالى (٢١ : ٣٠) أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناها وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون ؟) أي أكذب الذين كفروا بآياتنا ولم يعلموا أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة ففتقناها وخلقنا منها هذه الأجرام السماوية التي تظلمهم ، وهذه الأرض التي تغلهم ، وهذه المادة هي المبينة في قوله تعالى (٤١ : ١١) ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين (الخ وهذا شيء لم يكن يعرفه العرب ولا غيرهم من أهل الأرض . وكذلك خلق كل الأشياء من الماء وهو أوضح في الآية مما قبله ومنه قوله تعالى (٥١ : ٤٩) ومن كل شيء خلقنا زوجين (وقوله (١٣ : ٣) ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين) وهذه السنة الإلهية في النبات

أصل لسنة التلقيح المذكورة آنفاً فإن المراد بها أن الريح تنقل مادة اللقاح من الذكر إلى الأنثى كما تقدم ، وفي هذا المعنى عدة آيات ، أعما وأغربها وأعجبها قوله تعالى (٣٦:٣٦) سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) ومنه قوله تعالى (١٥:١٨) والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) إن هذه الآية هي أكبر مثال للعجب بهذا التعبير (موزون) فإن علماء الكون الإخصائيين في علوم الكيمياء والنبات قد أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة في كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين المقدر من أعشار الغرام والمليغرام ، وكذلك نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات ، أعنى أن هذا التعبير بلفظ «كل» المضاف إلى لفظ «شيء» الذي هو أعم الألفاظ العربية الموصوف بالموزون - تحقيق لمسائل علمية فنية لم يكن شيء منها يخطر ببال بشر قبل هذا العصر ، ولا يمكن بيان معناها بالتفصيل إلا بتصنيف كتاب مستقل .

ومنه قوله تعالى (٣٩:٥) يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) تقول العرب كارت العمامة على رأسه إذا أدارها ولفها ، وكورها بالتشديد صيغة مبالغة وتكثير ، فالتكوير في اللغة إدارة الشيء على الجسم المستدير كالرأس ، فتكوير الليل على النهار نص صريح في كروية الأرض وفي بيان حقيقة الليل والنهار على الوجه المعروف في الجغرافية الطبيعية عند أهلها . ومثله قوله تعالى (٧:٥٤) يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا) ومنه قوله تعالى (٣٦ : ٣٨) والشمس تجري لمستقر لها - إلى قوله - وكل في فلك يسبحون) فهو موافق لما ثبت في الهيئة الفلكية مخالفا لما كان يقوله المتقدمون ومنه الآيات المتعددة الواردة في خراب العالم عند قيام الساعة وكون ذلك يحصل بقارعة تفرع الأرض قرعا ، وتصخها فترجها رجاء وتبس جبالها بسا فتكون هباء منبثا ، وحيث تدنثر الكواكب ، لبطلان ما بينها من سنة التجاذب ، والآيات في هذا وفيما قبله تدل دلالة صريحة على بطلان ما كان يقوله علماء اليونان ومقلدتهم من علماء العرب في الأفلاك والكواكب والنجوم ، وعلى إثبات ما تقرر في الهيئة الفلكية المصرية في ذلك وفي نظام الجاذبية العامة ، ويحمد القارئ تفصيل هذا في عدة مواضع من هذا التفسير

فهذا النوع من المعارف التي جاءت في سياق بيان آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب. حتى إن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليد أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة - فإظهار ترقى العلم لحقيقتها المبينة فيه مما يدل على أنها موحى بها من الله تعالى .

هذه أمثلة من مسائل العلوم الكونية والفنون الطبيعية التي خطرت بالبال عند الكتابة من غير تفكير ولا مراعاة إلا لأعداد الآيات والسور ، ولا بد من تعزيزها ببعض الأمثلة الخاصة بالتاريخ ، وليس التاريخ من حيث هو تاريخ حدث من العلوم التي تطلب من الكتاب الإلهي ، ولم يذكر فيه شيء منه بقصد سرد حوادث التاريخ ، وإنما جاء ما جاء فيه من ذكر أمم الرسل للعتة والاعتبار ، وبيان سنن الله تعالى في الأمم والأقوام ، وتثبيت قلب خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام . كما أن ذكر السموات والأرض وما بينهما وما في الأرض من المواليد الثلاثة لم يذكر شيء منه لبيان حقائق الموجودات في أنفسها ، وإنما ذكرت في سياق آيات الله تعالى الدالة على علمه وقدرته وحكمته ورحمته وفضله على عباده الخ وقد تضمن كل من هذا وذلك بدقة التعبير وإعجاز البيان ، آيات أخرى تظهر أننا بعد أن دالة على أنواع من إعجاز القرآن ، وكونه وحياً من الرحمن ، فكتابه تعالى مظهر لقوله (٢٩:٥٥ كل يوم هو في شأن)

أكتفى من هذا النوع الذي له علاقة بالتاريخ بمسألة مخظيمة الشأن تشتمل على شواهد كثيرة منه ، وهي حكم القرآن الحق على التوراة والإنجيل اللذين كان يدين الله تعالى بهما أعظم شعوب الأرض مكانة في العالم وأوسعهم علماً وحضارة ولا يزال الكثيرون منهم يقدسونهما . مع بيان بعضهم لما نقض العلم منها ، وكذا سائر الكتب التي يعبرون عن مجموعها بالعهد القديم والجديد .

ما هذا الحكم الذي صدر من عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ، على لسان عبده ورسوله النبي الأمي الذي لم يقرأ في حياته سطوراً ، ولم يكتب سطوراً ، ولم يحط بشيء من أخبار التاريخ خيراً ؟ ملخص هذا الحكم . أن أهل الكتاب من

اليهود والنصارى قد أوتوا نصيباً منه ونسوا نصيباً وحظاً منه، فلم يحفظوه كله، ولم يضعوه كله، وأنهم حرفوا ما أوتوه عن مواضعه تحريفاً لفظياً ومعنوياً كما يفيد الاطلاق (١) وأنهم غلوا في دينهم فزادوا فيه ما لم يأذن به الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يحلون لهم ويحرمون عليهم ما لم يشرعه الله، وأنهم قصرُوا في إقامته من جهة أخرى فعملوا بما يوافق أهواءهم منه وتركوا ما يخالفها كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، وأن اليهود قالوا على مريم بنتنا مبيناً، والنصارى غلوا فيها غلواً عظيماً، فقالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقالوا ثلاث ثلاثة (وما من إله إلا إله واحد) الخ ما تطقت به الآيات التي يحمد القاري في تفسيرنا هذا تفصيلها مع تفسيرها الحق المؤيد بالتاريخ الصحيح الذي حققه علماء أوربة وغيرهم بعد الاسلام المصدق للقرآن الحكيم في حكمه الذي كان مجهولاً بتفصيله عند جميع الناس (٢) وقد قام في هذه السنين بعض كبار رجال الدين في بلاد الانكليز يكتبون في الجرائد ما قرروه في جمعيات الكنائس من أن الانجيل لا يثبت الوهية المسيح وقد نشرنا بعض ما اطلعنا عليه في الجرائد الانكليزية من هذه التحقيقات وسننشر غيره في مجلتنا الاسلامية (المنار).

وقد ثبت عندنا أن مستقلى الفكر من أهل أوربة بين مؤمن بما جاء به القرآن من حقيقة أمر المسيح وهوانه بشر ممتاز بروح قدسية من الله ونبي له ولكن أكثرهم لا يعلمون أنه مما جاء به القرآن وبين كافر به وأماعقيدة الكنيسة برؤيته وألوهيته فهي محصورة في رجالها وعامة المتقليدين لهم، وقد أخبرني قسيس كبير من الكاثوليك حرمة الكنيسة وأخرجته من طفمة كهنتها أن كبار علمائها موحدون كالمسلمين، ولولا خشية ارتداد العوام لصرحوا بالتوحيد ونفى التشليث كـ بعض قسوس البر وتستنت

« ١ » راجع تفسير الآية الثالثة من السورة الثالثة في الجزء الثالث من التفسير (س ١٥٩ — ١٦٥) وراجع تفسير الآية ٤٤ من السورة ٤ (ص ١٣٦ من الجزء الرابع) والآية ١٥ من السورة ٥ (ص ٢٨٢ من الجزء ٦)

« ٢ » راجع تفسير سورة المائدة وانظر في فهرس الجزء السادس من التفسير كلمات: أهل الكتاب، والتوراة، والانجيل

ولا يزال الموحدون يكثرُونَ فى أوربة والولايات المتحدة الأمريكية عامابعد عام ،
ويعترفون من الايمان بالقرآن : الله أكبر الله أكبر ، إنهم سوف يفعلون)

فمن أين جاءت هذه الحقائق لمحمد بن عبد الله الأمى بعد ثلاث وأربعين سنة عاش
معظمها فى عزلة عن العالم وعلومه ، رعى فى أوائلها الغنى فى جبال مكة وشعابها ،
وانحجر فى أثنائها سنين قليلة قلما كان يعاشر فيها أحداً ، وهى التى ظل المسلمون
يجهلون مراد القرآن منها بالتحقيق والتفصيل حتى بعد فتحهم للعالم واطلاعهم على
علومه وتواريخه ، إلى أن وصل علم التاريخ وغيره إلى الدرجة المعروفة .

كان بعض أهل الكتاب والملاحدة من غيرهم يرون أن أكبر الشبهات على
ما فى القرآن من قصص الرسل وأقوامهم حسيبانها مقتبسة من هذه الكتب المقدسة عند
القوم وبما كانوا عليه من التقاليد والمذاهب باحتمال أنه ﷺ سمعهم فى أثناء
سفره بالتجارة إلى الشام . وكانوا يعدون ماخالف تلك الكتب من آيات القرآن
خطأ سببه عدم جودة الحفظ أو خطأ ممن سمع النبي ﷺ ذلك منهم أو تعمداً منهم
لغشه ، كما غش بعض اليهود الذين ادعوا الاسلام خداعاً بعض الصحابة
والتابعين بأخبار كثيرة أدخلوها فى تفسير القرآن وكسب الوعظ والرفائق .

وكان من الأدلة على دحض هذه الشبهة أنه لا يعقل أن يكون محمد ﷺ تلقى
كل هذه القصص عن بعض أهل الكتاب فى رحلته إلى الشام مع عمه أبى طالب
وهو ابن تسع سنين أو ١٢ سنة ، ولا فى رحلته مع ميسرة مولى خديجة (رض) وهو وإن كان
فى هذه الرحلة شاباً له ٢٥ سنة إلا أنه لم ينفرد دون ميسرة وسائر تجار قريش
لدراسة ولا غيرها ، بل لم يلبثوا إلا أياماً فى بلدة (بصرى) باعوا واشتروا
وعادوا ، ولا يعقل أن يكون سمع فيها أخبار جميع الرسل سراً أو جهراً ، وحفظها
من هذه الكتب حفظاً ، ثم نلخصها بعد عشرين سنة تقريباً فى هذه السور — ولم
يجد أهل مكة عليه شبهة فى هذا الباب إلا وقوفه أحياناً على قين (حداد صانع
السيوف) روى كان بمكة ، فقالوا : إنه هو الذى يعلمه ، وهو لم يكن يحسن العربية
وفيه نزل (١٦ : ٦٠٣) ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر : لسان الذى يلحدون
إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى (وقد تقدم فى مسألة اشتغال القرآن على

أخبار الغيب الماضية من هذا البحث تصرّح الآيات بأنه ﷺ لم يكن يعلم ما قصته السور منها ولا قومه ، ولم يمكن لأحد من خصومه المشركين أن يكذب أو يمارى فى ذلك .

هذا وإن ما لخصناه هنا من حكم القرآن عليها يثبت أنه حكم على نزل من فوق السموات العلى : حكم العليم الحكيم الحكيم العدل المهيمن ، وأن تحقيق المحققين من مؤرخى الأمم وتحقيق العقلاء من البشر قد أثبت ما أثبتته هذا الحكم ، وقد نفى ما نفاه ، أليس هذا أنصع برهان على كونه حكم الله ، لا حكم عبده محمد بن عبد الله ؟ بلى والله ؛ نعم بلى والله ، نعم بلى والله ، لا يمارى فى ذلك إلا متعصب أضله الله

ومن قرأ التوراة والإنجيل ثم قرأ ما فى القرآن من أخبار الرسل يرى أمراً آخر ، يرى أن القرآن بين صفوة ما فيهما من صحة عقيدة ، ومن أدب وفضيلة ، ومن عبرة وموعظة ، ومن أسوة بالأخيار حسنة ، وسكت عن كل ما فيهما مما ينافى ذلك ويخل به ، أو يجعل أفضل البشر قدوة سيئة ، وصرح بنقض ما طرأ على أهل الكتاب من نزغات الشرك والوثنية . فإن فرضنا - تنزلاً - أن هذا من صنع محمد بن عبد الله الأسمى ، أفلا يكون برهاناً على أنه هو فى شخصه أرقى من جميع الأنبياء والمرسلين علماً وعقلاً وهداية وإرشاداً ؟ بلى ، ولكن كيف يعقل حينئذ أن يكونوا أنبياء ومرسلين ، وموحى إليهم من الله أو ملهمين ؟ الحق أن نفى نبوته ﷺ يقتضى نفى النبوة وإبطال الرسالة من أصلها ، لأنها هى التى تعقل لذاتها ، وإنما يظهر ثبوت غيرها بالتبع لثبوتها ، وإن أثارنا بعض الكافرين بالوحى ، من الباحثين المستقل الفكر ، يفضلون محمداً ﷺ على جميع الخلق ، ومنهم الدكتور شبلى شميل السورى المشهور ، فقد صرح بذلك قولاً وكتابة ، وأثبتته نظماً ونثراً .

وقد آن أن نبين وجه دلالة القرآن على نبوته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ، ومن آمن به وشاركهم فى الاهتداء بهديه من بعده إلى يوم القيامة

وجه دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ

(تمهيد) الإيمان بالنبوة والرسالة ، يبنى على الإيمان بالربوبية والإلهية ، فلا يخاطب بإثباتها والدليل عليها إلا من يؤمن بالله تعالى وصفاته من العلم والحكمة والمشية والقدرة وتدبير أمر العالم ، وأكثر البشر يؤمنون بوجود الخالق المدبر صاحب السلطان الغيبي ، لأنه مما أودع في الفطرة البشرية ، ولا يعقل هذا النظام المشاهد في العالم بدونه ، كما هو مقرر في مواضعه ، ولكن الكثيرين يخطئون في فهم صفاته والكلام في تدبيره وتقديره ، لاختلاف أنظارهم وتقاليدهم في ذلك . والذين حرموا هذا الإيمان قيمان : همج من سكان الغابات الوحشية . وأصحاب شبهات طارئة . ومثل الأول مثل الخداج الذي يولد ناقصاً . ومثل الثاني مثل من يصاب ببعض مشاعره أو أعضائه . ومراكز الإدراك في المخ يصاب بعضها بالمرض أو الضعف دون بعض . فلا يغترن أحد من المتقين بكفر بعض المنتقين لبعض العلوم والفنون ، الذين شغلتهم الصنعة عن الصانع . كما شغل حب ليلي مجنون بني عامر عن شخصها . حتى قيل : إنها زارته فلم يحفل بها .

وأكثر الذين يؤمنون بالله تعالى يؤمنون بالرسول الذين خصهم الله بنوع من العلم والهدى بغير تعلم ولا كسب . وأيدهم بآيات منه دانت لها عقول المستعدين للهداية وخضعت قلوبهم فآمنوا واهتدوا . وكانت حالهم البشرية بعد الإيمان والهدى خيراً مما كانوا عليه هم وآباؤهم قبل ذلك صلاحاً . وقد بعث الله تعالى رسلاً إلى جميع الأمم يدعوها إلى أصول الدين الثلاثة المبينة في قوله تعالى (٢ : ٦٢) إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

فالرسول عليهم السلام كانوا متفقيين في الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح . وإنما كانوا يختلفون في تفصيل الأعمال الصالحة والشرائع المصلحة بحسب اختلاف استعداد أممهم . وقد طرأت على أتباعهم من بعدهم بدع وثنية وخرافية وضاعت أكثر تعاليمهم من الأمم القديمة . وإنما بقيت بقية صالحة منها عند المتأخرين من اليهود والنصارى فيها من الشوائب ما أشرنا إليه آنفاً . وكذلك بقيت في جميع

الأديان القديمة آثار تاريخية تدل على توحيد الله تعالى ، كما برام في تاريخ قدماء المصريين والفرس واليونان ووثني الهند واليابان والصين

ومما حفظ من أخبار أنبياء بني اسرائيل : أن الله تعالى أيدهم بالأخبار عن بعض المغيبات ، وأيد المرسلين منهم ، كعيسى وعيسى عليهم السلام أجمعين بآيات أخرى من خوارق العادات ، فقامت بها حجتهم على الناس ، فأمن بها المستعدون ، وكابرها المعاندون المتكبرون ، وأعرض عنها المقلدون الجامدون .

﴿المقصد﴾ قد اختلف علماء الكلام في وجه دلالة المعجزة على نبوة من ظهرت على يديه ورسالته - أى على كون ما يدعو إليه من العقائد والفضائل والأعمال الصالحة وحيًا من رب العالمين - فقال بعضهم : إنها دلالة عقلية ، ورجح الآكثرون أنها وضعية ، بمعنى أن تأييد الله تعالى إياه بعد التحدى بها في معنى قوله تعالى « صدق عبدى قيا يبلغ عنى » ومن المعلوم الذى لا مرأى فيه : أن الذين آمنوا بالرسول في عصرهم وبعد عصرهم من العقلاء والأذكياء وجدوا في أنفسهم اعتقادًا اضطراريًا بأن ظهور ما لا يقدر عليه غير الله تعالى على أيديهم عقب ادعائهم ما ادعوه وطلبهم من الله تعالى أن يصدقهم ، ويعطيهم آية تدل على تصديقه إياهم فيه - دليل على أنه هو الذى فعله لأجل تصديقهم ، فسمي الدلالة عقلية ، أو سمها وضعية ، أو اجمع بين التسميتين ، إن شئت .

وقال العلماء : إن الله تعالى كان يعطى كل رسول من الآيات ما يناسب حال قومه وأهل عصره . فلما كان قوم فرعون أهل علوم رياضية وطبيعية ، وأولى سحر وصناعة ، آتى رسوله موسى آيات كان العلماء والسحرة أعلم الناس بأنها من عند الله لا من كسب موسى ولا من صناعته ، ولما كان الرومانيون أولى السلطان في قوم عيسى والسيادة في بلادهم أهل علم واسع بالطب آتاه من الآيات إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الميت ، ولما كانت العرب قد ارتقت في لغتها فصاحة وبلاغة إلى درجة لم تنفق لغيرها ، لأن أذكىاءها قد رجحوا جميع قواهم العقلية والخيالية إلى إتقانها ، جعل الله تعالى آية محمد الكبرى إليهم كتابًا معجزًا لهم ولسائر الخلق في نظمه

وأسلوبه وفصاحته وبلاغته ، فقامت عليهم الحجة به بأقوى مما قامت آيات موسى وعيسى على قومهما . وفي هذا القول من التقصير في حجة القرآن ما علمت

والحق الذي يقال في هذا المقام : أن ما أيد الله تعالى به رسله من الآيات الكونية كان مناسباً لحال زمان كل منهم وأهله ، وقامت الحجة على من شاهد تلك الآيات في عهده ، ثم على من صدق المخبرين من بعده ، وقد علم الله تعالى أن سلسلة النقل ستقطع ، وأن ثقة بعض المتأخرين به ولا سيما بعد انقطاع سلسلته ستضعف ، وأن دلالتها على الرسالة ستشكر — فجعل الآية الكبرى على إثبات رسالة خاتم النبيين علمية دائمة لا تنقطع ، وهي هذا الكتاب المعجز للخلق بما فيه من أنواع الإعجاز السبعة التي ذكرناها ، وبيننا أن كل واحد منها آية بيّنة لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وكان مستقلاً مطلقاً من أسر النظريات المادية وقيود التقليد.

إذ لا يتصور عاقل يؤمن برب العالمين أن يصدر هذا الكتاب المشتمل على هذا القدر السنيع^(١) من المعاني ، في هذا الأسلوب البديع والنظم المنيع من المباني ، من رجل أمي ولا متعلم أيضاً ، إلا أن يكون وحياً اختصه به الرب عز وجل ، ناهيك به وقد جزم بعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فهذا التحدي حجة مستقلة على نبوة محمد ﷺ بصرف النظر عن التحدي به ما هو ، وكل نوع من تلك الأنواع السبعة الثابتة للقرآن حجة مستقلة في نفسها ، وحجة أنقض وأقوى باعتبار أمية من جاء بها ، فإن أمكن تحمل المرء والجدل في بعض الوجوه التي ذكرنا لإعجازه ، فهل يمكن ذلك في جملتها أوفى كل منها ؟ كلا سبق لنا أن ضربنا مثلاً لنبوته ﷺ : رجلا ادعى في بلاد كثرت فيها الأمراض أنه طبيب وأن دليلاً على ذلك أنه ألف كتاباً في علم الطب يداوى المرضى بما دونه فيه فيبرؤن ، فاطلع عليه الأطباء البارعون فشهدوا بأنه خير الكتب في هذا العلم وما يتعلق به من عمل ، ثم عرض عليه من لا يحصى عدداً من المرضى وقبلوا ما وصفه لهم من الأدوية فبرؤوا من غلهم وصاروا أحسن الناس صحة ، فهل يمكن المراء في صحة هذه الدعوى مع هذين البرهانين العلمي والعملي ؟ كلا . وإن

(١) السنيع : هو الجامع بين الطول والحسن ، من صنع سنوعاً وساعة

العلم بطب الأرواح ، أعلى وأعز منلا من العلم بطب الأجساد ، وأن معالجة أمراض الأخلاق وأدواء الاجتماع ، أعسر من مداواة أعضاء الأفراد ، ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن مشتمل على العقائد الصحيحة ، والآداب العالية ، وأصول التشريع الاجتماعي والمدني ، وأن النبي ﷺ عالج به أمة عريقة في الشقاق وحمية الجاهلية ، غريقة في الجليل والامية ، ورذائل الوثنية ، فشفيت واتحدت وتعلمت الكتاب والحكمة ، وسادت الأمم ، من بدو وحضر ، مع أنه كان أمياً لم يتعلم شيئاً من العلوم ، ولم يتمرس بسياسة الشعوب .

كفالك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتيم

لو استدلل ذلك الطبيب الجسداني على صحة دعواه بعمل غير مألوف للناس ، ولكن لا علاقة له بالطب لأمكن المراء في صحة دعواه - كذلك شأن هذا النبي في ادعائه أنه رسل من الله لهداية البشر ، فإن كتابه العلمي المؤيد بنجاح العمل به أدل على كونه وحياً أوحاه الله إليه من جعل عصاه حية ، أو إحيائه ميتاً . لأن هذين علمي غرايتهما ليسا من موضوع الإرشاد والتعليم ، كما أنهما ليسا من موضوع الطب ، فهما إن دلا على صدق الرسول فدلالتهما ليست في أنفسهما ، والإتيان بعمل خارق للمألوف في العادة من سنن الكون ، هودون الإتيان بالعلوم العالية الآلية والتشريعية من غير تعليم ، فكيف بالإتيان بأنباء الغيب الماضي والمستقبل ؟ فكيف بصالح حال من عملوا بهذه العلوم دينا ودنيا ؟ فالقرآن إذاً برهان على أن ما فيه الطب الروحاني الاجتماعي وحى من الرب المدبر الحكيم لا يمارى فيه إلا معاند مكابر ، أو مقلد جاهل أما المكابرون الذين يمجحدون الحق وهم يعلمون ، فأمثال رؤساء المشركين ورؤساء اليهود في زمن البعثة المحمدية الذين ثقل على طباعهم ترك رياستهم ، وصيرورتهم أتباعاً مساوين لفقراء المسلمين ومواليهم ، ولا يخلوا هذا العصر من أناس منهم ، وأما المقلدون فعوام أهل الأديان والمذاهب في كل عصر الذين لا ينظرون في دليل ولو كان حسياً . وكذلك المفتونون ببعض شبهات الماديين من الفلاسفة وعلماء الطبيعة الذين قلدهم في الغفر بالله تعالى كما قال الشاعر في أمثالهم :

عنى القلوب عموا عن كل فائدة لأنهم كفروا بالله تقليداً

فهؤلاء المنكرون لوجود الخالق لا كلام لنا معهم في مسألة النبوة والوحي إلا بعد أن نتكلم معهم أولاً في إثبات وجود الخالق وصفات ربوبيته ، ولكن أكثر منكري النبوة يؤمنون بوجود الله تعالى ، وإنما يستبعدون معنى الوحي ، وليس ببعيد في نظر العقل

الوحي في اللغة : إعلام في خفاء . ووحي الله تعالى إلى أنبيائه علم يخصهم به من غير كسب منهم ولا تعلم من غيرهم ، بل هو شيء يجدونه في أنفسهم من غير تفكير ولا استنباط ، مقترنا بعلم وجداني ضروري بأن الذي ألقاه في قلوبهم هو الرب القادر على كل شيء ، وقد يتمثل لهم ملك فيلقنهم ذلك العلم ، وقد يكون بغير وساطة ملك . قال تعالى (٢٦ : ١٩١) وإنه لتنزيل رب العالمين ١٩٢ نزل به الروح الأمين ١٩٣ على قلبك لتكون من المنذرين (فأى استحالة أو بعد في هذا عند من يؤمن برب العالمين ، وعلمه وحكمته وقدرته في الخلقين ؟

وعرفه شيخنا في رسالة التوحيد « بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين من قبل الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . (قال) ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو أشبه وجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » ثم بين إمكان هذا ووقوعه وأسباب شك بعض الناس فيه وتفنيد شبهاتهم عليه بما يراجع في الرسالة نفسها

وأما مثل الملك فكانوا يكفون في إثباته بقولهم : إنه ممكن في نفسه وقد أخبر به الصادق فوجب تصديقه . ونقول اليوم : إن العلوم الكونية لم تبق شيئاً من أخبار عالم الغيب غريباً ، إلا أقربته إلى العقل ، بل وإلى الحس تقريباً ، بل ظهر من الاختراعات المادية المشاهدة في هذا العصر ، ما كان يعد عند الجماهير محالاً في نظر العقل ، لا غريباً فقط . فإذا كان الإنسان الكيميائي يحلل الأجسام الكشيفة حتى تصير غازات لا ترى من شدة لطافتها ، ويكشف العناصر اللطيفة فتكون كالجمدة بطبعها ، فكيف يستغرب تكشيف الملك لنفسه ، وهو من الأرواح ذات المروة والقوة العظيمة يأخذه من مواد العالم المنبثة فيه هيكلًا على صورة الإنسان مثلاً ؟ دع مخترعات

الكهرباء العجيبة التي لا يوجد شيء مما أخبر به الرسل من عالم الغيب إلا وفيها نظير له يقر به من الحس ، لا من العقل وحده ، وهل الكهرباء إلا قوة مسخرة للملائكة ؟ ودع ما يشبه الألوف من علماء الأمم كلها من تمثل بعض أرواح البشر لبعض الناس في صور كصور الاجساد ، وهو يوافق المأثور عندنا عن الامام مالك من أئمة الفقهاء في صفة الروح ، ووقائعه عند الصوفية كثيرة ، ومن ينكر ما يحكى من وقوع هذا لا ينكر إمكانه في نفسه ، ولا الرجاء في ثبوته في يوم ما ، بحيث يشاهده جميع الناس .

خلاصة ما تقدم : أن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ لها وجهان :

(أحدهما) ما قيل في دلالة الآيات الكونية لبعض الأنبياء السابقين ، كمناسبة

صالح ، وعصا موسى ، وإحياء عيسى الميت ، وهو أن كلا منها أمر جاء على غير المعتاد من مقدور البشر ، واستدل به صاحبه على نبوته ورسالته . فكان تصديقاً من الله تعالى له ، وتكذيباً وخذلاناً منه تعالى لمن كذبه ، وهذا الوجه من الدلالة خارج عن موضوع النبوة والرسالة . ولذلك اختلف فيه علماء النظر كما تقدم آنفاً

(الوجه الثاني) وهو يجتمع مع الأول . مأخوذ من معنى النبوة والرسالة . وهو أنها

هداية عليا للبشر ، لا تغنيهم عنها هدايات الخواص الظاهرة والباطنة ولا هداية العقل ، فان هذه هدايات شخصية فردية وتلك هداية لنوع الانسان في جملة ، وقد اكتفينا في هذا الاستطراد بتمثيلها بطب الأبدان ليفهمها كل قارئ وسامع ، وإنما يفهمها الفهم التام من طريقه العلمى من يقف على ما اشتمل عليه القرآن من آيات الهداية وكونه أعلى وأكمل من كل ما نقل عن الأنبياء السابقين على ما في نقله من التواتر القطعى ، وما في نقلها من الضعف - ومن طريقه العملى من عرف تاريخ الاسلام وما كان من تأثير القرآن في هداية العرب ثم هداية غيرهم من الأمم ، وعرف تأثير هداية الأنبياء السابقين في أممهم - على ما بين النقلين من التفاوت أيضاً - ولا يمتري أحد من العقلاء في كون العلم الذى موضوعه هداية الأمم والشعوب ونقلها من حال دنيوية إلى حال أعلى وأكمل منها هو من العلوم العالية التى يقل في الناس من يحذقها ويكون إماماً مبرزاً فيها ، وأن عمل من يتدارسونه في السكتب به أعسر مسلكاً ، وأوعر طريقاً ، وأن فلاح العاملين به المتمرسين بوسائله قلما يتفق إلا

لأفراد أتيج لهم من الأسباب ونفوذ الحكومات ما لم يتح لغيرهم ، فما بالك بالجمع بين هذا وبين العلم والعمل في سبيل الهداية الروحية والاستعداد لسعادة الآخرة

والنجاح التام معاً ، على ما فهمنا من عدم سبق الاستعداد لها بعلم ولا عمل ؟

وجملة القول : أن موضوع الرسالة : تعليم وإرشاد إلهي يملك الوجدان ، وتذعن له النفس بالإيمان ، فيكون هداية تزرع صاحبها عن الباطل والشر ، وتوجهه إلى الخلق والخير ، وإن القرآن قد بلغ مرتبة السكال فيها ، فاهتدت به الأمم والشعوب ، فمن كان يؤمن بها على علم بحقيقتها ، لا تقليداً لأبائهم وقومه فيها ، لا يسهه أن يؤمن بالنوراة أو الانجيل أو الفيدا ، أو غيرهن من الكتب المنسوبة إلى المرسلين الأولين

ولا يؤمن بالقرآن ، وهو أكملها في موضوعها ، وأصحها نسباً إلى من جاء به

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قِيلاً

لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفاً القنديلا

ومن كان يؤمن بالله تعالى وأنه هو الرب الخالق للعالم بأكمل نظام ، المدير لأمر العباد بالحكمة والاحكام ، وأنه هو الذي أعطى كل شئ مخلقه ثم هدى ، وتأمل في تاريخ النبي ﷺ المنقول نقلاً مستفيضاً ومتواتراً ، فلا يسهه أن يزعم أن بعثة محمد الأمي العربي ، وإتيانه بهذا القرآن ، المشتمل على ما أشرنا إليه من ضروب الإعجاز ، قد كان من أمور التعاليم البشرية الكسبية وما حدث به من الهداية التي قلبت تاريخ البشر كان من الأمور العادية ، بل لا يسهه إذا أنصف إلا أن يؤمن بأن هذه الحادثة الانقلابية في دين الأمم ودنياها ، قد كانت بعناية خاصة من الرب الحكيم العليم . المدير الرحيم ، وأنه هو الذي أفاض هذا القرآن الحكيم على قلب ذلك الرجل الأمي بعد أربعين سنة ، قضاها في قومه لم يؤثر عنه شئ من مثل علومه ، ولا مما يقرب من أسلوبه وبلاغته

هذا وإن لتحقيق هذه الدلالة العلمية على النبوة والرسالة مقدمات علمية وفلسفية مستتبطة من حاجة البشر - في كلهم النوعي في الدنيا وفي استعدادهم للحياة الأبدية - إلى هداية الرسالة ، وقد عقد شيخنا الاستاذ الإمام لهذا البحث فضلاً طويلاً في «رسالة التوحيد» سلك فيه مسلكين (أحدهما) مبني على عقيدة خلود

النفس البشرية وكونها لاتنزل من الوجود بالموت الممهود ، وهي عقيدة اتفقت عليها كلمة البشر من الملمين موحيهم ووثنيهم والفلاسفة لإقليداس الماديين الجدليين الذين لايعتمدون إلا بمدركات الحس (وثانيهما) مأخوذ من طبيعة الإنسان في حياته الاجتماعية بين الاستاذ في الأول ان الإنسان محتاج بمقتضى تلك العقيدة والشعور النوعى العام بالبقاء والانتقال من طور إلى آخر في الحياة إلى هداية يستعد بها للحياة الآخرة الباقية وهي من عالم الغيب الذى لا يدرك من أمره شيئاً فيستقل عقله فى العلم بما يجب عليه من الاستعداد له ، فلا بد أن تكون هذه الهداية من عند الله تعالى الذى خلقه للبقاء الذى يعقله فى الجملة ، لا للزوال والعدم المحض الذى لا يعقل ولا يتصور ولا يتخيل ، وإنما عاقبة الموت انحلال هذه الصور الجسدية ، وتفرق هذه المركبات المادية . فالله هو العليم بما يصلح به حاله فى تلك الحياة ، وثأبى حكمته ورحمته وجوده واثقانه لكل شئ ، خلقه ونزعه عن الباطل والعبث أن يحرمه هذه الهداية وبين فى الثانى أن هذه الحياة الاجتماعية الإنسانية لا يستقيم فيها التعاون بين الأفراد ولا بين الجماعات إلا بالأخذ بتعاليم اعتقادية وأدبية وعملية لاختلاف فيها الأهواء والشهوات لأن الوازع فيها نفسى وجدانى لصدورها عن الرب الحكيم العليم ، يوحى أوحاه إلى من اخنصه بهذا الفضل العظيم ، ولولا أن طال هذا الاستطراد فى تفسير الآية لأوردت هذا الفصل برمته هنا فهو فى المسألة الحجة البالغة والحكمة وفصل الخطاب

إلا أننى أقول إن أعلم الحكماء الغربيين فى هذا العصر قد بينوا فى مباحثهم فى طبائع البشر ان الإنسان إذا ترك إلى مداركه الحسية ونظرياته العقلية وتسلسل من وجدان الدين والإلهام الإلهى بالحياة الأخرى يكون أشقى من جميع انواع الحيوان الأعجم ويكون جل شقائه من نظرياته العقلية ، فهو إذا فكر فى هذه الحياة القصيرة التى تساورها الآلام الشخصية من جسمية ونفسية والآلام المتنزلة (العائلية) والقومية والوطنية والدولية -- براها عبثاً ثقيلاً ، ويرى من السخف أو الجنون أن يحمل شيئاً منها مختاراً لأجل زوجة أو ولد أو وطن أو أمة -- ويرى أن الطريقة المثلى فى الحياة أن لا يتعرض لألم من هذه الآلام فلا يتزوج

ولا يعمل أدنى عمل ولا يتكلف أدنى تعب لأجل غيره ، وأن يطلب لذاته الجسديه من أقرب الطرق إليها ، وينتظر الموت للاستراحة من هذه الحياة ، فإن أبطأ عليه ونزلت به آلام يشق عليها احتمالها من مرض أو فقر مدقع أو ذل مخز فليبخع نفسه و يتعجل الموت انتحاراً

كل فضائل الإنسان من الصبر على المكاره والجهاد في سبيل الزوجة والولد والأمة والوطن ، وإسداء المعروف وسائر أعمال البر لا يبعث النفس عليها إلا الإيمان بالله وبالجزاء على الأعمال في حياة خير من الحياة الدنيا ، كما قرره البرنس بسمارك عظيم أوربة في عصره في بيان الباعث للجندى على بذل نفسه في الحرب وأنه وجدان الدين . وفي قوله عن نفسه : إنه لولا الإيمان لما خدم الأمة الألمانية في ظل عاهلها . وهو يكره الملوك لأنه جمهورى بالطبع - ولئن انتصرت الأفكار المادية على الهداية الدينية انتصاراً تاماً كاملاً ليتحولن جميع ما اهتدى إليه البشر من أسرار الكون والفنون والصناعات إلى ذرائع الفتك والتدمير ، و بئس المشوى والمصير ، وهو ماجزم هربرت سبنسر شيخ فلاسفة أوربة الاجتماعيين بأن سيكون عاقبة انتشار الأفكار المادية في أوربة : صرح به لشيخنا عند التقائه به في إنجلترا .

فجملته القول : أن الدين هو الهداية العليا للإنسان التي أفيضت على بعض خواصه وهم الرسل من أفق أعلى من عقله وحواسه فكانت أستاذاً مرشداً له فيهما كيلا يستعملهما فيما يضره في سيرته الشخصية والاجتماعية ، وهادياً له إلى السعادة الأخروية ، وأن القرآن أكمل المكتسب الإلهية التي أوحاها إلى رسله ليبلفوها خلقه ، أكملها هداية وإرشاداً ، وأصحها تاريخاً وإسناداً ، ولذلك كان خاتمة لها ، وكان آية دائمة ومعجزة ثابتة بأسلوب عبارته وبما اشتمل عليه ، مما مرت الإشارة إليه . ولكن ما طراً على دول خلافته العربية من الضعف والانحلال صد الناس عنه ، وسيرجعون إلى إحياء لغته ، وتعميم دعوته فينقذ الله به العالم من مصائبه المادية التي أوشكت أن تودي به (ولتعلمن نبأه بعد حين)

خاتمة البحث فيمن عارضوا القرآن

نختم هذا البحث بكلمة فيمن حاولوا معارضة القرآن ، وقد كان من دأب علماء المسلمين إحصاء كل ما يبلفهم في الدين والعلم والأدب وتدوينه وعزوه

إلى أهله ، حتى إن دعاة النصرانية يقرأون كتب علمائنا وينقلون منها كل طعن في الإسلام ويؤيدونه ، ويكتمون رد علماء المسلمين عليه أو يذكرون منه ما يرونه ضعيفا ويوردونه مورد الهزو والسخرية لتنفيز ضعفاء العلم أو العقل من المسلمين عنه وقد أجمع رواة الآثار والتاريخ على أن فحول البلغاء من مشركي العرب لم تسم نفس أحد منهم إلى معارضة القرآن مع شدة حرصهم على صد الناس عن الإسلام ، وعن الرسول ﷺ — كما تقدم — اللهم إلا أن بعضهم نقل عن مسيطة الكذاب أنه عارض سورة الكوثر وهي أقصر سورة منه ليثبت لدى غوغائه أنه يوحى إليه كمحمد ﷺ فقال كما في التفسير الكبير للفخر الرازي وغيره :

« إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وهاجر ، إن مبغضك رجل كافر »

وقد تعلق بهذا بعض دعاة النصرانية في رسالة له في الطعن على إعجاز القرآن ولكنه أوردتها بألفاظ أخرى ، وزعم أنها فصيحة متناسبة المعنى ، بعد أن طعن في سورة الكوثر وزعم أنه سأل علماء المسلمين عن بلاغتها وإعجازها فلم يستطع أحد أن يجيبه (وهو هو الذي نقلنا عنه معارضة سورة الفاتحة ص ٨٧) وهذه عبارته أو روايته

« إنا أعطيناك الجواهر ، فصل لربك وجاهر ، ولا تعتمد قول ساحر »

ولا شك أن هذا التغير جاء من جاهل باللغة العربية الفصيحة ، ولا سيما لغة ذلك العصر ، وهو مع ذلك سخييف العقل ، فمن سخف عقله إتيانه بكلمة الجواهر هنا وترتيب الأمر بالصلاة على إعطائها ، وفرض هذا وحيا لمسيطة المدعى للنبوّة ، مع أنه لا يوجد نقل بأن الله أعطاه جواهر معروفة تذكر بلام التعريف ، ولا غير معينة ، فتذكر بلام الجفّس ، ثم إنه لا مناسبة للأمر بالجاهرة بالصلاة هنا وهي المشاركة في جهر الشيء أو الجهر بالقول ، وأما الفقرة الأخيرة فليست مما يقوله عربى فصح لا من جهة اللفظ ولا من جهة المعنى إذ لم يكن عند العرب أقوال للسحرة تعتمد أو لا تعتمد إن صح أن يقال هذا ، وإنما السحرة أناس مفسدون محتالون فعالون لا قوالون

ولو فرضنا أن هذه الألفاظ التي غيرها من السورة صحيحة ومناسبة للمقام ومقتضى الحال لما صح أن يكون بهامرضا لها بل قلميّا وناقلا فهو ضرب من الاقتباس مع التصرف ،

كمن يغير قافية أبيات من الشعر بمعناها أو بمعنى آخر، كقول الشاعر :
 ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طرف من رمقا
 لك أن تبدى لنا حسناً ولنا أن نعمل الخدقا
 قدحت عيناك زند هوى فى سواد القلب فاحترقا

غيرت قوافيها لفظاً لا معنى بالبداهة فقلت :

ما لمن تمت محاسنه أن يعادى طرف من مقل
 لك أن تبدى لنا حسناً ولنا أن نعمل المقل
 قدحت عيناك زند هوى فى سواد القلب فاشتعلنا

«مقل» نظر بمقلته . ثم غيرتها أيضاً بكلمات : نظر ، أو بصراً - النظر -
 فاستعرا - فهل أكون بهذا معارضا للأصل ، وفى طبقة صاحبه من غزل الشعر ؟

إعجاز سورة الكوثر

وأما السورة فهي فى أفق أعلى مما قال مسيلمة الكذاب ، ومما عزاه إليه الميثم
 الجاهل الخادع ، حتى لو فرض أنه قال ما قال من تلقاء نفسه .

«الكوثر» فى السورة لا يوجد فى اللغة ما يحكيه أو يحل محله فيها ، إذ معناه
 الكثير البالغ منتهى حدود الكثرة فى الخير حسياً كان ، كاللؤلؤ والرجال والدرية
 والأتباع ، أو معنوا ، كالعلم والهدى والصالح والإصلاح ، ويشمل الكثير من
 خيرى الدنيا والآخرة . وهو يطلق على السخى الجواد أيضاً .

وأما موقعه فى أول السورة وموقع كلمة «الأبتر» فى آخرها اللذان اقتضتهما
 البلاغة وتأنى أن يحل غيرهما محلها فهو أن رؤساء المشركين المستكبرين كانوا
 يحقرون أمر النبى ﷺ لفقره وضعف عصبيته ويتر بصون به الموت أو غيره من
 الدوائر زاعمين أن ماله من قوة التأثير فى الأنفس بتلاوة القرآن يزول بزوال شخصه
 كما قال تعالى (٥٢ : ٣٠) أم يقولون شاعر نتر بص به ريب المنون ٣١ قل تربصوا
 فإنى معكم من المتر بصين) وكانوا يقولون عند مارأوا أبناءهم يموتون : بتر محمد ، أو
 صار أبتر ، أى انقطع ذكره بانقطاع ولده وعصبته ، وكانوا يعدون الفقر وانقطاع
 العقب مطعناً فى دينه ودليلاً على توديع الله له وعدم عنايته به تبعاً لاستدلالهم بالفتى

وكثرة الولد على رضا الله تعالى وعنايته كما حكى عنهم سبحانه بقوله (٣٤ : ٣٥) وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعدين) وقد أبطل الله تعالى بهذه السورة شبهتهم ، ودحض حججهم ، وجعل فاهم شؤماً عليهم ، بما بين من عاقبة أمرهم وأمره ، قال ما تفسيره بالابحاز .

(إنا) بما لنا من القدرة على كل شيء (أعطيناك) أيها الرسول من خيرى الدنيا والآخرة (الكوثر) الذى لا تجد كثرتة ولا تحصر ، من الدين الحق ، وهداية الخلق ، وما لا يحصى من الاتباع ، وما لا يحصر من الغنائم والنصر على الأعداء ، وما لا ينقطع من الذرية التى تنسب اليك فتذكر بذكرهم ، ويصلى ويسلم عليك وعليهم ، ثم من الشفاعة العظمى يوم الفزع الأكبر ، والحوض الذى يرد المؤمنون فى المحشر ، فلفظ « الكوثر » يشمل كل هذا وغيره ، وإنما يكون كل نوع منه فى وقته . وكان الاخبار به فى أول الاسلام من البشارة ونبا الغيب ، وذكر بلفظ الماضى لتحقق وقوعه كقوله (أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أو على معنى الانشاء .. فأين هذا اللفظ فى نفسه وفى موافقته لمقتضى الحال من كلمة « الجواهر » التى استبدلها به مسيله الكذاب ، وهى بالضم الشئ الضخم - أو كلمة « الجواهر » التى ذكرها المبشر المرتاب السباب ، وهى كذب لا مناسبة له ؟

ووصل تعالى هذه البشارة العظمى بالأمر بشكرها فقال (فصل لربك) ومتولى أمرك الذى منّ عليك بهذه النعم وحده مخلصاً له الدين (وانحر) ذبائح نسكك له وحده ؛ - فهو كقوله تعالى (٦ : ١٦٢) قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين) وهذا يدل على أنه سيكون له الغلب على المشركين الذى يتم بفتح مكة وبمحجه ونسكه مع أتباعه - وقد كان - ونحر (ص) فى حجة الوداع مائة ناقة ، فهذه بشارة خاصة بعد تلك البشارة العامة ، وكلاهما من أنباء الغيب نيم قفى على ذلك ببشارة ثالثة هى تمام الرد على أولئك الطغاة المغرورين بأموالهم وأولادهم أوردوها مفصولة غير موصولة بالمطف على ما قبلها لأنها جواب عن سؤال تقديره : وماذا تكون عاقبة شأنه ومبغضيه الذين رموه بقلب الأبترو تربصوا به الدوائر لما يرجون من انقطاع ذكره واضمحلال دعوته ؟ فأجاب (إن شئت) أى

مبغضك وعائبك بالفقر وفقد العقب (هو الأثر) من دونك - وهذا إخبار آخر بالغيب قد صرح وتحقق بعد ذكر السنين ، ولفظ « شأني » مفرد مضاف فعناد عام فهو يشمل العاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأمثالهم ممن نقل عنهم ذلك القول فيه (ص) لفظاً أو موافقة لآخواتهم المجرمين فقد بتروا كلهم وهلكوا ، ثم نسوا كأنهم ما وجدوا ، وزال ما كانوا يرجون من بقاء الذكر بالعظمة والرياسة وكثرة الولد والعصبية ، فلم يعد أحد منهم يذكر بخير ، ولا ينسب له عقب .

فأنت ترى أن هذه السورة على إنجازها في منتهى الفصاحة والبلاغة ، قد جمعت من المعاني الكثيرة الصحيحة ومن أنبياء الغيب التي فسر لها الزمان ما تعد به معجزة بيّنة الإعجاز ، وفيها من المعاني واللطائف غير ما ذكرنا ، فيراجع تفسيرها في مفاتيح الغيب وغيره من المطولات .

أنبياء العجم الكاذبون

هذا وإنه قد ظهر في القرنين الماضي والحاضر دجالون من إيران فالهند ادعى بعضهم أنه المهدي وبعضهم أنه نبي يوحى إليه وشارع جديد فإنه معبود ، وبعضهم أنه المسيح المنتظر . وقد ألف كل منهم رسائل وكتباً عربية ادعى أنها وحي من الله وأنها معجزة للإنام ، على اعترافهم بنبوة محمد (ص) وأن القرآن كتاب الله عز وجل . وقد ضل بكل منهم أناس من الأعاجم الذين لا يفهمون العربية فهما صحيحاً ، ثم تألفت لهم أحزاب وعصبيات بمساعدة الأجانب المستعمرين الطامعين في القضاء على الاسلام والمسلمين وصار لهم ثروة يستميلون بها الناس . وقد ردنا عليهم في المنار ، ورد عليهم غيرنا من العلماء بما ظهر به جهالهم وكذبتهم ، وسخافتهم فيما اغتروا به من وحي الشياطين لهم .

وقد كان لأعرضهم دعوى كتاب سماه الكتاب الأقدس حاول فيه محاكاة القرآن في فواصل آياته وفي أنبياء الغيب - ولكن أتباعه الأذكياء لم يجدوا بداً من إخفاء هذا الكتاب ، وجمع ما كان تفرق من نسخته المطبوعة في الأقطار ، وما يدرى إلا الله ماذا يفعلون فيه بعد أن يثبوا بأنهم استردوا سائر نسخته من تصحيح وتنقيح ، وإبرازه في يوم من الأيام في ثوب جديد وهذا العمل يؤكد

انفراد القرآن بالإعجاز ، وكونه هو حجة الله الباقية إلى آخر الزمان .

(٢٥) وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لما بين تعالى في الآية السابقة ما أعدّه للكافرين الذين قامت عليهم الحجة فجدوا بها ، أراد أن يبين في هذه الآية نصيب مقابل هؤلاء ، وهم الذين ظهر لهم الدليل فآمنوا ، ولاح لهم نور الهداية فاهتدوا ، فالسلام متصل بعضه ببعض . ولذلك عطف الجملة على ما قبلها ، لأنها متممة لفائدتها ، إذ لا بد بعد بيان جزاء الكافرين ، من بيان جزاء المؤمنين ، والإرشاد ترهيب وترغيب ، والخطاب يصح أن يكون للنبي ﷺ خاصة ، وأن يكون عاما لكل من يسمع الأمر من أهله ، وقالوا : إن الأخير هو المعروف في لسان العرب والمفهوم عندهم من أمثال هذا الخطاب ، كقوله تعالى (١٥: ٤٩ نبي عبادي) وقوله (٣٦: ١٣ واضرب لهم مثلا ...) فهو في عمومته جار مجرى الأمثال ، والخطاب الأول به هو الرسول على كل حال .

قال تعالى ﴿ وبشر الذين آمنوا ﴾ ولم يذكر بماذا آمنوا لأن متعلق الإيمان كان معروفا عند المخاطبين ، وهو الله تعالى وصفاته التي ورد بها النقل الصريح . وأثبتها العقل الصحيح ، والوحي ومن جاء به ، والبعث والجزاء . فهذه هي الأصول التي كان يدعو إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمن صدقهم فيها كان مؤمنا ويصدق بما يتبع ذلك من التفصيل (قال الأستاذ) ولا بد في تحقق الإيمان من اليقين ، ولا يقين إلا ببرهان قطعي لا يقبل الشك والارتياب ، ولا بد أن يكون البرهان على الألوهية والنبوة عقليا ، وإن كان الإرشاد إليها سمعيا ، ولكن [لا ينحصر البرهان العقلي المؤدى إلى اليقين في تلك الأدلة التي وضعها المتكلمون وسبقهم إلى كثير منها الفلاسفة الأقدمون ، وقلما تخلص مقدماتها من خلل ، أو

تصح طرقها من علل ، بل قد يبلغ أسمى علم اليقين بنظرة صادقة في ذلك السكون الذي بين يديه ، أوفى نفسه إذا تجلت بغرائبها عليه ، وقد رأينا من أولئك الأميين ، مالا يلحقه في يقيته آلاف من أولئك المصنفين ، الذين أفنوا أوقاتهم في تنقيح المقدمات وبناء البراهين ، وهم أسوأ حالا من أدنى المقلدين [

(وأقول) كان الأستاذ قد أطلق اشتراط البرهان العقلي هنا كما أطلقه في مواضع أخرى تقدم بعضها والبحث فيه ثم قيده هنا بما بين به خطأ بعض المتكلمين في اشتراطهم البراهين المنطقية التي سموها قطعية على ما فيها من خلل وعلل . والحق أن أطمئنان القلب بما جاء به الرسول ﷺ من غير تردد ولا اضطراب كاف في النجاة في الآخرة ، وأن أفضل الأدلة ما أرشد إليه القرآن من النظر في آيات الله تعالى في الأنفس والآفاق ، فبداهة العقل فيه كافية عند سليم الفطرة الذي لم يبتل بشكوك الفلاسفة وجدلّيات المتكلمين ولا بتقليد المبطلين . هذا وإن إطلاق الإيمان وذكر المؤمنين وما أعد لهم من غير وصله بذكر متعلقاته معهود في القرآن لأن المتعلق معلوم للسامعين كما قلنا ، وهو بالنسبة لمن لم يؤمنوا : ماداعهم إليه النبي ﷺ إجمالا من الأصول ، وأما المؤمنون فقد عرفوه مفصلا تفصيلا

ثم وصف المؤمنين الذين يستحقون البشارة بقوله ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وأطلق في هذا أيضا كما أطلق في كثير من الآيات لأن العمل الصالح معروف عند الناس بالإجمال ، وذلك كاف في الترغيب فيه وجعله تابعا للإيمان متصلا به ولازما من لوازمه ، وبين الأعمال الصالحة بالتفصيل في آيات كثيرة كقوله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الخ وكلايات في أول سورة (المؤمنون) وآخرها وآخر سورة الفرقان وأوائل سورة المعارج وغير ذلك . كأن الله تعالى يقول : إن العمل الصالح معروف عند الناس لأنه أودع في نفوسهم ما يميزون به بين الخير والشر ، ولكن بعضهم يضل بانحراف يطرأ على نفسه فيخرجها عن الاعتدال الفطري ثم يضل بضلاله آخرون ، فتكون التقاليد والعادات الناشئة عن هذا الضلال هي الميزان عند الضالين في معرفة الصلاح والفساد ، والخير والشر لا أصل الهداية الفطرية ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام « كل مولود يولد على

الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » رواه الشيخان وغيرهما — يعنى أن الإنسان لو ترك نفسه لاهتدى إلى الحق ما دام بعيداً عن التقاليد والعادات وقد بلغ فساد الطباع وانحراف الفطرة في بعض الأمم مبلغاً كادوا يخرجون به عن طور البشر ، كتنطى البراهمة إذ ذهبوا إلى أن كمال الأرواح وسعادتها إنما هو في تعذيب الأبدان وحرمانها من لذاتها . ولذلك جدوا في البعد عن اللذات الجسائية بأنواعها ، فألوا عن سنن الاعتدال ، ومنوا أبدانهم وعقولهم بالفساد والاعتلال ، وبعض كفرة العرب وطائفة من البراهمة إذ زعموا أنه لا خير إلا في اللذة البدنية ولا شر إلا في الألم الجسداني ، فالسمادة والكمال عندهم في البعد عن الآلام البدنية ، والتمتع بالشهوات الحسية ، فمثل هؤلاء المرضى النفوس المحرومين من الكمال الروحي والعقلي كمثل من غلبت عليه الصفراء فصار يذوق الحلو مرّاً ، وإن من المرضى من يشتهي في طور النقة ما لا يشتهي في حال الصحة والاعتدال وكذلك الجبالى في مدة الوح

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

فانخير والشر والصالح والفساد والحق والباطل والفضيلة والرذيلة كل ذلك معروف في الجملة حتى عند الأشرار ولذلك يدعون الخير والصالح وينكرون ما هم عليه فأطلاق القول بذكر الأعمال الصالحات ليس مبهما عندهم ، ولا خطاباً بغير مفهوم ، وإنما يحتاج معتل الفطرة إلى التفصيل في ذلك ، وذكر الإشارات والدلائل التي تميز بين الصالحين والفاسقين ، والمحقين والمبطلين ، ولهذا نزلت آيات البيان والتفصيل التي أشرنا إلى بعضها آنفاً ، وبها ينقطع تلبيس الأغبياء ، واعتذار الجهلاء ، وحق القول بأن الذى يستحق هذه البشارة هو من جمع بين الإيمان والعمل الصالح الذى ترشد إليه الفطرة السليمة ، ويهتدى إلى تحديده الكتاب العزيز وسنة الرسول المتبعة بشهرهم ﴿ أن لهم جنات ﴾ ورد لفظ الجنة والجنات كثيراً في مقابلة النار ، والجنة في اللغة البستان والجنات جمعها ، وليس المراد بهما مفهومهما اللغوي فقط وإنما هما دار الخلود في النشأة الآخرة ، فالجنة دار الأبرار والمتقين ، والنار دار الفجار والفاسقين ، فنؤمن بهما بالغيب ولا نبحث في حقيقة أمرهما ، ولا نزيد

على النصوص القطعية فبهما شيئاً لأن عالم الغيب لا يجري فيه القياس
ومما وصف الله تعالى به الجنات قوله ﴿يجرى من تحتها الأنهار﴾ والمناسبة
ظاهرة فإن البساتين حياتها بالأنهار . (قال شيخنا) وهل سميت دار النعيم جنة
وجنات على سبيل التشبيه وذكر الجنة ترشيحاً له أم سميت بذلك لأنها مشتملة
على الجنات تسمية لسكل باسم البعض ؟ الله أعلم بمراده . وأقول : لو لم يرد في هذا
المقام إلا ذكر الجنة أو الجنات لوجب التفويض وامتنع الترجيح ، أما وقد ذكر
في آيات أخرى أنواع من الشجر المشمر وذكر الثمرات . فقد تعين ترجيح الشق
الثاني ، وإلا كان هر بنا من تشبيه أسرى الألفاظ عالم الغيب بعالم الشهادة . من
كل وجه ، إلى تأويلات الباطنية المعطلين لدلالاتها من كل وجه .

ألم ترى إلى ربك كيف ذكر من شأن أهل تلك الجنات فيها أنهم ﴿كلما رزقوا
منها من ثمرة رزقا﴾ كلمة «من» الأولى للابتداء والثانية للتبويض ، أى كلما رزقوا من
الجنات رزقا من بعض ثمارها ﴿قالوا هذا الذى رزقنا من قبل﴾ أى هذا الذى
وعدنا به فى الدنيا جزاء على الإيمان والعمل الصالح ، فهو كقوله تعالى (٣٩ : ٧٤) وقالوا الحمد
لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء) وذهب الجلال
وغیره إلى اختيار أن معناه تشبيه ثمرات الآخرة بثمرات الدنيا لأنها مثلها فى اللون
والشكل والرائحة وإن كانت تفضلها فى الطعم واللذة فقوله تعالى ﴿وأوتوا به متشابهاً﴾
بيان لسبب القول على هذا التفسير ، أى أوتوا بما ذكر من الرزق فى الدنيا والآخرة
متشابهاً بعضه يشبه بعضاً ، ومحصله : أنهم عند ما يؤتون برزق الجنة يبادرون إلى
الحكم بأنه غير ما وعدوا به وأنه عين رزق الدنيا ، لأن التشابه يكون سبب الاشتباه
عليهم ، ولكنهم يعرفون الفرق بعد ذلك بالطعم لأن فروقاً عظيماً بين لذة رزق الدنيا
ورزق الجنة ، والتعبير بكلامنا فى هذا التفسير لأن الاشتباه إنما يكون فى المرة الأولى ،
ثم يعرفون التفاوت معرفة تذهب به وتمنع من الحكم بأن هذا عين ذاك أما بالنسبة
لأفراد النوع الواحد من الثمار فبالاختبار ، وأما بالنسبة لما بعد النوع الأول من
الأنواع فبالقياس عليه . وما ذهب إليه الجلال مناف للبلاغة فى المعنى أيضاً لأن

تشابه رزق الدنيا والآخرة في الألوان والروائح واختلافه في الطعم فقط ليس فيه كبير تشويق لأن اللذة في التنقل ، ثم إن أطوار الجنة مخالفة لأطوار الدنيا ، والتشويق للناس إنما يكون بحسب ما عهدوا واعتادوا وألفوا . وإنا نعلم أن الأكل في الدنيا لأجل حفظ البنية من الانحلال ، ولا انحلال في دار الخلد والبقاء ، فلا بد أن يكون الأكل والشرب هناك على ماورد لحكمة أخرى ، أو هو لتحصيل لذة لا تعرفها لأنها من أحوال عالم الغيب ، وإنما تؤمن بماورد ونفوض أمر حقيقته وحكمته إلى الله تعالى . وما ورد أنه لذة أعلى من لذات الدنيا

أقول : بل قال ابن عباس رضى الله عنهما « ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسامي » وفي حديث الصحيحين المرفوع عن الله عز وجل « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » وهو تفسير قوله تعالى (١٧: ٣٢) فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وذهب بعض المفسرين إلى ما قلناه أولاً من أن ذلك الرزق هو عين ما وعدوا به جزاء على أعمالهم ، فكما رزقوا ثمرة منه يد كرون الوعد الإلهي شكراً لله على توفيقهم لذلك العمل الذي له أعد هذا الجزاء ، كما تفيد آية (وقالوا الحمد لله) التي ذكرناها آنفاً ، فهو من قبيل ارتباط الموعود به بالموعود عليه كأن الأعمال عين الجزاء (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقوله تعالى بعد ذلك (وأتوا به متشابهاً) تأكيد وتقرير لما تضمنته قولهم وهذا هو الراجح الذي اختاره شيخنا ، وهنالك قول ثالث ، وهو أن رزق الجنة ونمرها يتشابه على أهلها في صورته ، ويختلف في طعمه ولذته ، وهو المتبادر من اللفظ

ثم قال * ولهم فيها أزواج مطهرة * أى مبالغ في تطهيرهن وتركيتن فليس فيهن ما يعاب من خبث جسد حتى ما هو في الدنيا طبعي كالخيض والنفس ، ولا نفسى كالسكر والكيد وسائر مساوىء الإخلاق ، لأنهن طهرن كل نوع من أنواع التطهير . ونساء الجنات من المؤمنات الصالحات ، وهن المعروفات في القرآن بالحدود العين ، وعجبة الأزواج في الآخرة كسائر شؤونها الغيبية تؤمن بما أخبر به الله تعالى منها لا تزيد فيه ولا تنقص منه ، ولا نبحث في كيفية ، وإنما نعرف بالاجمال أن أطوار الحياة

الآخرة أعلى وأكمل من أطوار الحياة الدنيا كما تقدم ، ونحن نعلم أن الحكمة في لذة الأزواج بالمصاحبة الزوجية المخصوصة هي التناسل وإنماء النوع ، ولم يرد أن في الآخرة تناسلا ، فلا بد أن تكون لذة المصاحبة الزوجية هناك أعلى ، وحكمتها أسمى وإننا نؤمن بها ولا نبحث في حقيقتها كما تقدم في بحث رزق الجنة

(أقول) هذا ملخص ما قاله الأستاذ على طريقته المثلى في الإيمان بالغيب من غير قياس لعالمه على عالم الشهادة وهو لا ينافي كون الإنسان في الآخرة يكون إنسانا لا مملكا ، وإنما تكون لذاته الإنسانية أكمل مما كان في الدنيا وأسلم من المنغصات ومنها الطعام والشراب والمباشرة الزوجية فنقبه ، وثبت في الحديث الصحيح « أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتقلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون . قالوا فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، ولمهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » رواه مسلم عن جابر بن عبد الله وفي معناه أحاديث أخرى . وفي الصحيح أيضا أن لكل رجل في الجنة زوجين اثنين - قال العلماء إحداهن من نساء الدنيا والآخرى من نساء الجنة وما ورد من كثرتين لا يصح منه شيء . ثم قال : ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ الخلود في اللغة طول المكث ومن كلامهم خلد في السجن كما في الأساس ، وفي الشرع الدوام الأبدى أي لا يخرجون منها ولا هي تفنى بهم فيزولوا بزوالها ، وإنما هي حياة أبدية لا نهاية لها ، وفقنا الله لما يجعلنا من خيار أهلها من العلوم الصحيحة ، والأعمال الصالحة ، التي ترتقى بها الأرواح ، وتستعد لذلك الفلاح

(٢٦) إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا، بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ؟ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ

الآيات متصلة بما قبلها لم يختلف النظم ولم يخرج الكلام عن الموضوع الأصلي

وهو الكتاب الذي لا ريب فيه ، وحال الناس في الإيمان به وعدم الإيمان ، ولا فصل في صحة هذا الوصل بين أن يكون الكلام رداً على اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت كما يروى عن ابن عباس ، أو رداً على المنافقين الذين أنكروا الأمثال في الآيات السابقة بمستوقد النار والصيب من السماء زاعمين أنه لا يليق بالله ضرب الأمثال ، أو يكون المراد بالمثل القدوة تقييماً لمبوة النبي ﷺ . أما على الأول فيقال : إنه إنما نص هنا على نفي الاستحياء من ضرب أي مثل ، ولم يذكر ذلك هناك عند تمثيل الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله بالذباب والعنكبوت لأن المقام هنا مقام ذكر الاعتراض الموجه على القرآن ، فيكون هذا مقام رد شبه المكابرين عنه ، وأما على الثاني والثالث فهو أظهر . على أنه لا حاجة في فهم الآية إلى ماقلوه في سببها ، فإن لم تكن رداً لما قيل فهي رد لما قد يقال ، أو يجوز في خواطر أهل المكابرة والجدال ، والمجاهدة والمحال

والاستحياء . قال صاحب الكشف : إنه من الحياء وهو انكسار وتغير في النفس لم بها إذا نسب إليها أو عرض لها فعل تعتقد قبحه ، وفي الحالة الثانية يكون مانعاً من الفعل الذي يعرض ، يقال : فلان يستحي أن يفعل كذا ، أي إن نفسه تمكسر فتنتقض عن فعله ، ويقال إنه استحي من عمل كذا ، أي إن نفسه انفعلت وتألّت عند ما عرض عليه عمله فراه شيئاً أو نقصاً . ويقال حيي بهذا المعنى ، كأنه أصيب في حياته ، كما يقال : نسي إذا أصيب في نساءه — وهو عرق يسمونه عرق النساء يفتح النون — وحشى إذا أصيب في حشاه . وقالوا : إن الحياء ضعف في الحية بما يصيب موضعها وهو النفس ، فمعنى عدم استحياء الله تعالى أنه لا يعرض له ذلك الانكسار والانفعال ، ولا يعتريه ذلك التأثير والضعف فيمتنع من ضرب المثل ، بل هو يضرب من الأمثال الهداية والمطابقة لحال الممثل به ما يعلم أنه يجلي الحقائق ويؤثر في القلوب . ولكن صاحب الكشف وغيره أرادوا أن يجعلوا الآية دليلاً على اتصاف الله تعالى بالحياء ، فقالوا إن النفي خاص ومثله إذا ورد على شيء يدل على أن ذلك الشيء قابل للانصاف بالمعنى ، فمن لا قدرة له على شيء لا ينفي عنه ، لا تقول : إن عيني لا تسمع وأذني

لا ترى ، وقالوا : إن معنى نفي الاستحياء هو أن الله تعالى لا يرى من النقص أن يضرب مثلاً بعوضة فما دونها ، لأنه خالق كل شيء ، وقد ورد في الحديث نسبة الحياة إلى الله تعالى ، والتافون له يؤولون ماورد بأثره وغايته

أقول : هذا مؤدى ما قاله الأستاذ في الدرس ، والحديث في وصفه تعالى بالحياة مروي عن يعلى بن أمية وعن سلمان الفارسي أخرجهما أحمد وأبو داود والاول النسائي والثاني الترمذي وابن ماجه والحاكم وحسنوهما . والتحقيق : أن الحياة انفعال النفس وتأملها من النقص والقبیح بالغرزة الفضلى غريزة حب الكمال فهو كمال لها خلافاً لأولى الوقاحة الذين يعدونه ضعفاً ونقصاً . وإنما النقص الافراط في هذه الصفة بحيث تضعف عن الاقدام على الشيء الحسن النافع اتقاء لدم من لا يعرف حسنه أولاً يعترف به والمثل في اللغة الشبه والشبيه وضربه عبارة عن إيقاعه وبيانها وهو في الكلام أن يذكر لحال من الأحوال ما يناسبها ويشابهها ويظهر من حسنيتها أو قبحها ما كان خفياً ، ولما كان المراد به بيان الأحوال كان قصة وحكاية ، واختير له لفظ الضرب لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيج الانفعال ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ أثره إلى قلبه ، وينتهى إلى أعماق نفسه ، ولكن في الكلام قلباً حيث جعل المثل هو المضروب وإنما هو مضروب به . هذا الذي قاله الأستاذ وهو أبلغ في المعنى من جعل الضرب المثل كضرب القبة والخيمة أو ضرب النقود . وإذا كان الغرض التأثير فالبلاغة تقضى بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه بحال الأشياء التي جرى العرف بتحقيرها ، واعتادت النفوس التنفیر منها ، ومثل هذا لا يخفى على بليغ ، ولا على عاقل أيضاً ، ولذلك قال بعضهم : إن المنكرين لم يروا في القرآن شيئاً يعاب ، فتمحلوا بقولهم هذا :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه للدميم

وجروا في ذلك على عادة المتحدلقين المتكيسين^(١) إذ يتحامون ذكر الألفاظ

التي مدلولاتها حقيرة في العرف ، وإذا اضطروا لذكرها شفعوها بما يشفع لها كقولهم «أجلسكم الله» وإذا كان شأن المثل ما ذكرنا وكان ذكر الأشياء التي ينفرد منها من

ذكرنا في الأمثال التي يراد منها التنفير ، هو الأبلغ في التأثير الذي هو روح البلاغة وسرها ، كان قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً فَتُبْعَضَ بِهَا﴾ مبيّناً لشأن من شؤون كماله عز وجل في كتابه العزيز ، وقاضياً على الذين يتحامون ذكر البعوضة وأمثالها بنقص العقل ، وخسران ميزان الفضل ، والمراد بما فوق البعوضة ما علاها وفاقها في مرتبة الصغر ومنها جنة النسم (الميكروبات) التي لا ترى إلا بالنظارات المكبرة (ميكروسكوب) وكانوا يضربون المثل بمنح الجملة ، وفي كلام بلغائهم : أسمع من قراد ، وأطيش من فراشة ، وأعز من مخ البعوضة . والمعنى أن الله تعالى لا يترك ضرب مثل مّا من الأمثال حياء منه سواء كان بعوضة أو أصغر منها حجماً ، وأقل عند الناس شأنًا .

ثم ذكر تعالى أن الناس في ذلك فريقان ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لأنه ليس نقصاً في حد ذاته ، وقد جاء في كلامه تعالى فهو ليس نقصاً في جانبه ، وإنما هو حق لأنه مبيّن للحق ومقرره ، وسائق إلى الأخذ به ، بما له من التأثير في النفس ، وذلك أن المعاني الكلية تعرض للذهن مجتمعة مبهمّة فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرها ، والمثل هو الذي يفصل إجمالها ، ويوضح إبهامها ، فهو ميزان البلاغة وقسطاسها ، ومشكاة الهداية ونبراسها ، ورحم الله تعالى عبد القاهر الجرجاني إمام البلاغة والواضع الأول لعلمي المعاني والبيان ، ومؤلف أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لتحقيق إعجاز القرآن ، حيث قال في كتابه الأول :

« واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ؛ ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب إليها ؛ واستثار لها من أفاصي الأفتدة صباية وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا .

« فإن كان مدحا كان أبهى وأخفم ، وأنبل في النفوس وأعظم ، وأهزل للعطف وأسرع للألف ، وأجلب للفرح ، وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعته للمدح ، وأفضى له

٢٣٨ إنكار الكفار لضرب المثل وكون الله يضل به ويهدي (التفسير ج : ١)

بغرر المواهب والمنائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر ،
« وإن كان دما كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد ،

« وإن كان حجلاً كان برهانه أنور ، وسلطانه أظهر ، وبيانه أبهر .

« وإن كان افتخاراً كان شأوه أبعد ، وشرفه أجدر ، ولسانه ألد .

« وإن كان اعتذاراً كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم
أسل ، ولغرب الغضب أفل ، وفي عقد العقود أنفث ، وعلى حمن الرجوع أبعث .

وإن كان وعظاً كان أشقى للصدر ، وأدعى إلى الفكر ، وأبلغ في التنبيه والزجر ،

وأجدر بأن يحلى الغياية ، ويبصر الغاية ، ويبرى العليل ، ويشفي الغليل » الخ

﴿ وأما الذين كفروا ﴾ فيجادلون في الحق بعد مباتين ، ويمارون بالبرهان

وقد تعين ، فيخرجون من الموضوع ، ويعرضون عن الحجة ، ويتبعون السكلم

المفردة ، حتى إذا ظفروا بكلمة لا يستعذبها ذوق المتطرفين ، ولا تدور على ألسنة

المتكافين ، أظهروا العجب منها ، وطفقوا يتساءلون عنها ﴿ فيقولون ماذا أراد الله

بهذا مثلاً ﴾ ولو أنصفوا لعرفوا ، ولكنهم ارتابوا في الحق فانصرفوا (١٨: ٥٤) وكان

الانسان أكثر شيئاً حدلاً) يذهب به جدله إلى قياس رب العالمين ، بمنطعمي

المتأدين . وينكر على ربه المثل والقياس ، ولا ينكره على نفسه وعلى الناس .

قال تعالى في جوابهم ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ أي يضل بالمثل

أو بالكلام المضروب فيه المثل أولئك الذين يجعلونه شبهة على الإنكار والريب ،

ويهدي به الذين يقدرّون الأشياء بغاياتها ، ويحكمون عليها بحسب فائدتها . وأنفع

الكلام ما جلى الحقائق ، وهدى إلى أقصد الطرائق ، وساق النفوس بقوة التأثير ،

إلى حسن المصير (٣٠: ٣٠) وتلك الأمثال نضر بها للناس وما يعقلها إلا العالمون) فهو لاء

العالمون هم المؤمنون الذين يعلمون أنه الحق من ربهم وهم المهديون به ، وأما الذين قالوا (ماذا

أراد الله) الخ ، أي الذين يشكرون المثل لكفرهم فهم الضالون به ، وقد بين شأنهم بقوله

﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ فعرفت علة ضلالهم وهي الفسوق أي الخروج عن

هداية الله تعالى في سنته في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر ، وبكتابه بالنسبة

إلى الذين أوتوه ، وليس المراد بالفاسقين ما هو معروف في الاصطلاحات الشرعية وهم العصاة بما دون الكفر من المعاصي ، فانه لا يصح هنا ، وتلك الاصطلاحات حادثة بعد التنزيل ، وقد كان التعبير بمضل مشعراً بأن المثل هو منشأ الاضلال والهداية بذاته ، فنفي ذلك بهذه الجملة ليبين أن منشأ الضلال راسخ فيهم وفي أعمالهم وأحوالهم ثم إن الآية تشعر بأن المهتدين في السكينة كالضالين مع أن هؤلاء أكثر وكان الحكمة في التسوية إفادة أن المؤمنين المهتدين على قلتهم أجل فائدة وأكثر نفعاً وأعظم آثاراً من أولئك الكفار الفاسقين الضالين على كثرتهم ، لأن المؤمنين كاقيل * قليل إذا عدوا كثير إذا شُدُّوا * ولذلك جعل الواحد في القتال بعشرة في حال القوة والعزيمة ، وبأثنين في حال الضعف ، قيل هو ضعف البدن ، وقيل : بل ضعف البصيرة ، ولقد كان من أثر ذلك العدد القليل من المؤمنين الأولين أن سادوا جميع العالمين

ولم أر أمثال الرجال تفاوتاً إلى المجد حتى عد ألف بواحد إن السكرام كثير في البلاد وإن قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا وأما وجه تقديم الاضلال على الهداية فلأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم في الوجود ، وإنما جاءت الآيات المبينة بالأمثال لآخراجهما مما كانوا فيه من ظلمات الباطل إلى نور الحق ، فزادت الفاسقين رجساً على رجسهم ، لأن نور الفطرة قد انطفأ من أنفسهم ، بتأديهم في نقض العهد ، وقطع الوصل والافساد في الارض ، كما في الآية التالية لهذه . وقد علم بما ذكرنا أن في الآية لفاً ونشراً غير مرتب فان الضلال ذكر أولاً ، وهو للفريق الثاني ، والهدى ذكرنا آخراً ، وهو للفريق الاول وهذا وإن ما تقدم تقريره في ضرب المثل وضلال قوم به وهداية آخرين ، هو مبني على أن المراد به المثل الكلامي كاعليه الجمهور ، أخذاً مما ورد في سبب النزول ، وتقدم عن بعضهم أن المراد بالمثل في الآية القدوة الذي يؤتم به ويهتدى بهديه ، وهذا المعنى للمثل معروف ، وقد نطق به القرآن في قوله تعالى (٥٦: ٤٣) فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين) وقوله (ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون) وقال فيه (إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لابي اسرائيل) فهذه الآية تهدينا

إلى فهم قوله تعالى (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما) أن المراد به دحض شبهة الذين أنكروا نبوة النبي ﷺ وصلاحيته لأن يكون مثلاً يقتدى به ، وهي أنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وهم المشركون ، والذين أنكروا أن يكون من العرب وهم اليهود .

وقد حكى هذه الشبهة عنهم في آيات كثيرة ، كأنهم يقولون : إذا كان بشراً مثلنا فكيف يدعى أنه رسول من الله يجب اتباعه ، ومثل كامل ضرب للاقتداء به ؟ (أنزل الذكر عليه من بيننا) ولأى شيء لم يرسل الله ملكاً ؟ ومنهم من قال (لولا أنزلنا عليه ملك فيكون معه نذيراً) وقد أقام الله الحجة على هؤلاء بقوله (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) الخ ، وأتبعها بوعيد من أعرض عن الإيمان بعد قيام البرهان ، وهم الكافرون ، وبشارة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المؤمنون ، وبعد تقرير الحجة وهي تحديدهم بسورة من مثله - كرّ على شبهتهم بالنقض وهي استبعاد أن يكون بشر رسولا من عنده ، ومحصله : أن الله تعالى خالق كل شيء ، فيجعل ما شاء من المنفعة والفائدة فيما شاء ومن شاء من خلقه ويضرب به مثلاً للناس يهتدون به ، وليس هذا نقصاً في جانب الألوهية فيستحي من ضربها مثلاً بل من الكمال والفضل أن يجعل في المخلوقات الضعيفة والمحتقرة في العرف كالبعوض فوائد ومنافع ، فكيف يستنكر أن يجعل من الإنسان الكامل الذي كرمه وخلقته في أحسن تقويم مثلاً وإماماً يقتدى به قومه ويهتدون بهديه ؟ وبقية الكلام في الآية على هذا الوجه في معنى المثل هو نحو ما تقدم تقريره أو ظاهر منه أتم الظهور .

[فإن الذين آمنوا يعلمون أن هذا الامام الذي نصبه للناس مهتماً بكن ضعيفاً قبل أن يقويه ببرهانه هو الحق الذي ثبت تأييده من ربهم ، والكافرون يقولون لم لم يبعث إلى الناس من هو خير منه في نظرهم ؟ وماذا يريد بأن يجعل لهم قدوة في أضعفهم وأهونهم ، وهكذا تقول في قوله : يفضل به كثيراً] الخ

وقد عهد من أهل البصيرة الاقتداء بالحيوانات والاستفادة من خصالها وأعمالها ، ويحكي عن بعض كبار الصوفية أنه قال : تعلمت المراقبة من القط ، وعن بعض حكماء المسلمين أنه قرأ كتاباً نحواً من ثلاثين مرة فلم يفهمه ، فبئس منه وتركه

فرأى خنفسة تتسلق جداراً وتقع فعدَّ عليها الوقوع فزاد على ثلاثين مرة ولم تبال حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه والانهاء إلى حيث أرادت ، فقال : لن أرضى أن تكون هذه الخنفساء أثبت منى وأقوى عزيمة ، فرجع إلى انككتاب فقرأه حتى فهمه . ويقال إن (تيمور لنگ) كانت تحسبته نفسه بالملك من أول نشأته ، على ما كان من فقره ومهانتة . فسرق مرة غنا (وكان لصاً) ففطن له الراعى فرماه بسهمين أصابا كتفه ورجله فعضلاهما ، فأوى إلى خربة وجعل يفكر فى مهنته ويوبخ نفسه على طمعها فى الملك ، ولكنه رأى نملة تحمل تبنه وتصعد إلى السقف وعند ما تبلغه تقع ثم تعود وظلت على ذلك عامة الليل حتى نجحت فى الصباح ، فقال فى نفسه والله لا أرضى بأن أكون أضعف عزيمة وأقل ثباتاً من هذه النملة ، وأصرَّ على عزمه حتى صار ملكاً وكان من أمره ما كان

(٢٧) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

وصف الضالين بالفسوق ثم بين من حال فسوقهم نقض العهد الموثق ، وقطع ما يجب أن يوصل ، والإفساد فى الأرض ، وسجل بذلك عليهم الخسران وحصرهم فى مضيقه ، بحيث لا يسلم منه إلا من رجع عن فسوقه ، (أقول) فعلم بهذا أن المراد بإسناد الاضلال إليه تعالى فى الآية السابقة بيان سنته تعالى فى أصحاب هذه الأعمال من الفساق وهو أنهم يضلون حتى بما هو سبب من أشد أسباب الهداية تأثيراً وهو المثل المذكور بسبب رسوخهم فى الفسق ونقضهم للعهد الخ . وليس المعنى أنه تعالى خلق الضلال فيهم خلقاً وأجبرهم عليه إجباراً

العهد هنا لفظ مجمل لم يتقدم الآيات ما يشعر به ، ولم يتل فيما تلاها ما يبينه ، وكذلك ما أمر الله به أن يوصل ، ليس فى سابق الآيات ولا فى لاحقها ما يفسره ويبين المراد منه ، فما المعنى الذى يتبادر منهما إلى أفهام المخاطبين ، ويصح أن يؤخذ من حال أولئك الفاسقين ، الذين أنكروا على الله أن يضرب مثلاً يقتدى به

من البشر أو من العرب ، أو الذين أنكروا الوحي لحيء الأمثال القولية فيه بما يعد حقيراً من المخلوقات في عرف المتكبرين والمتنظرين منهم ؟ دل ذكر العهد والسكوت عما يفسره ، وإطلاق ما أمر الله به أن يوصل بدون بيان ما يفصله ، على أن الله تعالى ما وصفهم إلا بما هم متصفون به ، ولا حاجة إلى بيان الحمل بالقول إذا كان الوجود قد تكفل ببيانه ، والواقع قد فسر بلسانه ، ويرشد إلى فهم العهد الإلهي هنا ما قلناه في معنى الفسوق فإن الفاسقين هم ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ فإذا كان معنى الفسوق الخروج عن سنن الله تعالى في خلقه التي هداهم إليها بالعقل والمشاعر ، وعن هداية الدين بالنسبة إلى الذين أوتوه خاصة ، فعهد الله تعالى هو ما أخذهم به بمنحهم ما يفهمون به هذه السنن الموهودة للناس بالنظر والاعتبار ، والتجربة والاختبار . أو العقل والحواس المرشدة إليها ، وهي عامة ، والحجة بها قائمة على كل من وهب نعمة العقل وبلغ سن الرشد سليم الحواس ، ونقضه عبارة عن عدم استعمال تلك المواهب استعمالاً صحيحاً حتى كأنهم فقدوها وخرجوا من حكمها ، كما قال تعالى (لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم أذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وكما قال فيهم أيضاً (صم بكم عنى فهم لا يعقلون)

هذا هو القسم الأول من العهد الإلهي وهو العام الشامل ، والأساس للقسم الثانى المكمل الذى هو الدين ، فالعهد فطرى خلقى ، ودينى شرعى ، فالشركون نقضوا الأول ؛ وأهل الكتاب الذين لم يقوموا بحقه نقضوا الأول والثانى جميعاً ، وأعنى بالناقضين من أنكروا المثل من الفريقين . والميثاق اسم لما يوثق به الشيء ويكون محكاً يعسر نقضه ، والله تعالى قد وثق العهد الفطرى بجعل العقول بيد الرشد قابلة لأدراك السنن الإلهية فى الخلق ، ووثق العهد الدينى بما أيد به الأنبياء من الآيات البينات ، والأحكام المحكمات ، وقد وثق العهد الأول بالعهد الثانى أيضاً ، فمن أنكروا بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سنته فى تقويم البنية البشرية وإتمامها ، وإبلاغ قواها وملكاتها حد الكمال الإنسانى الممكن لها وأما قوله ﴿و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ ففيه من الاجمال نحو ما فى نقض العهد

وليس هو بمعناه على طريق التأكيد . وإنما هو وصف مستقل جاء متما لما سبقه . وهذا الأمر نوعان : أمر تكوين وهو ما عليه الخلق من النظام والسنن المحككة ، وقد سمي الله تعالى التكوين أمراً بما عبر عنه بقوله (كن) وأمر تشريع وهو ما أوحاه إلى أنبيائه وأمر الناس بالأخذ به ، ومن النوع الأول ترتيب النتائج على المقدمات . ووصل الأدلة بالمدلولات ، وإفضاء الأسباب إلى المسببات ، ومعرفة المنافع والمضار بالغايات . فمن أنكر نبوة النبي بعد ما قام الدليل على صدقه . أو أنكر سلطان الله على عباده بعد ما شهدت له بها آثاره في خلقه . فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى التكوين الفطرى - وكذلك من أنكر شيئاً مما علم أنه جاء به الرسول . لأنه إن كان من الأصول الاستقادية ففيه القطع بين الدليل والمدلول . وإن كان من الأحكام العملية ففيه القطع بين المبادئ والغايات . لأن كل ما أمر الدين به قطعاً فهو نافع ومنفعته تثبتها التجربة والدليل . وكل مانهى عنه حتماً فلا بد أن تكون عاقبته مضرة . فالذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه هم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل بغايته . أما بالنسبة إلى الإيمان بالله تعالى وبالنبوة فيقطعون ما أمر به بمقتضى التكوين والنظام الفطرى . وأما بالنسبة إلى الأحكام فيقطعون ما أمر به في كتبه أمر تشريع وتكليف . وصلة الأرحام تدخل في كل من القسمين إذا كان مشركو العرب قد نقضوا عهد الفطرة وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل بمقتضاها بتكذيبهم النبي ﷺ وإيذائه وهو ذو رحم بهم . فالمكذبون من أهل الكتابين قد قطعوا صلات الأمرين كما نقضوا العهدين : فإن الله تعالى قد بشرهم في الكتب المنزلة على أنبيائهم بالنبي ﷺ لأنه ذكر للبشر به صفات وأعمال وأحوال تنطبق عليه أتم الانطباق فخرقوا وأولوا واجتهدوا في صرفها عنه وهم متعمدون (وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) ومنهم من يحمل تلك الصفات والعلامات على غيره . ومنهم ينتظر مبعوثاً آخر يجيئ الزمان به

التعبير بالقطع هنا أبلغ من التعبير بالنقض ولذلك جاء بعده ضمها له . كأن عهد الله تعالى إلى الناس حبل محكم الطاقات . موثق القتل . وكأن هذا الحبل قد وصل بحكمة أمر التكوين وحكم أمر التشريع بين جمع المنافع التي تنفع الناس .

فلم يكتف أولئك الفاسقون المنكرون للمثل الذى ضربه الله لعباده بنقض حبل العهد الالهى . وحل طاقاته ونكت فتله حتى قطعوه قطعاً . وأفسدوا بذلك نظام الفطرة ونظام الهداية الدينية أصلاً وفرعاً . ولذلك عقب هذا الوصف بقوله ﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ . وأى إفساد أكبر من إفساد من أهمل هداية العقل وهداية الدين . وقطع الصلة بين المقدمات والنتائج . وبين المطالب والأدلة والبراهين . من كان هذا شأنه فهو فاسد فى نفسه ووجوده فى الأرض مفسد لأهلها . لأن شره يتعدى كالآجر يعمد السليم . ولذلك ورد فى السنة النهى عن قرناء السوء . والمشاهدة والتجربة مؤيدة للسنة ومصدقة لها . خصوصاً إذا قعدوا فى سبيل الله يصدون عنها ويغونها عوجاً . فإن إفسادهم يكون أشد انتشاراً وأشمل خساراً ولما كان إفساد هؤلاء عاماً للعقائد والأخلاق والأعمال لأن علته فقد الهدايتين هداية الفطرة وهداية الدين — سجل عليهم الخسران وحصره فيهم بقوله ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة أما خسرانهم فى الدنيا فهو ظاهر لأرباب البصائر الضافية . والفضائل السامية . ولكنه يخفى على الأكثرين . بالنسبة إلى الأغنياء من أولئك الخاسرين . يرونهم متمتعين بملاذات الدنيا وشهواتها . فيحسبون أنهم مغبوطون سعداء بها . فيكون هذا الحسبان من آلات الافساد . ولو سبروا أغوارهم . وبلوا أخبارهم . لأدركوا أن ما هم فيه من ظلمة النفس وضيق العطن وفساد الأخلاق ينقص عليهم أكثر لذاتهم . ويقذف بهم إلى الافراط الذى يولد الأمراض الجسدية والنفسية . ويشير فى نفوسهم كوامن الوسوس . ويجعل عقولهم كالكرة تنفثها صواعج الآوهام . وأن حب الراحة يوقعهم فى تعب لانهاية له . وهو تعب البطالة والكسل أو العمل الاضطرارى ومن لا يذوق لذة العمل الاختيارى لا يذوق لذة الراحة الحقيقية . لأن الله تعالى لم يضع الراحة فى غير العمل . وإنما سعادة الدنيا بصحة الجسم والعقل وأدب النفس الذى يرشد إليه الدين . فمن فقد هذه الأشياء فقد خسر الدنيا والآخرة و (ذلك هو الخسران المبين)

(٢٨) كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٩) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

الكلام متصل بما قبله ومرتب به ارتباطاً محكماً والخطاب للفاسقين الذين يضلون بالمثل فإنه وصفهم أولاً بنقص العهد الإلهي الموثق ، وقطع مأمراً به سبحانه أن يوصل ، سواء كان الأمر أمر تكوين وهو السنن الكونية ، أو أمر تشريع وهو الديانة السماوية ، ثم بعد هذا البيان جاء بهذا الاستفهام التعجيبى عن صفة كفرهم مقترناً بالبرهان الناضع على أنه لا وجه له ، ولا شبهة تسوغ الإقامة عليه ، فقال

* كيف تكفرون بالله * أى بأى صفة من صفات الكفر بالله تعالى تأخذون ، وعلى أية شبهة فيه تعتمدون ، وحالكم فى موتيتكم وحياتكم تأبى عليكم ذلك ولا تدع لكم عذراً فيه ؟ وبين هذه الحال بقوله * وكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ * أى والحال انكم كنتم قبل هذه النشأة الأولى من حياتكم الدنيا أَمْوَاتًا مُمَثِّلَةً أَجْزَاؤَكُمْ فِي الْأَرْضِ ، بعضها فى طبقتها الجامدة وبعضها فى طبقتها السائلة وبعضها فى طبقتها الغازية (الهوائية) لافرق فى ذلك بينها وبين أجزاء سائر الحيوان والنبات ، فلخلقكم أطواراً من سلالة من طين ، فكُنْتُمْ بِالطُّورِ الْآخِرِ فى أحسن تقويم ، وفضلكم على غيركم بما وهبكم من العقل والادراك ، وما سخر لكم من الكائنات * ثم يميتكم * بقبض الروح الحى الذى به نظام حياتكم هذه فتمحل أبدانكم بمفارقتها إياها وتعود إلى أصلها الميت وتنبث فى طبقات الأرض وتدغم فى عوالمها ، حتى ينعدم هذا الوجود الخاص بها * ثم يحييكم * حياة ثانية كما أحياكم بعد الموت الأولى بلا فرق الاماتكون به الحياة الثانية أرقى فى مرتبة الوجود وأكمل لمن يركون أنفسهم فى تلك ، وأدنى منها وأسفل فيمن يدسونها ويفسدون فطرتها (قد أفلح من رزأها وقد خاب من دساها)

﴿ثم إليه ترجعون﴾ فينبشكم بما عملتم ، ويحاسبكم على ما قدمتم ، ويجازيكم به . وأقول ان تراخي الارجاع إلى الله تعالى عن حياة البعث عبارة عن تأخير الحساب والجزاء وطول زمن الوقوف والانتظار كما ورد في حديث الشفاعة العظمى وغيره . فاذا كان هذا شأنكم معه وهذا فضله عليكم ، وهذا مبدأكم ، وذلك منتهاكم ، فكيف تكفرون به وتنكرون عليه أن يضرب لكم مثلاً تهتدون به ، ويبعث فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياته ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من قيام مصالحكم في حياتكم الأولى ، وسعادتكم في حياتكم الآخرة ؟ لا يقال كيف يحتاج عليهم بالحياة الثانية قبل الإيمان بالوحي الذي هو دليلها ومثبتها ؟ لأنه احتجاج على مجموع الناس بما عليه إلا كثرون منهم ، ولا عبرة بالشذاذ المنكرين للبعث في هذا المقام لأن الاحتجاج بالحياة الأولى بعد الموتة الأولى كاف للتعجب من كفرهم بالله وانكارهم عليه أن يضرب مثلاً ما لهداية الناس زعماً أن هذا لا يليق بعظمته ، فإن من أوجد هذا الإنسان الكريم ، وجعله في أحسن تقويم ، وركب صورته من تلك الذرات الصغيرة ، والنظفة المهينة الحفيرة ، والعلقة الدموية أو الدودية ، والمضغة اللحمية ، (لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بموضوعة فما فوقها) والكلام مسوق لإبطال شبه منكري المثل والقرآن الذي جاء به ، لا لإبطال شبه منكري البعث بلوامع شبهه ، ثم إن تمثيل إحدى الحياتين بعد الموت بالآخرى داحض لحجة من يزعم عدم إمكان الثانية ، لأن ما جاز في أحد المتثلين جاز في الآخر ، والكلام في اثبات الوحي الإلهي للنبي المرسل من البشر والإيمان بالبعث تابع له ثم بعد بيان بعض آياته في أنفسهم بذكر المبدأ والمنتهى ذكرهم بآياته في

الآفاق فقال ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً﴾ فالكلام على اتصال وترتيبه وانتظام جواهره في سلك أسلوبه ، فليس في قوله كيف تكفرون إلحاً انتقال لاثبات البعث كما قال بعض المفسرين ، غفلة عن هذا الاتصال المتين ، ولعمري أن وجوه الاتصال بين الآيات ، وما فيها من دقائق المناسبات ، لهي ضرب من ضروب البلاغة ، وفن من فنون الإعجاز ، إذا أمكن للبشر الاشراف عليه ، فلا يمكنهم البلوغ اليه ، والكلام في البعث في القرآن كثير جداً فلا حاجة إلى الاسراع إليه هنا

يصور لنا قوله تعالى (خلق لكم) قدرته الكاملة ، ونعمه الشاملة ، وأى قدرة أكبر من قدرة الخالق ؟ وأى نعمة أكمل من جعل كل مافى الأرض مهيئاً لنا ، ومعداً لمنافعنا ؟ وللانتفاع بالأرض طريقان (أخذهما) الانتفاع بأعيانها فى الحياة الجسدية (وثانيهما) النظر والاعتبار بها فى الحياة العقلية ، والأرض هى مافى الجهة السفلى ، أى ماتحت أرجلنا ، كما أن المراد بالسماء كل مافى الجهة العليا أى فوق رؤوسنا وإتنا ننتفع بكل مافى الأرض برها وبحرها من حيوان ونبات وجماد ، ومالا تصل إليه أيدينا ننتفع فيه بقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته . والتعبير بقى يتناول مافى جوف الأرض من المعادن بالنص الصريح

(وأقول هنا) إن هذه الجلة هى نص الدليل القطعى على القاعدة المعروفة عند الفقهاء « ان الأصل فى الأشياء المخلوقة الإباحة » والمراد بإباحة الانتفاع بها أكلها وشربها ولباساً وتداوياً وركوباً وزينة ، وبهذا التفصيل تدخل الأشياء التى يضر استعمالها فى بعض الأشياء وينفع فى بعض ، كالسموم التى يضر أكلها وشربها وينفع التداوى بها ، وليس لمخلوق حق فى تحريم شيء أباحه الرب لعباده تدينابه إلا بوحيه وإذنه (قل ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً * قل الله أذن لكم أم على الله تفترون) ؟ . وما يحظره الطبيب على المريض من طعام حلال فى نفسه وما يمنع الحاكم العادل الناس من التصرف فيه من المباحات لدفع مفسدة أو رعاية مصلحة — فليس من التحريم الدينى للشيء ولا يكون دائماً ، وإنما يتبعان فى ذلك كما يأمران به بحق وعدل مادامت علمته قائمة

١ قال تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ يقال استوى إلى الشيء إذا قصد إليه قصداً مستوياً خاصاً به لا يلوى على غيره . وقال الراغب إذا تعدى استوى إلى اقتضى الانتهاء إلى الشيء إما بالذات وإما بالتدبير ، والمراد أن إرادته توجهت إلى مادة السماء كما قال فى سورة فصلت (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) الخ ﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ فأنم خلقهن من تلك المادة المدخانية فجعلهن سبع سموات تامات منتظمات الخلق . وهذا الترتيب يوافق ما كان معروفاً عند اليهود عن سيدنا موسى عليه السلام من أن الله تعالى خلق الأرض أولاً ، ثم

خلق السموات والنور ، ولا مانع من الأخذ بظاهر الآية فان الخلق غير التسوية ألا ترى أن الإنسان في طور النطفة والعلقة يكون مخلوقا وليسكنه لا يكون بشرا سويا في أحسن تقويم كما يكون عند انشائه خلقا آخر ، وسنمين ان شاء الله تعالى عند تفسير قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما) أن العالم كان شيئا واحدا ثم فصله الله تعالى بالخلق تفصيلا ، وقدره تقديرا ، فلا مانع إذن من أن يكون خلق الأرض وما فيها سابقا على تسوية السماء سبعا ، نعم إن هذا من أسرار الخلقة التي لا نعرفها وربما يتوهم أن هذه الآية تناقض أو يخالف قوله تعالى بعد ذكر خلق السماء وأنوارها ١ : ٧٩ : ٣٠ والأرض بعد ذلك دحاها) والجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن البعديّة ليست بعديّة الزمان وليسكنها البعديّة في الذكر وهي معروفة في كلام العرب وغيرهم فلا بعد في أن تقول فعلت كذا لفلان وأحسننت عليه بكنا و بعد ذلك ساعدته في صل كذا كما تقول وزيادة على ذلك ساعدته في عمله ، تريد نوعا آخر من أنواع الإحسان ، من غير ملاحظة التأخر في الزمان (ثانيهما) أن الذي كان بعد خلق السماء هو دحو الأرض أي جعلها ممهدة مدجوة قابلة للسكنى والاستعمار لا مجرد خلقها وتقدير أوقاتها فيها ، وخلق الله وتقديره لم ينقطع من الأرض ولا ينقطع منها مادامت وكذلك يقال في غيرها

(وأزيد على ذلك الآن) أن الدحو في أصل اللغة درجة الأشياء القابلة للدرجة كالجوز والكرو والحصى ورميها ويسمون المطر الداحي لأنه يدحو الحصى وكذا اللاعب بالجوز . وفي حديث أبي رافع كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمداحي وهي أحجار أمثال القرصة كانوا يحفرون ويدحون فيها بتلك الأحجار ، فان وقع الحجر فيها غلب صاحبها وان لم يقع غلب ، ذكره في اللسان وقال بعده الدحو هو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره . وأقول إن ما ذكره وأعاد القول فيه من لعبة الدحو بالحجارة المستديرة كالقرصة لا يزال مألوقا عند الصبيان في بلادنا ويسمونه لعب الأكرة ، ويحرفها بعضهم فيقول الدكرة . وقال الراغب في مفردات القرآن قال تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها) أي أزالها عن مقرها

كقوله (يوم ترجف الأرض والجبال) وهو من قولهم دحا المطر الحصى الخ ، ولكن فرقا بين دحا الأرض ودحرجتها من مكانها عند التكوين ، ورجفها قبيل خرابها عند قيام الساعة ، وقد يكون المراد به - والله أعلم - أنه دحاها عند مافئتها هي والسموات من المادة الدخانية التي كانت رتقا وفيه دلالة أو إشارة - على الأقل - إلى أنها كرة أو كائنة في الاستدارة ، ولا يبعد أن يكون المراد بدحرجتها ودحرجتها حركتها بقدرته تعالى في فلكها (وكل في فلك يسبحون) وهذا لا يتنافى ما قيل من أن معناه بسطها أى وسعها ومدفئها ، وأنه سطعها أى جعل لها سطحا واسعا يعيش عليه الناس وغيرهم ، فمن جعل مسألة كرويتها وسطحها أمرين متعارضين يقول بكل منهما قوم يطعنون في الآخرين فقد ضيقوا من اللغة والدين واسما بقله بضاعتهم فيهما معاً .

وحاصل القول أن الله تعالى خلق هذه الأرض وهذه السموات التي فوقنا بالتدريج وما أشهدنا خلقهن ، وإنما ذكر لنا ما ذكره للاستدلال على قدرته وحكمته وللامتنان علينا بنعمته ، لا لبيان تاريخ تكوينا بالترتيب ، لأن هذا ليس من مقاصد الدين ، فابتداء الخلق غير معروف ولا ترتيبيه إلا أن تسوية السماء سبع سماوات يظهر أنه كان بعد تكوين الأرض ، ويظهر أن السماء كانت موجودة إلا أنها لم تكن سبعة ، ولذلك ذكر الاستواء إليها وقال (فسواهن سبع سموات) فنؤمن بأنه فعل ذلك لحكم يعلمها ، وقد عرض علينا ذلك لتدبر وتفكر ، فمن أراد أن يزداد علما فليطلبه من البحث في الكون [وعليه بدراسة ما كتب الباحثون فيه من قبل ، وما اكتشف المحدثون من شؤونها وليأخذ من ذلك بما قام عليه الدليل الصحيح لا بما يتخرض به المتخرضون ، ويخترعونه من الأوهام والظنون] وحسبه أن الكتاب أرشده إلى ذلك وأباحه له .

هذه الإباحة للنظر والبحث في الكون بل هذا الإرشاد إليها بالصيغ التي تبعث الهمم وتشوق النفوس ككون كل ما في الأرض مخلوقا لنا محبوسا على منافعنا هو مما امتاز به الاسلام في ترقية الإنسان ، فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين أن أهل الكتاب كانوا متفقين في تقاليدهم وسيرتهم العملية على أن العقل والدين ضدان

لا يجتمعان ، والعلم والدين خصمان لا يتفقان ، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجا عن نص الكتاب فهو باطل .

ولذلك جاء القرآن يلحّ أشد الإلحاح بالنظر العقلي ، والتفكير والتدبر والتذكر ، فلا تقرأ منه قليلا إلا وتراه يعرض عليك ألا كوان ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها ، واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها (١٠: ١٠١ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ٢٩: ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ٢٢: ٤٦ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ٨٨: ١٧ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا . وإكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به ، ومن فوائد الحث على النظر في الخليفة للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة ، واستخراج علومها لترقية النوع الإنساني الذي خلقت هي لأجله - مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التي كان عليها أهل الكتاب فأودت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به .

كانت أوروبا المسيحية في غمرة من الجهل ، وظلمات من الفتن ، تسيل الدماء فيها أنهاراً لأجل الدين ، وباسم الدين والاكراه على الدين ، ثم فاض طوفان تعصبها على المشرق ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبساً من دين الإسلام وعلوم أهله ، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا إن لنا الحق في أن نتفكر ، وأن نعلم وأن نستدل . فحاربهم الدين ورجاله حرباً عواناً انتهت بظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله ، وبعد غسل الدماء المسفوكة قام منذ مائتي سنة إلى اليوم رجال منهم يسمون هذه المدنية القائمة على دعائم العلم : المدنية المسيحية ، ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها بعد انبازها من أمام الدين المسيحي لأنها لا تتفق مع العلم وفي مقدمتها الدين الإسلامي ، وحجتهم على ذلك حال المسلمين ، نعم إن المسلمين أمسوا وراء الأمم كلها في العلم حتى سقطوا في جاهلية أشد جهلا من الجاهلية الأولى ، فجهلوا الأرض التي هم عليها ، وضعفوا عن استخراج منافعها ، فجاء الأجنبي يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون ، وكتبناهم قائم على صراطه يصيح بهم (هو الذي خلق لكم في الأرض جميعاً * وسخر لكم في السموات

وما في الأرض جميعاً منه - قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا (الآية وأمثال ذلك . ولكنهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون) إلا من رحم الله ، ولو عقولوا لعادوا ، ولو عادوا لاستفادوا ، وبلغوا ما أرادوا ، وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلمهم يرجعون ، ولا نياس من روح الله (إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون)

ثم ختم الآية سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أى فهو المحيط بكيفية التكوين وحكمته ، وبما ينفع الناس بيانه ، وإذا كان العاقل يدرك أن هذا النظام الحكم لا يكون إلا من عليم حكيم فكيف يصح له أن ينكر عليه أن يرسل من يشاء من خلقه لهداية من شاء من عباده ؟ فهذا الآخر يتصل بأول الآية في تقرير رسالة النبي ﷺ وإبطال شبهة الذين أنكروا أن يكون البشر رسولا ؛ والذين أنكروا أن يكون من العرب رسول ، لأن قصارى ذلك كله اعتراض الجاهلين ، على من هو بكل شيء عليم .

(٣٠) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَآئِئَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ قَالَ : إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

(تمهيد للقصة ومذهب السلف والخلف في التشابهات)

إن أمر الخلقة وكيفية التكوين من الشئون الإلهية التي يعز الوقوف عليها كما هي ، وقد قص الله علينا في هذه الآيات خبر النشأة الإنسانية على نحو ما يؤثر عن أهل الكتاب من قبلنا ، ومثل لنا المعاني في صور محسوسة ، وأبرز لنا الحكم والأسرار بأسلوب المناظرة والحوار ، كما هي سنته في مخاطبة الخلق ، وبيان الحق ، وقد ذهب الأستاذ إلى أن هذه الآيات من التشابهات التي لا يمكن حملها على ظاهرها ، لأنها بحسب قانون التخاطب إما استشارة وذلك محال على الله تعالى ، وإما أخبار منه سبحانه الملائكة واعتراض منهم ومحااجة وجدال ، وذلك لا يليق بالله تعالى

أيضاً ولا بملائكته ، ولا يجاء به الدين من وصف الملائكة ككونهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) وقد أورد الأستاذ مقدمة تمهيدية لفهم القصة فقال مامثاله :

أجمعت الأمة الإسلامية على أن الله تعالى منزّه عن مشابهة المخلوقات ^(١) وقد قام البرهان العقلي والبرهان النقلى على هذه العقيدة فكانت هي الأصل المحكم في الاعتقاد الذي يجب أن يرد إليه غيره ، وهو التنزيه ، فإذا جاء في نصوص الكتاب أو السنة شيء يناقض ظاهره التنزيه . فللمسلمين فيه طريقتان :

(إحداهما) طريقة السلف وهي التنزيه الذي أيد العقل فيه النقل كقوله تعالى (ليس كمثل شيء) وقوله عز وجل (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وتقرئ (الأمر إلى الله تعالى في فهم حقيقة ذلك ، مع العلم بأن الله يعلمنا بضمون كلامه ما نستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ويأتينا في ذلك بما يقرب المعاني من عقولنا ويصورها لحيلاتها .

(والثانية) طريقة الخلف وهي التأويل يقولون : إن قواعد الدين الإسلامي وضعت على أساس العقل فلا يخرج شيء منها عن المعقول فإذا جزم العقل بشيء وورد في النقل خلافه يكون الحكم العقلي القاطع قرينة على أن النقل لا يراد به ظاهره ولا بد له من معنى موافق يحمل عليه فينبغي طلبه بالتأويل (قال الأستاذ) وأنا على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته وعالم الغيب . وانا نسير في فهم الآيات على كلا الطريقتين لأنه لا بد للكلام من فائدة يحمل عليها ، لأن الله عز وجل لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى

(وأقول) أنا - مؤلف هذا التفسير : إنني والله الحمد على طريقة السلف وهديتهم عليها أحياء وعليها أموت إن شاء الله تعالى وإنما أذكر من كلام شيخنا ومن كلام غيره ومن تلقاء نفسي بعض التأويلات لما ثبت عندي باختباري الناس أن ما انتشر في الأمة من نظريات الفلاسفة ومذاهب المبتدعة المتقدمين والمتأخرين جعل قبول مذهب السلف واعتقاده يتوقف في الغالب على تلقيه من الصغر بالبيان الصحيح

(١) كان الأصل أنه تعالى ليس بجسم ولا يشبه الأجسام - وهو قاصر

وتخطئة ما يخالفه ، أو طول ممارسة الرد عليهم ، ولا نعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين النقل والعقل من كتب شيخى الاسلام ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله تعالى ، وإني أقول عن نفسى : إني لم يطمئن قلبي بمذهب السلف تفصيلا إلا بممارسة هذه الكتب .

فنحن قد سمعنا بأذناننا شبهات على بعض الآيات والأحاديث لم يسهل علينا دفعها وإقناع أصحابها بصدق كلام الله وكلام رسوله الا بضرب من التأويل وأمثال تقر بها من عقولهم ومعلوماتهم أحسن التقريب ، وقد غلط كثير من علماء الكلام والمفسرين في بيان مذهب السلف وفي معانى التفويض والتأويل ونجد تفصيل ذلك لنا فى أوائل تفسير سورة آل عمران كما أخطأ من قالوا إن الدليل العقلى هو الأصل فيرد اليه الدليل السمعى ويجب تأويله لأجل موافقته مطلقا والحق كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : إن كلام الدليلين إما قطعى وإما غير قطعى ، فإما طمئنان لا يمكن أن يتعارض حتى ترجح أحدهما على الآخر ، وإذا تعارض ظنى من كل منهما مع قطعى وجب ترجيح القطعى مطلقا ، وإذا تعارض ظنى مع ظنى من كل منهما رجحنا المقول على المقول لأن ما ندركه بغلبة الظن من كلام الله ورسوله أولى بالاتباع مما ندركه بغلبة الظن من نظرياتنا العقلية التى يكثر فيها الخطأ جدا ، فتطوهر الآيات فى خلق آدم مثلا مقدم فى الاعتقاد على النظريات المخالفة لها من أقوال الباحثين فى أسرار الخلق وتعليل أطواره ونظامه ما دامت ظنية لم تبلغ درجة القطع وينبغى أن تعلم أيها القارى المؤمن أن من الخير لك أن تطمئن قلبا بمذهب السلف ولا تحفل بغيره ، فإن لم يطمئن قلبك إلا بتأويل يرضاه أسلوب اللغة العربية فلا حرج عليك ، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وأئمة علماء السلف قد تأولوا بعد الظواهر كما فعل الامام أحمد وغيره فى آيات المعية . وآخرون فى غيرها ، والذى عليك قبل كل شيء أن توفق بأن كلام الله كله حق ، وألا تؤول شيئا منه بسوء القصد . وكذا ما صح عن رسوله (ص) من أمر الدين بغير شبهة . والتفسير الموافق للغة العرب لا يسمى تأويلا وإنما يجب معه تنزيه الخالق وعدم تشبيهه عالم الغيب بعالم الشهادة من كل وجه .

إذا تقرر هذا فهناك تفسير هذا السياق بما قرره شيخنا في الأزهر قال مأماله :
 أما الملائكة فيقول السلف فيهم : إنهم خلق أخبرنا الله تعالى بوجودهم وبيعض
 عليهم فيجب علينا الايمان بهم ، ولا يتوقف ذلك على معرفة حقيقتهم ، فنفوض
 علمها إلى الله تعالى ، فإذا ورد أن لهم أجنحة تؤمن بذلك ولكننا نقول إنها ليست
 أجنحة من الريش ونحوه ، كأجنحة الطيور إذ لو كانت كذلك لرأيناها ، وإذا ورد
 أنهم موكلون بالعوالم الجسمانية كالنبتات والبحار فاننا نستدل بذلك على أن في الكون
 عالماً آخر أظف من هذا العالم المحسوس وأن له علاقة بنظامه وأحكامه ، والعقل
 لا يحكم باستحالة هذا بل يحكم بإمكانه لذاته ، ويحكم بصدق الوحي الذي أخبر به
 (قال الأستاذ) وقد بحث أناس في جوهر الملائكة وحاولوا معرفتهم ولكن
 من وقفهم الله تعالى على هذا السبر قليلون ، والدين إنما شرع للناس كافة ، فكان
 الصواب الاكتفاء بالإيمان بعالم الغيب من غير بحث عن حقيقته لأن تكليف
 الناس هذا البحث أو العلم يكاد يكون من تكليف ما لا يطاق ، ومن خصه الله
 تعالى بزيادة في العلم فذلك فضله يؤتيه من يشاء ، فقد ورد في الصحيح عن أمير
 المؤمنين على كرم الله وجهه في هذا العلم اللدني الخاص وقد سئل « هل خصكم
 رسول الله ﷺ بشيء من العلم ؟ فقال لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن
 يؤتى الله عبداً فهم في القرآن الخ » وأما ذلك الحوار في الآيات فهو شأن من شؤون
 الله تعالى مع ملائكته صوره لنا في هذه القصة بالقول والمراجعة والسؤال والجواب
 ونحن لا نعرف حقيقة ذلك القول ولكننا نعلم أنه ليس كما يكون منا ،
 وأن هناك معاني قصدت لإفادتها بهذه العبارات وهي عبارة عن شأن من شؤون
 تعالى قبل خلق آدم وأنه كان يعد له الكون ، وشأن مع الملائكة يتعلق بخلق
 نوع الانسان ، وشأن آخر في بيان كرامة هذا النوع وفضله .

وأما الفائدة فيما وراء البحث في حقيقة الملائكة وكيفية الخطاب بينهم وبين
 الله تعالى فهي من وجوه .

(أحدها) أن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن

حكيمته في صنعه ، وما يخفى عليهم من أسرارته في خلقه ، ولا سيما عند الحيرة ،

والسؤال يكون بالمقال ويكون بالحال والتوجه إلى الله تعالى في استفاضة العلم بالمطلوب من ينابيعه التي جرت سفته تعالى بأن يفيض منها (كالبحث العملي والاستدلال العقلي والالهام الالهي) وربما كان للملائكة طريق آخر لاستفاضة العلم غير معروفة لأحد من البشر فيمكننا أن نحمل سؤال الملائكة على ذلك

(ثانياً) إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة فنحن أولى بأن يخفى علينا ، فلا مطمع للانسان في معرفة جميع أسرار الخليفة وحكمها لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلاً .

(ثالثاً) أن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم ، وأجابهم عن سؤا لهم لإقامة الدليل ، بعد الارشاد إلى الخضوع والتسليم ، وذلك أنه بعد أن أخبرهم بأنه يعلم ما لا يعلمون علم آدم الأسماء ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتي بيانه .

(رابعاً) تسلية النبي ﷺ عن تكذيب الناس ، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ما جحدوا ، فإذا كان الملائكة على قدر مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون ، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين ، وبالأنبيا أن يعلمواهم كما عامل الله الملائكة المقربين ، أى فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين ، وترشد المسترشدين ، وتأتى أهل الدعوة بسلطان مبين ، وهذا الوجه هو الذى يبين اتصال هذه الآيات بما قبلها . وكون الكلام لا يزال فى موضوع الكتاب وكونه لا ريب فيه وفى الرسول وكونه يبلغ وحى الله تعالى ويهدى به عباده وفى اختلاف الناس فيها ، ومن خواص القرآن الحكيم الانتقال من مسألة إلى أخرى مباينة لها أو قريبة منها مع كون الجميع فى سياق موضوع واحد .

وأما الخلف فمنهم من تنكلم فى حقيقة الملائكة ووضع لهم تعريفاً ومنهم من أمسك عن ذلك وقد اتفقوا على أنهم يدركون ويعلمون . والقصة على مذهبهم وردت مورد التمثيل لتقرب من أفهام الخلق ما تفيدهم معرفته من حال المنشأة الآدمية ، وما لها من المكانة والخصوصية : أخبر الله الملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة ، ففهموا من ذلك أن الله يودع فى فطرة هذا النوع الذى يجعله خليفة أن يكون

ذا إرادة مطلقة واختيار في عمله غير محدود ، وأن الترجيح بين ما يتعارض من الأعمال التي تعين له تكون بحسب علمه ، وأن العلم إذا لم يكن محيطاً بوجوه المصالح والمنافع فقد يوجه الإرادة إلى خلاف المصلحة والحكمة وذلك هو الفساد ، وهو متعين لازم الوقوع ، لأن العلم المحيط لا يكون إلا لله تعالى ، فعجبوا كيف يخلق الله هذا النوع من الخلق وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون ، أو بلسان الحال والتوجيه إليه لاستفاضة المعرفة بذلك وطلب البيان والحكمة ، وعبر الله عن ذلك بالقول لأنه هو المعبود بالاستعلام والاستفهام عند البشر الذين أنزل القرآن لهذايتهم ، كما نسب القول إلى السموات والأرض في قوله (قالنا أتينا طائعين) . فأول ما ألقى إليهم من الإلهام أو غيره من طرق الإعلام هو وجوب الخضوع والتسليم ، لمن هو بكل شيء عليم ، لأن ما يضيق عنه علم أحد وبحار في كيفيته يتسع له علم من هو أعلم منه ، ومن شأن الإنسان أن يسلم لمن يعتقد أنه فوقه في العلم ما يتصدى له مهما يكن بعيد الوقوع في اعتقاده ، ومثل الأستاذ لذلك بعشائخ الصوفية مع مرديهم .

ومن ذلك اعتقاد جماهير الناس في بلاد الحضارة والصناعات في هذا العصر إمكان أمور وأعمال لم يكن أحد يتصور إمكانها من قبل إلا بعض كبار علماء النظر ، فإذا قيل إنهم يحاولون عمل كذا فأنهم يصدقونهم ، وإن لم يعقلوا كيف يعملونه فإن الذين يصنعون شلوكا لنقل الأخبار بالكهرباء إلى الأماكن البعيدة في دقيقة أو دقائق قليلة يصدقون بأنهم يصلون تلك الأخبار من غير سلك ، وقد كان ، ويصدقون بإمكان إيجاد آلة تجمع بين نقل الصوت ورؤية المتكلم وهو ما يحاولون الآن ، وإذا قال لنا أهل هذه الصناعة إن ذلك ممكن الحصول صدقناهم فيما يقولون من غير تردد ، وليس تصديقنا تقليداً ولا تسليماً أعى كما يقال بل هو تصديق عن دليل ركنه قياس ما يكون على ما قد كان بعد العلم بوحدة الوسائل . والملائكة أعلم منا بشأن الله في أفعاله وأنه العليم الحكيم ، فهم وإن فاجأهم العجب من خلق الخليفة يردهم إلى اليقين أدنى التنبيه ، ولذلك كان قوله تعالى (إني أعلم ما لا تعلمون) جواباً مقنناً أى اقناع .

على أن هذا النوع من التسليم للعالم القادر . ربما لا يذهب بالحيرة ولا يزيل الاضطراب من نفس المتعجب ، وإنما تسكن النفس ببروز ذلك الأمر الذى كانت تعجب من بروزه إلى عالم الوجود ووقوفها على أسرارهِ وحكمه بالفعل ، ولذلك تفضل الله تعالى على الملائكة بإكمال علمهم بحكمته فى خلق هذا الخليفة الانسانى وسره عند طلوع فجرهِ . فعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة كما سيأتى ، فعلموا أن فى فطرة هذا الخليفة واستعداده علم ما لم يعلموا ، وتبين لهم وجه استحقيقه لمقام الخلافة فى الأرض ، وأن كل ما يتوقع من الفساد وسفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف وفائدته ومقامه ، وناهيك بمقام العلم وفائدته ، وسر العالم وحكمته فعلمنا أن السلف والخلف متفقون على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به من شؤون المخلوقين ، وعصمة ملائكته عما لا يليق بهم من الاعتراض أو الانكار . فلا فرق فى هذه النتيجة بين تفويض وتسليم ، وتأويل وتفهم ؛ والله بكل شئ عليم ، وهالك تفسير الآيات بالتفصيل .

قد علمت مما تقدم أن الآيات متصلة بما قبلها من الكلام فى الكتاب ومن جاء به ومن دعى إليه ، فهى تجلّى حجة الرسول ودعوته من حيث إن الملائكة إذا كانوا محتاجين إلى العلم ويستفيدونه بالتعلم من الله تعالى بالطريقة التى تناسب حالهم فالبشر أولى بالحاجة إلى ذلك منهم لأن طبيعة البشر جبلت على أن يكتسبوا كل شئ اكتساباً ، وهى من جهة أخرى تسلية له ﷺ ببيان أن البشر أولى من الملائكة بإنكار ما لم يحيطوا بعلمه حتى يعلموا ، وأنهم جبلوا على أن يتوبوا ويرجعوا بعد أن يخطئوا ويذنبوا ، وأن الافساد فى الأرض وجود الحق ومناصبه الداعى إليه ليس بدعا من قومه ، وإنما هو جبلة أهل الفكر وطبيعة البشر .

ثم إن للمفسرين فى (الخليفة) مذهبين : ذهب بعضهم إلى أن هذا اللفظ يشعر بأنه كان فى الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق ، وأنه انقرض . وأن هذا الصنف الذى أخبر الله الملائكة بأن سيجمعه خليفة فى الأرض سيحل محله ويخلفه ، كما قال تعالى بعد ذكر إهلاك القرون (١٠: ١٤) ثم جعلناكم خلافتكم فى الأرض

من بعدهم) وقالوا : إن ذلك الصنف البائد قد أفسد في الأرض وسفك الدماء وأن الملائكة استنبطوا سؤا لهم بالقياس عليه ، لأن الخليفة لا بد أن يناسب من يخلفه ويكون من قبيله كما يتبادر إلى الفهم ؛ ولكن لما لم يكن دليل على أنه يكون مثله من كل وجه وليس ذلك من مقتضى الخلافة ؛ أجاب الله الملائكة بأنه يعلم ما لا يعلمون مما يعتاز به هذا الخليفة على من قبله ، وما له سبحانه في ذلك من الحكمة البالغة (قال الأستاذ) وإذا صح هذا القول فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض ، وإنما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه في الذات والمادة ، وتخالفها في بعض الأخلاق والسجايا .

هذا أحسن ما يجلي فيه هذا المذهب وأكثر ما قالوه فيه قد سرى إلى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم ، ومنه أنه كان في الأرض قبل آدم خلق يسمون بالجن والبن ، أو الظم والرم ، والاكثرون على أن الخلق الذين كانوا في الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن ، والقائلون منهم بالجن (بالهمله) والبن قالوا إنهم كانوا قبل الجن ، وقالوا : إن هؤلاء عاثوا في الأرض فساداً ، فأبادهم الله (كما تقدم آفاً) وقالوا : إن الله تعالى أرسل إليهم إبليس في جند من الملائكة فخارب الجن فدمرهم وفرقهم في الجزائر والبحار . وليس لهم في الاسلام سند يحتاج به على هذه القصص ، ولكن تقاليد الأمم الموروثة في هذه المسألة تنفي بأمر ذي بال ، وهي متفق عليها بالأجمال ، ألا وهو ما قلناه من أن آدم ليس أول الأحياء العاقلة التي سكنت الأرض .

هذا هو المذهب الأول في تفسير الخليفة ، وذهب الآخرون إلى أن المراد إني جاعل في الأرض خليفة عني ، ولهذا شاع أن الانسان خليفة الله في أرضه . وقال تعالى (٣٨ :) يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض (والظاهر والله أعلم أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته ، ولكن ما معنى هذه الخلافة ، وما المراد من هذا الاستخلاف هل هو استخلاف بعض الانسان على بعض ؛ أم استخلاف البعض على غيره ؟ جرت سنة الله في خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على السنة أناس منهم يصطفهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه

الوضعية (أى الشرعية لأن الشرع وضع إلهي) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية فيصح أن يكون معنى الخلافة عاما في كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات ، نطق الوحي ودل العيان والاختبار على أن الله تعالى خلق العالم أنواعا مختلفة ، وخص كل نوع غير نوع الانسان بشيء محدود معين لا يتعمده . فأما ما لا نعرفه إلا من طريق الوحي كالملائكة فقد ورد فيهما من الآيات والأحاديث ما يدل على أن وظائفه محدودة . قال تعالى (٢٠: ٢١ يسبحون الليل والنهار لا يفترون) (٢٧ : ١٦٥ وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) (٣٧ : ٢٤ والصافات صفا ، فلا زجرات زجرا) (٧٩ : ١ - ٥ والنارعات غرقا ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا) على قول من قال : إن المراد بها الملائكة إلى غير ذلك مما يدل على أنهم طوائف لكل طائفة وظيفة محدودة ، وورد في الأحاديث أن منهم الساجد دائما ، والراكم دائما إلى يوم القيامة .

وأما ما نعرفه بالنظر والاختبار فهو حال المعدن والجماد ولا علم له ولا عمل . وحال النبات وإنما تأثير حياته في نفسه ، فلو فرض أن له علما وإرادة فهما لا أثر لهما في جعل عمل النبات مبينا لحكم الله وسننه في الخلق ، ولا وسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها ، فكل حي من الأحياء المحسوسة والنفسيية فان له استعدادا محدودا ، وعلما إلهاميا محدودا ، وعلا محدودا ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة عن الذي لا حد لعلمه وإرادته ، ولا حصر لأحكامه وسننه ، ولا نهاية لأعماله وتصرفه . وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفا . كما قال في كتابه (٤ : ٢٧ وخلق الانسان ضعيفا) وخلقهم جاهلا كما قال تعالى (١٦ : ٧٨ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر ، وموضع لعجب المتعجب ، لأنه مع ضعفه يتصرف في الأقوياء ، ومع جهله في نشأته يعلم جميع الاسماء ، يولد الحيوان عالما بالإلهام ما ينفعه وما يضره ، وتكمل له قواه في زمن قليل ، ويولد الإنسان وليس له من الإلهام إلا الصراخ بالبكاء ، ثم يحس ويشعر بالتدريج البطيء بالنسبة إلى غيره من الحيوان ويعطى قوة أخرى تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفا يكون له به السلطان على هذه الكائنات ، فيسخرها ويذلها بمذ ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة هي التي يسمونها

العقل ولا يعقلون سرها ، ولا يدركون حقيقتها وكنهها ، فهي التي تغني الإنسان عن كل ماوهب للحيوان في أصل الفطرة من الكساء الذي يقيه البرد والحر ، والاعضاء التي يتناول بها غذاءه والتي يدافع بها عن نفسه ويسطو بها على عدوه ، وغير ذلك من المواهب التي يعطاها الحيوان بلا كسب ، حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ما كان ، وسيكون له من ذلك ما لا يصل إليه التقدير والحسبان .

فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود الرغائب ولا محدود العلم ولا محدود العمل ، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه في الكون تصرفاً لا حد له بإذن الله وتصريفه ، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليفته ، وملاكه الأرض وسخر له عوالمها — أعطاه أحكاماً وشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه حدًا يحول دون بغي أفراده وطوائفه بعضهم على بعض ، فهي تساعد على بلوغ كماله لأنها مرشد ومرب للعقل الذي كان له كل تلك المزايا فلم يداكه جملة خليفته في الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة ظهرت آثار الإنسان في هذه الخلافة على الأرض ونحن نشاهد عجائب صنعه

في المعدن والنبات ، وفي البر والبحر والهواء ، فهو يتفنن وابتدع ، ويكتشف ويخترع ويجد ويعمل ، حتى غير شكل الأرض فجعل الحزن سهلاً ، والمائل خصباً . والخراب عمراناً ، والبراري بحاراً أو خلجاناً ، وولد بالتلقيح أزواجاً من النبات لم تكن كاليعقون المسمى «يوسف أفندي» فان الله تعالى خلقه بيد الإنسان وأنشأه بكسبه ، وقد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية والمنغلية والتوليد ، حتى ظهر التغير في خلقها وخلقتها وأصنافها ، فصار منها الكبير والصغير ، ومنها الأهل والوحش ، وهو ينتفع بكل نوع منها ويسخره لخدمته كما سخر القوى الطبيعية وسائر المخلوقات . أليس من حكمة الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . أن جعل الإنسان بهذه المواهب خليفته في الأرض . يقيم سننه : ويظهر عجائب صنعه ، وأسرار خليفته ، وبدائع حكمه ، ومنافع أحكامه وهل وجدت آية على كمال الله تعالى وسعة علمه أظهر من هذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم ؟ وإذا كان الإنسان خليفة بهذا المعنى فكيف تعجب الملائكة منه ؟

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ هادروا إلى السؤال واستفهام الاستغراب و﴿قَالُوا أَنْجَبْ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فيفعل بذلك عن تسبيحك وتقديسك ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ بلا غفلة ولا فتور ؟ لاشك أن هذا السؤال نشأ من فهم المعنى المراد من الخليفة وما يقتضيه من العلم غير المحدود والارادة المطلقة ، وكون هذا العلم المصرف للارادة لا يحصل إلا بالتدرج ، وكون عدم الاحاطة مدعاة للغساد ، والتنازع المفضى إلى سفك الدماء كما تقدم .

نعم إن هذا العلم الواسع لا يعطاه فرد من أفراد الإنسان ولا مجموع النوع دفعة واحدة فيشابه علمه علم الله تعالى ، وكلما أوتي نصيباً منه ظهر له من جهله ما لم يكن يعلم ، وكلما أعطى حظاً من الأدب والعقل ظهر له ضعف عقله ، والله در الشافعي حيث قال :

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي

وإذا ما ازددت علماً زادني علماً يجهلي

فهو على سعة علمه لم يؤت من العلم الالهي إلا قليلاً ، وهو مع ذلك أوسع مظاهر العلم الالهي ، ولذلك أجاب الله الملائكة بالعلم ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فأثبت لذاته العلم بحكمة هذه الخلافة ونفاه عنهم ، ثم أظهر لهم أن الانسان يكون خليفة بالعلم وما يتبعه فقال :

(٣١) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٢) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٣) قَالَ يَسَاءَ مَا أَنْبَيْتُمُ بِأَسْمَائِهِمْ فَكَمًا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

تقدم في بيان معنى الخليفة أن علم الملائكة وعلمهم محدودان ، وأن علم

الانسان وعمله غير محدودين ، وبهذه الخاصة التي فطر الله الناس عليها كان الانسان أجدر بالخلافة من الملائكة ، وهذه هي حجة الله البالغة على الملائكة التي يدينها لهم بعد ما تبهمهم إلى علمه المحيط بما لا يعلمون فقال ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ أي أودع في نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ، فالمراد بالأسماء المسميات عبر عن المدلول بالدليل ، لشدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له ، وسرعة الانتقال من أحدهما إلى الآخر . والعلم الحقيقي إنما هو ادراك المعلومات أنفسها ، والالفاظ الدالة عليها تختلف باختلاف اللغات التي تجري بالمواضع والاصطلاح فهي تتغير وتختلف والمعنى لا يتغير فيه ولا اختلاف

قال الأستاذ : ثم إن الاسم قد يطلق اطلاقاً صحيحاً على ما يصل إلى الذهن من المعلوم أي صورة المعلوم في الذهن ، وبعبارة أخرى : ما به يعلم الشيء ، عند العالم ، فاسم الله مثلاً هو ما به عرفناه في أذهاننا ، بحيث يقال : إننا نؤمن بوجوده ، ونسند إليه صفاته ، فالاسماء هي ما به نعلم الأشياء ، وهي العلوم المطابقة للحقائق . والاسم بهذا الاطلاق هو الذي جرى الخلاف في أنه عين المسمى أو غيره ، وقد كان اليونانيون يطلقون على ما في الذهن من المعلوم لفظ الاسم ، والخلاف في أن ما في الذهن من الحقائق هو عينها أو صورتها مشهور كالخلاف في أن العلم عين المعلوم أو غير المعلوم ، وأما الخلاف في أن الاسم الذي هو اللفظ عين المسمى أو غيره فهو ما أخطأ فيه الناظرون بعدم الدقة في التمييز بين الاطلاقات لبداهة أن اللفظ غير معناه بالضرورة ، والاسم بذلك الاطلاق الذي ذكرناه هو الذي يتقدس ويقبّارك ويتمالئ (سبح اسم ربك الأعلى) (تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام) فاسمه جل شأنه ما يمكننا أن نعلم منه ما نعلم من صفاته ، وما يشرق في أنفسنا من بهائه وجلاله ، ولا مانع من أن نريد من الأسماء هذا المعنى ، وهو لا يختلف في التأويل عما قالوه من إرادة المسميات ولكنه على ما نقول أظهر وأبين

(وأقول) تقدم لنا في أول سورة الفاتحة أن اسم الله تعالى يسبح ويعظم ومنه إسناد التسبيح إليه قولاً وكتابة . وتسبيحه وتعظيمه بدون ذكر اسمه خاص بالقلب . ومن تعدد إهانة اسم الله تعالى يكفر أكن يتعمد إهانة كتابه

ثم إن الذي يتبادر إلى الفهم من صيغة التعليم هو التدرج قال تعالى (١٥١:٢) ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) وما كان ذلك إلا تدرجاً وهذا ظاهر في جميع الآيات التي فيها لفظ التعليم كقوله (١١٥:٤) وعلمك ما لم تكن تعلم) وقوله (٤٨:٣) ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) إلى غير ذلك - ولكن المتبادر من تعليم آدم الاسماء : أنه كان دفعة واحدة إذا أريد بآدم شخصه بالفعل أو بالقوة ، ولذلك قال شيخنا : علم الله آدم كل شيء ولا فرق في ذلك بين أن يكون لهذا العلم في آن واحد أو في آنات متعددة والله قادر على كل شيء ، ثم إن هذه القوة العلمية عامة للنوع الآدمي كله ، ولا يلزم من ذلك أن يعرف أبناؤه الأسماء من أول يوم فيكفي في ثبوت هذه القوة لهم معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال ، علم الله آدم الاسماء على نحو ما بينا * ثم عرضهم على الملائكة * أي أطلعهم اطلاعا اجمالياً بالالهام الذي يليق بمقامهم على مجموع تلك الأشياء ولو عرضت على نفوسهم عرضاً تفصيلياً لعلوها ولم يكن علمهم محدوداً والحال أنه عرضها عليهم وسألهم عنها سؤال تعجيز * فقال أنبثوني بأسماء هؤلاء * المسميات والفرض من الانبياء أسمائها الابانة عن معرفتها ومعنى * إن كنتم صادقين * أي إن كان هناك موقع للدهشة والاستغراب من جعل الخليفة في الأرض من البشر ، وكان ماطرقة نفوسكم وطراً دلي أذهانكم أولاً حالاً محله ، ومصيباً غرضه ، ولما تعرفوا حقيقة ما يمتاز به الخليفة : فأنبثوني بأسماء ما عرضته عليكم * قالوا سبحانك * أي تنزيها لك ، فلفظ سبحان مصدر فلما يستعمل إلا مضافاً كماذا الله ، وهو منصوب بفعل مقدر ، والمعنى تقدست وتنزهك أن يكون علمك قاصراً فنخلق الخليفة عبثاً ، أو نسا لنا شيئاً نفيدناه وأنت تعلم أننا نحيط بعلمه ، ولا نقدر على الانبياء به ، وكلمة « سبحانك » تهدي إلى هذا فكأنها جملة وحدها ، وهذه هي البلاغة مضروب سرادقها ، مشمرة حدائقها ، متجلية حقائقها ، على أن القصة وردت مورد التمثيل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، وبعد تنزيه الباري تبرؤاً من علمهم إلى علمه تعالى وحكمته فقالوا * لا علم لنا إلا ما علمتنا * وهو محدود لا يتناول جميع الأسماء ولا يحيط بكل المسميات * إنك أنت العليم * بخلقك الحكيم * في صنعك

قال الاستاذ : إن هذه التأكيديات ^(١) تشعر بأن سؤال الاستغراب الأول كان يتنسم منه شيء ، وكذلك الجواب عن (أنبثوني) بقولهم (لا علم لنا) ولذلك ختموا الجواب بالتبرؤ من كل شيء ، والثناء على الله تعالى بالعالم الثابت الواجب لذاته العلية ، والحكمة البالغة اللازمة له ، فقد تقدم في تفسير الفاتحة أن صيغة (فعيل) تدل غالباً على الصفات الراسخة اللازمة ، فكان جواب الملائكة بهذا مؤذناً بأنهم رجعوا إلى ما كان يجب أن لا يغفل مثلهم عنه ، وهو التسليم لسعة علم الله وحكمته حتى يبلغ الكتاب أجله

﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ فكان الانبياء كما أراد الله تعالى وذكره لأجل ترتيب الحكم عليه بقوله ﴿ فلما أنبأهم بأسمائهم قال ﴾ الله تعالى للملائكة ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ﴾ ومن كان هذا شأنه فلا يخلق شيئاً سدى ولا يجعل الخليفة في الأرض عبثاً ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ والذي يبدو أنه هو ما يظهر أثره في نفوسهم ، وأما ما يكتمون فهو ما يوجد في غرائزهم وتنطوى عليه طبائعهم وقد علم مما تقدم أن كل هذه الأقوال والمراجعات والمناظرات يفوض السالف الأمر إلى الله تعالى في معرفة حقيقتها ، ويكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتها ، وقد تقدم بيان ذلك . وأما الخلف فيلجأون إلى التأويل ، وأمثل طريقة في هذا المقام التمثيل ، وقد مضت سنة الله في كتابه بأن يبرز لنا الأشياء المعنوية ، في قوالب العبارة اللفظية ، ويحلى لنا المعارف المعقولة ، بالصور المحسوسة ، تقريباً للفهم ، وتسهيلاً للإعلام ، ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا ، وما أودعته فطرتنا ، مما تمتاز به على غيرنا من المخلوقات ، فعلمنا أن نجته في تكميل أنفسنا بالعلوم التي خلقنا مستعدين لها من دون الملائكة وسائر الخلق لتظهر حكمة الله فينا ، ولعلمنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ، ومعنى سجودهم لأصلنا (٢٤ : ٣٥) ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون)

(١) في التنزيه تأكيد معنى وكذلك في نفى العلم عن أنفسهم لذاتها واثبات ما أعطاها الله فقط ، ثم يلي ذلك التأكيد اللفظي بأن الجملة الاسمية وضمير الفصل « أنت » والمعنوى بصيغتي المبالغة في العلم والحكمة - المؤلف

(٣٤) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ
وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ .

بعد ما عرف الله الملائكة بمكانة آدم ووجه جعله خليفة في الأرض أمرهم بالخضوع له وعبر عن ذلك بالسجود، فقال ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ وهو سجود لا نعرف صفته، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة إذ لا يعبد إلا الله تعالى، والسجود في اللغة النظام والخضوع والالتحاق، وأعظم مظهره الخروء نحو الأرض للأذقان ووضع الجبهة على التراب، وكان عند بعض القدماء من تحية الناس الموك والعطاء، ومنه سجود يعقوب وأولاده ليوسف عليهم السلام. والسجود لله تعالى قسماً، سجود العقلاء المكلفين له تعبدًا على الوجه المشروع - وسجود المخلوقات كلها لمقتضى إرادته فيها. قال تعالى (١٣: ١٥) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا (والنجم والشجر يسجدان) وفي معناه آيات. ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ أي سجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس وهو فرد من أفراد الملائكة، كما يفهم من الآية وأمثالها في القصة إلا آية الكهف فانها ناطقة بأنه كان من الجن (١٧: ٥٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (وليس عندنا دليل على أن بين الملائكة والجن فصلاً جوهرياً يميز أحدهما عن الآخر وإنما هو اختلاف أصناف، عند ما تختلف أوصاف، كما ترشد إليه الآيات. فالظاهر أن الجن صنف من الملائكة، وقد أطلق في القرآن لفظ الجنة على الملائكة على رأى جمهور المفسرين في قوله تعالى (٣٧: ١٥٨) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِيبًا وعلى الشياطين في آخر سورة الناس [وعلى كل حال لجميع هؤلاء المسميات بهذه الاسماء من عالم الغيب لانعلم حقائقها ولا نبحث عنها ولا نقول بنفسية شيء إليها ما لم يرد لنا فيه نص قطعي عن المعصوم صلى الله عليه وآله] وصف الله تعالى إبليس بأنه ﴿أبَى﴾ أي ﴿السجود والالتحاق﴾ واستكبر ﴿

فلم يمثل أمر الحق ترفعاً عنه ، وزعماء بأنه خير من الخليفة عنصراً ، وأزكى جوهرًا ، كما حكى الله تعالى عنه في غير هذه السورة (٧ : ١٦) قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) والاستكبار بمعنى التكبر وهو الظهور بصفة الكبرياء التي من آثارها الترفع عن الحق ، كأن السنين والتاء للشعار بأن الكبر ليس من طبيعة إبليس ولكنه مستعدله ، ثم قال تعالى بعد وصفه بالاباء والاستكبار ﴿وكان من الكافرين﴾ قال بعض المفسرين كان من حق الترتيب أن يقال : كان من الكافرين واستكبر وأبى لأن الكفر عنده سبب الاستكبار والاستكبار سبب الإباء ، ومثل هذا المفسر يعمل مخالفة الترتيب الطبيعي في النظم برعاية الفاصلة (قال الاستاذ) ولكن نظم الآية جاء على مقتضى الطبيعة في الذكر ، فانه يفيد أن الله تعالى أراد أن يبين الفعل أولاً لانه المقصود بالذات وهو الإباء ثم يذكر سببه وعلمته وهو الاستكبار ثم يأتي بالاصل في العلة والمعلول والسبب والمسبب وهو الكفر . (أقول) وقال بعض المفسرين : إن « كان » هنا بمعنى صار ، وخطأ ابن فورك وقال إن الاصول تردده ، ووجهه عند قائله : وصار بهذا الإباء والاستكبار من جهة الكافرين ، لما علم من أنه لم يكن قبل هذا العصيان المتضمن للاعتراض على الرب سبحانه من الكافرين ، وقد جعل بعضهم منابط كفره هذا الاعتراض على ربه عز وجل لأن المعصية وحدها لا تقتضي الكفر كما تدل عليه النصوص ، وفيه أن ذلك في معصية المسلم ، وهو المدعى لامر الله ونهيه إذا غلبه غضب أو شهوة فمعصى ، وهو لا يلبث أن يندم ويتوب . وعصيان إبليس رفض للاذعان والاستسلام ابتداء وهو كفر بغير نزاع ، ككفر الذين صدقوا الرسل بقلوبهم ولم يتبعوهم عناداً واستكباراً (وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) والجمهور : أن المعنى : وكان في علم الله من الكافرين

ثم إن الاستاذ أعاد هنا ملخص ما تقدم بيانه في وجه اتصال الآيات بما قبلها وكون الكلام في القرآن والرسول الذي جاء به وتسليمته بهذه القصة ثم توسع في الكلام عن الملائكة فقال مامثاله ملخصاً : تقدم أن الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته ، وإنما تؤمن به باخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه ، وتقدم أن القرآن ناطق بأن الملائكة أصناف لكل صنف وظيفة وعمل ، ونقول الآن

إن إلهام الخير والوسوسة بالشر مما جاء في لسان صاحب الوحي (ص) وقد أسندا الى هذه العوالم الغيبية ، وخواطر الخير التي تسمى إلهاما وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محلله الروح فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس فلا يصح أن تمثل الملائكة بالتمثيل الجنانية المعروفة لنا [لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا فانما تتصل بها من طرق أجسامنا ، ونحن لا نحس بشيء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعي الخير من النفس ، فاذن هي من عالم غير عالم الابدان قطعاً] والواجب على المسلم في مثل الآية: الايمان بضمونها مع التفويض أو الحل على أنها حكاية تمثيل ، ثم الاعتبار بها بالنظر في الحكم التي سبقت لها القصة (وأقول) إن اسناد الوسوسة الى الشياطين معروف في الكتاب والسنة ، وأما اسناد إلهام الحق والخير الى الملائكة فيؤخذ من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام ، ومن حديث الشيخين في المحدثين وكون عمر منهم - والمحدثون يفتح الدال وتشديدها الملمحون - ومن حديث الترمذي والنسائي وابن حبان وهو « إن الشيطان لم يلبس بآدم والملك لم يلبس بالملك الملعون . فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) قال الترمذي حسن غريب لا نعلمه مرفوعاً إلا من حديث أبي الاحوص . والرواية « إيعاد » في الموضعين كما أن الآية من الثلاثي في الموضعين ، فما قالوه في التفرقة بين الوعد والإيعاد أغلبي فيما يظهر ، وإلا فهو غير صحيح . والله بالفتح الالمام بالشئ والاصابة .

(قال الاستاذ) وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معنى الملائكة وهو أن مجموع ماورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إتمام نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيعاء الى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن الا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والانسان ، فكل أمر كل قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجادها فانما قوامه بروح الهى

سمى في لسان الشرع ملكاء، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الامكان إلا ماهو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة . والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو أن في باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن اعاقل أن ينكره ، وأن أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكاً وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحي تسميته قوة طبيعية أو ناموساً طبيعياً لأن هذه الاسماء لم ترد في الشرع - فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الاسماء عن المسميات [وأن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذي لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها . ولا يعلم الا الله علام يختلف الناس ؟ وكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى ادراك كنهه ، وماذا على هذا الذي يزعم أنه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيب عنه لوقال :أصدق بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك مايرد على انسان صاحب الوحي ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟] .

يشعر كل من فكر في نفسه ووازن بين خواطره عند ما بهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى ، فهذا يورد وذاك يدفع ، واحد يقول : افعل وآخر يقول لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذي أودع في أنفسنا ، ونسبته قوة وفكراً - وهو في الحقيقة معنى لا يدرك كنهه ، وروح لا تكنته حقيقتها - لا يبعد أن يسميه الله تعالى ملكاً (أو يسمى أسبابه ملائكة) أو ماشاء من الاسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس فكيف يحجر فيها على صاحب الارادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع ؟

(وأقول) إن الامام الغزالي سبق إلى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال انه سمي ملكاً فانه بعد ما قسم الخواطر إلى محمود ومذموم قال « ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث فلا بد له من محدث ، ومهما اختلفت

الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب ؛ فهما استنارت حيطان البيت بنور النار وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً ؛ واللفظ الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، والذي يتهيأ به لقبول الشر يسمى إغواء ، وخذلانا ، فان المعاني المختلفة تحتاج إلى أسامي مختلفة ، « ا ه المراد منه فليراجع في كتاب شرح عجائب القلب من الاحياء ، ثم قال الأستاذ الإمام مامعناه :

فاذا صح الجرى على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدله من الأثر الذي خص به، خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون به مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حد له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه . لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهي القوة التي [لزها الله بهذا العالم لزا . وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو بالكمال إلى النقص وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم أو تقطع سبيل البقاء وتعود بالموجود إلى الفناء أو التي] تعارض في اتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الانسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته فيحصل إلى مراتب الكمال الوجودي التي خلق مستعداً للوصول إليها [تلك القوة التي ضللت آثارها قوما فزعموا أن في العالم إلهاً يسمى إله الشر . وماهى بالله وليكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو]

(قال) ولو أن نفساً ماتت إلى قبول هذا التأويل لم تجب في الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق (وأقول) إن غرض الأستاذ من هذا التأويل الذي عبر عنه بالإيماء وبالإشارة

اقتناع منكرى الملائكة بوجودهم ، بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، وقد اهتدى به كثيرون ، وضل به آخرون فأنكروه عليه وزعموا أنه جعل الملائكة قوى لاتعقل فرد عليهم كتابة بما نصه بحروفه .

[ولست أحيط علما بما فعلت العادة والتقاليد في أنفس بعض من يظنون أنهم من المتشدين في الدين إذ ينفرون من هذه المعاني كما ينفر المرضى أو الخدجون من جسد الأطعمة التي لاتضرهم ، وقد يتوقف عليها قوام بنيتهم ، ويتشبثون بأوهام مألوفة لهم تشبث أولئك المرضى والخدجين بأضر طعام يفسد الأجسام ، ويزيد السقام . لا أعرف ما الذي فهموه من لفظ روح أو ملك ، وما الذي يتخيلونه من مفهوم لفظ قوة ، أليس الروح في الآدمي مثلا هذا الذي يظهر لنا في أفراد هذا النوع بالعقل والحس والوجدان والارادة والعمل ، وإذا سلبوه سلبوا ما يسمى بالحياة؟ أو ليست القوة هي ما تصدر عنه الآثار فيمن وهبت له ، فإذا سمى الروح لظهور أثره قوة ، أو سميت القوة خلفاء حقيقتها روحا ، فهل يضر ذلك بالدين ، أو ينقص معتقده شيئا من اليقين ؟

ألا لا يسمى الايمان إيمانا ، حتى يكون إذعانا ، ولا يكون كذلك حتى يستسلم الوجدان ، وتخضع الأركان ، لذلك السلطان الذي تعلق به الايمان ، ولا يكون كذلك حتى يلقى الوهم سلاحه ، ويبلغ العقل فلاحه ، وهبل يستكمل ذلك لمن لا يفهم ما يمكنه فهمه ، ولا يعلم ما يتيسر له علمه؟ كلا إنما يعرف الحق أهله ، ولا يضل سبيله ، ولا يعرف أهل الغفلة . لو أن مسكينا من عبدة الألقاظ من أشدم ذكاه وأذربهم لسانا ، أخذ بما قيل له إن الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل^(١)

« ١ » هذا هو التعريف المشهور في كتب الكلام وغيرها وأول ما يعترض به عليه أنه لا يصح فيه معنى الجسم في اللغة ولما صار مألوفاً وإن لم يكن مفهوماً .

ثم تطلع عقله إلى أن يفهم معنى نورانية الأجسام ، وهل النور وحده له قوام يكون به شخصاً ممتازا بدون أن يقوم بحرم آخر كثيف ثم ينعكس عنه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء ؟ ومعنى قابلية التشكل وهل يمكن للشيء الواحد أن يتقلب في أشكال من الصور مختلفة حسبما يريد وكيف يكون ذلك ؟ ألا يقع في حيرة ، ولو سئل عما يعتقد من ذلك ألا يحدث في لسانه من العقد مالا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكاً ؟ نعم ليست هذه الحيرة حيرة من وقف دون أبواب الغيب يطرف لما لا يستطيع النظر إليه ، لكنها حيرة من أخذ بقول لا يفهمه ، وكلف نفسه علم مالا تعلمه . فلا يعد مثله ممن آمن بالملائكة إيماناً صحيحاً ، واطمأنت بإيمانه نفسه ، واذعن له قلبه ، ولم يبق لوجهه سلاح ينزع به عقله ، كما هو شأن صاحب الايمان الصحيح

فليرجع هؤلاء إلى أنفسهم ليعلموا أن الذى وقر فيها تقاليد حفت باخاوف ، لا علوم حفت بالسكينة والطمأنينة ، هؤلاء لم يشرق في نفوسهم ذلك السر الذى يعبر عنه بالنور الالهى ، والضياء الملكوتى ، والملائكة القدسى ، أو ما يماثل ذلك من العبارات . لم يسبق لنفوسهم عهد بملاحظة جانباً لحق ، ولم تكتحل أعين بصائرهم بنظرة إلى مطلع الوجود منه على الخلق ، ولو علموا أن العالم بأسره فان في نفسه ، وأن ليس في الكون باق كان أو يكون إلا وجهه الكريم ، وأن ما كشف من الكون وما لطف ، وما ظهر منه وما بطن ، إنما هو فيض من جوده ، ونسبة إلى وجوده ، وليس الشريف منه الا ما أعلى يذكره منزله ، ولا الخسيس إلا ما بين لنا بالنظر إلى الأول نسبته ، فان كل مظهر من مظاهر الوجود في نفسه

واقع موقعه ، ليس شيء أعلى ولا أحط منه ، فإن كان كذلك ولا بد أن يكون كما قدره - لو عرفوا ذلك كله لأطلقوا لأنفسهم أن تجول في تلك الشؤون حتى تصل إلى مستقر الطائفة حيث لا ينزع العقل شيء من وساوس الوهم ، ولا تجد طائفا من الخوف ، ثم لا يخرجون من إطلاق لفظ مكان لفظ هذه القوى التي نرى آثارها في كل شيء يقع تحت حواسنا ، وقد خفيت حقائقها عنا ، ولم يصل أدق الباحثين في بحثه عنها إلا إلى آثار تجل إذا كشفت ، وتقل بل تضمحل إذا حجبت ، وهي التي يدور عليها كمال الوجود ، وبها ينشأ النأشي ، وبها ينتهي إلى غايته الكمال ، كما لا يخفى على نبيه ولا خامل ، أليست أشعة من ضياء الحق ؟ أليست أجل مظهر من مظاهر سلطانه ؟ ألا تعد بنفسها من عالم الغيب وإن كانت آثارها من عالم الشهادة ؟ ألا يجوز أن يشعر الشاعر منها بضرب من الحياة والاختيار خاص بها لا ندرك كنهه لاحتجابه بما نتصوره من حياتنا واختيارنا ؟ ألا تراها توافي بأسرارها ، من ينظر في آثارها ، ويوفيهما حق النظر في نظامها ؟ يستكثر من الخير بما يقف عليه من شؤونها ، ومعرفة الطريق إلى استدرار منافعها ؟ أليس الوجود الإلهي الأعلى من عالم الغيب وآثاره في خلقه من عالم الشهادة ؟ أليس هو الذي وهب تلك القوى خواصها ، وقدر لها آثارها ؟ لم لا نقول أيها الغافل : إنه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها ، ولم قصر معنى الحياة على ما تراه فيك وفي حيوان مثلك ؟ مع أنك لو سئلت عن هذا الذي تزعم أنك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا ، ولا لفعله تعريفا ؟ لم لا نقول كما قال الله وبه نقول (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) ؟

أفلا تزعم أن لله ملائكة في الأرض وملائكة في السماء ؟ هل عرفت
أين تسكن ملائكة الأرض ؟ وهل حددت أمكنتها ، ورسمت مساكنها ؟
وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ؟ ومن يكون عن يسارك ؟
هل ترى أجسامهم النورانية تضيء لك في الظلام ، أو تؤنسك إذا هجمت
عليك الأوهام ؟ فلوركننت إلى أنها قوى أو أرواح منبثة فيما حوالك ، وما بين
يديك وما خلفك ، وأن الله ذكرها لك بما كان يعرفها سلفك ، وبالعبرة
التي تلقفتها عنهم ، كيلا يوحشك بما يدهشك ، وترك لك النظر فيما تطمئن
إليه نفسك من وجوه تعرفها . أفلا يكون ذلك أرواح لنفسك ، وأدعى إلى
طمأنينة عقلك ؟ أفلا تكون قد أبصرت شيئاً من وراء حجاب ، ووقفت على
سر من أسرار الكتاب ؟ فإن لم تجد في نفسك استعداداً لقبول أشعة هذه
الحقائق ، وكنت ممن يؤمن بالغيب ويفوض في إدراك الحقيقة ويقول (آمنا
به كل من عند ربنا) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ماداموا يصدقون
بالكتاب الذي آمنت به ، ويؤمنون بالرسول الذي صدقت برسالته ، وهم
في إيمانهم أعلى منك كعباء ، وأرضى منك برهبهم نفساً ، ألا إن مؤمناً لو مالت
نفسه إلى فهم ما أنزل إليه من ربه على النحو الذي يطمئن إليه قلبه كما قلنا كان
من دينه في ثقة ، ومن فضل ربه في سعة [١٨]

هذا ما كتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب ما يفهمه علماء الكائنات من
لفظ القوى - إلى ما يفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة ، ولا يفهمه من هؤلاء
إلا من له إلمام بما يقوله أولئك في القوى وإسناد كل أحداث الكائنات وتطوراتها
إليها مع اعترافهم بجبل كنهها ، وإلمام أيضاً بما كان يقوله قدماء اليونان من أن لكل
نوع من أنواع الموجودات إلهاً أو رباً مديراً هو المسير لنظامه وكل هذه الآرباب

خاضعة للرب الإله الأكبر الذي يرجع إليه الأمر كله ، فالعلمي العام عند الأولين والآخرين هو أن أحداث هذا العالم وتغيراتها وتطوراتها والنظام فيها كلها لا بد له من سبب خفي غير أجزاء مادتها ، فالنعمير عن ذلك عند المتقدمين قد وصل إلينا باصطلاحات تدل على الشرك برب العالمين ، وتعبير الماديين المتأخرين يدل على التعطيل . وتعبير القرآن وما ثبت في السنة هو الذي حرر الحقيقة التي يمكن إذعان العقلاء لها وهي أن الفاعل الحقيقي واحد ، وأن نظام كل شيء قد ناطه سبحانه بموجودات روحية خفية ذات قوى عظيمة جدا سميت الملائكة . فالأستاذ الإمام يقول : إن التسمية وحدها لا تعطي أحدا علم الحقيقة ، وإن من فهم الحقيقة لا يجيبها عنه اختلاف التسمية ، وأراد بهذا أن يحتاج على الماديين ويقنعهم بصحة ما جاء به الوحي من طريق علمهم المسلم عندهم ، كما صرح به فيما مر في صفحة ٢٦٨ فأشكره عليه عباد الألفاظ وهم لا يعقلون مراده ، وهو يمثل هذه الأساليب في الإقناع بحقيقة الدين كان حجة لله في هذا العصر : حتى قال له أحد نوابغ رجال القضاء الأذكياء : إنك بتفسيرك للقرآن بالبيان الذي يقبله العقل ولا يأباه العلم قد قطعت الطريق على الذين يظنون أنه قد اقترب الوقت الذي يهدمون فيه الدين ويستريحون من قيود وجهل رجاله وجودهم .

وإنني أنا قد جربت هذه الطريقة التي استنكروها عليه في إقامة الحجة على بعض المنكرين لوجود الله تعالى فلم يستطيعوا لها دحضاً ، ذلك بأن علماءهم إنما ينكرون إله اللاهوتيين وكذا إله المتكلمين لا إله الخليفة . فإذا قلت لهم : هل تعقلون أن هذا النظام الدقيق في كل نوع من المخلوقات ووحدة النظام العام في مجموعها كلها قد وجدا بالمصادفة وليس لها مصدر وجودي ؟ يقولون : لا ، بل لا بد لذلك من مصدر لكننا نجعل حقيقته ، حينئذ كنت أقول لهم ، وهذا أس عقيدة الإسلام وهو أننا نجعل كنه رب العالمين ، وإنما نعرفه بأثاره في خلقه فالفرق بيننا لفظي . ذلك . وإن ترتيب النظم يلتمس مع التأويل الذي أورده الأستاذ الإمام في السياق فإن هذه المعاني التي وردت بصيغة الحكاية وبرزت في صورة التمثيل جاءت عقب قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) وبقى شيء واحد لم يصرح به

في الدرس وقد سبقت الإشارة إليه، وهو أن كل قوة من قوى هذه الأرض وكل ناموس من نواميس الطبيعة فيها خلق خاضعاً للإنسان، وخلق الإنسان مستعداً لتسخيره لمنفعته إلا قوة الاغراء بالبشر، وناموس الوسوسة بالاغراء الذي يجذب الإنسان دائماً إلى شر طبع الحيوان، ويعيقه عن بلوغ كماله الانساني، فالظاهر من الآيات أن الإنسان لا يغلب هذه القوة ولا يخضعها مهما ارتقى وكل، وقصارى ما يصل إليه الكاملون هو الحذر من دسائس الوسوسة والسلامة من سوء عاقبتها، بأن لا يكون لها سلطان على نفس الكامل يجعله مسخرها وتستهمله بالشرور كما قال تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) وقال عز وجل (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ثم زاد الأستاذ هنا قوله: [أما سلطان تلك القوة في الفناء وقطع حركة الوجود إلى الصعود فلا يستطيع إخضاعه لقدرته من البشر كامل، ولا يقاوم نفوذه عامل، وإعما ذلك لله وحده. وهذا حكمها في الكائنات، إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات] فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل التقوى والبصيرة وأن يعيذنا من الشيطان الرجيم.

(٣٥) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٦) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٧) فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

مجل الآيات السابقة أن هذا العالم لما استعد لوجود هذا النوع الانساني واقتضت الحسكة الالهية إيجاده واستخلافه في الأرض آذن الله تعالى الأرواح المنبثة في الأشياء لتديرها ونظامها بذلك، وأن تلك الأرواح فهمت من معنى كون الإنسان خليفة أنه يفسد النظام ويسفك الدماء، حتى أعلمها الله تعالى بأن

عليها لم يحط بمواقع حكمته ، ولا يصل إلى حيث يصل علمه تعالى . ثم أوجد آدم وفضله بتعليمه الأسماء كلها ، على أن كل صنف من تلك الأرواح لا يعلم إلا طائفة منها ، ولذلك أخضع له تلك الأرواح إلا روحاً واحداً هو مبعث الشر ومصدر الاغواء فقد أبى الخضوع ، واستكبر عن السجود ، لما كان في طبيعته من الاستعداد لذلك . والاستعداد في الشيء إنما يظهر بظهور متعلقة . فلا يقال : إذا كان لكل روح من هذه الأرواح والقوى الغيبية علم محدود فكيف ظهر من الروح الابليس ما لم يسبق له وهو مخالفة الأمر بالسجود لآدم والتصدى لاغوائه ؟ لا يقال ذلك لأنه كان مستعداً لهذا العصيان والاباء فلما أمر عصى . ولما وجد خلقاً مستعداً للوسوسة اتصل به ووسوس إليه . كما أن ألوان ورق الشجر والزهور موجودة كامنة في البذرة ولكنها لا تظهر إلا عند الاستعداد لها ببلوغ الطور المحدود من النمو .

ومجمل الآيات اللاحقة : أن الله تعالى أمر آدم وزوجه بسكني الجنة والتمتع بها . ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة وأخبرهما أن قريهما ظم . وأن الشيطان أرغما عنها فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم إلى ضده . ثم إن آدم تاب إلى الله من معصيته فقبله . ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع هدى الله وشقاءه بتركه . وقد تقدم أن الآيات كلها قد سقت للاعتبار ببيان النظرة الالهية التي فطر عليها الملائكة والبشر . وتسليمة النبي ﷺ عما يلاقى من الانكار . وتقدم وجه ذلك في الآيات السابقة . وأما وجهه في هذه الآيات فظاهر ، وهو أن المعصية من شأن البشر . كأنه يقول : فلا تأس يا محمد على القوم الكافرين ولا تبخع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً [فقد كان الضعف في طباعهم ينتهي إليهم من أول سلف لهم تغلب عليهم الوسواس . وتذهب بصبرهم الدسائس . انظر ماوقع لآدم وما كان منه . وسنة الله مع ذلك لا تتبدل . فقد عوقب آدم على خطيئته باهباطه مما كان فيه . وإن كان قد قبل توبته . وغفر هفوته] فالمعصية دائماً مجلبة الشقاء . وقد استقر أمر البشر على أن سعادتهم في اتباع الهداية الالهية وشقاءهم في الانحراف عن سبيلها .

وأما تفسير هذه الآيات بالتفصيل فقد اختلف علماء المسلمين من أهل السنة

وغيرهم في (الجنة) هل هي البستان أو المكان الذي تظله الأشجار بحيث يستتر الداخل فيه كما يفهمه أهل اللغة ؟ أم هي الدار الموعود بها في الآخرة ؟ والحقيقة من أهل السنة على الأول . قال الإمام أبو منصور المازيدي في تفسيره المسمى بالتأويلات : نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمن فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ، ولادليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم .
وبهذا التفسير تنحل إشكالات كثيرة وهي (١) إن الله خلق آدم في الأرض ليكون هو ونسله خليفة فيها ، فالخلافة مقصودة منهم بالذات فلا يصح أن تكون نقوبة عارضة (٢) انه لم يذكر أنه بعد خلقه في الأرض عرج به إلى السماء ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم (٣) إن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المؤمنون المنقون ، فكيف دخلها الشيطان الكافر الملعون ؟ (٤) انها ليست محلا للتكليف (٥) إنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها (٦) إنه لا يقع فيها العصيان .
وبالجملة إن الأوصاف التي وصفت بها الجنة الموعود بها لا تنطبق على ما كان في جنة آدم ، ومنه كون عطاؤها غير مجذوذ ولا مقطوع وغير ذلك .

(أقول) وقد أجاب بعضهم عن بعض هذه الاشكالات ولكل من الفريقين إشكالات وأجوبة أطال في بيانها ابن القيم في (حادي الأرواح) ولم يرجح شيئاً ولذلك مال بعضهم إلى الوقف وما اختاره شيخنا أقوى . وقد قال به أبو حنيفة وتبعه أبو منصور ، وقد كان ظهر لي عند كتابة تفسير الآيات شيء آخر لم يذكره الاستاذ الامام ولم أراه في كتب التفسير وهو أن القول بأن آدم أسكن جنة الآخرة يقتضي أن تكون الآخرة هي الدار الأولى والدنيا فتكون التسمية للدارين غير صحيحة وينافي أيضاً كون الجنة دار ثواب يدخلها المنقون جزاء بما كانوا يعملون كما ورد في الآيات الكثيرة . وقد قال تعالى ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ ولم يقل (ادخل) ولو انتقل من الأرض التي خلق فيها إلى الجنة لقال هذا أو ما بمعناه مما يشير إلى الانتقال فقوله (اسكن) يشير إلى أن الخلقة كانت في تلك الجنة أو بالقرب منها ، وقوله ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ إباحة للتمتع بتلك

الجنة والتنعيم بما فيها أى كلا منها أ كلا رغداً واسعاً هنيئاً من أى مكان منها
إلا شيئاً واحداً نهاهما عنه بقوله ﴿ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾
لأنفسكما بالوقوع فيما يترتب على الأكل منها ، ولم يعين الله تعالى لنا هذه الشجرة فلا
نقول فى تعيينها شيئاً ، وإنما نعلم أن ذلك الحكمة اقتضته ، ولعل فى خاصية تلك
الشجرة ما هو سبب خروجهما من حال إلى حال ، وربما كان فى الأكل منها ضرر ، أو كان
النهى ابتلاء وامتحاناً منه تعالى ليظهر به ما فى استعداد الإنسان من الميل إلى
الإشراف على كل شئ واختبار ، وإن كان فى ذلك معصية يترتب عليها ضرر (١)

قال تعالى ﴿فأرلها الشيطان عنها﴾ أى حولها وزحزحها عن الجنة أو حملها
على الزلة بسبب الشجرة وقرأ حمزة (فأرلها) والشيطان إبليس الذى لم يسجد ولم
يخضع وقد وسوس لهما بما ذكر فى سورى الأعراف وطه حتى أوقعهما فى الزلل
وحملهما على الأكل من الشجرة فأكلا ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أى من ذلك المكان
أو النعيم الذى كانا فيه ، فكان الذنب متصلاً بالعقوبة اتصال السبب بالمسبب ثم
بين الله تعالى كيفية الإخراج بقوله ﴿وقلنا اهبطوا﴾ يعنى آدم وزوجه وإبليس
فلا حاجة لتقدير إرادة ذرية آدم بالجمع كما فعل مفسرنا (الجلال) فان العداوة فى
قوله عز وجل ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ تنافى عدا التقدير فان العداوة بين الإنسان
والشيطان لا بين الإنسان وذريته . والأصل فى الهبوط أن يكون من مكان عال
إلى أسفل منه ، ولذلك احتج به من قال: إن آدم كان فى السماء ، وقد يستعمل فى
مطلق الانتقال أو مع اعتبار العلو والسفل فى المعنى . وقال الراغب: الهبوط الانحدار
على سبيل القهر ولا يبعد أن تكون تلك الجنة فى ربوة فسمى الخروج منها هبوطاً
أو سمي بذلك لأن ما انتقلوا إليه دون ما كانوا فيه أو هو كما يقال هبط من بلد إلى
بلد ، كقوله تعالى لبني إسرائيل (اهبطوا مصرأ)

ثم قال تعالى ﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ أى إن استقراركم
فى الأرض وتمتعكم فيها ينتهى إلى زمن محدود وليس بداً عين ففى الكلام فائدتان

(١) راجع تفسير المسألة فى سورة الأعراف (ج ٨) تجد فيه ما ليس هنا

(إحداها) أن الأرض ممهدة وميأة للمعيشة فيها والتمتع بها (والثانية) أن طبيعة الحياة فيها تنافى الخلود والدوام، فليس الهبوط لأجل الإباداة ومحو الآثار، وليس للخلود كما زعم إبليس بوسوسته إذ سعى الشجرة المنهى عنها (شجرة الخلد وملك لا يبلى) يعنى أن الله أخرجهم من جنة الراحة إلى أرض العمل لا ليفنيهم، وعبر عن ذلك بالاستقرار فى الأرض، ولا ليعاقبهم بالحرق من التمتع بخيرات الأرض، وعبر عن ذلك بالمتاع، ولا ليعنهم بالخلود وعبر عن ذلك بكون الاستقرار والمتاع إلى حين ثم قال ﴿فلنلقى آدم من ربه كلمات﴾ أى ألهه الله إياها فأنا ب إله بها وهى كما فى سورة الأعراف (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) تاب آدم بذلك وأنا ب إلى ربه ﴿فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ أى قبل توبته ، وعاد عليه بفضل ورحمته ، وبين سبب ذلك بأنه تعالى هو التواب أى الذى يقبل التوبة كثيراً ، فهما يذنب العبد ويندم ويتب يتب الرب عليه ، وبأنه هو الرحيم بعباده مهما يسيء أحدهم بما هو سبب لغضبه تعالى ويرجع إليه فانه يحفه برحمته . وكل ما ورد فى هبوط آدم وحواء من تعيين الأمكنة فهو من الأسرائيليات الباطلة

وبقى مما يتعلق بهذا التفسير مسألتان قدأكثر الناس الكلام فىهما وهما مسألة خلق حواء من ضلع من أضلاع آدم ، ومسألة عصمة آدم ، فأما الأولى فليس فى القرآن نص فيها ولا يلزمنا حمل قوله تعالى (وخلق منها زوجها) على ذلك لأجل مطابقة سفر التكوين ، فإن القصة لم ترد فى القرآن كما وردت فى التوراة التى فى أيدي أهل الكتاب حكاية تاريخية ، وإنما جاء القرآن بموضع العبرة فى خلق آدم واستعداد الكون لأن يتمكّل به ، وكونه قد أعطى استعداداً فى العلم والعمل لانهاية لها ليظهر حكم الله ويقيم سننه فى الأرض فيكون خليفة له ، وكونه لا يسلم من داعية الشر والتأثر بالسوسة التى تحمل على المعصية . ولكون التاريخ غير مقصود له لأن مسائله من حيث هى تاريخ ليست من مهمات الدين من حيث هو دين ، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة دون غيره ، لم يبين الزمان والمكان كما بينا فى سفر التكوين ، وكان بيانها سبباً لرفض الباحثين فى الكون وتاريخ الخلقية لدين

النصرانية ، لأن العلم المبني على الاختبار والملاحظة أظهر خطأ ما جاء من التاريخ في التوراة ، ووجدت للإنسان آثار في الأرض تدل على أنه أقدم مما حددته التوراة في تاريخ تكوينه ، فقسام فريق من أهل الكتاب بركب التعاسيف في التأويل ، وفريق يكفر بالكتاب والتنزيل

(أقول) فإن قلت : إن النبي ﷺ قال في حديث أبي هريرة في الصحيحين في تعليل التوصية بالنساء « فإن المرأة خلقت من ضلع » قلنا : إنه على حد قوله تعالى (خلق الإنسان من عجل) كما قالوا في شرحه . وسيأتى في تفسير القصة من سورة الأعراف . ولم يتعرض شيخنا في الدرس لقوله تعالى (وخلق منها زوجها) ولكنه كتب بعد ذلك وقبل ما استراه عنه في تفسير سورة النساء ما نصه :

[وأما قوله تعالى في سورة النساء (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) وفي سورة الأعراف (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها) فقد قال غير واحد من المفسرين : إن المعنى من جنسها كما قال في سورة الروم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فإن المعنى هناك على أنه خلق أزواجا من جنسنا ، ولا يصح أن يراد أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها كما هو ظاهر [(قال) وأما مسألة عصمة آدم فالجري على طريقة السلف يذهب بنا إلى أن العصيان والتوبة من المتشابهة ، كسائر ما زرد في القصة مما لا يركن العقل إلى ظاهره ، ولنا أن نقول : إن تلك مخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه (فنتى ولم نجد له عزما) والاتفاق إنما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة . وقد يكون الذي وقع من آدم نسيانا ، فسمى تفخيلا لأمره عصيانا ، والنسيان والسهو مما لا ينافي العصمة ، فان جعلنا الكلام كله تمثيلا لحديث الإخلال بالعصمة مما لا يتر بذهن العاقل

وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف في التمثيل فيقال فيه : إن القرآن كثيرا ما يصور المعاني بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب ، أو بأسلوب الحكاية لما في ذلك من البيان والتأثير ، فهو يدعو بها الأذهان ، إلى ما وراءها من المعاني ،

كقوله تعالى (٣٠:٥٠) يوم نقول لجهنم هل امتلأت؟ وتقول هل من مزيد) فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهي تجاوبه ، وإنما هو تمثيل لسمعتها وكونها لا تضيق بالجرمين مهما كثروا ، ونحو قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء إلى خلق السماء (١١:٤١) فقال لها والأرض اثبتا طوعا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) والمعنى في التمثيل الظاهر (أقول) وهذا الأمر يسمى أمر النكوتين ، ويقابله أمر التشريع ، وإنما سمي أمر النكوتين للتعبير عنه في التنزيل بقوله تعالى (٣٦ : ٨٢) إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فهو تصوير لتعلق إرادة الربوبية بالاجباد ، ولا أذكر عن أحد من المفسرين المتبعين للأثر قصر يحا بأن الأوامر في قصة آدم من أمر النكوتين إلا للحافظ ابن كثير فإنه ذهب في تفسيره (قال فاهبط منها) من سورة الأعراف إلى أن الأمر فيه أمر قدرى كوني ، ومثله ما في معناه من قصة آدم ومن الآيات الأخرى من مخاطبة إبليس للرب وجوابها في شأن اغوائه للبشر وانظاره إلى يوم القيامة (قال الاستاذ الإمام مامثاله) وتقرير التمثيل في القصة على هذا المذهب هكذا : إن أخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من الخلقوات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود في هذه الأرض — وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعداداً في العلم والعمل لاحادها هو تصوير لما في استعداد الانسان لذلك وتمهيد لبيان أنه لا ينافي خلافة في الأرض — وتعليم آدم الاسماء كلها بيان لاستعداد الانسان لعلم كل شيء في هذه الأرض وانتفاعه به في استعمالها — وعرض الاسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم في الجواب تصوير لكون الشعور الذي يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لا يتعدى وظيفته — وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها في ترقية السكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك — وإبلاء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الانسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر الشوء التي هي مثار التنازع والخصام ، والتعدي والافساد في الأرض — ولولا ذلك لجاء على الانسان زمن يكون فيه

أفراده كالملائكة بل أعظم ، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى هذا ملخص ما تقدم في سابق آيات القصة

وأما التمثيل فيما نحن فيه منها فيصح عليه أن يراد بالجنة الراحة والنعيم ، فإن من شأن الإنسان أن يجده في الجنة التي هي الحديقة ذات الشجر الملتف ما يلذ له من مرأى ومأكل ومشروب ومشعوم ومسموع ، في ظل ظليل ، وهواء عليل ، وماء سلسيل ، كما قال تعالى في القصة من سورة طه (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظأ فيها ولا تضج) . ويصح أن يعبر عن السعادة بالكون في الجنة وهو مستعمل ، ويصح أن يراد بآدم نوع الإنسان كما يطلق اسم أبي القبيلة الأكبر على القبيلة ، فيقال كلب فعلت كذا ويراد قبيلة كلب ، وكان من قریش كذا يعنى القبيلة التي أبوها قریش ، وفي كلام العرب كثير من هذا

ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والحالفة كما عبر الله تعالى في مقام التمثيل عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، وفسرت بكلمة الكفر . وفي الحديث تشبيه المؤمن بشجرة النخل - ويصح أن يكون المراد بالآمر يسكني الجنة وبالمهبط منها أمر التكوين فقد تقدم أن الأمر الإلهي قسمان : أمر تكوين وأمر تشكيل

والمعنى على هذا : أن الله تعالى كون النوع البشرى على ما نشاهد في الأطوار التدرجية التي قال فيها سبحانه (١٤: ٧١) وقد خلقكم أطواراً) فأولها طور الطفولية ^(١) وهي لأم فيها ولا كدر ، وإنما هي لعب ولهو ، كأن الطفل دائماً في جنة ملتفة الأشجار ، يانة الثمار ، جارية الأنهار ، متناغية الأطياف ، وهذا معني (اسكن أنت وزوجك الجنة) وذكر الزوجة مع أن المراد بآدم النوع الأدنى للتنبيه على الشمول وعلى أن استعداد المرأة كاستعداد الرجل في جميع الشؤون البشرية ، فأمر آدم وحواء بالسكني أمر تكوين ، أي إنه تعالى خلق البشر ذكراً وإناثاً هكذا - وأمرها

(٣) المتبادر من الأطوار في الآية هو خلق الأفراد من سلالة من طين مم جملة نطفة فعلقة فضضة الخ كما في سورة المؤمنون ، وما ذكره الاستاذ أطوار لنوع الانسان

بلاكل حيث شاءا عبارة عن إباحة الطيبات وإلهام معرفة الخير — والنهي عن الشجرة عبارة عن إلهام معرفة الشر ، وأن الفطرة تهدي إلى قبحه ووجوب احتسابه ، وهذان الإلهامان اللذان يكونان للإنسان في الطور الثاني وهو طور التمييز هما المراد بقوله تعالى (٩٠: ١١) وهديناه النجدين) ووسوسة الشيطان وإزاله لهما عبارة عن وظيفة تلك الروح الخبيثة التي تلبس النفوس البشرية فتقوى فيها داعية الشر ، أي إن إلهام التقوى والخير أقوى في فطرة الإنسان أو هو الأصل ، ولذلك لا يفعل الشر إلا بملاسة الشيطان له ووسوسته إليه — والخروج من الجنة مثال لما يلاقيه الإنسان من البلاء والعناء بالخروج عن الاعتدال الفطري — وأما تلقى آدم الكلمات وتوبته فهو بيان لما عرف في الفطرة السليمة من الاعتبار بالعقوبات التي تعقب الأفعال السيئة ، ورجوعه إلى الله تعالى عند الضيق والتجائه إليه في الشدة . وتوبة الله تعالى عليه عبارة عن هدايته إياه إلى الخرج من الضيق ، والتفلسف من شرك البلاء ، بعد ذلك الاعتبار والالتجاء ، وذكر توبة الله على الإنسان ترد ما عليه النصارى من اعتقاد أن الله تعالى قد سجل معصية آدم عليه وعلى بنيه إلى أن يأتي عيسى ويخلصهم منها وهو اعتقاد تنبذه الفطرة ، ويرده الوحي المحكم المتواتر فحاصل القول : أن الأطوار الفطرية للبشر ثلاثة . طور الطفولية وهو طور نعيم وراحة ، وطور التمييز الناقص وفيه يكون الإنسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان ، وطور الرشد والإستواء وهو الذي يعتبر فيه بنتائج الحوادث ، ويلتجئ فيه عند الشدة إلى القوة الغيبية العليا التي منها كل شيء وإليها يرجع الأمر كله ، فهكذا كان الإنسان في أفرادة مثال للإنسان في مجموعه (قال الأستاذ) كأن تدرج الإنسان في حياته الاجتماعية ابتداءً ساذجاً سليم الفطرة ، قويم الوجهة ، مقتصرًا في طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونًا على دفع ما عساه يصيبه من مرعجات الكون وهذا هو العصر الذي يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبي ثم لم يكنه هذا النعيم المرفه قد بعض أفراده أيديهم إلى تناول ما ليس لهم ، طاعة للشهوة ، وميلًا مع خيال اللذة ، وتغلبه من ذلك ما كان نائمًا في نفوس سائرهم فنار النزاع ، وعظم الخلاف ، واستنزل الشقاء ، وهذا هو الطور الثاني وهو معروف في تاريخ الأمم

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبير ، ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهى إليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الرغبات ، وهو طور التوبة والهداية إن شاء الله .

(وأقول الآن) إن توبة آدم عليه السلام بناء على تفسير القصة بحمل الكلام على الحقيقة قد كانت بالرجوع إلى الله واعترافه مع حواء بظلمتهما لأنفسهما وطلبهما المغفرة والرحمة منه تعالى ، لا بمجرد تدبير العقل ووزن الخير والشر بميزان الفكر الخ ماقاله شيخنا هنا تبعاً لبعض علماء الاجتماع من المؤرخين ، وقديين هو فى بحث الحاجة إلى الرسالة من رسالة التوحيد أن عقل البشر لا يستقل بوضع حدود للأعمال تنتهى إليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الأهواء والرغبات ، بل لابد له من تشريع إلهى لذلك ، ولكنه أوجز هنا فترك المسألة مبهمّة مظلمة ، وإننا نرى أن طور العقل والفكر قد بلغ فى هذا العصر مرتقى لم يعرف فى التاريخ ما يقرب به ، ووضع علماءه وحكّاهه شرائع وقوانين لإيقاف النزاع والتخاصم عند حد لا يتفاقم شره ، ثم نرى أعلم هذه الأمم ودولها مبعث الشرور والشقاوة ، والخبث والرياء والحروب والقتل ، فلا هداية إلا هداية الدين الإلهى الذى تدعئ له الأنفس بمحض العبودية لله تعالى .

(قال) وبقي طور آخر أعلى من هذه الأطوار ، وهو منتهى النكال وأعنى به طور الدين الإلهى والوحى السماوى الذى به كمال الهداية الانسانية . و بيانه فى قوله تعالى

(٣٨) قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى مِّن تَائِبٍ
هُدًى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

أمرهم الله تعالى بالهبوط مرتين ، فالأولى بيان لحالهم فى أنفسهم بعد الهبوط من تلك الجنة أو الخروج من ذلك الطور وهو أن حالهم تقتضى العداوة والاستقرار فى الأرض والتمتع بها ، وعدم الخلود فيها ، والثانية بيان لحالهم من حيث الطاعة

والمعصية وآثارها ، وهى أن حالة الإنسان فى هذا الطور لا تكون عصبانيا مستمراً شاملاً ، ولا تكون هدى واجتباء عاماً - كما كان يفهم لو اقتصر على ذكر توبة الله على آدم وهدايته واجتباؤه - وإنما الأمر موكل إلى اجتهد الإنسان وسعيه ، ومن رحمة الله تعالى به أن يجعل فى بعض أفراد الوحي ويعلمهم طرق الهداية ، فمن سلكها فاز وسعد ، ومن تنكبها خسر وشقى ، هذا هو السر فى إعادة ذكر الهبوط لأنه أعيد للتأكيد كما زعموا .

قال تعالى ﴿فلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ أى فقد انتهى طور النعيم الخالص والراحة العامة وادخلوا فى طور لكم فيه طريقان : هدى وضلال ، إيمان وكفران ، فلاح وخسران ﴿فاما يأتينكم منى هدى﴾ من رسول مرشد وكتاب مبين ﴿فمن تبع هداى﴾ الذى أشرعه ، وسلك صراطى المستقيم الذى أحدهه ﴿فلا خوف عليهم﴾ من وسوسة الشيطان ، ولا مما يعتبها من الشقاء والخسران ﴿ولا هم يحزنون﴾ على فوت مطلوب ، أو فقد محبوب ، لأنهم يعلمون بهذه الهداية أن الصبر والتسليم مما يرضى الله تعالى ويوجب مثوبته ، ويفتح للإنسان باب الاعتبار بالحوادث ، ويقويه على مصارعة الكوارث ، فيكون له من ذلك خير عوض عما فاته ، وأفضل تعزية عما فقدته .

قال الأستاذ الإمام مأمثاله : الخوف عبارة عن تألم الإنسان من توقع مكروه يصيبه ، أو توقع حرمان من محبوب يتمتع به أو يطلبه ، والحزن ألم يلم بالإنسان إذا فقد ما يحب ، وقد أعطانا الله جل ثناؤه الطائفة التامة فى مقابلة ما تحدثه كلمة (اهبطوا) من الخوف من سوء المنقلب ، وما تثيره من كوامن الرعب ، فلمهتدون بهداية الله تعالى لا يخافون مما هو آت ، ولا يحزنون على ما فات ، لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الخيرات ، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته ، يسهل عليه كل ما يستقبله ، ويهون عليه كل ما أصابه أو فقدته ، لأنه موقن بأن الله يخلفه ، فيكون كالنعب فى الكسب ، لا يلبث أن يزل بلدة الرمح الذى يقع أو يتوقع .

وإذا قال قائل: إن الدين يقيد حرية الإنسان ويمنعه بعض اللذات التي يقدر على التمتع بها، ويحزنه الحرمان منها، فكيف يكون هو المأمّن من الأحزان، ويكون باتباعه الفوز وبتركه الخسران؟ أجوابه: إن الدين لا يمنع من لذة إلا إذا كان في إصابتها ضرر على مصيبتها، أو على أحد إخوانه من أبناء جنسه الذين يفوته من منافع تعاضلهم إذا أذاهم أكثر مما يناله بالتلذذ بايذائهم، ولو تمثلت لمستحل اللذة المحرمة مضارها التي تعقبها في نفسه وفي الناس، وتصور ما لها من التأثير في فساد العمران لو كانت عامة، وكان صحيح العقل معتدل الفطرة، رجع عنها متمثلاً بقول الشاعر:

* لاخير في لذة من بعدها كدر *

فكيف إذا كان مع ذلك يؤمن باليوم الآخر، ويعلم أن هذه المحرمات تدنس الروح فلا تكون أهلاً لدار السكّامة في يوم القيامة.

(قال الأستاذ) وليست سعادة الإنسان في حرية البهائم بل في الحرية التي تكون في دائرة الشرع ومحيطه. فمن اتبع هداية الله فلا شك أنه يتمتع تمتعاً حسناً ويتلقى بالصبر كل ما أصابه، وبالطاعة نينة ما يتوقع أن يصيبه، فلا يخاف ولا يحزن يريد أن رجاء الإنسان فيما وراء الطبيعة هو الذي يقيه من تحكم عوادي الطبيعة فيه، وبدون ذلك الرجاء تتحكم فيه أشد مما تتحكم في البهائم التي هي أقوى منه طبيعة (وخلق الإنسان ضعيفاً) فالتماس السعادة بحرية البهائم، هو الشقاء اللازم، وقد صرح بلفظ التمتع الحسن أخذاً من قوله تعالى (١١: ٣) وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله الآية. فالآيات الدالة على أن سعادة الدنيا معلولة للاهتمام بالدين كثيرة جداً، وقد حججها عن كثير من المسلمين قولهم في الكافرين: لهم الدنيا ولنا الآخرة، يغالطون أنفسهم بحجة القرآن عليهم. وآيات سورة طه في قصة آدم أوضح في المراد من آيات البقرة، وهي قوله عز وجل (٢٠: ١٢٣)، قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. الآيات.

قال تعالى ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ (أقول) الآيات: جمع آية وهي

كما قال الجمهور: العلامة الظاهرة قال الراغب وحقيقته لكل شيء ظاهر ملازم لشيء باطن يعرف به ويدرك بإدراكه حسياً كان كأعلام الطرق ومنار السفن أو عقلياً كالدلائل المؤلفة من مقدمات ونتيجة أو بالمعنى (قال) واشتقاق الآية إما من أى فأنها هى التى تبين أى من أى، والصحيح أنها مشتقة من التأني الذى هو التثبت والاقامة على الشيء أو أقول: بل أصله قصد آية الشيء أى شخصه، ومنه قول الشاعر:

تسأيا الطير غدوته ثقة بالشيع من جزره

أى تتحرى الطير وتقصد خروجه صباحاً إلى القتال أو الصيد لثقتها بما سبق من التجارب بأن ستشبع مما يترك لها من الفرائس

وأطلقت الآية على كل قسم من الأقسام التى تتألف منها سور القرآن العظيم وتفصله من غيره فاصلة يقف القارىء عندها فى تلاوته. ويميزها الكاتب له ببياض أو بنقطة دائرة أو ذات نقش أو بالعدد. والعمدة فى معرفة الآيات بفواصلها التوقيف المأثور عن النبي ﷺ وإن كان أكثرها يدرك من النظم، والآيات تطلق فى القرآن على هذه وهى الآيات المنزلة من عند الله تعالى لأنها دلائل لفظية على العقائد والحكم والأحكام والآداب التى شرعها لعباده كالتبديل فى جملتها على كونها من عند الله تعالى لاشتغالها على ما تقدم بيانه من وجود إعجاز البشر عن مثلها. وتطلق أيضاً على كل ما يدل على وجود الخالق تعالى وقدرته ووحدانيته وصفات كانه من هذه المخلوقات، ومن نتائج العقول وبراهينها، أو على غير ذلك من السنن والعبور وهذه الآية مقابل قوله قبله (فمن اتبع هدى) الخ، أى وأما الذين لم يتبعوا هداى وهم الذين كفروا بنا وكذبوا بآياتنا المبينة لسبيل ذلك الهدى - كما قال قبل قصة آدم (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم) - أو: وأما الذين كفروا بآياتنا اعتقاداً، وكذبوا بها لساناً، فجزاؤهم ما يأتى، والتكذيب كفر، سواء أكان عن اعتقاد بعدم صدق الرسول أم مع اعتقاد صدقه وهو تكذيب الجحود والعناد الذى قال الله لرسوله ﷺ فى أهله (٦: ٣٣) فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون) كما أن الكفر القلبي قد يوجد مع تصديق اللسان كما هى حال المنافقين. والمعنى كما قرره شيخنا بالاختصار: والذين كفروا وكذبوا بآياتنا

التي تجعلها دلائل الهداية وحجج الإرشاد بأن جحدوا بها وأنكروها ، ولم يدعنوا لصدقها ، اتباعاً لخطوات الشيطان وعملاً بسوسسته ، وذهاباً مع إغوائه ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ تقدم تفسير الخلود في آخر الآية ٢٥ وأقول : إن هذه الجملة تدل على الحصر أو الاختصاص الإضافي ، أى أولئك الكافرون المكذبون البعداء هم دون متبعي هداى أصحاب النار وأهلها هم فيها خالدون لا يظعنون عنها . أى وهم في خوف قاهر ، وحزن مساور ، وقد فسر الجلال الآيات بالكتب المنزلة ، وهو يصح في القرآن فانه آية على نفسه ، وعلى صدق من جاء به ، وسائر الكتب تحتاج إلى آية تدل على أنها من عند الله تعالى (قال الأستاذ) بعد تفسير الكفر بالجهود ، والتكذيب بالانكار : وكل منهما يأتي في فرق من الناس ، فمنهم من لا تقوى ولا إيمان له وهم الذين لا يؤمنون بالغيب لأنه ليس عندهم أصل للنظر فيما جاءهم ، فهؤلاء منكرون وهم مكذبون لأن التكذيب يشمل عدم الاعتقاد بصدق الدعوى التي جاء بها الرسول واعتقاد كذبها ، والجهود قد يأتي من المعتقد . قال تعالى (٢٧: ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)

فهذا هو الطور الأخير للإنسان بعد ما وكل إلى كسبه ، وجعل فلاحه وخسرانه بعمله ، فمن لطف الله به أن أيد به هداية الدين بعد هداية الحس والوجدان والعقل ، فهذه الهدايات يرتقى بالتدرج ما شاء الله تعالى

(٤٠) يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَأَيَّتِي فَارْهَبُونَ (٤١) وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَأَيَّتِي فَاتَّقُونَ (٤٢) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٣) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ

لا يزال الكلام في الكتاب وكونه لا ريب فيه وبيان أحوال الناس وأصنافهم في أمره . وقد قلنا إن التفنن في مسائل مختلفة منتظمة في سلك موضوع واحد هو من أنواع بلاغة القرآن وخصائصه المدهشة التي لم تسبق لبلوغ ، ولن يبلغ شأوه فيها بليغ : ذكر الكتاب أنه لا ريب فيه ، ثم ذكر اختلاف الناس فيه فابتدأ بالمستعدين للإيمان به المنتظرين للهدى الذي يضيء نوره منه ، وثنى بالمؤمنين ، وثالث بالكافرين ، وفقى عليهم بالمنافقين . ثم ضرب الأمثال لفرق الصنف الرابع ثم طالب الناس كلهم بعبادته ، ثم أقام البرهان على كون الكتاب منزلاً من الله على عبده محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتحدى المرتابين بما أعجزهم ، ثم حذر وأنذر ، وبشر ووعد ، ثم ذكر المثل والقذوة وهو الرسول ، وذكر اختلاف الناس فيه كما ذكر اختلافهم في الكتاب ، ثم حاج الكافرين ، وجاءهم بأنصع البراهين ، وهو إحيائهم مرتين وإماتتهم مرتين ، وخلق السموات والأرض لمنافعهم ، ثم ذكر خلق الإنسان وبين أطواره ، ثم طفق يخاطب الأمم والشعوب الموجودة في البلاد التي ظهرت فيها النبوة تفصيلاً ، فبدأ في هذه الآيات بذكر اليهود المعنى الذي نذكره . والكلام لم يخرج بهذا التنويع عن انتظامه في سلكه ، وحسن اتساقه في سبكه ، فهو دائر على قطب واحد في فلكه ، وهو الكتاب ، والمرسل به ، وحاله مع المرسل إليهم . قال تعالى :

﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ (أقول) إسرائيل لقب نبي الله يعقوب ابن نبيه اسحق ابن نبيه وخليفه إبراهيم (ع . م) قيل معناه الأمير المجاهد مع الله . والمراد بينه ذريته من أسباطه الإثني عشر ، وأطلق عليهم لقبه في كتبهم وتواريخهم كما تسمى العرب القبيلة كلها باسم جدّها الأعلى . ولما كانت سورة البقرة أول السور المدنية الطول وكان جل يهود بلاد العرب في جوارها دعاهم الله تعالى فيها إلى الإسلام وأقام عليهم الحجج والبراهين وبين لهم من حقيقة دينهم وتاريخ سلفهم ما لم يكن يعلمه أحد من قومه المجاورين لهم فضلاً عن أهل وطنه بمكة المكرمة . قال شيخنا في سياق درسه ما مثاله :

« اختص بني إسرائيل بالخطاب اهتماماً بهم لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب

السموية والمؤمنة بالأنبياء المعروفين ، ولأنهم كانوا أشد الناس على المؤمنين ، ولأن
 في دخولهم في الإسلام من الحجج على النصارى وغيرهم أقوى مما في دخول النصارى
 من الحججة عليهم ، وهذه النعمة التي أطلعها في التذكير لعظم شأنها هي نعمة جعل
 النبوة فيهم زمناً طويلاً (أو أعم) ولذلك كانوا يسمون شعب الله كما في كتبهم ؛
 وفي القرآن إن الله اصطفاهم وفضلهم ، ولا شك أن هذه المنقبة نعمة عظيمة من
 الله منحهم إياها بفضله ورحمته فكانوا بها مفضلين على العالمين من الأمم والشعوب
 وكان الواجب عليهم أن يكونوا أكثر الناس لله شكراً ، وأشدهم لنعمة ذكرراً ،
 وذلك بأن يؤمنوا بكل نبي يرسله لهدايتهم ، ولكنهم جعلوا النعمة حجة الإعراض
 عن الإيمان ، وسبب إيذاء النبي عليه السلام ، لأنهم زعموا أن فضل الله تعالى
 محصور فيهم ، وأنه لا يبعث نبياً إلا منهم ؛ ولذلك بدأ الله تعالى خطابهم
 بالتذكير بنعمته ، وفتى عليه بالأمر بالوفاء بعهده . فقال :

﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ عهد الله تعالى إليهم يعرف من الكتاب
 الذي نزل به إليهم ، فقد عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يؤمنوا برسله
 متى قامت الأدلة على صدقهم ، وأن يخضعوا لأحكامه وشرائعه ، وعهد إليهم أن
 يرسل إليهم نبياً من بني إخوانهم أي بني إسماعيل يقيم شعباً جديداً . هذا هو العهد
 الخاص المنصوص ، ويدخل في عموم العهد عهد الله الأكبر الذي أخذه على جميع
 البشر بمقتضى الفطرة وهو التدبير والقروى ، ووزن كل شيء بميزان العقل والنظر
 الصحيح ، لا بميزان الهوى والغرور ، ولو التفت بنو إسرائيل إلى هذا العهد الإلهي
 العام ، أو إلى تلك العهود الخاصة المنصوصة في كتابهم ، لآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوا
 النور الذي أنزل معه وكانوا من المفلحين ، ولا حاجة إلى تخصيص العهد بالإيمان
 بالنبي ﷺ كما فعل مفسرنا (الجلال) فإن الإيمان داخل في العهد العام وهو من
 أفراد العهد الخاص فلا دلائل على قصر عموم العهد المضاف عليه

هذا هو عهد الله وأما عهدهم فهو المتمكين في الأرض المقدسة والنصر على
 الأمم الكافرة والرفعة في الدنيا وخفض العيش فيها . هذا هو الشائع في التوراة التي
 بين أيديهم ، ولا شك أن الله تعالى قد وعدهم أيضاً بسماعة الآخرة ، ولكن

(البقرة : س ٢) دعوة اليهود إلى الإيمان بالقرآن وأن لا يشتروا به ثمنا قليلا ٢٩١

لادليل على هذا في التوراة إلا الاشارات ، ولذلك ظنّ بعض الباحثين أن اليهود لا يؤمنون بالبعث ، ومع هذا يقول (الجلال) كغيره إن هذا العهد هو دخول الجنة ويقتصر عليه .

ولما كان من موانع الوفاء بالعهد الذي فشنا تركه في شعب اسرائيل خوف بعضهم من بعض لما بين الرؤساء والمرؤسين من المنافع المشتركة عقب الأمر بالوفاء بقوله ﴿ وإياى فارهبون ﴾ أى إن كنتم تخافون فوت بعض المنافع ، ونزول بعض المضار بكم إذا خالفتهم الجماهير واتبعتم الحق ، فالأولى أن لا تخافوا ولا ترهبوا إلا من بيده أزمة المنافع كلها ، وهو الله الذى أنعم عليكم بتلك النعمة الكبرى أو النعم كلها ، وهو وحده القادر على سلبها ، وعلى العقوبة على ترك الشكر عليها ، فارهبوا وحده لا ترهبوا سواه .

ثم انتقل من الأمر بالوفاء بعموم العهد إلى العهد الخاص المقصود من السياق فقال تعالى جل شأنه ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ﴾ من تعليم التوراة وكتب الأنبياء كالتوحيد والنهي عن الفواحش والمنكرات والأمر بالمعروف وما يتصل بهذا من الارشاد الموصل إلى السعادة ، فاذا نظرتم في القرآن ووجدتموه مصدقا لما معكم من مقاصد الدين الالهى وأصوله ووعود الأنبياء وعهودهم ، تعلمون أن الروح الذى نزل به هو عين الروح الذى نزل بما سبقه ، وتعلمون أنه لا غرض لهذا النبي الذى يدعوكم إلى مثل ما دعاكم إليه موسى والأنبياء إلا تقرير الحق ، وهداية الخلق ، بعد ما طرأ من ضلالة التأويل ، وجهالة التقليد ، فبادروا إلى الإيمان بهذا الكتاب الذى قامت به الحجة عليكم من وجهين (أحدهما) إعجازه (وثانيهما) كونه مصدقا لما معكم ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ أى ولا تبادروا إلى الكفر به والحدود له مع جدارتكم بالسبق إليه ، وهذا الاستعمال معروف في الكلام البليغ لهذا المعنى لا يقصد بالأولية فيه حقيقتها . والخطاب عام لليهود في كل عصر وزمان ثم قال ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ﴾ الآيات هي الدلائل التي أيد بها النبي ﷺ وأعظمها القرآن فهو كقوله تعالى (اشتروا الضلالة بالهدى) أى

لا تعرضوا عن الايمان بهذا النبي وما جاء به وتستبدلوا بهديته هذا الثمن القليل وهو ما يستفيد رؤساؤكم من المرؤسين من مال وجاه أو قعاهم في الكبر والغرور ، وما يتوقعه المرؤسون من الزلفى والحظوة بتقليد الرؤساء واتباعهم وما يخشونه إذا خالفهم من المهانة والذلة ، وإنما سمي هذا الجزاء قليلا لأن كل ماعدا الحق قليل وحقيق بالنسبة إليه ، وكيف لا يكون قليلا وصاحبه يخسر عقله وروحه قبل كل شيء ، لا عراضه عن الآيات البينات ، والبراهين الواضحات ، ثم إنه يخسر عز الحق وما يكون له من الشأن العظيم وحسن العاقبة ، ثم إنه يخسر مرضاة الله تعالى وتحل به نقمه في الدنيا وعقوبته في الآخرة ، وختم هذه الآية بشبه ما ختم به ما قبلها وذلك قوله ﴿ وإياي فأتقون ﴾ وليس في هذه مع سابقتها تكرار ولا شبه تكرار كما يتوهم ، فقد حل كل من القولين محلّه ، ولا مندوحة عن واحد منهما لأن استبدال الباطل بالحق إنما كان منهم لانتقاء الرئيس فوت المنفعة من المرءوس ، وانتقاء المرءوس غضب الرئيس ، فدحض هذه الشبهة بالأمر بتقوى الله وحده الذي بيده قلوب العباد وجوارحهم ، وهو المسخر لهم في أعمالهم ، وبيده الخير كله ، وهو على كل شيء قدير

ثم قال ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ بينت هذه الآية مسلكهم في الغواية والاعواء في سياق النهي عنه . فقد جاء في كتبهم التحذير من أنبياء كذبة يبعثون فيهم ويعملون العجائب ، وجاء فيها أيضاً أنه تعالى يبعث فيهم نبياً من ولد اسماعيل يقيم به أمة ، وأنه يكون من ولد الجارية (هاجر) وبين علاماته بما لا لبس فيه ولا اشتباه ، ولكن الأحبار والرؤساء كانوا يلبسون على العامة الحق بالباطل فيوهمونهم أن النبي ﷺ من الأنبياء الذين نعته الكتب بالكذبة (حاشاه) ويكتمون ما يعرفون من نعوته التي لا تنطبق على سواه ، وما يعلمون من صفات الأنبياء الصادقين وما يدعون إليه ، وكله ظاهر فيه عليه الصلاة والسلام بأكل المظاهر .

ومن اللبس أيضاً ما يفتر به الرؤساء والأحبار فيكون صادراً لهم عن سبيل الله وعن الإيمان بنبيه عن ضلال وجهل وهو لبس أصول الدين بالمحدثات والتقاليد التي زادوها على الكتب المنزلة بضروب من التأويل والاستنباط من كلام بعض

المتقدمين وأفعالهم ، فكانوا يحكمون هذه الزيادات في الدين حتى في كتب الأنبياء ويعتدرون بأن الأقدمين أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم فهم الوسطة بينهم وبين الأنبياء ، وعلى من بعدهم الأخذ بما يقولون دون ما يقول الأنبياء الذين يصعب عليهم فهم كلامهم بزعمهم ، ولكن الله لم يقبل هذا العذر منهم فأسند إليهم ذلك اللبس وكنان الحق الموجود في التوراة إلى اليوم ، وكذلك لا يقبل الله من بعدهم ترك كتابه لكلام الرؤساء بحجة أنهم أكثر علما وفهماً ، فكل ما يعلم من كتاب الله تعالى يجب العمل به ، وإعنا يسأل الإنسان أهل الفهم عما لا يعلم منه ليعلم فيعمل

ثم قال جل ثناؤه ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ فبعد الدعوة إلى الإيمان اليقيني دعاهم إلى العمل الصالح على الوجه النافع المرضى لله تعالى وكانوا ضلوا عنه بالتمسك بالظواهر والوقوف عند الرسوم فقد كانوا يصلون ولكنهم ما كانوا يقيمون الصلاة ، لأن الإقامة هي الإتيان بالشئ مقوماً كاملاً وهي في الصلاة التوجه إلى الله تعالى بالقلب والخشوع بين يديه والاخلاص له في الذكر والدعاء والثناء ، فهذا هو روح الصلاة الذي شرعت لأجله ولم تشرع لهذه الصورة ، فان الصورة تتغير في حكم الله تعالى على السنة أنبيائه لأنها رابطة مذكرة ، فلم تكن للأنبياء صورة واحدة للصلاة ، ولكن هذا الروح لا يتغير فهو واحد لم يختلف فيه نبى ولم ينسخ في دين

ثم أمر بعد الصلاة التي تطهر الروح وتقر بها من الله تعالى بالزكاة التي هي عنوان الإيمان ومظهر شكر الله على نعمه والصلة العظيمة بين الناس . وقد عهد في القرآن قرن الأمر بإتيان الزكاة بالأمر بإقامة الصلاة ، ومن أقام الصلاة لا ينسى الله تعالى ولا يقفل عن فضله ، ومن كان كذلك فهو جدير ببذل المال في سبيله ، مواساة لعياله ومساعدة على مصالحهم التي هي ملاك مصلحته ، فان الانسان إنما يكتسب المال من الناس بمحذقه وعمله معهم فهو لم يكن غنياً إلا بهم ومنهم ، فاذا عجز بعضهم عن الكسب لآفة في فكره ونفسه أو غلة في بدنه ، فيجب على الآخرين الأخذ بيده ، وأن يكونوا عوناً له حفظاً للجموع الذي ترتبط مصالح بعضها بمصالح البعض الآخر ، وشكراً لله على ما ميزهم به من النعمة ، وظاهر أن الغنى في حاجة دائمة

إلى الفقير كما أن الفقير في حاجة إليه ، ولكن النفوس تعرض فتغفل عن المصلحة في بذل المال ومساعدة الفقير والضعيف مبالغة وغلو في حب المال الذي هو شقيق الروح كما يقولون ، لهذا جعل الله بذل المال والإنفاق في سبيل الخير علامة من علامات الإيمان ، وجعل البخل من آيات النفاق والكفر كما سيأتي في بعض الآيات

قال الاستاذ الإمام : إن البخل - ومنبعه القسوة على عباد الله تعالى والحرص على المال استرسالا في الشهوات ، وميل مع الأهواء - لا يجتمع مع الإيمان الصحيح في قلب واحد قط . وليس لأحد أن يزعم أنه يؤمن بالله وبما أنزل على رسله من الأوامر والنواهي حتى يقوم بما أمر الله فيما طلب منه على ما يحب الله ويرضى

ثم أمر بعد إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالركوع مع الراكعين ، والركوع صورة الصلاة أو جزء من أجزائها ، وقدر آخره ولم يصله بالصلاة لحكمة جليلة لراعية للفاصلة كما زعم بعض المفسرين ، فليس من الجائز أن يكون في القرآن ما يعرض فيه إخلال بالمعنى لأجل رعاية الفاصلة ، بل هذا لا يرتضيه البلغاء من الناس فكيف يقع في كلام الله تعالى ؟ وإنما وردت هذه الأوامر الثلاثة مرتبة كما يحب الله تعالى فإقامة الصلاة في المرتبة الأولى من عبادة الله تعالى لأنها روح العبادة والإخلاص له ، ويليهما إيتاء الزكاة لأنها تدل أيضا على زكاة الروح وقوة الإيمان ، وأما الركوع وهو صورة الصلاة البدنية أو بعض صورتها أشير به إليها فهو في المرتبة الثالثة فرض للتذكير بسابقه وما هو بعبادة لذاته ، وإنما كان عبادة لأنه يؤدي امتثالاً لأمر الله تعالى وإظهاراً لخشيته ، والخشوع اعظمته ، ولكنه قد يصير عادة لا يلاحظ فيها امتثال ولا إخلاص فلا يعد عند الله شيئاً ، وإن عده أهل الرسوم كل شيء ، بخلاف إقامة الصلاة بالمعنى الذي ذكرناه وإيتاء الزكاة ، ولا يخفى أن الفضل بين معني الصلاة وصورتها بالزكاة فيه تعظيم لشأن الزكاة . وسننكم على الزكاة والانفاق في سبيل الله بالتفصيل في تفسير آية أخرى إن شاء الله تعالى .

(٤٤) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ السَّكْبَرُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٥) وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

الْخٰشِعِينَ (٤٦) الَّذِيْنَ يَظُنُوْنَ اَنَّهُمْ مُلٰقُوا رَبِّهِمْ وَاَنَّهُمْ اِلَيْهِ رٰجِعُوْنَ

الكلام موجه إلى بني اسرائيل وقد تقدم في الآيات السابقة أن الله ذكرهم بنعمته ، وأمرهم بالوفاء بعهده ، وأن يرهبوه ويتقوه وحده ، وأن يؤمنوا بالقرآن ، ونهاهم أن يكونوا أول كافر به ، وأن يشكروا بآياته نمناً قليلاً ، وأن يلبسوا الحق بالباطل ويكتموه عمداً . ثم أمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ووفق في هذه الآيات يوجههم على سيرتهم المعوجة في الدين ، ويهديهم إلى طريق الخروج منها اليهود كسائر الملل يدعوون الإيمان بكتابين والعمل به ، والحفاظة على أحكامه والقيام بما يوجبه ، ولكن الله تعالى علمنا أن من الإيمان — بل مما يسمى في العرف إيماناً — مالا يعبأ به ، فيكون وجوده كعدمه ، وهو الإيمان الذي لاسلطان له على القلب ، ولا تأثير له في إصلاح العمل ، كما قال (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) وكانت اليهود في عهد بعثته عليه الصلاة والسلام قد وصلوا في البعد عن جوهر الدين إلى هذا الحد . كانوا — ولا يزالون — يتلون الكتاب تلاوة يفهمون بها معاني الألفاظ ، ويجلون أوراقه وجلده ، ولكنهم ما كانوا يتلونه حق تلاوته ، لأن الذين يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به كما قال تعالى وعلى الوجه الذي يرضاه تعالى : يتلون ألفاظه وفيها البشارة بالنبي ﷺ ويأمرون بالعمل بأحكامه وآدابه من البر والتقوى ، ولكن الأحبار القارئین الأمرين الفاهين ما كانوا يبينون من الحق إلا ما يوافق أهواءهم وتقاليدهم ، ولا يعملون بما فيه من الأحكام إلا إذا لم يعارض حظوظهم وشهواتهم . فقد عهد الله إليهم في الكتاب أنه يقيم من إخوانهم نبياً يقيم الحق ^(١) وفرض عليهم الزكاة ،

(١) يشير إلى ما في الفصل الثامن عشر من سفر تثنية الاشتراع ١٧: قال لي الرب أحسنوا فيما تكلموا ١٨ أقيم— وفي ترجمة أخرى «سوف أقيم» لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمك فيكلمهم بكل ما أوصيه به ١٩ ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه « وفي ترجمة أخرى « فانا أكون المنتقم من ذلك » ولم يبعث بعد موسى نبي مثل موسى في نيوته ، أي إنه صاحب شريعة مستقلة غير محمد عليه الصلاة والسلام

ولكنهم كانوا يحرفون البشارة بالنبي ﷺ . يؤلونها . ويحتالون لمنع الزكاة فيمنعونها ، وجعلت لهم مواسم واحتفالات دينية تذكرهم بما آتى الله أنبياءهم من الآيات وما منحهم من النعم لينشطوا إلى إقامة الدين والعمل بالكتاب . ولكن القلوب قست بطول الأمد ففسدت النفوس عن أمر ربها . وهذه التوراة التي بين أيديهم لا تزال حجة عليهم ، فلوسألتهم عما فيها من الأمر بالبر والخير لا عترفوا وما أنكروا ، ولكن أين العمل الذي يهدى إليه الإيمان ، فيكون عليه أقوى حجة وبرهان

كذلك كان شأن أحمبار اليهود وعلمائهم في معرفة ظواهر الدين بالتفصيل وكان عامتهم يعرفون من الدين العبادات العامة والاحتفالات الدينية وبعض الأمور الأخرى بالأجمال ، ويرجع المستمسك منهم بدينه في سائر أموره إلى الأحمبار فيقلدهم فيما يأمرونه به ، وكانوا يأمرون بما يرونه صوابا فيما ليس لهم فيه هوى ، وإلا لجأوا إلى التأويل والتحريف والحيلة ليأخذوا من الألفاظ ما يوافق الهوى ويصيب الغرض ، فاذا وجه الخطاب في قوله تعالى ﴿ تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ إلى حملة الكتاب فذاك لأن الأمر والنهي وظيفتهم ، وإذا كان علما فذاك لأن شأن العامة فيما يعرفون من الدين بالأجمال كشأن الرؤساء فيما يعرفون بالتفصيل ، ولا يكاد يوجد أحد لا يأمر بخير ولا يبحث على بر ، فاذا كان الأمر لا ياتمر بما يأمر به فالحجة قائمة عليه بلسانه ونج الله هؤلاء القوم على أنهم كانوا يأمرون الناس بالبر كالأخذ بالحق ومعرفة لأهله ، وعمل الخير والوعد عليه بالسعادة مع الغفلة عن أنفسهم وعدم تذكيرها بذلك ، وما أجمل التعبير عن هذه الحالة بنسيان الأنفس ، فان من شأن الانسان أن لا ينسى نفسه من الخير ولا يحب أن يسبقه أحد إلى السعادة ، كأنه يقول : إذا كنتم موقنين بوعد الكتاب على البر ووعيده على تركه فكيف نسيتم أنفسكم ﴿ وأنتم تتلون الكتاب ﴾ وتأمرون الناس باتباعه وتعرفون منه ما لا يعرفه المأمورون ؟ أفيعلمون مع نقص العلم بفائدة العمل ، ولا تعملون على كمال العلم وسمته ؟ ولما كان هذا غير معقول قفى على استفهام التوبيخ بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ . يعنى ألا يوجد فيكم عقل يحبسكم عن هذا السفه ؟ فان من له مسكة من العقل لا يدعى كمال العلم بالكتاب والإيمان اليقيني به والقيام بالارشاد اليه : هذا

كتاب الله ، هذه وصايا الله ، هذا أمر الله ، قد وعد العامل به السعادة في الدنيا أو الآخرة أو كليهما ، فخذوا به واستمسكوا بهراء ، وحافظوا عليه ، — ثم هو لا يعمل ولا يستمسك ؟

مثل من كانت هذه حاله كمثل رجل أمامه طريق مضى نصبت فيه الأعلام والصوى بحيث لا يضل سالكه ، ثم هو يسلك طريقا آخر مظلمًا طامس الأعلام وكلما لقي في طريقه شخصا نصح له أن لا يمشى معه ، وأن يرجع إلى طريق الهدى الذى تركه ، أو مثل ساعب يدعو الناس إلى المائدة الشهية ، ويبديت على الجوع والطوى ، أو صاد يدل العطاش على مورد الماء ولا يرد معهم

إذا كان هذا لا يقع من صحيح العقل فكذلك أمر المؤمن بشعب الإيمان وعدم الائتمار بها ، مع تذكرها وتلاوة كلام الله فيها . فلا بد لتعقل هذا من القول بأن الإيمان بالوعد على البر والوعيد على الفجور غير يقينى عند الأمر المخالف . ويؤيده أن القوم كانوا عقلاء فى كسب المال وحفظ الجاه الدنيوى وإنما ضلوا من جهة الدين بأخذه على غير وجهه

الخطاب عام لليهود الذين كان هذا حالهم وعبرة لغيرهم لأنه منبئ عن حال طبيعية للأمم فى مثل ذلك الطور الذى كانوا فيه ، ولذلك كان القرآن هداية للعالمين إلى يوم الدين ، لا حكاية تاريخ يقصد بها هجاء الاسرائيليين ، فلتحاسب أمة نفسها فى أفرادها ومجموعها لئلا يكون حالها كحال من ورد النص فيهم فيكون حكمها عند الله كحكمهم ، لأن الجزاء على أعمال القلوب والجوارح ، لا للحياة الأشخاص والأقوام أو معاداتهم

(فان قيل) إن من يأمر غيره بالبر وينسى نفسه قد يكون متسكلا فى ترك العمل على الشفاعات والمكفرات ، كالأذكاء والصدقات ، لا أنه يترك لعدم اليقين فى الإيمان ، وإذا أمر غيره بالبر مع هذا فذاك لأنه يلاحظ المكفرات فى شأن نفسه ولا يلاحظها فى شأن غيره (نقول) إن العالم بالدين لا يخفى عليه أن حكم الله تعالى واحد عام ، فكيف يحتم البر على كثيره ويؤهم أنه لا يقربه من رضوان الله

ويبعده من سخطه إلهو ، وينسى نفسه فلا يحتم عليها ذلك ؟ ثم كيف يجهل أن الشفاعات والأعمال الصالحة التي ورد أنها تكفر السيئات لا يصح أن تكون منبطة عن عمل البر أو سببا لتركه لأنه خلاف المقصود من الدين ؟ فهل يكون فرع من فروع الدين هادما لأصوله وسائر فروعه ؟ كل ذلك كان ينبغي أن يكون بعيداً عن العالم بالدين الذي يتلو كتاب الله تعالى ولكن هذا الضرب من الخذلان يعرض لأرباب الأديان عند فساد حال الأمم ، فنبه الله تعالى عليه بهذا التعبير اللطيف وهو نسيان النفس مع تلاوة الكتاب ، فكأن الزاعم أنه مؤمن ولا يعمل عمل الإيمان ، نسي أنه هو الذي يزعم الإيمان ، وصاحب هذا النسيان يمضي في العمل القبيح من غير فكر ولا رؤية بل انبعاثا مع الحظوظ والشهوات التي حكمها في نفسه ، ومملوكها زمام عقله وحسه ، ولكنه لا يلاحظها في غيره عند ما يعرض عليه عمله السيئ أو يراه معرضاً عن عمل البر ولذلك يعظه وينذره

بعد ما بين سوء حالهم وأن عقلهم لم يفهمهم والكتاب لم يذكّرهم ، أرشدهم إلى الطريقة المثلى للانتفاع بالكتاب والعقل والعمل بالعالم النافع فإن العمل السيئ الذي سببه نسيان النفس ليس طبيعياً كالتفلس لا يمكن دفعه ومقاومته بل هو اختياري وسببه عارض تمكن إزالته بما أرشد الله إليه في قوله ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ قال الاستاذ الامام : أمر بالصبر وهو كما قال المفسر حبس النفس على ما تذكره . ونقول بعبارة أوضح : هو احتمال المسكوه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان كما يقول العامة في أمثالهم .. وذكر مثلاً بمعنى قول الشاعر :

صبرت ولا والله مالى طاقة ، على الصبر ، لكنى صبرت على الرغم

والصبر الحقيقي المبني على التسليم يحصل بتذكر وعد الله تعالى بالجزاء الحسن للصائرين على أعمال البر التي تشق على النفس وعن الشهوات المحرمة التي تصبو إليها ، وتذكر أن المصائب من فعل الله وتصرفه في خلقه فيجب الخضوع له والتسليم لأمره ، ومن عجيب أمر هذا الصبر : أنه يبقى الإنسان من الخسران متى حسن في كل شيء كما تفيد سورة (العصر) ويؤيده الاختيار ، وقد اشتهر أن « من صبر ظفر » وربما أتينا على شيء من معنى الصبر وأنه قوة من قوى النفس

تدخل النظام في كل عمل من أعمالها — في موضع آخر
 الاستعانة بالصبر تكون بالالتفات إلى الاسباب التي تأفك الناس وتصرفهم
 عن صراط الشريعة كاتباع الشهوات ، والولوع باللذات ، والبعد عن المؤلمات ، ثم
 بالقياس بينها وبين ما رغب الله فيه ، أو أوعد بالعقاب على فعله ، ثم بملاحظة أن ما أوعده
 الله تعالى به أولى بأن يتقى ، وما وعد به أولى بأن يرجى ويطلب ، وضرب
 الأستاذ لمن يتقصدون الصبر فيقعون في الخسران مثلاً : صاحب الحاجة يريزه الطيش
 والتسرع إلى قضاء حاجته ويقصد الصبر على مرارتها فيكذب لاعتقاد أن حاجته
 تقضى فيدفع المضرة أو يجلب المنفعة بالكذب ، وأنه بالصدق يفوته هذا ،
 فيعترف جريمة الكذب لهذا الاعتقاد ، وهو ظان بل واهم ، ومتى اقترفه مرة هان
 عليه فيعود إليه فيكون كذاباً [ومتى عرف بذلك ضاعت الثقة به وفسد حاله
 وأصبح يجد الحاجة إلى الصدق أشد مما كان منها إلى الكذب] ويؤيد ما قاله
 الأستاذ الإمام : حديث « لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند
 الله كذاباً » رواه الشيخان عن ابن مسعود ، وإذا ذكر مثل هذا الرجل أو تذكر
 من تلقاء نفسه الوعيد على الكذب وما ورد في ذلك من آيات في كتاب الله وآثار
 عن رسول الله ﷺ وآله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ، وما يجلبه لصاحبه من
 مقت الله وغضبه ، يسبق إلى ذهنه المكفرات (ومنها الشفاعات وسعة العفو
 والمغفرة) كالاستغفار قبل النوم مائة مرة وقول كذا من الذكر بعد صلاة الصبح
 كذا وكذا مرة فلا يبقى للوعيد معها أثر ، إذ يدعى بأن ذنبه يغفر لاجل حاله ، وينسى
 سبب المغفرة الحقيقي وهو التوبة النصوح والرجوع إلى الله تعالى ، وأن العفو عن
 غير التائب الأبواب إلى الله تعالى مجهول بالنسبة إلى علمنا وإن كان جازماً عقلاً ،
 فإننا لم نطلع على ما في علم الله تعالى فنعلم أننا ممن يعفو عنهم
 [وكيف نترك ما جاء عن الله في كتابه وعلى لسان نبيه من النصوص القاطعة الدالة
 على أن لعنة الله مسجلة على الكاذبين وهي بعمومها لا تدع لهم محالاً في نزول سخط الله
 بالكاذب ، ثم نخترع لأنفسنا تلة نتوكل عليها في ارتكاب هذه الجزر ونسندنا إلى
 سعة عفو الله ، أو إلى مجمل من القول لا يبينه إلا تلك النصوص القاطعة ؟ إن هذا إلا

خبال أو تصوير خيال ، أو فقد للإيمان بصحة تلك النصوص القاطعة نعوذ بالله [(وأقول) إنما جعل شيخنا جريمة الكذب مثلاً لاستباحة فاسدى الدين للمعاصي لأنه في معناه العام أكبر الكبائر وشر الرذائل حتى أن الكفر والشرك شعبة منه ، ولأنه ليس مما تغلب المرء عليه سورة غضب أو ثورة شهوة بل يقترب بالتروى والتعمد ، ولأنه مع ذلك عام فاش في جميع طبقات الناس في عصرنا هذا حتى العلماء والوزراء ومن فوقهم . ومن المعجائب أننا سمعنا بأدائننا وقرأنا وروينا عن أعداء الإصلاح وأهله من اقتراء الكذب على دعائه مالا تستطيع عقولنا له تأويلا إلا بما كتبه شيخنا في هذه العبارة من الخبال في أنفسهم التي فسدت فطرتهم : أو من فقد الإيمان بصحة النصوص إما فقد تاماً عاماً وإما فقد خاصاً بالحال التي يقترون فيها الكذب وغيره من الجرائم على حد ماورد في الحديث المتفق عليه « لا يزنى الزاني حين يزنى وهو مؤمن » الخ على أحد التأويلات له . ووجه العجب والغرابة في هذا النوع من الكذب : أنه بحسب الظاهر انتصار الدين ودفاع عنه وهو هدمه . ثم أقول إن مثل من يقترب السيئات معتمداً على العفو والشفاعة كمثل من يرتكب الجرائم في ملأ من الناس وعلى رموس الشهادات متعرضاً لقبض الشرطة عليه وسوقه إلى المحكمة لتحكم عليه بعقوبة الجريمة اعتماداً على أن الأمير أو السلطان قد يعفو عنه بعد الحكم عليه بالعقوبة ومثل هذا لا يختلف اثنان في حققه . والله تعالى قد بين لنا شرط نفع الأعمال الصالحة في مغفرة الذنوب وهو اقترائها بالنوبة الصحيحة كقوله في حكاية دعاء الملائكة المؤمنين (فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك) الآيات وقوله (ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً) وقوله (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وأما الشفاعة فحسبك قوله فيها (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) مع الجزم بأنه تعالى لا يرضى بالكذب ولا بغيره من الجرائم . ومن يأذن تعالى لهم بالشفاعة لا يعلمهم غيره عز وجل

ثم قال الأستاذ الإمام مامعناه : ومن الناس من يكتفى بالاعتذار عن ذنوبه وجرائمه بأنه غير معصوم ، وذكر بعض الشواهد عن يظن أن لهم في الدين قدم صدق ، وقال إن من هذا رأيه يتصور أن الصدق واتباع الحق إنما هو شأن طائفة

معدودة من البشر وهم الأنبياء عليهم السلام ، وكل من عداهم فليس من شأنه أن يثبت على عمل صالح ، ويكتفى بهذه التكاثر في تسليّة نفسه وتجريئها على الجرائم وكفى بهذا حتمًا ، فليس يلزم من كون غير النبي ليس معصوماً أن يكون إلف مآثم ، وحلف جرائم ، وخذن عظام ، ولولزم أن يكون الناس هكذا لكانت الشرائع عبثًا ، والتهذيب لغوًا ، وفسدت الأرض وخرّب العمران .

أوهل يصح في حكم العقل أن يقال: إن الشرائع والحدود وضروب الوعد والوعيد لم ينعم الله بتشريعها إلا لأجل المعصومين ؟ وهل يحتاج المعصوم إلى وعد أو وعيد ؟ وما فائدتهما بالنسبة إليه ، وقد أيقن بتوفيق الله له وأنه لا يأتي أمرًا يخالف ما أمر به ولا يقترب شيئًا مما نهى عنه ؟ ثم كيف لا يكون لغير المعصومين نصيب في الوعد ولا الزجرامع أنهم أحق الناس بالردع وأحوجهم إلى التخويف من سوء العاقبة ؟ [وأما الاستعانة بالصلاة فهي أقرب إلى حصول المأمول وإرجاع النفس إلى الله تعالى لما لها من التأثير في الروح ، ولكنها أشق على النفس الأمانة بالسوء .

ولذلك قال تعالى ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ أي للثقل شديدة الوقع كقوله (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) إلا على الخاشعين المتظامنة قلوبهم وجوارحهم لله تعالى . فهؤلاء هم الذين يستفيدون بالصلاة الصبر وكل الخلائق الحسنة لما تعطيه الصلاة من مراقبة الله تعالى . كما قال عز وجل (إن الإنسان خلق هلوعًا * إذا مسه الشر جزوعًا * وإذا مسه الخير منوعًا * إلا المصلين) فمن خواص الصلاة الصبر ونفي الجزع ، ومن خواصها النهي عن الفحشاء والمنكر . ومن خواصها الجود والسخاء - فالصلى الحقيقي هو البار الحقيقي الذي لا يترك الحق لأجل شهوة ، ولا لما يعرض له في معاملاته مع الخلق من خوف وخشية . هذا أثر صلاة الخاشعين بالإجمال . ولذلك قال تعالى (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون)

ثم وصف الخاشعين وصفًا يناسب المقام ، ويظهر وجه الاستعانة به فقال ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ أي الذين يتوقعون لقاء الله تعالى يوم الحساب والجزاء وأنهم إليه راجعون . بعد البعث لا مرجع لهم إلى

غيره - قال شيخنا: فالإيمان ببقاء الله تعالى هو الذى يوقف المعتقد عند حدوده . ولو لم يكن الاعتقاد يقينياً ، فإن الذى يغلب على ظنه أن هذا الشيء ضار يجتنبه أو أنه نافع يطلبه ، ولذلك اكتفى هنا بذكر الظن ، وقد فسر الظن مفسرنا (الجلال) باليقين لأنه الاعتقاد المنجى فى الآخرة ، وفاته أن الاكتفاء بالظن أبلغ فى التقرير والتوبيخ كأن هؤلاء الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يقرءون الكتاب لا يصل إيمانهم بالله وبكتابه إلى درجة الظن الذى يأخذ صاحبه بالاحتياط (أقول) بل هو تقليد عادى محض كالمعادات القومية والوطنية فهو لا ينجى صاحبه فى الآخرة

(٤٦) يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

تقدم تذكير بنى إسرائيل بالنعمة فى آية قبل هذه الآية . مقرؤنا بالأمر بالوفاء بعهده الله ، وبالوعد بالجزاء عليه ، والأمر بالخشية منه والرهبة له وحده . (وهى آية ٣٩) وتلاها آيات أمرهم فيها بالإيمان بالقرآن ونهاهم عن لبس الحق بالباطل وكنهانه . ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم وبخهم على نسيان أنفسهم من البر مع أمرهم للناس به وتلاوتهم الكتاب الداعى إليه ، ودلهم على الطريق التى لو سلكوها عوفوا من هذا النسيان ، تلك الطريق هى الاستعانة بالصبر والصلاة التى فقدوها بفقد روحها وهو الإخلاص والخشوع . وبعد هذا عاد إلى التذكير بالنعمة بنوع من التفصيل ، فإن النعمة فى الآية الأولى مجملة والاحمال ينبه الفكر إلى الذكر فى الجملة ، فاذا تلاه التفصيل والبيان كان على استعداد تام لكمال الفهم [فيكون التذكر أتم والتأثر أقوى ، والشكر على النعمة أرجى]

ثم طلب منهم أن يذكروا نعمته عليهم ، وتفضيله إياهم على الناس ، إحياء لشعور الكرامة فى نفوسهم ، ووصله بالأمر باتقاء يوم الدين والجزاء . وهذا أسلوب حكيم فى الوعظ ، فينبغى لكل واعظ أن يبدأ وعظه بإحياء إحساس الشرف وشعور

الكرامة في نفوس الموعوظين لتستعد بذلك لقبول الموعظة [وتجد من ذلك الإحساس معونة من العزيمة الصادقة التي هي من خصائص النفوس الكريمة على عوامل الهوى والشهوة ، فإن النفس إذا استشعرت كرامتها ودلوها ونظرت إلى مافي الرذائل من الخسة أبى لها ذلك الشعور - شعور العلو والرفعة - أن تنحط إلى تعاطي تلك الخسائس ، وكان ذلك من أقوى الوسائل لمساعدة الواعظ على بلوغ قصده من نفس من يوجه إليه وعظه ، ثم إن في الوعظ مسأً يؤلم نفس الموعوظ وجرحاً يكاد يحملها على النفرة من تلقينه والاستنكاف من سماعه ، فذكر الواعظ لما يشعر بكرامة المخاطب ورفعة شأنه ، وإباء ما ينسب إليه من الشرف أن يدوم على مثل ما يفتقره يقبل بالنفس على القبول كما يقبل الجريح على من يضمه جراحه ويسكن آلامه] ألا وإن هذا الشعور شعور الشرف والرفعة ملازم للإنسان لا يفارقه ولكنه قد يضعف حتى لا يظهر له أثر ، وفي تحريك الواعظ له اعتراف ضمني بكرامة وفضل الموعوظ يشفعان له بما يستلزمه الوعظ من مظنة الإهانة فيسهل احتمالها ويقرب قبوله شعور العزة والكرامة أمر شريف يحبيه الإيمان في نفوس المؤمنين الصادقين بل يستلزمه على وجه أكل لأن صاحب الإيمان الصحيح يرى أن له نسبة إلى الرب العظيم خالق السموات والأرض ، وأنه سنده وممده ، وعند ذلك تعلو نفسه وترتفع كما قيل :

قوم يخالجهم زهو بسيدهم والعبد يزهو على مقدار مولاه

من كان يشعر لنفسه بقيمة أو يجد لها حقاً في أن تعز وتكرم تراه إذا خلا بنفسه وتذكر أنه ألم بنقيصة يتألم ويتحمل ، يستعيز بالله من الشيطان الرجيم . وإذا تذكر المؤمن أن قلبه الذي تشرف بمعرفة الله تعالى [وأن شرف تلك المعرفة خلصه من العبودية لغيره وصيره مربوباً لرب العالمين وحدده فهو في ذلك مع أرفع رفيع وأكرم كريم سواء - إذا ذكر ذلك لم يرمن اللائق بمثل هذا الاختصاص أن يجاوره ما يدنس من الاستعباد لما يناله ، بل يرى أن ذلك الشعور الطاهر والعرفان الهادي إلى مقامات الكرامة لا ينبغي أن يزاحمه في موطنه من القلب دنس من رجس الرذائل] فينفر من هذه المزاحمة وتثقل عليه ويسهل عليه التزكي مما ألم به والانتابة إلى الله تعالى (قال) لهذا بدأ الله تعالى تذكير بني إسرائيل بما بدأ وثني بما ثني ،

وهو يتضمن من التقرير والتوبيخ ما يشعر بغلظ طباعهم وفساد قلوبهم فان من لا يتأدب بإحياء إحساس الكرامة ، يؤدب بالتأنيب والاهانة
العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الإشارة

فقوله تعالى ﴿ يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ * مؤكداً
لمثله فى الآية ٣٩ وتمهيداً لما عطفه عليه من تفصيل الاجمال فى الآية وما بعدها
من الآيات ، وما اقترن به من بيان كفرهم للنعم ، وما تخللها من المواعظ والحجج ،
وأوله وأعلاه قوله ﴿ وأنى فضلتكم على العالمين ﴾ * أى أعطيتكم من الفضل -
وهو الزيادة فيما يحسن - ما لم أعط غيركم من الشعوب حتى ذات المزايا الدنيوية
كالمصريين وسكان البلاد المقدسة

قال الأستاذ الإمام مامعناه : ناداهم باسم أبيهم الذى هو أصل عزهم وسؤددهم
ومنشأ تفضيلهم ، وأسند النعمة إليهم جميعاً إليه وحده لأن النعمة عنتمهم والتفضيل
شملهم ، ثم طفق يفصل النعمة التى ذكرها مجملة فيما سبق بذكر أمهات أنواعها فذكر
تفضيلهم على العالمين بمحض كرمه وفضله ، فإن بنى اسرائيل كغيرهم من البشر .
والتفضيل هو مناط الأخذ بالفضائل وترك الرذائل ، لأن الذى يرى نفسه رذلاً
خسئياً ، لا يبالى ما يفعل . ومن يرى نفسه مفضلاً مكرماً ، فانه يترفع عن الدنيا
والخسائس التى تدنس شرفه وتذهب بفضله . والحكمة فى التذكير بالتفضيل : أن
يتذكروا أن الذى فضّلهم له أن يفضل غيرهم كمحمد ﷺ وأمته ، وتنبئهم إلى
عدم الذهول عن أنفسهم ليدكروها عند أمر الناس بالبر ، ويعلموا أنهم أولى بأن
يبروا ممن يأمرهم بالبر ، لأنهم يتلون الكتاب الداعى إليه وهو آية تفضيلهم .
والى أنهم أحق باستعمال الفكر فى الآيات التى أوتىها النبى ﷺ وأجدر من جميع
الشعوب بالإيمان به ، فإن الفضل أولى بالسبق إلى الفضائل ممن فضل هو عليه
ثم إن الفضل على العالمين إن كان بكثرة الأنبياء فيهم فهو ظاهر على عمومته لأنه
لا يعرف شعب من الشعوب يزاحمهم فى هذه المزية . ولا تقضى هذه الفضيلة بأن يكون
كل فرد منهم أفضل من كل فرد من غيرهم ، ولا تنافى أن يفضلهم أخص الشعوب
— بله غيره — إذا انحرفوا عن هدى أنبيائهم وتركوا سنتهم واهتدى إليها

ذلك الشعب الذى كان مفضولاً . وإن كان المراد من التفضيل هو القرب من الله تعالى بمرضاته، فلا بد من تخصيصه بأولئك الأنبياء والمهتدين بهم من أهل زمانهم والتابعين لهم فيه ، ومن تقييده بمدة الاستقامة على العمل الذى استحقوا به التفضيل ثم قال تعالى ﴿ واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ﴾ أى واحذروا يوماً عظيماً أمامكم سيقع فيه من الحساب والجزاء ما لا منجاة من هوله إلا بتقوى الله فى جميع الأحوال ، ومراقبته فى جميع الأعمال ، فهو يوم لا تقضى فيه نفس، مهما يكن قدرها عظيماً عن نفس مهما يكن ذنبها صغيراً - شيئاً ما ، كحمل وزرها ، أو تكفير ذنبها (٣٥ : ١٨) ولا تزر وزرة أخرى ، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى (وصف اليوم بهذا الوصف ولم يقل يوم القيامة مثلاً للاشعار بأن التصرف فى ذلك اليوم والأمر كله لله ، فليس فيه ما اعتاد الناس فى هذه الدنيا من دفاع بعضهم عن بعض . وعبر عن هذا المعنى فى أول سورة بقوله (مالك يوم الدين) ثم وصفه هنا بوصف آخر يناسب الأول فقال ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (ولا تقبل) بالياء، والمعنى لا يقبل منها أن تأتى بشفع يشفع لها ولا يؤخذ منها فداء أو بدل إن هى استطاعت أن تأتى بذلك كما يظن أكثر الكفار، ولن تستطيع. قال البيضاوى: وكأنه أريد بالآية نفي أن يدفع أحد عن أحد العذاب من كل وجه محتمل، وفصل هذه الوجوه بما يشمل الثلاث المنفية، وجملة المعنى: أنه يوم لا تأثير لأحد فيه ولا كسب، ولا ينطق فيه أحد إلا بإذن الله تعالى . وقال (الجلال) أى ليس لها شفاعة فتقبل، واستدل بقوله تعالى حكاية عن المجرمين فى الآخرة (٢٦ : ١٠٠) فما لنا من شافعين) الآية وفسر العدل بالفداء قال ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أى يمنعون من عذاب الله . قال الأستاذ الإمام : ولا دليل فى هذا على أن المراد ما ذكره فى مسألة الشفاعة وإنما السياق فى الآية وأمثالها يدل على أن المراد بيان أن ذلك اليوم يوم تنقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة هذه الحياة من انطلاق الإنسان فى اختياره يدفع عن نفسه بالعدل والفداء ، ويستعين على المدافعة بالشفاعة عند

« تفسير القرآن الحكيم » « ٢٠ » « الجزء الأول »

السلاطين والأمراء ، وقد يوجد له فيها أنصار ينصرونه بالحق وبالباطل على سواء . بل يكون له في ذلك اليوم شأن آخر مع ربه تضمحل فيه جميع الوسائل إلا ما كان من إخلاصه في عمله ، قبل حلول أجله ، ورحمة الله العلي الكبير له ، لضعف حوله ، وضيق طوله ، وأنه يوم لا يتحرك فيه عضو إلا بإذن الله ، ولا يقدر أحد أن ينبس بكلمة إلا بإذن الله (٨٢ : ١٩) يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) كان اليهود المخاطبون ببيان هذه الحقيقة كغيرهم من أمم الجاهلية وأهل الملل الوثنية كقدماء المصريين واليونان يقيسون أمور الآخرة على أمور الدنيا فيؤمنون أنه يمكن تخلص الجرمين من العقاب بقداء يدفع بدلا وجزاء عنه - كما يستبدل بعض حكماهم منفعة مالية بمقوبة بدنية - أو بشفاعة من بعض المقربين إلى الحاكم يغير بها رأيه ويفسخ إرادته . ولقد اكتسح الإسلام هذه العقائد وآثارها العملية بالتوحيد الخالص ، وأتى ببنائها من القواعد ، ولكن المسلمين لم يسلموا منها فقد دخل في الإسلام أقوام يحملون أوزارا مما كانوا عليه من الوثنية ، ولم يلقوا الدين من القرآن ولا كما أرشد القرآن ، ولكنهم تقلدوه ممن لا يعرفه حق المعرفة ، ولقنوه كما ترشد إليه كتب التقليد من مصطلحات مبتدعة ، فكانوا على بقية مما كان عندهم وعلى جهل بالإسلام ، وجاء قوم آخرون تعمدوا الفساد فجعلوا بالتأويل الباطل حقا ، والكذب صدقا وذكر الأستاذ الامام هنا بعض العادات المصرية التي لا تزال يعمل بها باسم الدين وهي من إرث قدماء الوثنيين ، كاعطائهم لغاسل الميت شيئا من النقد يسمونه « أجرة المعدية » أي أجرة نقله إلى الجنة . وغير ذلك مما يعملونه للأموال ، ولم يعتقدون فيهم الولاية والقرب من الله ، ومثله أكثر تقاليدهم في بناء المقابر واحتفالاتها ثم ذكر المكفرات التي يعتقدها اليهود كقربان الأثام وقربان الخطيئة وقربان السلامة والحرق والاكْتفاء ممن لم يجد القربان بحامتين يكفر بهما عن ذنبه ، وقال : وكانوا يفهمون أن هذه الأشياء تكفر الذنوب بذاتها . والحق أنها عقوبات لمكفرات فإن من فهم التوراة حق فهمها يعلم أن المكفر الحقيقي هو التوبة والاقلاع عن الذنب ثم تقديم القربان يكون تربية وعقوبة . وقد أخبرهم الله تعالى في هذه الآية بأن يوم القيامة لا يقبل فيه عدل يفتدى الإنسان به . قال : وكانوا يعتقدون أنهم بانقياسهم

للانبياء لا يدخلون النار أو لا تسهم إلا أياما معدودة ، لأن لهم الجاه والتأثير يوم القيامة ، ولا يرضون أن يتركوا أبناءهم في العذاب ، ثم زادوا على ذلك شفاعة الأجبار لمن ينتسب إليهم . ومتى ضعف الدين يوجد من رؤسائه من يروج هذه العقائد في العامة لما تسوق اليهم من المنافع . وكذلك كان اليهود حتى جاء الاسلام بهذه الآية وأمثالها فحما هذه العقيدة ليعلم المؤمنون به أنه لا ينفع الانسان يوم القيامة إلا مرضاة الله تعالى بالايمان الخالص والعمل الصالح

في القرآن آيات ناطقة بنفي الشفاعة مطلقة، كقوله تعالى في وصف يوم القيامة (لا يبع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وأخرى ناطقة بنفي منفعة الشفاعة ، كقوله عز وجل (٤٨:٧٤ فما تدفعهم شفاعة الشافعين) وآيات تفيد النفي بمثل قوله (٢٥٥:٢) إلا بإذنه وقوله (٢٨:٢١) إلا لمن ارتضى) فمن الناس من يحكم الثاني بالأول ومنهم من يرى أنه لا منافاة بينهما فاحتاج إلى حمل أحدهما على الآخر لأن مثل هذا الاستثناء (أي الاستثناء بالإذن والمشيئة) مبهود في أسلوب القرآن في مقام النفي القطعي للشعار بأن ذلك بإذنه ومشيئته عز وجل ، كقوله تعالى (٧٦:٨٨) سقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله وقوله (١٠٧:١١) خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك) فليس في القرآن نص قطعي في وقوع الشفاعة ولكن ورد الحديث بإثباتها فما معناها ؟

الشفاعة المعروفة عند الناس هي أن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل أو ترك كان أراد غيره - حكم به أم لا - فلا تتحقق الشفاعة إلا بترك الارادة وفسخها لأجل الشفيع . فأما الحاكم العادل فانه لا يقبل الشفاعة إلا إذا تغير علمه بما كان أراد أو حكم به ، كأن كان أخطأ ثم عرف الصواب ورأى أن المصلحة أو العدل في خلاف ما كان يريد أو حكم به . وأما الحاكم المستبد الظالم فانه يقبل شفاعة المقربين عنده في الشيء ، وهو عالم بأنه ظلم وأن العدل في خلافه ، ولكنه يفضل مصلحة ارتباطه بالشافع المقرب منه على العدالة . وكل من النوعين محال على الله تعالى ، لأن إرادته تعالى على حسب علمه وعلمه أزلي لا يتغير

(قال شيخنا) فما ورد في إثبات الشفاعة يكون على هذا من المتشابهات وفيه يقضى مذهب السلف بالتفويض والتسليم ، وأنما مزية يختص الله بها من يشاء

يوم القيامة عبر عنها بهذه العبارة « الشفاعة » ولا نحيط بحقيقتها مع تنزيه الله جل جلاله عن المعروف من معنى الشفاعة في لسان المتخاطب العرفي .
وأما مذهب الخلف في التأويل فلما أن نحمل الشفاعة فيه على أنها دعاء يستجيبه الله تعالى ^(١) والأحاديث الواردة في الشفاعة تدل على هذا في رواية الصحيحين وغيرهما أن النبي ﷺ يسجد يوم القيامة ويثنى على الله تعالى بثناء يلهمه يومئذ فيقال له « ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع » وليس في الشفاعة بهذا المعنى أن الله سبحانه يرجع عن إرادته كان أرادها لأجل الشافع وإنما هي إظهار كرامة للشافع بتنفيذ الإرادة الأزلية عقيب دعائه ، وليس فيها أيضاً ما يقوى غرور المغرورين الذين يتهافتون بأوامر الدين ونواهيه اعتماداً على شفاعة الشافعين ، بل فيه أن الأمر كله لله ، وأنه لا ينفع أحد في الآخرة إلا طاعته ورضاه (فانتفعهم شفاعة الشافعين * فما لهم عن التذكرة معرضين ؟) (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)

(٤٨) وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَدَبُّونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

هذه الآية كالتى قبلها واللواتى بعدها تفصيل لنعمة الله على شعب إسرائيل التى ذكرت من قبل مجلدة ، وابتدىء التفصيل بذكر التفضيل لما تقدم من الحكمة فى ذكره ، وهو نهوض الهممة إلى التخلق بالأخلاق الفاضلة والترفع عن الرضا بما دون المقام الذى رفعهم الله إليه ، وتوطئ النفس لقبول الموعدة الخ ما تقدم . ثم ذكرهم بما حل بهم من البلاء والعقوبات جزاء على جرائمهم ، وبلطف الله تعالى بهم وإنجائهم من البلاء وتوبته عليهم المرة بعد المرة ليعرفهم مقدار فضله وعقوبته معاً والآية معطوفة على ما قبلها من سلسلة الذكريات فقوله * وإذ نجيناكم من

آل فرعون * عطف تفصيل على الاجمال فى قوله (اذكروا نعمتى) أى نعمى الكثيرة ، لأن الفرد المضاف يفيد العموم ، أى اذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون

وفرعون لقب لمن تولى ملك مصر قبل البطالسة ، وآله خاصته ، وقد يطلق على قومه قدماء المصريين . ولما كانت التنجية لا تكون إلا من ظلم أو شر بين مانحهم منه بقوله ﴿ يسوءونكم سوء العذاب ﴾ أى يكلفونكم ويبيغونكم ما يسوءكم وبذلك من العذاب ، ثم بين ذلك بقوله ﴿ يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ أى يقتلون ذكرا نسلهم ويستبقون إنثائه أحياء لاضعافكم وإذلالكم المفضى إلى قطع نسلهم وإبادتكم ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أى وفى ذلكم العذاب وفى التنجية منه — فى كل منهما — بلاء وامتحان عظيم لكم من ربكم ، كما قال فى آية أخرى (٧ : ١٦٨) وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون)

(قال الأستاذ الامام) فى هذه الآية بعد قراءة عبارة الجلال ما مثاله :
خاطب الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ بما كان لأبائهم . لأن الانعام على أمة بعنوان أنها أمة كذا ، هو إنعام شامل للأمة من أصابه ذلك الإنعام من أفرادها ومن لم يصبه ، ويصح الامتنان به على اللاحقين منهم والسابقين . كما يصح الفخر به منهم أجمعين ، كما أن الانعام على شخص بشئ يختص بعضو من أعضائه كلبوس يلبسه ، أو لذيذ طعام يطعمه ، يكون إنعاماً على الشخص ، ولا يقال : إنه إنعام على لسان فلان ولا على رأسه ، أو يده أو رجله ؛ ولأن ما وصل إلى مجتمع بعنوان ذلك الاجتماع والرابطة التى ربطت أفرادهم بعضهم ببعض يكون له أثر فى مجموع الأفراد ، لا سيما إذا كان الواصل من نعمة أو نعمة مسبباً عن عمل الأمة . شراً أو خيراً ، ويكون لذلك أثر فى الأمة يورثه السلف الخلف ما بقيت الأمة . وأنواع البلاء التى ذكرها اليهود فى القرآن كانت لشعب إسرائيل من حيث هو شعب إسرائيل لأن الجرائم التى كان البلاء عقوبة عليها إنما كانت من مجموع الشعب . من حيث هو شعب إسرائيل ، ثم إن الله تعالى كان يتوب على الشعب بعد كل بلاء ويفيض عليه النعم . فتكون العقوبة تربية وتعلماً تفيد المعتبرين بها نعمة وسعادة .

لا أقول إن هذا الخطاب إيماء أو إشارة للمخاطبين بأن يستحضروا تاريخ أمتهن الماضى ليتذكروا صنع الله تعالى فيهم فيعتبروا بما أصابهم من نعماء وضراء . وسعادة وشقاء ، ويفكروا فيما حل بهم من بعدهم ، وما ينتظر أن يحل بهم ، وإعنا

الكلام نص صريح لا يحتاج إلى التأويل . فالروابط الاجتماعية بين أفراد الأمم وجماعاتها كالروابط الحيوية بين أعضاء الشخص الواحد بلا فرق . تعتبر الرجل فتعبدش أو توثأ ، والألم يلم بالشخص كله من حيث هو شخص حي بحياة واحدة تستوى فيها رجله وسائر أعضائه ، ولذلك يسعى بجملته لإزالة ألم الرجل ويتوق أسباب العثار بعد ذلك مستعيناً بكل أعضائه وقواه .

علمنا الله تعالى هذا بما قص علينا من أخبار الأمم . وأنعم على أمتنا - التي لا تختص بشعب ولا جنس - بهذا القرآن الكريم فكان لهم به نعم لا تحصى تعرف من الكتاب والسنة . منها أنهم كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً ومنها أنهم كانوا مستضعفين فسكن لهم في الأرض وأورثهم أرض الشعوب القوية وديارهم وجعل لهم السلطان عليهم ، ومنها أنه جعلهم أمة وسطاً لا تفرط عندها ولا إفراط ، ليكونوا شهداء على الناس الذين غلوا وأفرطوا ، والذين قصرُوا وفرطوا . ثم لما كفرت بأنعم الله أنزل بها ألواناً من البلاء والنقم بعنوان الأمة . فإن التتار إنما نكلوا بها وتبرؤا ما علوا تتبيراً لأنها الأمة الإسلامية ، ثم زحف عليها الغربيون أيام حروب الصليب وجاسوا خلال الديار . لأنها الأمة الإسلامية ، ثم إن القتل لا تزال تحل بديارها ، وتنقصها من أطرافها ، وسوط عذاب الله يصب عليها بعنوان الأمة الإسلامية ، وقد مرت عليها قرون وهي لا تعتبر بما مضى ، ولا تتربى بما حضر ، بل جهلت الماضي فحارت في الحاضر ، لا تعرف سببه ولا المخرج منه .

أليس من العجيب أن الجمهور الأعظم من المشتغلين بالعالم منها هم أجهاها بتاريخها ، لا يعرفون شيئاً من ماضيها ولا حاضرها ؟ ولكنهم يعترفون بأن الأمة في بلاء كبير ، ويعتذرون بالقضاء والقدر عن معرفة الأسباب ، ويكونون إلى القضاء والقدر النجاة منه أو البقاء فيه .

إن هذه الأمة أمة واحدة وإن اختلفت ديارها وتعددت أجناسها ، ولا يمكن أن تعرف حقيقتها إلا بعد معرفة تاريخها الماضي ، فلا بد من تتبع السواق والجداول إلى ينبوع الأول الذي هو الأصل .

كان سلفنا رضى الله تعالى عنهم يضبطون أحوال من قبلهم من أمور الدين والدنيا

بكل اعتناء ودقه، حتى كانوا يروون البيت من الشعر أو النكتة بين العاشق وممشوقه بالأسانيد المتصلة ، وليست هذه المبالغة مما يؤخذ عليهم فإن الأمة إنما تكون أمة بدينها ولغتها وأخلاقها وعاداتها ، فإذا لم يحفظ خلفها عن سلفها هذه المقومات (١) يحفظ تاريخها تكون عرضة للتغير بتأثير حوادث الزمان وتقلبات شئون الاجتماع مع جهل المتأخر بما كان عليه المتقدم وبكيفية حدوث التغير الضار للجهل بالتاريخ . بهذا تفعل فواعل السكون بالأمة الجاهلة أفاعيلها حتى تقلب كيائها ، وتقوض بنيانها ، وتقطع عرى الربط العامة بين أفرادها ، فلا يكون لهم عمل إلا المصلحة الشخصية ، وهي لا حفاظ لها في مجموع الأمة إلا بالمصلحة العامة ، فإذا أهملت تكون الأمة من الهالكين .

عنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة فلم تكتف بضبط الوقائع وتلقاها بالرواية كالسنة النبوية ؛ بل تفننت فيها فصنفت في تاريخ الأشخاص كما صنفت في تاريخ البلاد والشعوب ، ثم نوعت تاريخ الأشخاص فجعلت لكل طبقة تاريخاً ففترى في المكاتب طبقات المفسرين وطبقات المحققين وطبقات النحويين وطبقات الأطباء وطبقات الشعراء إلى غير ذلك . ثم اهتدى بعضهم إلى استنباط قواعد العمران وأصول الاجتماع من التاريخ فصنف ابن خلدون في ذلك مقدمة تاريخه . ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك العهد لكنا أعمى ما بدأ به سلفنا ولكنا تركناه وسبقنا غيرنا إلى إتمامه واستناره . فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هي فيه من سعة العمران . وعزة السلطان ؛ وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم منه ، وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلى ذلك . فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة أهمل التاريخ بل صار ممقوتاً عند أكثر المشغولين بعلم الدين ، فإن وجد من يلتفت إليه فإما يكون متبعاً في ذلك سنة قوم آخرين ،

(١) المراد بالمقومات : ما به قوام الأمة من صفاتها التي تفصلها عن غيرها كمقومات الفضول لأنواع الجنس في اصلاح المنطق ، وقد سبقت الى استعمال هذا الاصطلاح في شئون الأمم هنا وفي المنار فيما أعلم ثم استعمله الكتاب

نكتفى الآن بهذا التنبيه ونعود إلى إتمام تفسير الآية التي صرفنا إليه بمخاطبة بنى إسرائيل في زمن تنزيل القرآن بما كان من تعذيب آل فرعون لسلمهم وانعام الله عليهم بالإنجاء من ذلك العذاب .

أول من دخل مصر من بنى إسرائيل هو يوسف عليه السلام وانضم إليه بعد ذلك إخوته ونما نسله ونسلمهم فيها وكثر، حتى قيل : إنهم كانوا يوم خرجوا من مصر ستمائة ألف وهذا النمو كان في مدة أربع مائة سنة . وكان المصريون من آل فرعون لا يحبون مساكنة الغرباء ^(١) فلما رأى فرعون نمو شعب إسرائيل خاف مغبة الأمر ، لأنه كان يعلم أنهم إذا كثروا يتبسطون في الأرض ويواجهون المصريين فطفق يستذلهم ويكلفهم الأعمال الشاقة ، كصنع الطوب لبناء الهيكل والبرابي لعله بأن الذل يقلل النسل ويقتضى بالأمة إلى الانقراض ، ولكنهم ظلوا مع الاستدلال يتناسلون ويكثرون . فلما رآهم الحكام المصريون يزدادون نسلا ، وأنهم مع هذا محافظون على عاداتهم وتقاليدهم ولا يمازجون المصريين وعندهم الأثرة والإياء لا اعتقادهم أنهم شعب الله وأفضل خلقه ، خافوا أن يقووا بالكثرة فيعدوا عليهم ويغلبوهم على بلادهم كلها أو بعضها ، وإنما كانوا يزدادون على الذل نسلا لأن الذل لا يؤثر إلا في الزمن الطويل ، ذلك بأن الدليل الذي لا تطلق إرادته في أعماله هو

(١) يوجد في المصريين الآن من يكتب ويخطب لأحياء سنة آل فرعون يبعث المهاجرين إلى مصر ويبغض فيهم وإن كانوا على لغته ومن أتباع حكومته العثمانية ، وكذا من أهل الدين الذي ينتمى إليه . ويوجد شذوذة من المصريين تلغظ بلفظ المصريين والدخلاء ، اتخذوا بالدعوة إلى السنة الفرعونية التي تبطل إذا نجحت «ولن تنجح» سنة القرآن الذي أرشد إلى أن الله جعل الناس شعوبا وقبائل ليتعارفوا و يمازجوا وجعل أكرمهم ألقاهم وأنفعهم لعباده ، وقد اهتدى فلاسفة أوروبا إلى أن هذه السنة غاية كمال البشر اه من حاشية المنار سنة ١٣٢٠ وأقول الآن عند طبع هذا مستقلا في أوائل سنة ١٣٤٦ : إن تلك النزعة قد قويت ووجد من القبط وزنادقة المسلمين من يحملون الجنسية المصرية فوق الاسلام ومنهم من يدعون إلى التفصى من الدين والجنسية العربية وإلى استبدال التفرنج بهما كما فعل الكماليون في الترك .

بمنزلة الشخص الذى يضعف عن تناول الغذاء الذى يمد حياته فهو يذبل ويبدأ
 رويدا حتى ينحل ويموت . والقوة المعنوية التى تحفظ حياة الأمم هى قوة الأرواح
 والارادات ، لأن الجسم محمول بالروح . والعمل النافع إنما يكون بالإرادة فتى
 خذلت النفوس بالتسلط على إرادتها تبعها الجسم فيضعف بضعفها ، والضعيف يأتى
 بفتاح ضعيف ويكون نسل نتاجه أضعف من نسله ، ويتسلل هكذا حتى يكون من
 لوازم ضعف النسل إسراع الموت إلى صغاره قبل بلوغ سن الرشد . وبهذا ينقرض
 النسل ، كما حصل لهنود أمريكا وسكان شمالي أستراليا .

استبطأ المصريون أثر الاستدلال فى الإسرائيليين فعملوا على انقراضهم بقتل
 ذكرانهم واستحياء إناثهم فأمر فرعون القوابل بأن يقتلن كل ذكر لبنى إسرائيل
 عند ولادته ، لأن من سنة الله فى الخلق أن قوام الشعوب والقبائل وحفظ الأجناس
 إنما يكون بالذكور . وقال مفسرنا (الجلال) تبعا لغيره إن سبب العذاب وتقتيل
 الأبناء دون البنات هو أن بعض الكهنة أخبر فرعون بأن سيولد من بني اسرائيل
 ولد ينزع منه ملكه ويكون على يديه هلكه (قال الأستاذ الإمام) وليس لهذا
 القول سند صحيح ولا يعرف فى التاريخ ، وما قلناه هو الذى يعرفه بنو اسرائيل
 ويتناقلونه فى كتبهم المعروفة بالمقدسة وغير المقدسة وهو المعقول فى نفسه أيضا

(٥٠) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ
 وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥١) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ
 الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥٢) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 لَكُمْ تَسْكُرُونَ (٥٣) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ
 لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

جاء فى الآية السابقة ذكر تنجية بني اسرائيل من آل فرعون ، وهو على

كونه تفصيلاً لما قبله من حيث التذكير بالنعم ، مجمل من حيث الانجاء ، فانه يشمل النجاة بجميع أنواعها من ذلك العذاب . وذكر في هذه الآية نعمته في طريق الانجاء بالتفصيل بعد الإجمال ليبين عناية الله تعالى بهم فيها ، إذ جعل وسيلته من خوارق العادات ، وجعل في طريقه هلاك عدوهم . وقد يقال : إن هذه نعمة مستقلة من نعمه تعالى عليهم ، لا أنها بيان الإجمال في التي قبلها .

لما أرسل الله تعالى موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه يدعوه إلى توحيد الله وإلى أن يخلى بينه وبين شعب إسرائيل بعد إطلاقهم من ذلك الاستعباد والتعذيب لم يزد فرعون إلا تعديداً وتعبيداً . وفي سفر الخروج من تاريخ التوراة أن الله تعالى أنبأ موسى بأنه يقسى قلب فرعون فلا يخفف العذاب عن بني إسرائيل ولا يرسلهم مع موسى حتى يريه آياته . وأنه بعد الدعوة زاد ظمها وعتواً فأمر الذين كانوا يسخرون بني إسرائيل في الأعمال الشاقة بأن يزيدوا في القسوة عليهم وأن يمنعهم التبن الذي كانوا يعطونهم إياه لعمل اللبن (الطوب) . ويكلفهم أن يجمعوا التبن ويعملوا كل ما كانوا يعملونه من اللبن لا يخفف عنهم منه شيء . فأعطى الله تعالى موسى وأخاه هارون الآيات البينات ، فحاول فرعون معارضتها بسحر السحرة فلما آمن السحرة برب العالمين رب موسى وهارون أعلمهم أن ما جاء به ليس من السحر وإنما هو تأييد من الله تعالى ورأى مارأى بعد ذلك من آيات الله لموسى سمح بخروج بني إسرائيل بل طردهم طرداً ، وفي سفر الخروج أنهم خرجوا في شهر أبيب وكانت إقامتهم في مصر ٤٣٠ سنة . ثم أتبعهم فرعون بجنوده فغشبهم من اليم ماغشبهم وأنجى الله بني إسرائيل وأغرق فرعون ومن معه ، وذلك قوله عز وجل :

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ﴾ أي واذكروا من نعمنا عليكم إذ فرقنا بكم البحر فجعلنا لكم فيه طريقاً يسيراً سلكتموه في هر بكم من فرعون ﴿ فَأَنجَيْنَاكُم ﴾ بعبوره من جانب إلى آخر ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ إذ عبروا وراءكم ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ذلك بأعينكم ، ولولا لعظم عليكم خبر غرقهم ولم تصدقوه .

(قال الأستاذ الإمام) فلق البحر كان من معجزات موسى . وقد قلنا في رسالة التوحيد : إن الخوارق الجائرة عقلاً أي التي ليس فيها اجتماع النقيضين ولا

ارتفاعها لامانع من وقوعها بقدرة الله تعالى على يد نبي من الانبياء، ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها، ولا يمتنعنا هذا الإيمان من الاهتداء بسنن الله تعالى في الخلق واعتقاد أنها لا تتبدل ولا تتحول، كما قال الله في كتابه الذي ختم به الوحي، على لسان نبيه الذي ختم به النبيين، فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال، كما كان في سن الطفولية (النوعية) بل أرشد تعالى بالوحي الأخير (القرآن) إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي، ثم جعل له كل ارشادات الوحي مبينة معللة مدللة حتى في مقام الأدب (كما أوضحنا ذلك في رسالة التوحيد) فإيماننا بما أيد الله تعالى به الانبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان، لا ينافي كون ديننا هودين العقل والفطرة وكونه حتم علينا الإيمان بما يشهد له العيان، من أن سننه تعالى في الخلق لا تتبدل لها ولا تحوّل.

(أقول) وجملة القول أن الذي يمتعه العقل هو وقوع الحلال، فلا يمكن أن يؤيد نبي بما هو مستحيل عقلا، لأن المستحيل هو الذي لا يمكن وقوعه وما وقع لا يكون مستحيلا. ولذلك سمي المشككون المعجزات «خوارق العادات» ومنهم من يقول: إن لها أسبابا خفية روحية لم يطالع الله الامم عليها ولكنه خص بها الانبياء عليهم السلام. والمشهور: أن الله يخلقها بغير سبب لتدل على أن السنن والنواميس لا تحكم على واضعها ومدبرها، وإنما هو الحاكم المتصرف بها، وإنما كان هذا هو المشهور لأنه الظاهر، والافمن ذا الذي يستطيع أن ينفي ذلك النفي المطلق عن عالم الغيب؟ وقد ذكر القولين الإمام الغزالي وأشار إليهما الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد (قال) وزعم الذين لا يحبون المعجزات من المتهورين أن عبور بني إسرائيل البحر كان في إبان الجزر، فإن في البحر الأحمر رقارق إذا كان الجزر الذي عهد هناك شديدا يتيسر للانسان أن يعبر ماشيا ولما اتبعهم فرعون بجنوده ورآهم قد عبروا البحر تأثرهم وكان المد تفيض ثوابه (وهي المياه التي تجىء عقيب الجزر) فلما نجا بنو إسرائيل كان المد قد طغى وعلا حتى أغرق المصريين، تحقق إنعام

الله على بني إسرائيل يتم بهذا التوفيق لهم والخذلان لعدوهم ولا ينافي الامتنان به عليهم كونه ليس آية لموسى عليه السلام، فان نعم الله بغير طريق المعجزات أعم وأكثر - كذا قالوا ، قال شيخنا: ولكن يدل على كونه آية له وصف كل فرق من الطود العظيم . وإذا تيسر تأويل كل آيات القصة من القرآن فإنه يتعسر تأويل قوله تعالى في سورة الشعراء (فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم) وهو الموافق لما في التوراة ١ هـ

ويقول المؤلفون إنهم لما عبروا انفرق بهم وكانوا لاستعجالهم واتصال بعضهم ببعض قد جعلوا ذلك الماء القارق فرقين عظيمين ممتدين كالطودين وأن هذه الآية تشعر بذلك، فإنه يقول (وإذا فرقنا بكم البحر) ولم يقل: فرقنا لكم البحر: والظاهر أن الباء هنا للآلة، كما تقول قطعت بالسكين : وأما قوله تعالى (٦٣: ٢٦) وأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق) فإنه لا ينافي أن الانفلاق كان بهم كما في آية البقرة لآل عصا، وذلك أن الذي أوحاه الله تعالى إلى موسى هو أن يخوض البحر ببني إسرائيل وقد عهد أن من كان بيده عصا إذا أراد الخوض في ماء كثرعة أو نهر فإنه يضرب الماء أولاً بعصاه ثم يمشى، فهذه الآية معبرة عن هذا المعنى أى ألهمه الله عند ما وصل إلى البحر أن يضربه بعصاه ويمشى ففعل وشمى وراءه بنو إسرائيل بجمعهم الكبير، فانفلق بهم البحر . وأما قوله تعالى (فكان كل فرق كالطود العظيم) فهو تشبيه معهود مثله في مقام المبالغة ، كقوله تعالى (٤٢: ١١) وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) وقوله (٣٢: ٤٢) ومن آياته الجوارى فى البحر كالاعلام) فالأمواج والسفن الجوارى لا تكون كالجبال الشاهقة ، والاعلام الباسقة ، وإنما تقضى البلاغة بمثل هذا التعبير ، لكمال التصوير وإرادة التأثير هذا ما ينتهى إليه تأويل المؤلفين ولم يبسطه الاستاذ الإمام فى الدرس ، وإنما قرر أن فرق البحر كان معجزة لموسى عليه السلام، وحكى عن المتهورين من الذين لا يحبون المعجزات خلافه ، وهو أنهم يزعمون أن عبور البحر كان فى وقت الجزر وإنما بسطنا تأويلهم لثلاثتهم هو أننا لم نقل به لأننا لم نبتد لتوجيهه مثلهم . ولا يهنا أن ننازعهم فى تأويل آية بخصوصها إذا علمنا أنهم يثبتون الآيات الكونية تأييداً

للأنبياء عليهم الصلاة والسلام . فإذا كانوا ينفونها كلها فالأولى لهم أن لا يتعمبوا .
 في تأويل جزئياتها ، فان منها مالا يقبل التأويل بحال من الأحوال ، وحينئذ يكون
 الكلام بيننا وبينهم لاثباتها أولاً في قدرة الله وإرادته ، ثم في إثبات أصل الوحي
 وإرسال الرسل . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . ولنا أن نقول هنا :
 إن الباء في قوله « بكم » سببية أو للملابسة لا للآلة ، وقد أشار البيضاوي إلى ذلك
 كله بقوله : فلقناه وفصلنا بين بعضه وبعض حتى حصلت فيه مسالك لسلوككم فيه
 أو بسبب إنجائكم أو متلبساً بكم . وأزيد الآن : أني رأيت بعد كتابة ماتقدم
 بيضع سنين جزءاً من تفسير الاصباح في خزانة كتب كوبرلي باشا في الأستانة
 فراجعت تفسير هذه الآية فيه فالفيتة يذكر في الباء الوجهين ، أي إن فرق البحر
 حصل بهم ، أي بنفس عبورهم أو بسببهم . ومثله قول البغوي : قيل معناه فرقناه
 لكم ، وقيل : فرقنا البحر بدخولكم إياه

قال الأستاذ الامام بعد أن قرر نعمة الانجاء من استعباد الظالمين ، والبعث من
 فتنه القوم الضالين : ذكر النعمة التي وليتها ، وذكرهم بما كان من كفرهم إياها ، فقال
 ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ وقد كانت هذه المواعدة لأعطائه التوراة . ولما
 ذهب لميثقات ربه استبطئوه فالتخذوا عجلاً من ذهب فعبدوه كاهو مفصل في غير هذه
 السورة ، وسأتي هناك تفسيره إن شاء الله تعالى (والمراد هنا التذكير بالنعمة
 وبيان كفرها ، ليظهر أن تكذيبهم بمحمد ﷺ ومعاندته ليس ببدع من أمرهم ،
 وإنما هو معهود منهم مع رؤية الآيات وبعد اغداق النعم عليهم ، ولذلك اكتفى
 بالإشارة إليه بقوله ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ أي اتخذتموه إلهاً
 وعبوداً ، أو بعد أن ذكرهم بذلك الظلم ذكرهم بتفضله عليهم بالتوبة ثم بالغفو
 الذي هو جزاء التوبة فقال ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾
 هذه النعمة بدوام التوحيد والطاعة

ثم قفى على هذا بذكر إيتائهم الكتاب وهو المنة الكبرى فقال ﴿ وإذ آتينا
 موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾ قال المفسر « الجلال » كغيره : إن

الفرقان هو التوراة وقال بعض المفسرين: إن الفرقان هو ما أوتيته موسى من الآيات والمعجزات . وقال الاستاذ الامام بعد حكاية القولين : ولكن ذكره بعد الكتاب معطوفاً عليه دليل على أن المراد به ما في الكتاب من الشرائع والاحكام المفرقة بين الحق والباطل والحلال والحرام ، ومعنى قوله ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أى ليعيدكم بهذا العفو للاستمرار على الشكر ويعيدكم بهذه الاحكام والشرائع للاهتداء ويهيئكم للاسترشاد فلا تقعوا فى وثنية أخرى ، وإن من كمال الاستعداد للهداية بفهم الكتاب أن يعرفوا أن ما جاء به محمد ﷺ هو هدى ونور يرجعهم إلى الأصل الذى تفرقوا عنه واختلفوا فيه ، وكذلك اهتدى به منهم المستبصرون ، وجاحده الرؤساء المستكبرون ، والمقلدون الذين لا يعقلون

(٥٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُومِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٥) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٦) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٧) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى : كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

فى هذه الآيات ضرب من ضروب التذكير غير ماسبقه ، ومن البلاغة والحكمة أن يجنى تالياله ومتأخراً عنه : مهد أولاً للتذكير تمهيداً يسترعى السمع : ويوجه الفكر ويستميل القلب ، وهو الابتداء بذكر النعمة مجلة والتفضيل على العالمين ولا يرتاح الانسان لحديث كحديث مناقب قومه ومفاخرهم - ثم طفق يفصل النعمة ويشرحها ، فبدأ بذكر فرد من أفرادها لا يفتقر به ذكر سيئة من سيئاتهم وهو تنجينهم من ظلم آل فرعون ، ولكن ذكر معه أكبر ضروب ذلك الظلم وهو قتل

الآبناء - : يحفض من عتو تلك النفوس المعجبة المتكبرة التي تعتقد أن الله لا يسود عليهم شعباً آخر ، وهو مع هذا لا ينفربها عن الاصغاء والتدبر ، لأنه لم يفاجئها بشيء فيه نسبة التقصير وعمل السوء إليها . ثم نفي بذكر نعمة خاصة خالصة تسكن النفس إلى ذكرها ، إذ لا يشوب الفخر بها تنغيص من تذكر غضاضة تنصل بواقعتها ، وهي فرق البحر بهم ، وانجائهم ، واغراق عدوهم .

لا جرم أن نفوس الاسرائيليين كانت تهتز وتأخذها الأريحية عندما تلا عليهم النبي ﷺ هذه الآية لما فيها من الشهادة بعناية الله تعالى بهم ، ولا سيما إذا قارنوا بين هذا التذكير وبين تذكير مشركي العرب بتلك القوارع الشديدة ، لم يتركها بعد هذه الهزة فجمع في عجبها وفخرها ، وتنادى في إياها وزهوها ، بل عقب عليها فذكر بعد هذه النعمة سيئة لهم هي كبري السيئات التي ظلموا بها أنفسهم وكفروا نعمة ربهم وهي اتخاذ العجل لها ، وقدم على ذكرها خبر مواعدة موسى وهي من النعم ، وختمها بذكر العفو ، ثم قفى عليها بذكر نعمة إيتائهم الكتاب والفرقان وهذا ما يجعل أنفس السامعين الواعين قلقلة يتنازعها شعور اعتراف المذكر الواعظ لها بالشرف ، وشعور رمية إياها بالظلم والسرف .

بعد هذا كله استعدت تلك النفوس لأن تسمع آيات مبدوءة بذكر سيئاتها من غير تهديد ولا توطئة ، فانتقل الكلام إلى هذا الضرب من التذكير مبدوء بقوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه ﴾ أى واذكر أيها الرسول فيما تلقيه على بني اسرائيل وغيرهم إذ قال موسى لقومه الذين اتخذوا من حلبيهم عجلاً عبوده إذ كان يناجي ربه في الميقاتين الزماني والمكاني ﴿ يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ إلهاً عبدتموه . والقصة مفصلة في سورتي الأعراف وطه المكييتين لأن قصة موسى فيهما مقصودة بالذات ، وأما ما هنا فهو تذكير لبني اسرائيل بما تقدم وجهه في سياق دعوتهم إلى الإسلام ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ﴾ أى فتوبوا إلى خالقكم الذى لا يجوز أن تعبدوا معه إلهاً آخر هو أدنى منكم ، وهو من خلقكم : أى تقديركم وصنعكم ، وذلك بأن يقتل بعضكم بعضاً ، فإن قتل المرء لأخيه كقتله لنفسه ، ويحتمل اللفظ أن يكون معناه ليعبذ كل من عبد العجل نفسه انتحاراً .

تكلم الأستاذ الامام فى التوبة وقال : إنها محو أثر الرغبة فى الذنب من لوح القلب ، والباعث عليها هو شعور التائب بعظمة من عصاه وماله من السلطان عليه فى الحال ، وكون مضره إليه فى المآل ، لا جرم أن الشعور بهذا السلطان الالهى بعد مقارفة الذنب يبعث فى قلب المؤمن الهيبة والخشية ويحدث فى روحه انفعالا مما فعل وتندما على صدره عنه ، ويزيد هذا الحال فى النفس تذكر الوعيد على ذلك الذنب ، وما رتبته الله عليه من العقوبة فى الدنيا والآخرة . هذا أثر التوبة فى النفس ، وهذا الأثر يزعم التائب إلى القيام بأعمال تضاد ذلك الذنب الذى تاب منه وتمحو أثره السيئ (١١ : ١١٤ إن الحسنات يذهبن السيئات) فمن علامة التوبة النصح : الإتيان بأعمال تشق على النفس وما كانت لتأنيها لولا ذلك الشعور الذى يحدثه الذنب . وهذه العلامة لا تتخلف عن التوبة سواء كان الذنب مع الله تعالى أو مع الناس . ألا ترى أن أهون ما يكون من إنسان يذنب مع آخر يباهى به أن يجىء معترفا بالذنب معتذرا عنه ؟ وهذا ذل يشق على النفس لا محالة ، وقد أمر بنو اسرائيل بأشق الأعمال فى تحقيق التوبة من أكبر الذنوب ، وهو الرغبة عن عبادة من خلقهم وبرأهم إلى عبادة ما عملوا بأيديهم وقد قال (فتوبوا إلى بارئكم) لينبئهم إلى أن الاله الحقيقى هو الخالق البارئ . ليتضمن الأمر الاحتجاج عليهم والبرهان على جهلهم . ذلك العمل الذى أمرهم به موسى هو قتل أنفسهم . والقصة فى التوراة التى بين أيديهم إلى اليوم : دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب ، فأجابته بنو لاوى فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضاً ففعلوا ، وقتل فى ذلك اليوم « نحو ثلاثة آلاف » وقال مفسرنا (الجلال) كعبه إن الذين قتلوا سبعون ألفاً والقرآن لم يعين العدد ، والعبرة المقصودة من القصة لا تتوقف على تعيينه فنمسك منه . كذا قال الأستاذ الامام ، وهذا مذهبه فى جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعى لا يتعداه ، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواء

قال تعالى ﴿ ذلکم خیر لکم عند بارئکم ﴾ * لأنه يظهرهم من رجس الشرك الذى دنسهم به أنفسهم ويجعلهم أهلاً لما وعدكم به فى الدنيا ولثوبته فى الآخرة

وقوله ﴿فتاب عليكم﴾ من كلام الله تعالى لاتمة الكلام موسى عليه السلام في الظاهر وهو معطوف على المحذوف تقديره ففعلتم ما أمركم موسى به فتاب عليكم ﴿إنه هو الثواب الرحيم﴾ أى إنه هو وحده الكثير التوبة على عباده بنو فبقهم لها وقبولها منهم ، وإن تعددت قبلها جرائمهم ، الرحيم بهم ، ولولا رحمة لعجل بأهلهم ببعض ذنوبهم الكبرى ولا سيما الشرك به .

﴿وإذ قلتم يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جرة﴾ أى واذا كروا إذ قلتم لنبيكم يا موسى لن نصدق بما جئت به تصديق إذعان واتباع حتى نرى الله عيانا جرة فيأمرنا بالإيمان لك ﴿فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾ أى فأخذت القائلين ذلك منكم الصاعقة وأنتم تنظرون ذلك بأعينكم . وسياق بيان هذا بالتفصيل فى سورة الأعراف ، فالقصة هنالك مقصودة بكل ما فيها من فائدة وعبرة ، وإنما المراد بها هنا التذكير كما تقدم .

قال الأستاذ الإمام : سؤال بنى اسرائيل رؤية الله تعالى واقعة مستقلة لاتصل بمسألة عبادة العجل وهى معروفة عند بنى اسرائيل ومنصوصة فى كتابهم وذلك أن طائفة منهم قالوا لما إذا اختص موسى وهارون بكلام الله تعالى من دوننا . وانتشر هذا القول فى بنى اسرائيل ونجراً جماعة منهم بعد موت هارون وهاجوا على موسى وبنى هارون وقالوا لهم إن نعمة الله على شعب اسرائيل هى لأجل إبراهيم واسحاق فتشمل جميع الشعب ، وقالوا لموسى لست أفضل منا فلا يحق لك أن ترفع وتسود علينا بلا مزية ، وأنتا لن تؤمن لك حتى نرى الله جرة . فأخذهم إلى خيمة العهد فانشقت الأرض وابتلعت طائفة منهم وجاءت نار من الجانب الآخر فأخذت الباقين ، وهذه النار هى المعبر عنها هنا بالصاعقة ، وهل نمة من نار غير الاشتعال بالكهرباء وهو ما تحدثه الصاعقة التى تحدث الانشقاق فى الأرض أيضاً ؟ وقد أخذ هذا العذاب تلك الطائفة والآخرين ينظرون ، وهكذا كان بنو اسرائيل يتمردون ويعاندون موسى عليه السلام وكان سوط عذاب الله

يصب عليهم، فرموا بالأمراض والأوبئة وسلطت عليهم الهوام وغيرها حتى أماتت منهم خلقاً كثيراً . فجأحتهم ومعاندهم للنبي ﷺ لم تكن بدعا من أعمالهم قال تعالى ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ ذهب الأستاذ الإمام إلى أن المراد بالبعث هو كثرة النسل أى أنه بعد ما وقع فيهم الموت بالصاعقة وغيرها وظن أن سيدنقرضون بارك الله في نسلهم ليعبد الشعب بالبلاء السابق للقيام بحق الشكر على النعم التي تتمتع بها الآباء الذين حل بهم العذاب بكفرهم لها .

والعبرة الاجتماعية في الآيات أن الخطاب في كل ما تقدم كان موجهاً إلى الذين كانوا في عصر التنزيل ، وأن الكلام عن الأبناء والآباء واحد لم يختلف فيه الضمائر حتى كأن الذين قتلوا أنفسهم بالتوبة والذين صعدوا بعد ذلك هم المطالبون بالاعتبار والشكر ، وما جاء الخطاب بهذا الأسلوب إلا لبيان معنى وحدة الأمة واعتبار أن كل ما يبلوها الله به من الحسنات والسيئات وما يجازيها به من النعم والنعيم إنما يكون لمعنى موجود فيها يصحح أن يخاطب اللاحق منها بما كان للسابق كأنه وقع به ، ليعلم الناس أن سنة الله تعالى في الاجتماع الإنساني أن تكون الأمم متكافلة يعتبر كل فرد منها سعادته بسعادة سائر الأفراد وشقاءه بشقاؤهم ، ويتوقع نزول العقوبة به إذا فشت الذنوب في الأمة وإن لم يواقعها هو (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) وهذا التكافل في الأمم هو المعراج الأعظم لرقبها لأنه يحمل الأمة التي تعرفه على التعاون على الخير والمقاومة للشر فتكون من المفلحين .

بعد هذا ذكر الله تعالى نعمة أخرى بل نعمتين من النعم التي من بها على بني إسرائيل فكفروا بها ولسكنه لم يذكر ما كان به الكفران ، بل طواه وأشار إليه بما ختم به الآية من أنهم لم يظلموا الله تعالى بذلك الذنب المطوى وإنما ظلموا أنفسهم ، وهذا أسلوب آخر من أساليب البيان في التذكير وضرب من ضرب الإيجاز التي هي أقوى دعائم الإعجاز .

أما النعمة الأولى فقولته تعالى ﴿ وظللنا عليكم الغمام ﴾ قال الأستاذ الإمام : هذه نعمة مستقلة متصلة بما قبلها في سياق الذكرى ، منفصلة عنها في الوقوع ، فإن التظليل استمر إلى دخولهم أرض الميعاد ، ولولا أن ساق الله إليهم الغمام يظلمهم في

التيه لسفعتهم الشمس ولفحت وجوههم . وقال لامعنى لوصف الغمام بالريق كالمفسر (الجلال) وغيره ، بل السياق يقتضى كثافته إذ لا يحصل الظل الظليل الذى يفيد حرق النضليل ، إلا بسحاب كثيف يمنع حر الشمس ووجهها . وكذلك لانتم النعمة التى بها المنة إلا بالكثيف وهو المنقول المعروف عند الإسرائيليين أنفسهم

وأما النعمة الثانية فى قوله تعالى ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّالْوَى ﴾ مأموح من الله تعالى يسمى إيجاده إنزالاً ومنه (وأنزلنا الحديد) على أن المن ينزل كالندى وهو مادة لزجة حلوة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر مائعة ثم تجمد وتجف فيجمعها الناس ، ومنها الترنجيبين وبه فسر المن مفسرنا وغيره . وأما السالوى فقد فسروها بالسمانى وهو الطائر المعروف فعنى النزول يصح فيه على حقيقته أيضا . وظاهر أن قوله تعالى ﴿ كَلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ مقدر فيه القول . وفى (سفر الخروج) أن بنى إسرائيل أكلوا المن أربعين سنة وأن طعمه كالرقاق بالعسل ، وكان لهم بدلا من الخبز وليس المراد أنه لم يكن لهم أكل سواه إلا السالوى فقد كان معهم المواشى ولكنهم كانوا محرومين من النبات والبقول كما يعلم مما يأتى وفى قوله تعالى ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ تقرير لقاعدة مهمة وهى أن كل ما يطلبه الدين من العبد فهو لمنفعته ، وكل ما ينهاه عنه فإنما يقصد به دفع الضرر عنه ، ولن يبلغ أحد نفع الله فينفعه ، ولن يبلغ أحد ضرره فيضره ، كما ثبت فى الحديث القدسى . فبكل عمل ابن آدم له أو عليه (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)

(٥٨) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُنُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٩) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

المراد بالقرية المدينة ، وهى فى الأصل اسم لمجتمع الناس ومسكن النمل الذى يبنيه ومادتها تدل على الاجتماع ، ومنها قرى تاء الماء فى الحوض إذا جمعت وأطلقت

على الأمة نفسها : ثم غلب استعمالها في البلاد الصغيرة ولا يصح هنا فإن الرغد لا يتيسر للإنسان كما يشاء إلا في المدن الواسعة الحضارة ، (قال شيخنا) ونسكت عن تعيين القرية كما سكت القرآن فقد أمر بنو إسرائيل بدخول بلاد كثيرة وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله خاضعين لأمره مستشعرين بعظمته وجلاله ونعمه وإفضاله وهو معنى السجود وروحه المراد هنا .

وأما صورة السجود من وضع الجباه على الأرض فلا يصح أن تكون مرادة لأنها سكون والدخول حركة وهما لا يجتمعان . والمراد بالحطة الدعاء بأن تحط عنهم خطايا التقصير وكفر النعم . وتبديل القول بغيره عبارة عن المخالفة كأن الذي يؤمر بالشئ فيخالف قد أنكر أنه أمر به وادعى أنه أمر بخلافه . يقال بدلت قولاً غير الذي قيل . أي جئت بذلك القول مكان القول الأول .

وهذا التعبير أدل على المخالفة والعصيان من كل تعبير خلافا لما يتراءى لغير البليغ من أن الظاهر أن يقال . بدلوا القول بغيره دون أن يقال . غير الذي قيل لهم ، فإن مخائب أمر سيده قد يخالفه على سبيل التأويل مع الاعتراف به ، فكأنه يقول في الآية إنهم خالفوا الأمر خلافا لا يقبل التأويل ، حتى كأنه قيل لهم غير الذي قيل . وليس المعنى أنهم أمروا بحركة يأتونها ، وكلمة يقولونها ، وتعبدوا بذلك وجعل سبباً لغفران خطاياهم فقالوا غيره وخالفوا الأمر ، وكانوا من الفاسقين . وأي شئ أسهل على المكلف من الكلام بحرك به لسانه ، وقد اخترع أهل الأديان من ذلك ما لم يكلفوا قوله لسهولة القول على ألسنتهم ، فكيف يقال أمر هؤلاء بكلمة يقولونها فعصوا بتركها ؟ إنما يعصى العاصي إذا كف ما يشق على نفسه ويحملها على غير ما اعتادت ، وأشق التكليف حمل العقول على أن تفكر في غير ما عرفت ، وحث النفوس على أن تتكيف بغير ما تكيفت .

وذهب المفسر (الجلال) إلى ترجيح اللفظ على المعنى والصورة على الروح ففسر السجود ككثير من غيره بالانحناء ، وقال إنهم أمروا بأن يقولوا (حطة) فدخلوا زحفاً على أستاذهم وقالوا : حبة في شعيرة : أي أننا نحتاج إلى الأكل . ومنشأ هذه الأقوال الروايات الإسرائيلية واليهودية في هذا المقام كلام كثير

وتأويلات خدع بها المفسرون ولا نجيز خشوها في تفسير كلام الله تعالى وأقول إن ما اختاره الجلال مروي في الصحيح ولكنه لا يخلو من علة اسرائيلية وسنبين ذلك في تفسير المسألة من سورة الأعراف مع المقابلة بين العبارات المختلفة في السورتين وبيان وجوهها ، وتحقيق معاني ألفاظها

ويدل قوله تعالى ﴿ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ على أن هذا العصيان لم يكن من كل بنى إسرائيل ، وأن هذا الرجز كان خاصاً بالظالمين منهم الذين فسقوا عن الأمر ولم يمتثلوه . وقد أكد هذا المعنى أشد التأكيده بوضع المظهر موضع المضمر فقال (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) ولم يقل فَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ : ولعل وجه الحاجة إلى التأكيد الاحتراس من إيهام كون الرجز كان عاما كما هو الغالب فيه ، ثم أكد بتأكيده آخر وهو قوله ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ وفي هذا الضرب من المقابلة من تعظيم شأن المحسنين ما فيه

وأقول الآن : القاعدة أن ترتيب الحكم على المشتق يدل على أن مصدره علة له كقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) فالسرقة علة للقطع . والموصول مع صلته هنا كذلك ، والمعنى (فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْزًا مِنَ السَّمَاءِ) بسبب ظلمهم ، ثم أكد هذا السبب الخاص العارض المبر عنه بالفعل الماضي ببيان سبب عام يشمل ويضم إليه غيره هم يفعلونه دائما وهو قوله (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) أى بسبب تكرار الفسوق والعصيان منهم واستمرارهم عليه الذى كان هذا الظلم منه

(قال الأستاذ) ونسكت عن تعيين نوع ذلك الرجز كما هو شأننا في كل ما أبهمه القرآن . وقال المفسر وغيره إنه الطاعون ، واحتج بعضهم عليه بقوله تعالى (من السماء) وهو كما تراه . والرجز هو العذاب وكل نوع منه رجز . وقد ابتلى الله بنى إسرائيل بالطاعون غير مرة ، وابتلاهم بضروب أخرى من النقم في إثر كل ضرب من ضروب ظلمهم وفسوقهم ، ومن أشد ذلك تسليم الأمم عليهم ، وحسبنا ما جاء في القرآن عبرة وتبصرة فنعين ما عينه ، ونبهم ما أبهمه (والله يعلم وأنتم لا تعلمون)

(٦٠) وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ : كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُغْسِلِينَ

هذا بيان لحال آخر من أحوال بني إسرائيل في هجرتهم وعناية الله تعالى بهم فيها . أصابهم الظأ فعاذوا على موسى باللائمة أن أخرجهم من أرض مصر الخصبنة المتدفقة بالأمواه ، وكانوا عند كل ضيق يمتنون عليه أن خرجوا معه من مصر ويجهرون بالندم . فاستغاث موسى بربه واستسقاء لقومه كما قصه الله تعالى علينا بقوله ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي طلب السقيا لهم من الله تعالى ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ قال الأستاذ الامام : أمره أن يضرب بعصاه حجراً من حجارة تلك الصحراء بتلك العصا التي ضرب بها البحر فضر به ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بعدد أسباطهم وذلك قوله عز وجل ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ (قال) وكون هذا الحجر هو الذي روى أنه تدرج بشوب موسى يوم كان يغتسل كما قال المفسر (الجلال) لا دليل عليه ، وقصة الثوب ليست في القرآن فيحمل تعريف الحجر على أنه المعهود في القصة ، وإنما يفهم التعريف أن الحجر الذي ضرب فتنفجرت منه المياه حجر مخصوص له صفات تميزه عندهم ككونه صلباً أو عظيماً تتسع مساحته لتلك العيون ويصلح أن تكون منه موارد لتلك الأمم [أو كونه يقع تحت أعينهم منفرداً عن غيره ليس في محلهم سواء ، وقد يكون التعريف للدلالة على الجنس ليفيدنا بعد المرغوب عن تناول ، وعظمة القدرة الإلهية وأثرها الجليل في تقريره وتحصيله] وعبر عنه في سفر الخروج بالصخرة : ولو علم الله تعالى أن لنا فائدة في أكثر مما دل عليه هذا الخطاب من التعمين لما تركه ثم أراد أن يصور حال بني إسرائيل في هذه النعمة واغتباطهم بما منحهم من العيش الرغد في مهاجرهم فقال ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ فعبّر عن الحال الماضية

بالامر ليستحضر سامع الخطاب أولئك القوم في ذهنه ويتصور اغتباطهم بما هم فيه حتى كأنهم حاضرون الآن والخطاب يوجه اليهم . وهذا ضرب من ضروب إيجاز القرآن التي لا تجارى ولا تمارى ثم قال ﴿ ولا تعشوا في الأرض مفسدين ﴾ أى لا تنشروا فسادكم في الأرض وتكونوا في الشرور قدوة سيئة للناس . يقال عشا إذا نشر الشر والفساد وأثار الخبيث فهو أخص من مطلق الإفساد ولذلك مع كون « مفسدين » حالا من ضمير « تعشوا »

قال الأستاذ الإمام : إن كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم الترتيب في القصص ويقولون هنا إن الاستسقاء وضرب الحجر كان قبل التيه وقبل الامر بدخول تلك القرية فذكر هنا بعد تلك الوقائع . والجواب عن هذه الشبهة يفهم مما قلناه مراراً في قصص الانبياء والأمم الواردة في القرآن . وهو أنه لم يقصد بها التاريخ وسرد الوقائع مرتبة بحسب أزمنة وقوعها وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها . ويبسان النقم بعلمها لتتقى من جهتها . ومتى كان هذا هو الغرض من السياق فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذكر على الوجه الذي يكون أبلغ في التذكير وأدعى إلى التأخير

إن انباحثين في التاريخ لهذا العهد قد رجعوا إلى هذا الأسلوب في التقديم والتأخير وقالوا ستأتى أيام يستحيل فيها ترتيب الحوادث والقصص بحسب تواريخها لطول الزمن وكثرة النقل مع حاجة الناس إلى معرفة سير الماضين ، وما كان لها من النتائج والآثار في حال الحاضرين . وقالوا إن الطريق إلى ذلك هو أن ننظر في كل حادثة من حوادث الكون كالثورات والحروب وغيرها ونبين أسبابها ونتائجها من غير تفصيل ولا تحديد الجزئيات الوقائع بالتاريخ ، فإن ترتيب الوقائع هو من الزينة في وضع التأليف فلا يتوقف عليه الاعتبار ، بل ربما يصد عنه بما يكلف الذهن من ملاحظته وحفظه . فهذا ضرب من ضروب الإصلاح العلمى جاء به القرآن وأيده سير الاجتماع في الإنسان

هذا ما نقوله إذا سلمنا أن الاستسقاء كان قبل التيه لا فيه ولنا أن نقول إن أرض التيه هي الأرض الممتدة على ساحل البحر الأحمر من بيضاء فلسطين ممالي

حدود مضر وفيها كان الاستسقاء بلا خلاف (وفي سفر الخروج أنه كان في رفيدم التي انتقل اليها بنو اسرائيل من (سين) التي بين ايليم وسيناء . ويطلق التيه على ضلال بنى اسرائيل أربعين سنة في الأرض . والعبرة في القصة على ما يظهر من التوراة أن موسى كان يحاول نزع ما في قلوب قومه من الشرك الذي أشربوا عقائده في مصر ، وما في نفوسهم من الذل الذي طبعه فيها استبداد المصريين وتعبيدهم إياهم ، ليكونوا أعلياء أعزاء بعبادة الله تعالى وحده ، وأن يدخل بهم أرض الميعاد وهي بلاد الشام التي وعد الله بها آبائهم . وكانوا لطول الإقامة في مصر قد ألفوا الذل وأنسوا بالشعائر والعادات الوثنية ، فكانوا لا يخطون خطوة إلا ويتبعونها بخطيئة ، وكما عرض لهم شيء من مشقات السفر يشتمون بموسى ويتحسرون على مصر ويتمنون الرجوع اليها (كما سبق القول) ويستبطلون وعد الله فتارة يطلبون منه أن يجعل لهم إلهاً غير الله ، وتارة يصنعون عجلاً ويعبدونه ، وتارة يفسقون عن أمر ربهم ويكفرون نعمه . ولما أمرهم بدخول البلاد المقدسة التي وعدهم الله أبوا واعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين لما استحوذ عليهم من الجبن الذي هو حليف الذل . وكان موسى أرسل كالباً ويوشع بن نون رائدين لينظرا حال البلاد في القوة والضعف وأرسل غيرهما عشرة من بقية أسباط بنى اسرائيل فأخبر هؤلاء بأن في تلك الأرض قوماً جبارين فقال بنو اسرائيل : إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فأخبر يوشع وكالب بأن الأرض كما وعد الله وأن دخولها سهل والظفر مضمون بالاعتماد على الله تعالى والتوكل عليه ، فلم يسمعوا لهما بل (قالوا إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها) فغضب الله عليهم التيه أربعين سنة لحكمة بالغة وهي إرادة انقراض أولئك القوم الذين تأشبت في نفوسهم عقائد الوثنية ، وزايلتها صفات الرجولية ، حتى فسد مزاجها ، وتعذر علاجها ، وخروج نشء جديد يترقى على العقائد الصحيحة ، وأخلاق الشهامة والرجولية ، فتأهوا حتى انقراض أولئك المصابون باعتلال الفطرة ، وبقي النشء الجديد وبعض الذين كانوا عند الخروج من مصر صغاراً لا يقدرّون على حمل السلاح ، وقضى الله أمراً كان مفعولاً

(٦١) وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْشُوا عَلَى الْأَرْضِ وَاحِدٍ قَادِعٍ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجُ لَنَا مِمَّا تُنْتَبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَيْعَلِهَا وَفَيْئِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصَلِهَا . قَالَ أَلَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَسَاسًا . وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَادُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ

هذا ضرب آخر مما ذكر الله تعالى به بنى إسرائيل في سياق دعوتهم إلى الاسلام قال صاحب الكشف : كانوا قوما فلاحه فنزعوا إلى عكرهم فأجروا ما كانوا فيه من النعمة وطلبت أنفسهم الشقاء اه وقال الأستاذ الإمام في تفسيره ونقده ورده مانصه : فلاحه بتشديد اللام جمع فلاح بمعنى الزراع ، وعكرهم بكسر العين أصلهم ، وأجم الطعام من باب ضرب وعلم كرهه من المداومة عليه . وهو بيان لما بعنهم على أن يسألوا موسى أن يدعو ربه ليخرج لهم تلك الأشياء التي طلبوها والسبب في جهرهم بذلك وثورتهم عليه كأنه يقول : إن الحامل لهم على ذلك هو تمكن المادة من نفوسهم فلما خرجوا منها وجاءهم ما لم يكونوا يألفون نزعوا إلى ما كانوا قد غودوه من قبل . ولو كان الأمر كما قال لكان في ذلك الناس عذر لهم ، ولما عذ الله هذا القول في خطاياهم ، بل إن السامة من تناول طعام واحد قد يكون من لوازم الطباع البشرية إلا ما شذ منها العادة أو ضرورة ولا يندمها هو من منازع الطباع جرما إذا لم يسقط ذلك في محذور . وسياق الآيات قبلها وما يلحق بعد ذلك من قوله تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم) الخ كل ذلك يدل على أن ما عذر من أفعالهم مع تضافر الآيات بين أيديهم وتوارد نعم الله عليهم كله من خطاياهم ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك فخرج لنا مما

تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها * ويؤكد ذلك إيراد تلك العقوبة الشديدة من ضرب الذل والمسكنة واستحقاق غضب الله تعالى عقب مقامهم هذا والذي يقع عليه الفهم من الآية أن النزق قد استولى على طباعهم وملك البطر أهواءهم حتى كانوا يستخفون بذلك الأمر العظيم الذى هياهم الله له من التمكن فى الأرض الموعودة والخروج من الخسف الذى كانوا فيه . ومع كثرة ما شاهدوا من آيات الله القائمة على صدق وعده لهم لم تستيقنه أنفسهم ، بل كانوا على ريب منه ، وكانوا يظنون أن موسى عليه السلام خدعهم بإخراجهم من مصر وجاء بهم فى البرية ليهلكهم ، فلذلك دأبوا على اعنائه والاكتثار من الطلب فيما استطاع وما لا يستطيع حتى يئس منهم فیرتد بهم إلى مصر حيث ألفوا الذلة ولهم مطعم فى العيش وأمل فى الخلاص من الهلكة ، فما ذكره الله عنهم فى هذه الآية على حد قولهم (لن تؤمن لك حتى نرى الله جيرة) ويرشد إلى ما فيه من الاعنات قولهم : لن نصبر على طعام واحد . فقد عبر عن مسألتهم بما فيه حرف النفي الذى يأتى لسلب الفعل فى مستقبل الزمان مع تأكيد كيدهم فكأنهم قالوا . اعلم أنه لم يبق لك أمل فى بقائنا معك على هذه الحالة من التزام طعام واحد فان كانت لك منزلة عند الله كما تزعم فادعه يخرج لنا ما يمكن معه أن نبقى معك إلى أن يتم الوعد الذى وعدك ووعدتنا . وهم يعلمون أنهم كانوا فى برية غير منبثة ، وربما لم يكن قوتهم هذا عن سامة ولا أحم من وحدة الطعام ، ولكنهم نزق واطر كما بينا وطلب للخلاص مما يخشون على أنفسهم . ويؤيد ذلك ما هو معروف فى أخبارهم . ووصفوا الطعام بالواحد مع أنه نوعان - المن والسلوى - لأنهما طعام كل يوم ، والعرب تقول لمن يأكل كل يوم عدة ألوان لا تتغير : إنه يأكل من طعام واحد . كأنهم ينظرون إلى أن مجموع الألوان هى غذاؤه الذى لا يتغير فهو غذاء واحد فاذا تغيرت الألوان تغير نوع الغذاء فكان طعاما متعددًا

والبقل من النبات ما ليس بشجر دق ولا جل كما ذكره ابن سيده . وقال أبو حنيفة ما ينبت فى برزة ولا ينبت فى أرومة ثابتة . وفرق ما بين البقل ودق الشجر أن البقل إذا رعى لم يبق له ساق ، والشجر تبقى له سوق وإن دقت .

وأرادوا من البقل ما يطعمه الإنسان من أطايب الخضر كالكرفس والتنعناع ونحوهما مما يغرى بالقضم ، ويعين على الهضم ، والشاء هي أخت الخيار تسميها العامة « الفتة » والمسدس والبصل معروفان ، والفوم هو الحنطة . وقال السكسائي وجماعة : هو الثوم أبدلت الشاء فاء كما في جدث وجدف . وطلبهم للحنطة هو طلبهم للخبز الذي يصنع منها ﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام تقر يعالهم على أشرفهم وإنكاراً لثبوتهم ﴿ استبدلون

الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ ﴾ أي أتطلبون هذه الأنواع الخسيسة بدل ما هو خير منها وهو المن والسوى ؟ والمن فيه الخلاوة التي تألفها أغلب الطبائع البشرية والسوى من أطيب لحوم الطير وفي مجموعها غذاء تقوم به البنية وليس فيما طلبوه ما يساويهما لذة وتغذية . أقول : والأدنى في اللغة الأقرب ، واستعير للأخس والأدون كما استعير البعد للرفعة . والاستبدال طلب شيء بدلا من آخر ، والباء

تدخل المبدل منه المراد تركه . ثم قال ﴿ اهبطوا مصرأ ﴾ من الأمصار ﴿ فان لكم ما سألتم ﴾ أي فانكم إن هبطتموه ونزلتموه وجدتم فيه ما سألتم . أما هذه الأرض التي قضى الله أن تقيموا فيها إلى أجل محدود فليس من شأنها أن تنبت هذه البقول وإن الله جل شأنه لم يقض عليكم بالتيه في هذه البرية إلا لجنبتكم وضعف عزائمكم عن مغالبة من دونكم من أهل الأمصار ، فلو صح ما تزعمون من كراهتكم للطعام الواحد فأنتم الذين قضيتم به على أنفسكم بما فرط منكم . فان أردتم الخلاص مما كرهتم فأقدموا على محاربة من يليكم من سكان الأرض الموعودة ، فان الله كافل لكم البصر عليهم ، وعند ذلك تجدون طلبتكم فالتمسوا الخير في أنفسكم وفي أفعالكم فان الله لا يضيع أجر العاملين .

قال تعالى ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ الذلة والذل خلق خبيث من أخلاق نفس الإنسان يضاد الإياء والعزة ، وأصل المادة فيه معنى اللين . فالذل بالكسر اللين وبالضم والكسر ضد الصعوبة ، وإذا تتبععت المادة وجدتها لا تخلو من هذا المعنى . صاحب هذا الخلق لين ينفع لـ لكل فاعل ، ولا يأتي ضيم ضائم . غير أن هذا الخلق الذي يهون على النفس قبول كل شيء لا يظهر أثره غالبا على البدن وفي القول إلا عند الاستدلال والقهر ، وكثيراً ما ترى الأذلاء تحسبهم

أعزاء ، يخالون في مشيتهم من الكبرياء ، ويباهون بما لهم من سلف وآباء ، وربما
فاخروا من لا يخشون سطوته من الكبراء . .

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزلا

ولكن متى شعر الدليل بنية من نفس القاهر أو طاف بذهنه خيال يد تمتد
إليه استخذي واستكان ، وظهر السكون على يده ، واشتمل الخشوع على قوله
وفعله ، وهذا الأثر الذي يسطع من النفس على البدن هو الذي يسمى المسكنة .
وإنما سمي الفقر مسكنة لأن العائل المحتاج تضعف حركته ويذهب نشاطه فهو
بعدم ما يسهل عوزه كأنه يقرب من عالم الجداد ، فلا تظهر فيه حاجة الأحياء فيسكن
والمشاهدة ترشدنا إلى تحقيق ما عليه أهل المسكنة في أوضاع أعضائهم ، وما يمدوا
على وجوههم ، وما طبع في أقوالهم وأعمالهم . فضرب الذلة والمسكنة على اليهود
هو جعل الذل وضعف العزيمة محيطين بهم كما تحيط القبة المضروبة بمن فيها . أو
الصاقهما بطباعهم كما تطبع الطغرى على السكة ﴿ وبأوا بغضب من الله ﴾ أي رجعوا به
كما يقال رجع أو عاد بصفقة المغبون - إذا كان ذلك آخر شوطه ومنتهى سعيه .
وكذلك كان آخر أطوار اليهود في بقيتهم أيام ملكهم . والمراد به فقد الملك وما يتبعه . وقال
شيخنا استحقوا غضبه ومن استحقه فقد أصابه ، فقد غضب الله عليهم ، وتمكيد الغضب

دلالة على أنه نوع عظيم من سخطه جل شأنه ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾
(أقول) أي ذلك العقاب بضرب الذلة والمسكنة وبالغضب الإلهي بسبب ما جروا
عليه من الكفر بآيات الله الخ فإنهم بإخراجهم لموسى عليه السلام وإغنائهم له في
المطالب ، مع كثرة ما شاهدوا من المعائب ، وما أظهر الله لهم من الغرائب ، قد
دلوا على أن لا أثر للآيات في نفوسهم ، فهم بها كافرون في الحقيقة . ونسيان

الآيات وعدها كأن لم تكن يمدد الكتاب العزيز كفرة كما قال شيخنا ﴿ يقتلون
النبیین بغیر الحق ﴾ مع أن الكتاب يحرم عليهم قتل غير الأنبياء فضلا عنهم إلا
بحقه المبين فيه ، كل ذلك دل فيهم على طباع بعيدة عن السكرم ، وقلوب غلظ
دون الفهم ، ومن كان هذا شأنه فالأجدر به أن يكون ذليلا مقهورا ، ثم هو مهبط
غضب الله ومحط نقمه ، لأنه أشد الناس كفرا لنعمه ، وقوله (بغیر الحق) مع

أن قتل النبيين لا يكون إلا كذلك يزيد في شناعة حالهم ، ويصرح بأنهم لم يكونوا مخطئين في الفهم ، ولا متأولين للحكم ، بل ارتكبوا هذا الجرم العظيم عامدين ، وهم يعلمون أنهم بارتكابه مخالفون لما شرع الله تعالى لهم في كتاب دينهم ﴿ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ قال الأستاذ : ذلك الذل وتلك الخلافة بالغضب إنما لزمهم لأنهم عصوا الله فيما أمرهم أن يأخذوا به من الأحكام ، ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التي حدنها الله لهم في شرائع أنبيائهم ، وقد كانت تلك الأحكام والحدود هي الوسيلة لإخراجهم من الذل وتمكين العز والسلطان لهم في الأرض الموعودة لأنها كانت الكفالة بنظامهم ، الحافظة لبناء جماعتهم ، فاذا أهملوها فسدت ألقمهم ، وانهدم بناؤهم ، وأسعرت إليهم الذلة التي لم تكن فارقتهم ، إلا منهزمة من يدى سلطان الشريعة ، ولم يكن يصددها عنهم إلا معاقل النظام تحت رعايته ، ولزمتهم الذلة والمسكنة بعد هذا لزوم الطابع المطبوع .

والمتبادر وعدم الأستاذ احتمالاً أن ترجع الإشارة في (ذلك) إلى الثاني أى الكفر بآيات الله وقتل النبيين . أى إن كفرهم وجرائمهم على النبيين بالقتل إنما منشؤها عصيانهم واعتدائهم حدود دينهم ، لأن الذى يدين يدين أو شريعة أياً كانت يتبيب لأول الأمر مخالفتها ، فاذا خالفها لأول مرة تركت المخالفة أثراً في نفسه ، وضعفت هيبة الشريعة في نظره ، فاذا عاد زاد ضعف سلطة الشريعة على إرادته ، ولا يزال كذلك حتى تصبح المخالفة طبعاً وديناً ، وينسى مقام على الشريعة من دليل وما كان لها من سيطرة ، ويضرى بالعدوان ، كما يضرى الحيوان بالافتراس وكل عمل يسترسل فيه العامل تقوى ملكته فيه خصوصاً ما اتبع فيه الهوى .

(٦٢) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّةَ مَنْ آمَنَ
بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ .

أحاط القضاء في الآية السابقة باليهود فلم يدع منهم حاضراً ولا غائباً فالزم

الذل باطنهم ، وكما بالمسكنة ظاهرهم ، وبوأهم منازل غضبه ، وجعل أرواحهم مساقط نقمه ، فذلك الله الذى يقول (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأوا بغيض من الله) سجلت الآية عليهم هذا العذاب الشديد بما كسبت أيديهم واستشعرت قلوبهم من كفر بآيات الله ، وانصراف عن العبرة ، واستعصاء على الموعظة وخروج عن حدود الشريعة واعتداء على أحكامها . اقترب ذلك سلفهم ، وتبعهم عليه خلفهم ، فحققت عليهم كلمة ربك ، فلو قرأ الخطاب عندها ، ولم يتلها من رحمته مابعدا ، لحق على كل يهودى على وجه الأرض أن يئأس ، وأن لا يبقى عنده للأمل فى عفو الله متنفس ، بل كان ذلك القنوط لازما لكل عاص ، قابضا على نفس كل معتد ، لافرق بين اليهود وغيرهم ، فان سبب منازل باليهود إنما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ماشرع الله لهم ، وسنن الله فى خلقه لا تتغير وأحكامه العادلة فيهم لا تتبدل ، لهذا جاء قوله تعالى (إن الذين آمنوا) الخ بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة وإنما ورد على هذا الأسلوب البديع متضمنا لجميع من تمسك بهدى نبي سابق وانقصب إلى شريعة سماوية ماضية ، ليدل على أن الجزاء السابق - وإن حكى على أنه من خطأ اليهود خاصة ، لم يصيبهم إلا الجزية قد تشمل الشعوب عامة وهى الفسوق عن أوامر الله وانتهاك حرمانه ، فكل من أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب الله ماسقط عليهم ، وعلى أن الله جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختص بهم على أنهم من شعب إسرائيل أو من ملة يهود بل (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وأما أنساب الشعوب وماتدين به من دين وماتتخذ من ملة فكل ذلك لا أثر له فى رضاء الله ولا غضبه ، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعفهم ، بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيرى الدنيا والآخرة إنما هو صدق الإيمان بالله تعالى بأن يكون التصديق به سطوعا على النفس من مشرق البرهان ، أو جيشانا فى القلب من عين الوجدان ، فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خاليا من شوب التشبيه والتمثيل ، واليقين فى نسبة الأفعال إليه خالصا من وساوس الوهم والتخيل ويكون المؤمن قد ارتقى بإيمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الإلهى . فاذا رفع بصره إلى الجنب الأرفع أغضى هيبه وأطرق إلى أرض العبودية خشوعا ، وإذا أطلق نظره

فما بين يديه ، مما سلطه الله عليه ، شعر في نفسه عزة بالله ، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه . لا يعمدوا حداً ضرب له ، ولا يقف دون غاية قدره أن يصل إليها ، فيكون عبد الله وحده : سيداً لكل شيء بعده . كتب ما تقدم الاستاذ بقلمه إذ اقترحت أن يكتب تفسير الآية كما قرره في درسه وأنتى أتمه على المنهج الذي جريت عليه فأقول :

هذا هو الإيمان المرضي عند الله تعالى الذي يكون أصلاً لتحذيب أخلاق صاحبه ، ومصدراً للأعمال الحسنة عنه . وللايمان اطلاق آخر وهو التصديق بالدين في الجملة أى الإيمان بالله وبأن ما جاء به فلان النبي مثلاً هو صحيح غير مكذوب على الله تعالى ويدخل فيه أهل الفرق الضالة من كل دين من الأديان السماوية ، فهو اطلاق صحيح لغة وعرفاً كما تقدم في تفسير قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) أى إنهم يصدقون بأن للعالم إلهاً ، وبأن بعد الموت بعثاً ، ولكن هذا الإيمان ليس مطابقاً في تفصيله للاذعان الذى له السلطان الأعلى على النفوس في تزكيتها وتهذيبها وحملها على الأعمال الصالحة ، وهذا الإطلاق هو الذى عناء الاستاذ الامام بقوله : لا أثر له في رضا الله ولا غضبه الخ وهو كون الدين جنسية لمن ينتسب إليه فقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ مراد به المسلمون الذين اتبعوا محمداً ﷺ والذين سيقبضونهم إلى يوم القيامة ، وكانوا يسمون المؤمنين والذين آمنوا . وقوله ﴿ والذين هادوا والنصارى والصابئين ﴾ يراد به هذه الفرق من الناس التى عرفت بهذه الاسماء أو الألقاب من الذين اتبعوا الأنبياء السابقين ، وأطلق على بعضهم لفظ يهود والذين هادوا ، وعلى بعضهم لفظ النصارى ، وعلى بعضهم لفظ الصابئين ﴿ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ﴾ هذا بدل عما قبله أى من آمن منهم بالله إيماناً صحيحاً — وتقدم شرحه ووصفه آتفاً — وآمن باليوم الآخر كذلك وقد تقدم تفسيرهما في أوائل السورة ، وعمل عملاً صالحاً تصالح به نفسه وشؤونه مع من يعيش معه ، وما العمل الصالح بمجهول في عرف هؤلاء الأقوام ، وقد بينته كتبهم أتم بيان ، ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف

عليهم ولا هم يحزنون * أى إن حكم الله العادل سواء وهو يعاملهم بسنة واحدة لا يجازي فيها فريقا ولا يظلم فريقا . وحكم هذه السنة أن لهم أجرهم المعلوم بوعدهم الله على لسان رسولهم ولا خوف عليهم من عذاب الله يوم يخاف الكفار والفجار مما يستقبلهم ولا هم يحزنون على شيء قاتلهم . وتقدم هذا التعبير فى الآية (٣٨) مع تفسيره

فلاية بيان لسنة الله تعالى فى معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت فهو على حد قوله تعالى (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) فظهر بذلك أنه لا إشكال فى حمل من آمن بالله واليوم الآخر الخ على قوله (إن الذين آمنوا) الخ ولا إشكال فى عدم اشتراط الإيمان بالنبي ﷺ ، لأن الكلام فى معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبي ووحى بخصوصها ؛ الظانة أن فوزها فى الآخرة كائن لا محالة لأنها مسلمة أو يهودية أو نصرانية أو صابئة مثلاً ، فالله يقول إن الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية وإنما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس ، وعمل يصلح به حال الناس ، ولذلك نفى كون الأمر عند الله بحسب أمانى المسلمين أو أمانى أهل الكتاب ، وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم : ديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً : وقالت النصارى مثل ذلك . فقال المسلمون كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم ، وديننا بعد دينكم ، وقد أمرتم أن تتبعونا وتركوا أمركم ، فنحن خير منكم ، نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا . فانزل الله تعالى (ليس بأمانيتكم) الآية . وروى نحوه عن مسروق وقتادة . وأخرج البخارى فى التاريخ من حديث أنس مرفوعاً « ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . إن قوما ألهمهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله تعالى وكذبوا ،

لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل . والحكمة في عناية الله تعالى بالنعمى على المغتربين بالانتساب إلى الدين أيا كان ظاهره ، فإن هذا الغرور هو الذى صرفهم عن العمل به اكتفاء بالانتساب إليه وجعله جنسية فقط . وترك العمل لازم أو ملزوم لعدم الفقه فى الدين ، أى عدم فهم حكمه وأسراره ، وتبع هذا فى الأمم السابقة ترك النظر فيما جاء به النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن الغرور بما هو فيه لا ينظر فيما سواه نظراً صحيحاً لاسيما إذا كان مخالفاً له .

وذكر الأستاذ الإمام فى تفسير هذه الآية مسألة أهل الفترة والخلاف المشهور فيها وهو أن جمهور أهل السنة يقول إنهم ناجون لأنهم لا يتكليف إلا بشرع وهؤلاء لم تبلغهم دعوة ، ومن قال إن بالعقل يدرك الواجب والمحرم والاعتقاد الصحيح والباطل عدمهم غير ناجين . وهذا رأى المعتزلة وجماعة من الخنفية وجمهور الأشاعرة على أنه لا يمكن إدراك ذلك إلا بالشرع ، ثم إن محل النظر فى أهل الفترة من كان منهم كالعرب الذين كانوا يعتقدون نبوة أنبياء ولا يجدون لديهم شيئاً من أحكام دينهم خالصاً من الشوائب سالماً من النزغات الفاسدة . وأما مثل اليهود فلا يصح أن يسوا أهل فترة فانهم على نسيانهم حظاً مما ذكروا به وتحريفهم بعض ما حفظوا قد بقى جوهر دينهم معروف لم يغش أحكامه ما يمنع الاهتداء بها والله تعالى يقول (٥: ٤٣) وعندهم التوراة فيها حكم الله) وكذلك المسيحيون لا يسمون أهل فترة لأن عندهم فى التوراة ووصايا الأنبياء ما عند اليهود وزيادة مما حفظوا من وصايا المسيح وروح الدعوة موجود عندهم ، ولكنهم لا يعملون بهذه الوصايا ولا يأخذون بتلك الأحكام ، ولا عذر لهم بحول دون العقوبة . وأما الصابئون فإن كانوا فرقة من النصارى كما يظهر من الوفاق بينهما فى كثير من التقاليد كالمعمودية والاعتراف وتعظيم يوم الأحد فالأمر ظاهر أن حكمهم كحكمهم وإن كان الخلط عندهم أكثر ، والبعد عن الأصل أشد ، حتى إنهم اعتقدوا تأثير الكواكب ، وأحاطت بهم البدع من كل جانب ، على أنهم أقرب إلى روح المسيحية من النصارى فإن عندهم الزهد والتواضع اللذين يفيضان من كل كلمة

تؤثر عن المسيح عليه السلام ، والنصارى صاروا أشد أمم الأرض عتوا وطمعا وإسرافا في حظوظ الدنيا . ويقال إن الصابئة ملة مستقلة يؤمنون بكثير من الأنبياء المعروفين ولكن قد اختلط عليهم الأمر كما اختلط على الحنفاء من العرب إلا أن عندهم من التقاليد والأحكام ما لم يكن عند العرب ، فان كانوا أقرب اليهم فلمهم حكمهم وإلا فهم كاليهود والنصارى يستلجون عن العمل بدينهم بعد فهمه كما يجب حتى يأتيهم هدى آخر، كأن تبليغهم دعوة الاسلام فان لم يفعلوا فهم مؤاخذون .

علمنا أن أهل الفترة هم الذين لم تبليغهم دعوة صحيحة تحرك إلى النظر أو بلغهم أن بعض الأنبياء بعثوا ولكن لم يصل اليهم شيء صحيح من شرائعهم ، فهم يؤمنون بهم إيمانا إجماليا كالحنفاء من العرب الذين كانوا يؤمنون بإبراهيم وإسماعيل ولا يعرفون من دينهما شيئا خالصا كما تقدم آنفا . وحجة الاشاعة على عدم مؤاخذتهم آيات كقوله تعالى (١٧: ١٥) وما كنا بمعذبين حتى نبعث رسولا) وقوله (٤: ١٦٥) لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وذهب كثير منهم إلى الاكتفاء ببلوغ دعوة أى نبي في ركني الدين الركنين وهما الايمان بالله وباليوم الآخر، فمن بلغته وجب عليه الايمان بهذين الأصلين ، وإن لم يكن النبي مرسلا اليه

وذهب جمهور الحنفية وكذلك المعتزلة إلى أن أصول الاعتقاد تدرك بالعقل فلا تتوقف المواخذة عليها على بلوغ دعوة رسول ، وإنما يجيء الرسل مؤكدين لما يفهم العقل موضحين له ومبينين أمورا لا يستقل بإدراكها كأحوال الآخرة وكيفيات العبادة التي ترضى الله تعالى . وأولوا آية (وما كنا بمعذبين حتى نبعث رسولا) بأن المراد بالتعذيب هو الاستئصال في الدنيا بإفناء الأمة أو استئصالها ، والذهاب باستقلالها ، وينافيها ما يدل عليه استعمال «وما كنا» من إرادة نفي الشأن الدال على عموم السلب ، ولهم في كتبهم أدلة ومناقشات ليس هذا من مواضعها وعن الامام الغزالي أن الناس في شأن بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصناف ثلاثة - من لم يعلم بها بالمرة - أى كأهل أمر يكال ذلك العهد - وهؤلاء ناجون حتما (أى إن لم تكن بلغتهم دعوة أخرى صحيحة) ومن بلغته الدعوة على وجهها ولم ينظر في أدلتها إجمالا أو عنادا أو استكبارا ، وهؤلاء مؤاخذون حتما ومن بلغته

على غير وجهها أو مع فقد شرطها وهو أن تكون على وجه يحرك داعية النظر ، وهؤلاء في معنى الصنف الأول . هذا معنى عبارته المطابقة لأصول الكلام (وأقول) عبارته في كتاب فيصل التفرقة في هذا الصنف هي : وصنف ثالث بين الدرجتين بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعمته وصفته ، بل سمعوا منذ الصبا أن كذاباً مدلساً اسمه محمد ادعى النبوة كما سمع صبياننا أن كذاباً يقال له المقفع (لعنه الله) نحى بالنبوة كاذباً ، فهؤلاء عندى في معنى الصنف الأول فان أولئك مع أنهم لم يسمعوا اسمه لم يسمعوا ضد أوصافه ، وهؤلاء سمعوا ضد أوصافه ، وهذا لا يحرك داعية النظر في الطلب . اهـ

وأقول في حل معنى الآية على هذا : إن أهل الأديان الإلهية - وهم الذين بلغتهم دعوة نبي على وجهها وبشرطها - إذا آمنوا بالله واليوم الآخر على الوجه الصحيح الذى بينه نبيهم وعملوا الأعمال الصالحة فهم ناجزون مأجورون عند الله تعالى ، وإذا آمنوا على غير الوجه الصحيح كالمشبهة والحلولية والاتحادية وغيرهم فلا ينالهم من هذا الوعد شئ . بل يتناولهم الوعيد المذكور فى الآيات الأخرى ، وكذلك حل الذين يؤمنون بأقوالهم دون أعمالهم ، فان الإيمان الصحيح هو صاحب السلطان الأعلى على القلب والارادة التى تحرك الأعضاء فى الأعمال ، فإن نازعه فى سلطانه طائف من الشهوة فإنه لا يلبث أن يقهره (٢٠١ : ٧) إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ثم أزيد الآن على ما تقدم ان كل هذه الأقوال والتفصيلات انما هى فى المؤاخذة على اتباع دعوة الرسل وعدمها . ولا يعقل أن يكون من لم تبلغهم الدعوة بشرطها أو مطلقاً ناجين على سواء وأن يكونوا كلهم فى الجنة كأتباع الرسل فى الإيمان الصحيح والعمل الصالح . إذ لو صح هذا لكان بعث الرسل شراً من عدمه بالنسبة إلى أكثر الناس . والمعقول الموافق للنصوص أن الله تعالى يحاسب هؤلاء الذين لم تبلغهم دعوة ما يحسب ما عقلوا واعتقدوا من الحق والخير ومقابلهما وستجد تفصيل هذا فى موضع آخر من هذا التفسير

ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٤) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ
مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ قَوْلًا فَأَضَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ

أطعم الله تعالى بالآية السابقة بني اسرائيل في رحمته بعد ما فرقه بالندر التي
تسكاد توقع اليأس في قلوبهم ، وبين لهم ولسائر الناس أن المنفذ إلى هذا الطعم
بل الباب الذي يؤدي إلى هذا الرجاء هو الجمع بين الأمرين اللذين بعث لتقريرهما
الأنبياء عليهم السلام وهما الإيمان الصحيح اليقيني والعمل الصالح ، وإشراك غير
بني اسرائيل في هذا الحكم لا يقضى بانتهاء السياق ، بل لا يزال الكلام في بني
اسرائيل ، ولذلك عقب الاطاع بالتذكير ببعض الوقائع التي استحقوا فيها
العقوبة فحالت دين وقوعها الرحمة فقال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ﴾ وهو العهد الذي
أخذناه عليهم وتقدم الكلام فيه ، وأما قوله ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ ﴾ فقد ذكر
المفسرون فيه قصة وهي أن الله تعالى ظلل بني اسرائيل بالطور وهو الجبل المعروف
وخوفهم برفعه فوقهم ليدعوا ويؤمنوا . ثم اعترض عليه بعضهم بأنه إكراه على الإيمان
والإجاء إليه وذلك يناقض التشكيف ، وأجيب بأجوبة منها أن ما يفعل بالا إكراه يعود
اختياريا بعد زوال ما به الإكراه ، ومنها أن مثل هذا الاجاء والا إكراه كان جائزا
في الأمم السابقة ، ويزيد من قال هذا أن نفي الإكراه في الدين خاص بالاسلام
لقوله تعالى (لا إكراه في الدين) وقوله (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)
قال الاستاذ الامام : لا حاجة لنا في فهم كتاب الله إلى غير ما يدل عليه
بأسلوبه الفصيح فهو لا يحتاج في فهمه إلى إضافات ولا ملحقات ، وقد ذكر لنا
مسألة رفع الطور فوق بني اسرائيل ولم يقل إنه أراد بذلك الإكراه على الإيمان ،
وانما حكى عنهم في آية أخرى أنهم ظنوا أنه واقع بهم فقد قال تعالى في سورة
الاعراف (وَاِذَا نَفَخْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظِلُّهُ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) والنفق الزعزعة والهز والجذب والنفض وتنفق
الشيء ينفقه وينتقه - من باى ضرب وفصر - تنفقا جذبه واقتلعه وقد يكون ذلك في
الآية بضرب من الزلزال كما يدل عليه التعبير بالنفق وهو في الأصل بمعنى الزعزعة

والنفذ والمفهوم من أخذ الميثاق أنهم قبلوا الايمان وعاهدوا موسى عليه . فرفع
الطور وظنهم أنه واقع بهم من الآيات التي رأوها بعد أخذ الميثاق كان لأجل أخذ
ما أوتوه من الكتاب بقوة واجتهاد لأن رؤية الآيات تقوى الايمان ، وتحرك الشعور
والوجدان ، ولذلك خاطبهم عند رؤية تلك الآية بقوله ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾
أى تمسكوا به واعملوا بحج ونشاط ، لا يلاس نفوسكم فيه ضعف ، ولا يصحبها وهن
ولا وهم ، ثم قال ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أى بالمحافظة على العمل به ، فان العمل هو
الذى يجعل العلم راسخاً في النفس مستقراً عندها ، ويؤثر عن أمير المؤمنين على
كرم الله وجهه أنه قال : يهتف العلم بالعمل . فان أجابه وإلا ارتحل . وذلك أن
العلم إنما يحضر في النفس مجللاً غير سالم من إيهام وغموض ، فاذا برز للوجود بالعمل
صار تفصيلياً جليلاً ، ثم ينقلب النظري منه بالتكرار والمواظبة بديهاً ضرورياً .
وبذلك يثبت فلا ينسى . وأما النسيان فانه حليف الكفر وإنه ليصل بالإنسان
إلى حد يساوى فيه من لم تسبق له معرفة بالشئ . قط لأنه لا أثر له في النفس ولا
في الظاهر . ولا فرق بين من بلغته دعوة الهداية فسلم بها وقبلها ثم ترك العمل بها
حتى نسيها ، وبين من لم تبلغه ألبتة ومن بلغته على وجه غير مقنع فلم يؤمن - إلا
بما تكون الحجة به على الأول أظهر ، وكونه بالمؤاخذه أجدر ، والثاني معذور عند
الجاهل ، وكذلك الثالث إذا استمر على النظر من غير تقصير ، فعلى هذا تكون
منزلة الناسى هي التي تلي منزلة الجاحد المعاند ، وهو خليف بأن يحشر يوم القيامة
أعمى عن طريق النجاة والسعادة ، حتى إذا لقي ربه قال (٢٠: ١٢٤) رب لم حشرتني
أعمى وقد كنت بصيراً ؟ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم نفسى)
وأقول : إن في هذا الحجة على قراء القرآن الذين ليس لهم منه إلا التغنى بالفاظه
وأفئدتهم هواء لا أثر فيها للقرآن ، وأعمالهم لا تنطبق على ما جاء به القرآن ، وهذا شر
نوعى الإنسان ، وقد ضرب له أبو حامد الغزالي مثل عبید أقطعهم سيدهم بستانا
وكلفهم إصلاحه وعمارته ، وكتب لهم كتاباً يبين لهم فيه كيف يسبغون في هذا
الإصلاح ، وكيف تكون حياتهم فيه ، ووعدهم على الإحسان بمكافأة وأجر فوق
ما يستفيدونه من ثمرات البستان وغلاته ، وتوعدهم على الإساءة في العمل بالعقوبة

الشديدة وراء ما يفوتهم من خيرات البستان ، وما يدوقون من مرارة سوء المعاملة فيما بينهم ، فكان حظه من الكتاب تعظيم رقه وورقه ، والتغنى بلفظه ، وتكرار تلاوته ، بدون مبالاة بالأمر والنهي ولا اعتبار بالوعد والوعيد فيه ، بل عاثوا في أرض البستان مفسدين فأهلكوا الحرث والنسل ، فهل يكون حظ هؤلاء من الكتاب غير أنه حجة عليهم ، وقاطع لالسنه العذر منهم ??

أمرهم بالذكر الذى ثبت بالعمل ، ووصله بذكر فائدته وهى إعداد النفس لتقوى الله عز وجل ، فقال ﴿ لعلكم تتقون ﴾ فان المواظبة على العمل بما يرشد إليه الكتاب تطبع في النفس ملكة مراقبة الله تعالى فتكون بها تقية تقية ، راضية مرضية (والعاقبة للتقوى)

وبعد أن ذكر لهم تلك الآية ، وما اتصل بها من الهداية ، ذكرهم بما كان منهم من التولى عن الطاعة والاعراض عن القبول ، ثم امتن عليهم بمعاملتهم به من الفضل والرحمة ، والصفح عما يستحقونه من المؤاخذه والعقوبة ، فقال : ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ أى ثم أعرضتم وأنصرفت عن الطاعة من بعد أخذ الميثاق ومشاهدة الآيات التى تؤثر في القلوب ، وتستكين لها النفوس ﴿ فقلوا فضل الله

عليكم ورحمته لكنكم من الخاسرين ﴾ أى إنكم بتوليكم استحققت العقاب ، ولكن حال دون نزوله بكم فضل الله عليكم ورحمته بكم ، ولولا ذلك خسرتكم سعادة الدنيا وهو التمكن في الأرض المقدسة التي تفيض لبناً وعسلاً ، ثم خسرتكم سعادة الآخرة وهى خير ثواباً وخيراً أملاً . فمن فضله وإحسانه أن وفقكم للعمل بالميثاق بعد ذلك شايح الأستاذ الامام المفسرين على أن رفع الطور كان آية كونية ، أى أنه

انزع من الأرض وصار معلقاً فوقهم في الهواء ، وهذا هو المتبادر من الآية بمعونة السياق ، وإن لم تكن ألفاظها نصاً فيه ، إذ الرفع والارتفاع هو جعل الشيء — أو أن يكون الشيء — رفيعاً عالياً كما قال تعالى (فيها سرر مرفوعة) وقال (وفرش مرفوعة) فكل من السرر والفرش تكون مرفوعة وهى على الأرض . وقوله تعالى في آية الأعراف (وإذا نتقتا الجبل فوقهم كأنه ظلة) ليس نصاً أيضاً في كون الجبل رفع في الهواء . فأصل النتق في اللغة الزعزعة والزلزلة كما سبق . قال في حقيقة

الاساس : تنق البعير الرجل زعره ، وتنقت الزبد أخرجه بالحض ، وتنق الله الجبل رفعه مزعزعا فوقهم اهـ . والظلة كل ما أظلك سواء كان فوق رأسك أو في جانبك وهو مرتفع له ظل ، فيحتمل أنهم لما كانوا بجانب الطور رأوه منتوقا ، أى مرتفعاً مزعزعا فظنوا أن سيقع بهم ، وينقض عليهم ، ويجوز أن ذلك كان في أثر زلزال تزعزع له الجبل ، وقد سبق القول ببطلان كون ذلك إرهاباً للأكراهة على قبول التوراة ، وإذا صح هذا التأويل ، لا يكون منكر ارتفاع الجبل في الهواء مكذبا للقرآن

(٦٥) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٦) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَافَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ

أباح الله تعالى لبني اسرائيل العمل في ستة أيام من الأسبوع وحظر عليهم العمل في يوم واحد وهو يوم السبت ، وفرض عليهم في هذا اليوم الاجتهاد في الأعمال الدينية إحياء للشعور الديني في قلوبهم ، وإضعافا لشهرهم في جمع الخطام وحجبهم للدين ، فتجاوز طائفة منهم حدود الله في السبت واعتدوها ، فكان جزاؤهم على ذلك جزاء من لم يرض نفسه بأداب الدين ، وجزاء مثله هو الخروج من محيط الكمال الإنساني ، والرتوع في مراتع البهيمية ، كالقرد في نزواته ، والخنزير في شهواته ، وقد سجل الله تعالى عليهم ذلك بحكم سنة الفطرة ، والنواميس التي أقام بها نظام الخليقة ، وذلك قوله عز وجل ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت ﴾ أي وأقسم أنكم لقد علمتم نبا الذين تجاوزوا حدود حكم الكتاب في ترك العمل الديني يوم السبت - وسيأتي نبؤهم مفصلا في سورة الاعراف ﴿ قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ زوى ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه قال : ما مسخت صورهم ولكن مسخت قلوبهم فثقلوا بالقردة كما ثقلوا بالحمار في قوله تعالى (٦٢ : ٥) مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) ومثل هذا قوله تعالى (٦٠ : ٥) وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) والخشوع هو

الطرد والصفار. والأمر للتكوين ، أى فكانوا بحسب سنة الله فى طبع الإنسان وأخلاقه كالقردة المستنذلة المطرودة من حضرة الناس : والمعنى أن هذا الاعتداء الصريح لحدود هذه الفريضة قد جرأهم على المعاصى والمنكرات بلا خجل ولا حياء حتى صار كرام الناس يحتقرونها ولا يرونها أهلاً لمجالستهم ومعاملتهم

وذهب جمهور المفسرين : إلى أن تلك القرية أيلة وقيل طبرية أو مدين وقالوا إن ذلك كان فى زمن داود عليه السلام ، والقرآن لم يعين المكان ولا الزمان ، والعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات ، فالهجة فيما ذكر قائمة على بنى إسرائيل ومبينة أن مجاحدتهم ومعاندتهم للنبي ﷺ ليست بدعا من أمرهم . ثم انها عبرة بينة لكل من يفسق عن أمر ربه فيتخذ إلهه هواه ويعيش عيشة بهيمية . وذهب الجمهور أيضا إلى أن معنى (كونوا قردة) أن صورهم مسخت فكانوا قردة حقيقيين ، والآية ليست نصافيه ولم يبق إلا النقل ولو صح لما كان فى الآية عبرة ولا موعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يسخ كل عاص فيخرجه عن نوع الانسان ، إذ ليس ذلك من سننه فى خلقه ، وانما العبرة الكبرى فى العلم بأن من سنن الله تعالى فى الذين خلوا من قبل : أن من يفسق عن أمر ربه ، ويتنكب الصراط الذى شرعه له ، ينزل عن مرتبة الانسان ويلتحق بمجاثوات الحيوان . وسنة الله تعالى واحدة ، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما يعامل به القرون الخالية ، ولذلك قال ﴿ فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين ﴾ أى جعلنا هذه العقوبة نكالا وهو ما يفعل بشخص من إبداء وإهانة ليعتبر غيره أى عبرة ينكل من يعلم بها أى يمتنع من اعتداء الحدود، ومن هذه المادة (النكل) للقييد أو هو أصلها ومنها النكل عن اليمين فى الشرع وهو الامتناع ، وما بين يديها يراد به من وقعت فى زمنهم كما يراد بما خلفها من بعدهم إلى ما شاء الله تعالى وأما كونها موعظة للمتقين فهو أن المتقى يتعظ بها فى نفسه بالتباعد عن الحدود التى يخشى اعتداؤها (تلك حدود الله فلا تقربوها) ويعظ بها غيره أيضا ولا يتم كون تلك العقوبة نكالا المتقدمين والمتأخرين وموعظة للمتقين ، إلا إذا كانت جارية على السنة المطردة فى تربية الأمم وتهذيب الطباع ، وذلك ما هو

معروف لأهل البصائر، ومشهور عند عرفاء الأولائل والأواخر [وحديث المسخ والتحويل وأن أولئك قد تحولوا من أناس إلى قرود وخنازير إنما قصده التحويل والاعراب فاختيار مقاله مجاهد هو الأوفق بالعبارة والأجدر بتحريك الفكرة]. وأقول : إنه ليس في تفسير الآية حديث مرفوع إلى النبي ﷺ نص فيه على كون ما ذكر مسخا لصورهم وأجسادهم . وقد ذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره قول مجاهد في أن المسخ معنوى وقول الآخرين إنه صورى ، ثم قال والصحيح أنه معنوى صورى . فما مراده بذلك ؟

(٦٧) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقِمُّوهٓ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٧٠) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ۚ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَائِنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧١) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَمَّمَةٌ لَّا شِيعَ فِيهَا . قَالُوا أَلَسْنَاهُ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا كَاذِبُونَ .

هذه القصة مما أراد الله تعالى أن يقصه علينا من أخبار بنى اسرائيل في قسوتهم وفسوقهم للاعتبار بها . ومن وجوه الاعتبار أن التنطع في الدين والإحفاء في السؤال ، مما يقتضى التشديد في الاحكام ، فمن شدد شدد عليه ، ولذلك نهى الله تعالى هذه الامة عن كثرة السؤال بقوله (١٠١:٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن

أشياء إن تبدلكم تسوءكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدلكم . عفا الله عنها والله غفور حلیم * قد سأله قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين (وفي الحديث الصحيح « ويكره لكن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » وقد امتثل سلفنا الأمر فلم يشددوا على أنفسهم فكان الدين عندهم فطرياً ساذجاً وخفيفاً سمحاً ، ولكن من خلفنا من عمد إلى ما عفا الله عنه فاستخرج له أحكاماً استنبطها باجتهاده ، وأكثروا منها حتى صار الدين حملاً ثقيلاً على الأمة فسيئته وملت ، وألقته وتخلت .

قال الأستاذ الامام : جاءت هذه الآيات على أسلوب القرآن الخاص الذي لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ، فهو في هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب في تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى في القصة الواحدة . وإنما يسبق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب ، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً ، ويبرز النفس للاعتبار هزاً . وقد راعى في قصص بني اسرائيل أنواع المنن التي منحهم الله تعالى إياها ، وضروب الكفران والفسوق التي قابلوها بها ، وما كان في أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات ، وابتلائهم بالحسنات والسيئات ، وكيف كانوا يحدثون في أثر كل عقوبة توبة ، ويحدث لهم في أثر كل توبة نعمة ، ثم يعودون إلى بطرهم ، وينقلبون إلى كفرهم .

كان في الآيات السابقة يذكر النعمة فالتخالفة فالتعقوبة فالتوبة فالرحمة كالتفضيل على العالمين ، وأخذ الميثاق ، والانجاء من آل فرعون ، وما كان في أثر ذلك على ما أشرنا الآن وأجللنا ، وأوضحنا من قبل وفصلنا . وفي هذه القصة اختلف النسق فذكر التخالفة بعد في قوله (وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها) ثم المنية في اخلاص منها في قوله (فقلنا اضربوه ببعضها) الخ وقدم على ذلك ذكر وسيلة الخلاص وهي ذبح البقرة بما يعجب السامع ويشوقه إلى معرفة ما وراءها [حيث لم يسبق في الكلام عهد لسبب أمر موسى لقومه أن يذبحوا بقرة ، فالمنجاة بحكاية ما كان من ذلك الأمر والجدال الذي وقع فيه يشير الشوق في الأنفس إلى معرفة السبب فتتوجه الفكرة بأجمعها إلى تلقيه] إذ الحكمة في أمر الله أمة من الأمم بذبح بقرة

خفية وجديرة بأن يعجب منها السامع ويحرص على طلبها . لاسيما إذا لم يستد فهم الأساليب الأخاذة بالنفوس الهازة للقلوب . وأقول : قد جرى على هذا الأسلوب كتاب القصص المخترعة والأساطير التي يسمونها الروايات في هذا المصـر

يقول أهل الشبهات في القرآن : إن بني إسرائيل لا يعرفون هذه القصة إذا لا وجود لها في التوراة فمن أين جاء بها القرآن ؟ ونقول : إن القرآن جاء بها من عند الله الذي يقول في بني إسرائيل المتأخرين : إنهم نسوا حظا مما ذكروا به وأنهم لم يؤتوا إلا نصيباً من الكتاب . على أن هذا الحكم منصوص في التوراة وهو أنه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبة من المقتل أيديهم على العجلة التي كسر عنقها في الوادي ، ثم يقولون إن أيدينا لم تسفك هذا الدم ، إغفر لشعبك إسرائيل : ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء فيحتمل أن يكون هذا الحكم هو من بقايا تلك القصة أو كانت هي السبب فيه . وما هذه بالقصة الوحيدة التي صححها القرآن ، ولا هذا الحكم بالحكم الأول الذي حرفوه أو أضاعوه وأظفروه الله تعالى . (قال الأستاذ) وقد قلت لكم غير مرة إنه يجب الاحتراس في قصص بني إسرائيل وغيرهم من الأنبياء وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين . فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعالم اليوم يقولون معنا إنه لا يوثق بشيء من تاريخ تلك الأزمنة التي يسمونها أزمنة الظلمات إلا بعد التحري والبحث واستخراج الآثار فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التي لا يوثق بها لحسن قصدهم ، ولكننا لا نعول على ذلك بل تنهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتمدها ، وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته

(وأقول) إن ما أشار إليه الأستاذ من حكم التوراة المتعلقة بقتل البقرة هو في أول الفصل الحادي والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه :

(١) إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلهك لتملكها واقعاً في

الحقل لا يعلم من قتله

(٢) يخرج شيوخك وقضاةك ويقسون إلى المدن التي حول القليل
(٣) فالمدينة القرية من القليل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم
يحرق عليها لم تجر بالنير

(٤) وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرق فيه
ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة في الوادي

(٥) ثم يتقدم السكينة بنى لاوى لأنه إياهم اختار الأب إهلك ليخدموه
ويباركوا باسم الرب ، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة

(٦) ويفسل جميع شيوخ تلك المدينة القرية من القليل أيديهم على العجلة
المكسورة العنق في الوادي

(٧) ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم وأعيننا لم تبصر

(٨) اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب ولا تجعل دم برىء في وسط
شعبك إسرائيل . فيغفر لهم الدم اه

فعلم من هذا أن الأمر بذبح البقرة كان لفصل النزاع في واقعة قتل ويروون
في قصته روايات منها أن القاتل كان أخ المقتول قتله لأجل الارث وأنه اتهم
أهل الحى بالدم وطالبهم به . ومنها أنه كان ابن أخيه . وغير ذلك مما لا حاجة إليه ،
وكانوا يطلبوا من موسى الفصل في المسألة وبيان القاتل ولما أمرهم بذبح البقرة
استغفروا له لما فيه من المبالغة لما يطلبون ، والبعد بينه وبين ما يريدون ، فذلك قوله
تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أأنخذنا هزوا ﴾
أي سخرية يهزأ بنا ، وهذا القول من سفههم وخفة أحلامهم وجهلهم بعظمة الله تعالى
وما يجب أن يقابل به أمره من الاحترام والامتنال ، وإن لم تظهر حكمته بآدى
الرأى ، ولولا ذلك لامتثلوا وانتظروا النتيجة بعد ذلك . ولما كان في جوابهم هذا رمي
لموسى عليه الصلاة والسلام بالسفه والجهالة ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾
أي أتجنى ، إلى الله وأعتصم بتأديبه إياى من الجهالة والهزء بالناس

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ﴾ أي ما الصفات المميزة لها ؟ قال
الأستاذ الإمام : إن السؤال بما هي ليس جاريا هنا على اصطلاح علماء

المنطق من جملة سؤالاً عن حقيقة الماهية ، وإنما هو على حسب أسلوب اللغة ،
والعرب يسألون بما عن الصفات التي تميز الشيء في الجملة كالذي ذكره في الجواب
﴿قال إنها بقرة لا فارض﴾ أى غير مسنة انقطعت ولادتها ﴿ولا بكر﴾ لم تلد بالمرة
والمراد بها التي لم تلد كثيراً ﴿عوان بين ذلك﴾ العوان النصف في السن من النساء
والبهائم أى هي بين ما ذكر من السنين الفارض والبكر فالشار إليه بكلمة ذلك متعدد في
المعنى وإن كان لفظه منفرداً . و « بين » من الكلام التي تختص بالمتعدد تقول جلست بينهم
أو بينهما ولا تقول جلست بينه واستعمال الإشارة والضمير المفردين فيما هو بمعنى الجمع على
تقدير التعبير عنه بالمذكور أو « ما ذكر » كثير في كلامهم ومنه قول رؤبة :
فيها خطوط من سواد وبلق * كأنه في الجسم توليع البلق

ذكر هذا الوصف المميز للبقرة في الجملة وقال ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ وكان
يجب عليهم الا اكتفاء به والمبادرة بعده للامتثال ولكنهم أبو لا تنطعا واستقصاء
في السؤال ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء
فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ الفاقع الشديد الصفرة في صفاء بحيث لا يخاطه لون
آخر ، وبعض أهل اللغة لا يخصه بالأصفر بل يجعله وصفاً لكل لون صاف .
وكان يجب أن يكتبوا بهذه المميزات ولكنهم زادوا تنطعا إذ ﴿ قالوا ادع لنا
ربك يبين لنا ماهي ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وقد أرادوا
بهذا السؤال زيادة التمييز ككونها عاملة أو سائمة ﴿ قال إنها بقرة ﴾ سائمة
﴿ لا ذلول تنبذ الأرض ولا تسقى الحرث ﴾ أى غير مدللة بالعمل في الحرثة ولا
في السقى ﴿ مسلة ﴾ من العيوب أو من سائر الأعمال ﴿ لاشية فيها ﴾ أى ليس
فيها لون آخر غير الصفرة الفاقعة . والشية مضدر كالعدة من وشى الثوب يشيه إذا جمل
فيه خطوطاً من غير لونه بنحو تطريز . ولما استوفى جميع المميزات والمشتخصات ولم يروا
سبيلاً إلى سؤال آخر ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبوها وما كادوا يفعلون ﴾
أى وما قاربوا أن يذبوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم ، وانقطع ما كان من تنطعهم
وتعنيتهم . روى ابن جرير في التفسير بسند صحيح عن ابن عباس موقوفاً « لوذبوها

أي بقرة أرادوا لأجراتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه عن عكرمة مرفوعاً مرسلًا : وههنا يذكر المفسرون قصة في حكمة هذا التشديد وهو المصير إلى بقرة معينة لشخص معين كان باراً بوالديه وقد يكون هذا صحيحاً غير أنه لا داعي إليه في التفسير وبيان المعنى . وقد يشتهر بعض الناس فيما ذكر بأن أحكام الله تعالى لا تكون تابعة لأفعال الناس المعارضة ويرد هذه الشبهة أن التكليف كثيراً ما يكون عقوبة لأنه تربية للناس وقد وردت الأسئلة والأجوبة في هذه القصة مفصلة غير موصولة بالفاء وذلك ما يقتضيه الأسلوب البليغ فقد تقرر في البلاغة أن القول إذا أشعر بسؤال كان ما يأتي بعده مما يصح أن يكون جواباً للسؤال المقدر مفصولاً عما قبله ، وقوله (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) يشعر بسؤال كأنه قيل ماذا كان منهم بعد الأمر فأجيب عنه بقوله (قالوا أنتخذنا هزواً) وهذا يشعر بسؤال أيضاً كأنه قيل ماذا قال موسى إذ قالوا ذلك فأجاب (قال أعوذ بالله) الخ وهكذا ورد غيرها من المراجعات في التنزيل كما ترى في قصة موسى وفرعون

(٧٢) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَئْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ
(٧٣) قُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا . كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

هذا هو أول القصة المحتوية على المخالفة على ما أشرنا إليه وهي القتل ثم التنازع في القاتل ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة وما كان من إلحاحهم في السؤال على ما سبق . فقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَئْتُمْ فِيهَا ﴾ أسند فيه القتل إلى الأمة وإن كان القاتل واحداً باعتبار ما تقدم من كونها في مجموعها وتكافئها كالشخص الواحد . والتدارؤ تفاعل من الدره وهو الدفع فمعناه التدافع وهو يدل على أنه كان خصام واتهام ، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره ، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كنتموها فيها

الحقيقة ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة ﴿وَاللّٰهُ مَخْرَجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من الإيقاع بقوم برآءة تهمونهم بالقتل لإخفاء القاتل لأنه لا يخفى عليه مكرهم.

وأما قوله ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِيَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللّٰهُ الْمَوْتَى﴾ فهو بيان لإخراج ما يكتُمون . ويروون في هذا الضرب روايات كثيرة . قيل إن المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبا ... وقالوا إنهم ضربوه فعاادت إليه الحياة وقال : قتلنى أخى أو ابن أخى فلان الخ ما قالوه ؛ والآية ليست نصا في مجمله فكيف بتفصيله . والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل في الدماء عند التنازع في القاتل إذا وجد القتل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره ، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك في الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية . ومعنى إحياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف في قتل تلك النفس أى يحياها بمثل هذه الأحكام . وهذا الإحياء على حد قوله تعالى (٥: ٣٢) ومن أحيها فكتأما أحياء الناس جميعا) وقوله (ولسكن فى القصاص حياة) فالإحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين . ثم قال ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ بما يفصل بها فى الخصومات ، ويزيل من أسباب الفتن والعداوات ، فهو كقوله تعالى (٤: ٥١) إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّٰهُ) وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير فى آيات الله فى خلقه الدالة على صدق رسوله . وليس عندى شئ عن شيخنا فى تفسير هذه الجملة ولكنه قال فى تعليلها ما يرجح القول الأول وهو ﴿لعلكم تعقلون﴾ أى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة ، فلا تتوهمون أن ما وقع مخصص بهذه الواقعة فى هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله فى كل وقت بالقبول من غير تعنت : قال تعالى :

(٧٤) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ

فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ إِنَّ مِنْهَا لَمَّا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ . وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .

(أقول) وصفهم الله تعالى بأنه قد طرأ عليهم بعد رؤية تلك الآيات ما أزال أثرها من قلوبهم ، وذهب بعبيرتها من عقولهم ، فقال ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ فالعطف بنم يفيد أن الأولين منهم قد خشعت قلوبهم لما رأوا في زمن موسى عليه السلام ماراً وأوأم خلف من بعدهم خلف كان أمر قسوتها ما وصفه عز وجل . والقسوة الصلابة وهي من صفات الأجسام . ووصف القلوب بالقسوة مجاز تشبيه مما يسمونه الاستعارة بالكناية ، ويصح في «أو» الترديد والتشكيك وهو بالنسبة إلى المخاطبين لا إلى المتكلم باعتبار ما يعمد في التخاطب العربي كأن عريياً يحدث آخر ويقول له : إن هذه القلوب في قسوتها تشبه الحجارة أو تزيد عليها . ويصح فيها التقسيم أي إن القسوة عمت قلوبكم فأقلها قسوة يشبه الحجر الصلب ، ومنها ما هو أشد منه قسوة . وأظهر منهما أن تكون للاضراب على طريقة المبالغة ، أي بل هي أشد قسوة من الحجارة ، إذ لا شعور فيها يأتي بخير ، ولا عاطفة تفيض منها بعبرة ، والحجارة ليست كذلك ، لأن منها ما يفيض بالخيرات ، ومنها ما يكون موضع ظهور آثار القدرة الإلهية في الجمادات .

وصف الحجارة بالثلاث الصفات الآتية بعد أن شبه القلوب بها في الصلابة المطلقة ، وفرق بين القلوب وبينها بالاضراب والانتقال إلى أن القلوب أشد صلابة ، وأراد أن يبين بهذه الصفات وجه ضعف الصلابة في الحجارة وشدها في القلوب مكان الكلام يشبه أن يكون عذراً عن الحجارة دون القلوب ، والمراد بالقلوب ما اعتبرت عنواناً له وهو الوجدان والعقل ، وأكثر ما تستعمل في الأول لأنه سائق الإقناع والإذعان ، ويطلق لفظ القلب على النفس الناطقة لأن من شأن القلب أن يتأثر مما يتأثر منه الوجدان أو العقل أو الروح مطلقاً . وفي الكلام من المبالغة أن هذه القلوب فقدت خاصة التأثر والانفعال بما يرد عليها من أنواع والآيات التي هي من خواص الروح الإنساني حتى كأن أصحابها هبطوا من درجة الحيوان

إلى دركة الجماد كالحجارة ، بل نزلوا عن دركة الحجارة أيضاً ، وذلك ما أفاده قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ التفجر تفعل من الفجر وهو الشق الواسع يكون للمطوعة كفجرته فنفجر (بالتشديد فيهما) ويكون لتكرر الفعل وحصوله مرة بعد أخرى ، ومثله التشقق إلا أنه أعم ، ولما في التفجر من معنى السمة عبر به عن خروج الأنهار من الصخور السكبارة وهو معهود في الجبال ، وعبر بالتشقق لخروج الماء الذي يصدق بالقليل منه .

والمعنى أن هذه الحجارة على صلابتها وقسوتها تتأثر بالماء الرقيق اللطيف فيشقها وينفذ منها بقلة أو كثرة فيحیی الأرض وينعم النبات والحيوان . وأما هذه القلوب فلم تعد تتأثر بالحكم والنذر ولا بالعظات والعبر ، فالحكم لا تقوى على شتمها والنفوذ منها إلى أعماق الوجدان ، وأنوار القلوب قد انطفأت فيها فلا يظهر شعاعها على انسان ، ومن الحجارة ما يشقه الماء القليل كماء العيون والينابيع الحجرية ، ومنها ما لا يفجره إلا الماء القوى الغمر الذي يسمى نهراً (وإن منها لما يهبط من خشية الله) وهو ما ينحط من أعلى الجبل ومن أثنائه بسبب أثر من آثار البهر الإلهي كالبراكين والصواعق التي تهبط بها الصخور وتندك الجبال ، وقد جعل هذا شبيهاً للآيات الإلهية التي أظهرها على يد عبده ونبيه موسى عليه السلام فهي حوادث عظيمة في الكون تفرغ بها نفوس المؤمنين إلى الله ، وتخضع لأمره ونبيه ، لعظمتها وخفاء سر إيجادها . كما تفرغ النفوس من حوادث البراكين والصواعق التي تندك الصخور وتدمر الحصون ، وقد أصبحت تلك القلوب بعد مشاهدة الآيات لا تتأثر بها ولا تزدد إيماناً .

فلخص التشبيه أن قلوبكم تشبه الحجارة في القسوة بل قد تزيد في القساوة عنها ، فإن الحجارة الصم تتأثر في باطنها بالماء اللطيف النافع بعضها بالقوى منه وبعضها بالضعيف ، ولكن قلوبكم لا تتأثر بالحكم والمواعظ التي من شأنها التأثير في الوجدان ، والنفوذ إلى الجنان ، والحجارة تتأثر بالحوادث الهائلة التي يحدثها الله في الكون كالصواعق والزلازل ، ولكن قلوبكم لم تتأثر بتلك الآيات الإلهية

«تفسير القرآن الحكيم» «٢٣» «الجزء الأول»

التي تشبهها ، فلا أفادت فيها المؤثرات الداخلية ولا المؤثرات الخارجية كما أفادت في الأحجار ، فبذلك كانت قلوبكم أشد قسوة ، ثم هددكم بقوله ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أى فهو سير يسكم بضروب النقم ، إذا لم تتوبوا بصنوف النعم .

(٧٥) أَفَظَنُّوا أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمُؤْنَ كَاثِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٦) وَإِنَّا لَقَوُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُ بِهِمْ إِنَّمَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٧) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٨) وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَخْتَلِفُونَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَنْظُنُّونَ .

كان النبي ﷺ وأصحابه (رض) يرون أن أولى الناس بالإيمان وأقربهم منه اليهود لأنهم موحدون ومصدقون بالوحي والبعث في الجملة ولذلك كانوا يطعمون بدخولهم في الإسلام أفواجا لأنه مصدق لما معهم في الجملة ومجمل لجميع شبهات الذين وحال لجميع إشكالاته بالتفصيل وواضع له على قواعد لا ترهق الناس عسراً (و مجمل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم) كان هذا الطمع في إيمانهم مبنياً على وجه نظرى معقول لولا أنهم اكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية ، ولم يجعلوه هداية روحية ، ولذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء ، ويحرفون كله عن مواضعها بحسب الأهواء ، وما أعذر الله المؤمنين في طمعهم هذا إلا بعد ما قص عليهم من نبأ بنى إسرائيل الذين كانوا على عهد التشريع وشاهدوا الآيات ما علم به أنهم في المحاجدة والمعاندة على عرق راسخ ونخيزة موروثة لا يكفي في زوالها كون القرآن مبيناً في نفسه لا يتطرق إليه ريب ، ولا يتسرب إليه شك ، ولذلك بدأ السورة بوصف الكتاب بهذا وكونه هدى للمتقين من أهل الكتاب وغيرهم . وثنى ببيان أن من الناس

من يعانده ويباهته ، ومنهم المذبذب الذى يميل مع الربحين ، فلا يثبت مع أحد الفريقين ، ثم أفاض فى شرح حال بنى اسرائيل الذين لم يؤمن منهم إلا قليل من أهل العلم والتقوى ، وكان ألا كثرون أشد الناس استكباراً عن الإيمان وإيذاء للرسول ولمن اتبعه من المؤمنين . وبعد هذا كله أنكر على المؤمنين ذلك الطمع بدخول اليهود فى دين الله أفواجا ، ووصل الانكار بحجة واقعة ناهضة ، تجعل تلك الحجة النظرية داحضة فعلم بهذا أن الكلام لا يزال متصلا فى موضوع الكتاب وأصناف الناس بالنسبة إلى الإيمان به وعدم الإيمان . كلما بعد العهد جاء ما يذكر به تذكيراً قال تعالى ﴿ أفنطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام

الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ كان الظاهر أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ولكن خاطب المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه فى الآلام من أيدائهم والطمع بهدايتهم فأشركهم بالتسليم كما سبق ، ولأن طمع بعض المؤمنين بإيمانهم كان يحملهم على الانبساط معهم فى المعاشرة إلى حد الافضاء إليهم ببعض الشؤون المالية المحضة واتخاذهم بطانة ، وكان يعقب ذلك من الضرر ما يعقب حتى نهاهم الله تعالى عن اتخاذ البطانة من دون المؤمنين إذا كانوا موصوفين بأوصاف هؤلاء ، وذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر) والآية الآتية تدل على هذا الافضاء أيضاً

أما الحجة التى وصلها بانكار الطمع بإيمانهم للدلالة على أنه طمع فى غير مطعم فهى تعمد تحريف كلام الله ممن سمعه منهم . وذلك أن موسى اختار بأمر الله سبعين رجلا من قومه لسماع الوحي ومشاهدة الحال التى يكلمه الله تعالى بها وقد سمعوا كلام الله تعالى على الوجه الذى لا نعرفه ، وإنما نعرف أنهم صحبوه إلى حيث كان يتاجى الله تعالى ، وكان من شأن الله تعالى معهم أن صدقوا بأن ما جاء به موسى عليه السلام هو وحي من الله تعالى . والتصديق بذلك لا يتوقف على معرفة كيفيته وكنهه فإن أكثر ما نصدق به تصديق يقين لا نعرف حقيقته وكنهه ولا كيفية تكوينه وإيجاده . وقد كان من أولئك المختارين أنهم لما رجعوا إلى

قومهم حرفوا كلام الله الذي حضروا وحياه وأذعنوا له بأن صرفوه عن وجهه بالتأويل -- كما حققه ابن جرير الطبري وغيره . وهذا التحريف ثابت عندهم

منصوص في التوراة والتاريخ الديني الذي يسمى التاريخ المقدس

فدل هذا وما سبقه على أن القسوة الممانعة من التأثر والتدبر ، ومكابرة الحق والتقصي من عقول الشريعة ، كان شئشنة قديمة فيهم ، ثم تأصل فصاغر غريزة مطبوعة ، فأعراضهم عن القرآن لا يستلزم الطعن عليه ، ولا القول بجواز تسليق شيء من الريب إليه ، فاتهم قد حرفوا وبدلوا ، وعاندوا وجاحدوا ، وهم يشاهدون الآيات الحسية ، ويؤخذون بالمعقوبات المعاشية ، فكيف يستنكر بعد هذا أن يعرضوا عن دين دلائله عقلية ، وآياته الكبرى معنوية ، وهي القرآن المعجز بما فيه من علوم الهداية ، ودقائق البلاغة ، وأنباء الغيب على أنه من أمي عاش أربعين سنة لم يؤثر عنه فيها شيء من العلم ، ولم يزاجم فحول البلاغة في ثرولا نظم ، وفهم تلك الدلائل انما يكون من ذوى العقول الحرة والقلوب السليمة ، الذين لطف شعورهم ، ورق جدانهم وصحت أذواقهم .

قال ابن جرير : لو كان المراد بما هنا تحريف كلام التوراة المكتوب لما قال يسمعون كلام الله ثم يحرفونه فزيادة « يسمعون » هنا لا بد لها من حكمة ولولا ذلك لجاء الكلام على نسق الآيات الأخرى التي ذكر فيها التحريف كأن يقول « وقد كان فريق منهم يحرف كلام الله » . وقوله تعالى « من بعد ما عقوله » نص في التعمد وسوء القصد ، وإبطال لما عساه يعتذر لهم به من سوء الفهم ، ثم قال « وهم يعلمون » أي كانوا يفعلون فعلتهم الشنعاء في حال العلم بالصواب واستحضاره لأنهم كانوا على نسيان أو ذهول . وفي هذين القيد من النفي والتشنيع عليهم مالا مزيد عليه . وكيف وقد بطل بها عذر الخطأ والنسيان ، وسجل عليهم تعمدهم الفسوق والمعصيان .

ثم بعد هذا الاحتجاج انتقل إلى بيان بعض أحوال الذين كانوا في زمن التنزيل وقد غير الأسلوب هنا فانه كان يحكى سيناتهم مبتدئا بكلمة (وإذا) لأنه تذكير بما كان في الزمان الماضي . والابتداء بكلمة (إذا) هنا هو المناسب في الحكاية عن حال واقعة في الحال ، مستمرة في الاستقبال ، والمراد من حكاية

أحوال الحاضرين ، بيان أنها مساوية لأحوال سلفهم الغابرين ، وأنه لا يرجى من هؤلاء أفضل مما كان من أولئك . قال :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا . وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا :

أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ ﴾

ترشد هذه الآية إلى طور من أطوار البشر في زمن الإصلاح وهي أن جماهير الناس يقعون في الخيرة بين الهداية الجديدة والتقاليد القديمة . لا ينظرون إلى الحق فيتحروا اتباعه أين كان ، ولكنهم يفكرون في منفعتهم الخاصة . يقولون : نخشى أن نجهر بالجديد فيخزل حزبه ويتفرق شمله ، فنكون من الخاسرين . ولا نأمن إن بقينا على القديم أن يتقلص ظله . ويدل أهلنا ، فنكون مع الضالين . فالخزم أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الآخر إذا هو علم بما كان منا إلى أن نتبين الفوز في أحد الفريقين : فيكونون هكذا مذبحدين كما قال تعالى « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم » الخ الضمير في قالوا الثانية غير الضمير في قالوا الأولى كما هو ظاهر من السياق ، ولا لبس فيه ولا اشتباه ، ومثله مستفيض في كلام البلغاء وفي التنزيل أيضا كقوله تعالى (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن) فان المنهى عن العضل الأولياء لا المطلقون . والكلام في القرآن للمسكفين كافة فيوجه كل كلام إلى صاحبه الذي يتعين أن يكون له بقرينة الحال أو المقال . فاذا وجه الخطاب بالطلاق إلى الأزواج لأنه لا يكون إلا منهم فكذلك يوجه الخطاب بالنهي عن العضل - وهو منع المرأة من التزوج - إلى الأولياء لأنه لا يكون إلا منهم . وعلى هذه الطريقة يتخرج قوله (قالوا آمنا) وقوله (قالوا أتحدثونهم) فالكلام في مجموع اليهود ، ويوجه الأول إلى الذين يلاقون المؤمنين (والثاني) إلى الذين يلاقوهم هؤلاء من قومهم ويعملونهم على الإفضاء إلى المؤمنين بما فتح الله عليهم المراد بالفتح هنا الانعام بالشرعة والأحكام ، والبشارة بالنبي عليه الصلاة والسلام ، شبه الذي يعطى الشرعة بالمحصور يفتح عليه فيخرج من الضيق . أو معنى (بما فتح الله عليكم) بما حكم به وأخذ به الميثاق عليكم من الإيمان بالنبي

الذي يجيشكم مصدقا لما معكم ونصره ، وقوله (ليحاجوكم به عند ربكم) معناه يقيمون به عليكم الحجة من كتاب ربكم وهو التوراة من حيث إن ما تحدثونهم به موافق لما في القرآن فلمهم أن يقولوا : لولا أن محمداً نبي لما علم بهذا الذي حكاه عنكم وقد كان مثلنا لا يعرف من أمر الكتاب شيئاً : هذا ماجرى عليه المحققون في تفسير (عند ربكم) وهو أنه بمعنى في كتابه فهو كقوله في أهل الافك (فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) أى في حكمة المبين في كتابه .

وذهب مفسرنا (الجلال) إلى أن معناه الحاجة في الآخرة والنظم لا يأباه ، ولكن فيه اعترافا من اللائمين المؤمنين بأن المسلمين على الحق الذي لا ينجى عند الله سواء . ومن اعتقد هذا لا يجعله تعليلا للانكار على من يراه من قومه يحدث المؤمنين بما يوافقهم ويقوى حججهم ، بل فيه أيضا أن ترك تحديثهم لا ينفع في الآخرة .

مثل هذه الذبذبة تكون من الأمم في طور الضعف ولا سيما ضعف الإرادة والعلم ، ولو كان لأولئك القوم ارادة قوية لثبتوا ظاهراً على ما يعتقدونه باطلا ولم يصانعوا مخالفهم من أهل الملة الأولى أو الملة الآخرة ، وقد وبخهم الله تعالى وأنكر عليهم هذا التلون والدهان في الدين ولقاء كل فريق بوجه يظهرون له ما يسرون من أمر الآخر فقال ﴿ أولاً يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾

يعنى أيقول اللائمون أو المنافقون كلهم ما قالوا ، ويكتبون من صفات النبي ﷺ ما كتموا ، ويحرفون من كتابهم ما حرفوا ، ولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون من كفر وكيد ، وما يعلنون من اظهار إيمان ورد ، فإن كانوا مؤمنين باحاطة علمه تعالى فلم لا يحفلون باطلاعه على ظواهرهم ، واحاطته بما يحول في أطوارهم ، وبما يترتب على علمه من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة

قال تعالى ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ﴾ ذلك الذي تقدم هو شأن علمائهم : يحرفون كتاب الله ويخرجون من حكمة بالتأويل ، وهذا هو شأن عامتهم : لا علم لهم بشيء من الكتاب ، ولا معرفة لهم بالأحكام ، وما عندهم من الدين فهو أماني يتمنونها وتحول صورها في خيالاتهم ، وهذه الصور هي كل ما عندهم من العلم بدنسهم ، وما هم على نية منها ، وإتمام ظنونهم

يلهون بها . وهذا هو محل الذم لا مجرد كونهم أميين ، فان الأمي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقاة ويعقله عنهم بدليله فيكون علمه صحيحاً وهؤلاء لم يكونوا كذلك . فان قيل : لم سمى ما كانوا عليه من الأمانى ظناً مع أنهم أخذوه عن رؤساء دينهم الموثوق بهم عندهم وسلّموه تسليماً فلم يكن في نفوسهم ما يخالفه ومثل هذا يسمى اعتقاداً وعلماً ؟ نقول إنما العلم بالدليل ولا يسمى مثل ذلك علماً إلا من لا يعرف معنى العلم . على أنه لم يكن راجحاً ومسلماً إلا لأن مقابله لم يخطر ببالهم ولو أورد عليهم لتزلزل ما عندهم ثم زال ، أو ظهر فيه الشك وتطرق إليه الاحتمال ، ويصح أن يقال في مثل هؤلاء إن الظن أو التردد كان نائماً في نفوسهم وهو عرضة لأن يوقظه تقيضه ويذهب به متى طرأ . ونوم الظن لا يصح أن يسمى اعتقاداً

قال الأستاذ الامام : هذه الأمانى توجد في كل الأمم في حال الضعف والانهطاط يفتخرون بما بين أيديهم من الشريعة وبسلفهم الذين كانوا مهتدين بها وبما لهم من الآثار التي كانت ثمرة تلك الهداية ، وتسول لهم الأمانى أن ذلك كاف في نجاتهم وسعادتهم وفضلهم على سائر الناس . هكذا كان اليهود في زمن التنزيل وقد اتبعنا سلفهم وتولوا تلومهم فظهر فينا تأويل الحديث الصحيح «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعاً بذراع» وإنا نقرأ أخبارهم فنسخر منهم ولا نسخر من أنفسنا ، ونعجب لهم كيف رضوا بالأمانى ونحن غارقون فيها

ثم إن الآية تدل على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بإيمان صاحبه وقدمضى على هذا إجماع الصدر الأول وأهل القرون الثلاثة وإنما كان الجاهل يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها ، والأحكام بروايتها ، ولا يتقلد رأيه كيفما كان ، من غير بينة ولا برهان ، وفسر بعضهم الأمانى بالكاذب ابتداء ومنهم من فسرهما بالقراءات أى أنهم لاحظ لهم من الكتاب الاقراء الفاظة من غير فهم ولا اعتبار بظهر أثرها في العمل : فهو على حد (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الجمار يحمل أسفاراً) وقد ورد التنى بمعنى القراءة ومنه قول الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليلة تمنى داود الزبور على رسل

وهذا النوع من التنى قد دُرّ فيه المسلمون حتى ستموا من قبلهم فقد أمسوا

أكثر الأمم تلاوة لكتابتهم وأقلمهم فهماله واهتداء به
قال الاستاذ الإمام : إنما يحسن تفسير هذه الآيات من كان على علم بتاريخ
اليهود في ذلك العصر ووقوف على حالهم ، وإن كانت النسخة من حال بعض
الشعوب الموجودين الآن كانوا أكثر الناس مرءا وجدالا في الحق وإن
كان بينا باهرا ، وأشد الناس كذبا وغرورا وأكثلا أموال الناس بالباطل كالربا الفاحش
وغشائ وتدليس وتلبيساء ، وكان مع ذلك يعتقدون أنهم شعب الله الخاص وأفضل الناس
كما يعتقد أشباههم في هذا الزمان . فهذه هي الأمانى التي صدرت عن قبول الإسلام
وأما اللفظ والنظم ففيه أن قوله تعالى « إلامانى » استثناء منقطع والعلم المنق
قاصر لا يشمل الأمانى . ويصح أن يكون معتديا والآية على حد قولهم « ما علمت
فلانا الافاضلا » ويكون المعنى أنهم إنما يعلمون من الكتاب أنه مجموعة أمانى
يعنونها أنفسهم ، فهم لا يأخذون منه الا ما هو لهم ويمدحهم في غرورهم ، وأما ما ينسبهم
على سيئات أعمالهم فكانه غير معروف لهم من الكتاب . ثم قال جل تناؤه

(٧٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ
لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .

قال المفسر (الجلال) إنهم كانوا يكتبون الأحكام على خلاف ما هي عليه
في الكتاب كآية الرجم ووصف النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . وقال الاستاذ
الإمام لو كان هذا هو المراد من هذه الآية لما بدىء الكلام بالفاء وإنما الآية
وعيد على أن لبسوا على الناس بالكتابة وتأليف الكتب الدينية وإيهام العامة
أن كل ما كتبوه فيها مأخوذ من كتاب الله كما يعتقد المقلدون من كل ملة بكتب
الدين التي يألفها علماءهم في الأصول والفروع حتى أن بعضهم يقول إن اختلافها
لا ينافي كونها من عند الله خلافا لقوله تعالى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا
فيه اختلافا كثيرا) . فهذه الكتب هي مشار الأمانى والغرور ولذلك أُنذر على

أصحابها الهلاك بعد ما ذكر أوصاف اليهود من منافقين ومحرفين وأمينين فقال
﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ﴾ أقول :
أى ويل وهلاك عظيم لأولئك العلماء الذين يكتبون الكتب بأيديهم ويودعونها
آرائهم ويحملون الناس على التعبد بها قائلين إن ما فيها من عند الله ويمكن الاستغناء
بها عن كتاب الله الذى نفهم منه مالا يفهم غيرنا : يخطبون بتلك الكتب
مبيل العامة وودهم ويتبعون الجاه عندهم ويأكلون أموالهم بالدين . ولذلك قال
﴿ ليشتروا به ثمنا قليلا ﴾ وكل ما يباع به الحق ويترك لأجله فهو قليل لأن الحق
أعز الأشیاء وأغلاها ، وأرفعها وأعلاها ، ولذلك كرر الوعيد فقال
﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ فالهلاك والويل محيط بهم
من أقطارهم ونازل بهم من جانب الوسيلة ومن جانب المقصد .

قال الأستاذ الإمام : من شاء أن يرى نسخة مما كان عليه أولئك اليهود فليستظر
فيما بين يديه فانه يراها واضحة جليلة . يرى كتباً ألفت في عقائد الدين وأحكامه
حرفوا فيها مقاصده وحولوها إلى ما يفر الناس ويمنيهم ويفسد عليهم دينهم ،
ويقولون هى من عند الله وما هى من عند الله . وإنما هى ضادة عن النظر في كتاب
الله والاهتداء به . ولا يعمل هذا إلا أحد رجلين : رجل مارق من الدين يتعمد
إفساده ويتوخى إضلال أهله فيلبس لباس الدين ويظهر بمظهر أهل الصلاح يخادع
بذلك الناس ليقبلوا ما يكتب ويقول . ورجل يتحرى التأويل ويستنبط الحيل
ليسهل على الناس مخالفة الشريعة ابتغاء المال والجاه

ثم ذكر الأستاذ وقائع طابق فيها بين ما كان عليه اليهود من قبل وما عليه
المسلمون الآن - ذكر وقائع للقضاة والمأذونين ، وللعلماء والواعظين ، فسقوا فيها
عن أمر ربهم ، فمنهم من يتأول ويفتر بأنهم يقصد نفع أمتهم كما كان أحبار اليهود
يفتنون بأكل الربا أضما فامضاعفة ليستغنى شعب إسرائيل ، ومنهم من يفعل ما يفعل
عامداً علماً أنه مبطل ولكن تغررهم أهائى الشفاعات والمكفرات

(٨٠) وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨١) بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨٢) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

هذا ضرب من ضروب غرورهم عطفه على ما قبله فقال ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ قيل هي أربعون يوما مدة عبادتهم العجل والذي عليه أكثر اليهود أنها سبعة أيام لأن عمر الدنيا عندهم سبعة آلاف سنة فلا سراييل الذي لا تدركه الشفاعة يمكث في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة يوم. ومثل هذا الحكم لا يمكن القول به إلا بعهد من الله تعالى مالك يوم الدين والجزاء وإلا كان افتشاشا عليه سبحانه وقولا عليه بغير علم وهذا مارد به عليهم والله الحجة البالغة وأمر رسوله أن يخاطبهم به بقوله ﴿ قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ﴾ أي هل عهد الله إليكم ذلك ووعد به فكان حقا لكم عنده ، لأن الله لا يخلف عهده ؟ وقال ابن جرير وبعض المفسرين معناه هل اتخذتم عند الله عهدا باتباع شريعته اعتقادا وإثمارا وانتهاء وتخلقا فأنتم وانفقون بعهد الله في كتابه لمن كان كذلك بالنجاة من النار ودخول الجنة ومغفرة ما عساه يقرط منه من السيئات أو العقوبة عليه مدة قصيرة ؟ والاستفهام للانكار أي لستم على عهد من الله تعالى ولذلك كذبهم بقوله ﴿ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ أي أم تقولون على الله شيئا ليس لكم به علم ، إذ العلم بمثله لا يكون إلا بوحى منه يبلغه عنه رسله ، والقول على الله بغير علم جرأة واقتيات عليه وكفر به والمعنى أنه لا بد من أحد الأمرين إذ لا واسطة بينهما : إما اتخاذ عهد عند الله ، وإما القول على الله بغير علم وإذا كان اتخاذ العهد يحصل تعيين أنكم تكذبون على الله بجهلكم وغروركم ، ﴿ بلى من كسب سيئة ﴾ الآية بلى مضطلة لدعواهم ،

وقال الأستاذ : للسيئة هنا إطلاقها وخصها مفسرنا (الجلال) وبعض المفسرين بالشرك ولو صح هذا لما كان لقوله تعالى ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ معنى فإن الشرك أكبر السيئات وهو يستحق هذا الوعيد لذاته كيفما كان . ومعنى إحاطة الخطيئة هو حصرها لصاحبها وأخذها بجوانب إحساسه ووجدانه كأنه محبوس فيها لا يجد لنفسه مخرجاً منها . يرى نفسه حراً مطلقاً وهو أسير الشهوات ، وسجين المواقفات ، ورهين الظلمات ؟ وإنما تكون الإحاطة بالاسترسال في الذنوب ، والتماهى على الإصرار ، قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أى من الخطايا والسيئات ففي كلمة « يكسبون » معنى الاسترسال والاستمرار ، وران عليه غطاء وستره أى أن قلوبهم قد أصبحت في غلف من ظلمات المعاصي حتى لم يبق منفذ للنور يدخل إليها منه . ومن أحدث لـكل سيئة يقع فيها توبة نصوحاً وإقلاصاً صحيحاً لا يحيط به الخطايا ولا ترين على قلبه السيئات . روى أحمد والترمذي والحاكم وصححه والنسائي وابن ماجه وابن حبان وغيرهم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال « إن العبد إذا أذنب ذنباً نكمت في قلبه نكمة سوداء فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه وإن عاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذي ذكر الله تعالى في القرآن (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) مثل هذا كان السلف يقولون : المعاصي بريد السكفر .

قوله ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ خبر (من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) أى هم أصحاب دار العذاب في الآخرة الإحقاء بها دون من لم يصل إلى درجاتهم في الدنيا وهو من في قلبه شيء من نور الإيمان وتوحيد الله تعالى وما يتبعه من الخير .

قال الأستاذ الإمام : ومن المفسرين من ترك السيئة في الآية على إطلاقها فلم يؤوها بالشرك . لكنهم أولوا جزاءها فقالوا إن المراد بالخلود طول مدة المكث لأن المؤمن لا يتخذ في النار وإن استغرقت المعاصي عمره وأحاطت الخطايا بنفسه فأنه مك فيها طول حياته . أولوا هذا التأويل هروباً من قول المعتزلة : إن أصحاب الكبائر يتخذون في النار ، وتأبيداً لمذهبهم أنفسهم المخالف للمعتزلة ، والقرآن فوق

المذاهب يرشد إلى أن من تحيط به خطيئته لا يكون أو لا يبقى مؤمناً
(وأقول) - : ان فتح باب التأويل الخلود يجري، أصحاب استقلال الفكر
في هذا الزمان على الدخول فيه والقول بأن معنى خلود الكافرين في العذاب
طول مكنتهم فيه لأن الرحمن الرحيم الذي سبقت رحمته غضبه ما كان ليعذب بعض
خلقه عذاباً لا نهاية له لأنهم لم يهتدوا بالدين الذي شرعه لمنفعتهم ولم يفتتحووا
لم يفقهوا المنفعة، وإذا كان التقليد مقبولا عند الله كما يرى فانحو الباب فقد وضع
عذر الآ كثرين لأنهم مقلدون لعلمائهم - الخ ما يتكلم به الناس ولا سيما في هذا
العصر فإن هذه المسألة قديمة وهي أكبر مشكلات الدين . نعم إن العلماء يحتجون
عليهم بالاجماع ولو مكتوباً ولكن التأويل باب لا يكاد يسده متى فتح شيء .
ثم ذكر في مقابلة أهل النار أضدادهم أهل الجنة على سنته في كتابه فقال
﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ وأما الذين جمعوا بين الايمان الصحيح وما
يلزمه من الأعمال الصالحات ﴿فأولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أقول
أى أولئك دون غيرهم أصحابها الحقيقيون بها بحسب وعد الله تعالى وفضله هم
خالدون فيها . وفيه دليل على أن الوعد على الايمان والعمل معاً إذ لا ينفك أحدهما
عن الآخر، إلا من آمن فمات ولم يتسع له الوقت للعمل فهو من أهله بمقتضى إيمانه
الصحيح وما حال دونه من الاحال عذر لأنه لا ذنب له فيه

(٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ

الآيات السابقة كانت تذكيراً بالنعم التاريخية الملية وبالتقصير في الشكر
وعواقبه . وذلك كالتفضيل على العالمين الذي يرفع النفس، والانجاء من آل فرعون
ومن الفرق، وإيتاء موسى الكتاب والآيات البينات، وتسهيل المعيشة عليهم في
التيه بما ساق الله إليهم من المن والسلوى، ثم ما كان منهم في أثر كل نعمة وما أعقبه

كفر النعم من النقم . ولم يذكر فيما سبق من الاحكام العملية إلا ما جاء على سبيل التبع لهذه الأصول . وفي هذه الآية وما بعدها التذكير بأهميات الاحكام في العبادات والمعاملات وما كان من إهمالها وترك العمل بها . هذا هو المراد أولاً وبالذات على أن فيما يأتي إعادة الإشارة إلى بعض ماضى قضى بها ما كان عليه اليهود من سوء الفهم وغلظ القلوب وكثرة المشاغبات والماراة فالخطاب معهم دائماً في باب الاطناب قال الاستاذ الامام : لاحظ بعض البلغاء والمفسرين أن القرآن يظنّب ويبدى . يعيد في خطاب اليهود خاصة وذلك لما كانت شحنت به أذهانهم مما يسمى علماً أو فقها فأبعدهم عن أن يصل شعاع الحق إلى ما وراء ذلك من نفوسهم ، ويكتفى بالايجاز بل بالإشارة الدقيقة في خطاب العرب لما كانوا عليه من سرعة الفهم ورقة الاحساس لقربهم من السداجة الفطرية ، فالإشارة إلى البرهان في ضمن تمثيل ، يغنى عندهم عن الاسهاب والتطويل ، ولذلك خاطبهم بمثل قوله في الأعمنام (وان يسلمهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ ﴾ أى واذا ذكر أيها الرسول إذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل وقد تقدم ذكر أخذ الميثاق عليهم في سياق خطابهم ولم يبينه لهم به وقوله هنا ﴿ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ الخ بيان له أى للميثاق لا مقول قول محذوف كما قال المفسر . يقال : أخذت عليك عهداً تفعل كذا : كما نقول : أن تفعل كذا : سواء . وهو خبر بمعنى النهى المبالغة والتأكيد ، يلاحظ فيه أن الأمر والنهى قد امتثل فيخبر بوقوعه ، أو إنه لتوثيقه والتشديد في تأكيده سيحتمل حتماً فيخبر بأنه كائن لا محالة . (أقول) وهذا النهى عن عبادة غير الله مستلزم للأمر بعبادته تعالى ولم يصرح به لأنهم كانوا يعبدون الله وإنما يخشى عليهم الشرك به كما وقع منهم في بعض الأجيال ومن غيرهم من الشعوب ، فالأصل الأول لدين الله على ألسنة جميع رسله هو أن يعبد الله وحده ولا يشرك به عبادة أحد سواء من ملك ولا بشر ولا ما دونهما بدعاء ولا بغيره من أنواع العبادة كما قال (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً) فالتوحيد لا يحصل إلا بالجمع بين الأمرين قال تعالى ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أى وتحسنون بالوالدين إحساناً . والاحسان

نهاية البر فيدخل فيه جميع ما يجب من الرعاية والعناية ، وقد أكد الله الأمر يا كرام الوالدين في التوراة حتى أنه يوجد فيها الآن أن من يسب والديه يقتل . وقد قرن الأمر بالإحسان بالوالدين إلى الأمر بالتوحيد أو النهي عن الشرك فهو كقوله تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) وليست هذه العناية بأمر الوالدين في الكتب السماوية لكونهما سبب وجود الولد كما يقول الناس فإنه لا منة لهما على الولد بهذه السببية لأنهم لم تكن إكراماً له ولا عناية به ، كيف وهو لم يكن معروفاً أو موجوداً فيكرم ، وإنما كانت بباعث الشهوة وإرضاء النفس ، ومنهم من لم يكن يخطر بباله الولد إلا بعد الزواج بزمان طويل ، ومنهم من كان يود أن لا يولد له ، أو أن يكون له ولد واحد أو ولدان فقط ، فيكون له أكثر . فإذا كان وجوب الإحسان بالوالدين معلولاً لإرادتهما الولد فينبغي أن يخص هذا الإحسان بولد لم يكن لهما من الزوجة حظ سواء بعينه ، وهو ما لا وجود له . ذلك كلام شعري والعلة الصحيحة في وجوب هذا الإحسان على الولد هي العناية الصادقة التي بذلها في تربيته والقيام بشؤونه أيام كان ضعيفاً عاجزاً جاهلاً لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يقدر أن يدفع عنها ضرراً ، إذ كانا يحوطانه بالعناية والرعاية ، ويكفلانه حتى يقدر على الاستقلال والقيام بشأن نفسه ، فهذا هو الإحسان الذي يكون منهما عن علم واختيار ، بل مع الشغف الصحيح والحنان العظيم وماجزاء الإحسان إلا الإحسان ، وإذا وجب على الإنسان أن يشكر لئلا من يساعده على أمر عسير فضله ، ويكافئه بما يليق به على حسب الحال في المساعد وما كانت به المساعدة ، فكيف لا يجب أن يكون الشكر للوالدين بعد الشكر لله تعالى وهما اللذان كانا يسهلانه على كل شيء ، أيام كان يتعذر عليه كل شيء ؟ ؟

وكذلك حب الوالدين للولد ليست علمته كما يقول الناس كونه جزءاً منهما وفائدة كبدهما . هذا كلام شعري لا حقيقياً أيضاً ، فإن جسم الإنسان مركب من الأغذية النباتية والحيوانية ، فلو كانت العلة صحيحة لكان ينبغي أن يحب الحنطة والغنم أكثر مما يحب والديه . وإنما لحب الوالدين الولد متبعان (أحدهما) حنان فطري أودعه الله تعالى فيهما لإتمام حكمته (وثانيهما) ماجرت به سنة البشر من

التفاخر بالأولاد ومن الأمل بالاستفادة منهم في المستقبل وإيست الفائدة محصورة في المال والعون على المييشة ، وإنما تتناول الشرف والجاه أيضاً

وكم أب قد علا بابن له شرفاً كما علا برسول الله عدنان

ولما كان حب الوالدين للأولاد بمكانة من القوة لا يخشى زوالها ترك النص

على الإحسان بهم وثنى بالإحسان عن دونهم في النسب فقال ﴿ وذى القربى ﴾

الإحسان هو الذى يقوى غرائز الفطرة ويوثق الروابط الطبيعية بين الأقربى

حتى تبلغ البيوت في وحدة المصلحة درجة الكمال . والأمة تتألف من البيوت (العائلات)

فصلاحها صلاحها . وههنا قال الأستاذ كلمة جلية وهى « من لم يكن له بيت

لا تكون له أمة » وذلك أن عاطفة القراحم وداعية التعاون إنما تكونان على أشدهما

وأكملهما فى الفطرة بين الوالدين والأولاد ، ثم بين سائر الأقربى ، فمن فسدت

فطرته حتى لاخير فيه لأهله فأى خير يرجى منه للبعداء والأبعدين ؟ ومن لاخير

فيه للناس لا يصلح أن يكون جزءاً من بنية أمة ، لأنه لم تنفع فيه الاحمة النسبية

التي هى أقوى لحمة طبيعية تصل بين الناس ، فأى لحمة بعدها تصله بغير الأهل فتجعله

جزءاً منهم يسره ما يسره ، ويؤلمه ما يؤلمه ، ويرى منفعتهم عين منفعته ، ومضرته

عين مضرته ، وهو ما يجب على كل شخص لأمنه . قضى نظام الفطرة بأن تكون

نعرة القرابة أقوى من كل نعمة وصلتها أمتن من كل صلة ، فجاء الدين يقدم حقوق

الأقربى على سائر الحقوق وجعل حقوقهم على حسب قربهم من الشخص

ثم ذكر حقوق أهل الحاجة من سائر الناس فقال ﴿ واليتامى والمساكين ﴾

واليتيم هو من مات أبوه وهو صغير وقد قدم الوصية به على الوصية بالمساكين ولم

يقيدها بفقر ولا مسكنة فعمل أنها مقصودة لذاتها

قال الأستاذ الامام : أكد الله تعالى الوصية باليتيم وفى القرآن والسنة كثير

من هدد الوصايا وحسبك أن القرآن نهى عن قهر اليتيم وشدد الوعيد على أكل

ماله تشديداً خاصاً ولو كان السر فى ذلك غلبة المسكنة على اليتامى لا اكتفى هنا

بذكر المساكين . كلا إن السر فى ذلك هو كون اليتيم لا يجيد فى الغالب من

تبعته عاطفة الرحمة الفطرية على العناية بتربينه والقيام بحفظ حقوقه ، والعناية

بأموره الدينية والدنيوية ، فان الأم إن وجدت تكون في الأغلب عاجزة ولا سيما إذا تزوجت بعد أبيه فأراد الله تعالى - وهو أرحم الراحمين - بما أكد من الوصية بالإنعام أن يكونوا من الناس بمنزلة أبنائهم يربونهم تربية دينية دنيوية لئلا يفسدوا ويفسد بهم غيرهم فينتشر الفساد في الأمة فتتحلل الأخلاق . فالعناية بتربية اليتامى هي الذريعة لمنع كونهم قدوة سيئة لسائر الأولاد . والتربية لا تيسر مع وجود هذه القدوة ، فاهمال اليتامى إهمال لسائر أولاد الأمة .

وأما المسلمين فلا يراد بهم هؤلاء السائلون الشحاذون المملحون الذين يقدرون على كسب ما يفي بحاجاتهم أو يجدون ما ينفقون ولو لم يكتسبوا إلا أنهم اتخذوا السؤال حرفة يبتغون بها الثروة من حيث لا يعملون عملا ينفع الناس ، ولكن المسكين من يعجز عن كسب يكفيه

وأما قوله عز وجل ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا ﴾ فهو كلام جديد له شأن مخصوص ولذلك تغير فيه الأسلوب فلم يرد على النسق الذي قبله مع دخوله في الميثاق فانه بين فيما سبق الحقوق العملية وعبر عنها بالاحسان ويستحيل أن يحسن الانسان بالفعل إلى جميع الناس لأنه لا يمكن أن يعامل جميع الناس ، فالذين لا بدله من معاملتهم هم أهل بيته وأقاربه الذين ينشأ فيهم ويتربى بينهم فجاء النص بوجوب الاحسان في معاملتهم لتصلح بذلك حال البيوت . ثم إن اليتامى والمساكين من قومه هم الذين لا يستغنون عن احسانه وإحسان أمثاله بالفعل ، لأنه لا قير للأولين ، ولا غناء عند الآخرين ففرض عليه أن يجعل لهم حظا منه . ثم بعد بيان ما به إصلاح البيوت من إعانة الأقربين وما به صلاح بعض العامة من معونة اليتامى والمساكين على إصلاح بيوتهم بقي بيان حقوق سائر الأمة وهي النصيحة لهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيهم ، فهذا هو معنى قوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) وليس معناه مجرد التلطف بالقول والجمالة في الخطاب ، فالحسن هو النافع في الدين أو الدنيا ، وهو لا يخرج عما ذكرنا ، فلما كان هذا النوع من الحقوق مستقلا بذاته جاء بأسلوب آخر ولا شك أن في القيام بهذه الفرائض إصلاح الأمة كلها جاء الأمر بالعبادة مجعلا ليعلم الانسان أنه مكلف بكل فرد من أفرادها

بحسب الطاقة، ولكن من العبادة ما لا يهتدى إليه الإنسان إلا بهداية إلهية، وأكبر ذلك النوع إقامة الصلاة . لإصلاح نفوس الأفراد ، وإثناء الزكاة لاصلاح شئون الاجتماع . لذلك قال تعالى بعد ما تقدم ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وإنما إقامة الصلاة بالاخلاص لله والصدق في التوجه اليه والخشوع لعظمته وجلاله والاستكانة لعز سلطانه ، ولا تكون بمجرد الاتيان بصورة الصلاة ورسومها الظاهرة، ولو كان هذا هو المراد لمسا وصفهم بالتولى والاعراض عنه ، فانهم ما أعرضوا عن صورة الصلاة إلى ذلك اليوم الذى ذكرهم فيه بهذه الآيات وإلى هذا اليوم أيضا . وأما الزكاة فقد كان بعض أحبارهم يزعم أنها تلك المحرقات والقرايين المفروضة لتكفير الخطايا أو شكر الله تعالى على إخراجهم من مصر وغير ذلك من النعم . وليس الأمر كذلك، فان لهم زكوات مالية، منها مال مخصوص يؤدى لآل هارون وهو إلى الآن فى اللادين . ومنها مال للمساكين . ومنها ما يؤخذ من ثمرات الأرض . ومنها سبت الأرض، وهو تركها فى كل سبع سنين مرة بلا حرث ولا زرع ، وكل ما يخرج منها فى تلك السنة فهو صدقة .

قال تعالى ﴿ ثم توليتكم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون ﴾ أى تم كن من أمركم بعد هذا الميثاق الذى فيه سعادتكم أن توليتكم عن العمل به وأنتم فى حالة الاعراض عنه وعدم الاكتراث له . وقد يتولى الانسان منصرفا عن شىء وهو عازم على أن يعود إليه ويوفيه حقه، فليس كل متول عن شىء معرضا عنه وهو لا له على الدوام ، لذلك كان ذكر هذا القيد (وأنتم معرضون) لازماً لا بد منه وليس تكراراً كما يتوهم، وإنما هو متمم للمعنى ومؤكد للمبالغة فى الترك المستفاد من التولى قال الأستاذ الامام : ولا حاجة إلى ما زاده المفسر من قوله : فقبلتم ذلك : ليعطف عليه (ثم توليتكم) فالمقام مقام وعيد وزجر وتوبيخ ، وفى كلمة (ثم) نفسها ما يفيد أن التولى لم يكن عقب أخذ الميثاق .

وقد كان سبب ذلك التولى مع الاعراض أن الله أمرهم أن لا يأخذوا الدين إلا من كتابه . فاتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله ، يحملون برأيهم ويحرمون .

ويبيعون باجتهادهم ويحظرون ، ويزيدون في الأحكام والشرائع ، ويضعون
 ماشاءوا من الاحتفالات والشعائر ، فصدق عليهم أنهم اتخذوا من دونه شركاء
 شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله . فان الله هو الذي يضع الدين وحده . وإنما
 العلماء أدلاء يستعان بهم على فهم كتابه وما شرع على السنة رسله . وقد اتبع
 سنن اليهود في هذا التشريع جميع من بعدهم من أهل الملل وحكم الجميع عند الله
 تعالى واحد لا يختلف فهو لا يحبى أحداً (ولا يظلم ربك أحداً) وكذلك كانوا
 قد قطعوا صلوات القرابة ، وبخلوا بالنفقة الواجبة ، وتركوا النهى عن المنكر .
 وفقدوا روح الصلاة ، ومنعوا الزكاة ، ولعنهم الآن عادوا إلى بعض ما تركوا .
 ولم يعد الذين تشبهوا بهم ، أو اتبعوا بغير شعور سننهم ، والأمر لله العلى الكبير
 وأما قوله ﴿ إلا قليلا منكم ﴾ فهو استثناء لبعض من كانوا في زمن سيدنا
 موسى عليه السلام أو في كل زمن ، فانه لا تخلو أمة من الأمم من المخلصين الذين
 يحافظون على الحق بحسب معرفتهم وقدر طاقتهم . والحكمة في ذكر هذا الاستثناء
 عدم بنحس المحسنين حقهم وبيان أن وجود قليل من الصالحين في الأمة لا يمنع
 عنها العقاب الإلهي إذا فشا فيها المنكر وقل المعروف .

لو تدبر جهالتنا هذه الآية لعلموا أنهم مغرورون بالاعتماد على الأقطاب والأوتاد
 والأبدال في تحمل البلاء عنهم ، ومنع العذاب أن ينزل بالأمة ببركنهم ، فلو فرض
 أن هؤلاء الأقطاب موجودون حقيقة فإن وجودهم لا يغنى عن الأمة شيئا ، وقد
 عصى الله جماهيرها ونقضوا ميثاقه الذي واثقهم به . فقد جرت سنته تعالى في
 خلقه بأن بقاء الأمم عزيزة إنما يكون بمحافظه الجماهير فيها على الأخلاق والأعمال
 التي تكون بها العزة ويحفظ بها المجد والشرف . ومن لم يعتبر بآيات الله في
 كتابه ، لا يعتبر بآياته وسنته في خلقه ، فقد قنن المسلمون في دينهم ودينام
 وحل بجميع بلادهم ماحل من البلاء وهم لا يعتبرون (٢٤:٤٧) أفلا يتدبرون القرآن
 أم على قلوب أقفالها ؟ (١٣:٩) أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين
 ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون)

(٨٤) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دَيْرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٥) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دَيْرِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذَحُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ، أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ؟ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ .

كان التذكير في الآية السابقة بأهم المأمورات التي أخذ الله تعالى الميثاق على بني اسرائيل بها بعد توحيد الله تعالى وإفرادهم بالعبادة وبيان أنهم نقضوا ميثاق الله تعالى ولم يأتروا بها ، وفي هاتين الآيتين التذكير بأهم المنهيات التي أخذ الله تعالى الميثاق عليهم باجتنابها ، وبيان أنهم نقضوا ميثاقه ولم يمتنعوا عنها ، وقد قال هناك (وإذ أخذنا ميثاق بني اسرائيل) أي الذين نزلت عليهم التوراة ، ثم انتفت إلى خطاب الحاضرين في زمن التنزيل فقال (ثم توليتهم) وقال هنا ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ﴾ تباديا في سياق الالتفات وتذكير أبوحدة الامة واعتبارها كالشخص الواحد ليصيب الخلف أثرها كان عليه السلف من خير وشر ما استنوا بسنتهم . وجروا على طريقتهم ، كما تؤثر أعمال الشخص السابقة في قواه النفسية ، وطبع ملكاته بعد انحلال مادة تلك الأعضاء التي ابتدأت العمل وحلول مواد أخرى في محلها تتمرن على مثل ذلك العمل ، فما يفعله الشخص في صغره ، يبقى أثره في قواه في كبره ، فكذلك الأمم .

وقد أورد النهي عن سفك بعضهم دم بعض وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وأوطانهم بعبارة تؤكد معنى وحدة الأمة، وتحدث في النفس أثراً شريفاً يبعثها على الامتثال إن كان هناك قلب يشعر، ووجدان يتأثر، فقال ﴿لا تسفكون دماءكم﴾ فجعل دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه حتى إذا سفكه كان كأنه ينجع نفسه والتحرر بيده . وقال ﴿ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ على هذا النسق . وهذا التعبير المعجز ببلاغته خاص بالقرآن . فهذه الأحكام لا تزال محفوظة عند الاسرائيليين في الكتاب وإن لم يجروا عليها في العمل ، ولكن العبارة عنها عندهم لا تطاول هذه العبارة التي تدهش صاحب الذوق السليم ، والوجدان الرقيق ، فهذا إرشاد حكيم طلع من ثنانيا الأحكام يهدي إلى أسرارها ، ويؤمى إلى مشرق أنوارها ، من تدبره علم أنه لا قوام للأمم ، إلا بالتحقق بما تضمنته هذه الحكم ، وشعور كل فرد من أفرادها بأن نفسه نفس الآخرين ودمه دمهم . لافرق في الاحترام بين الروح التي تجول في بدنه والدم الذي يجري في عروقه وبين الأرواح والدماء التي يحيا بها إخوانه الذين وحدت بينه وبينهم الشريعة العادلة والمصالح العامة ، هذا هو الوجه الوجيه في الآية ، وقيل : معناها لا ترتكبوا من الجرائم ما تجازون عليه بالقتل والإخراج من الديار . ويقال في قوله (لا تسفكون) كما قيل قبله في قوله (لا تعبدون إلا الله) من تضمن صيغة الخبر للناس كيد .

وقوله تعالى ﴿ثم أقرتم وأنتم تشهدون﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه يخاطبهم بما كان من اعتراف سلفهم بالميثاق وقبوله وشهودهم الوحي الذي نزل به على موسى عليه الصلاة والسلام . و (ثانيها) أن المراد الحاضرون أنفسهم ، أى أنكم أيها المخاطبون بالقرآن قد أقرتم بهذا الميثاق وتعتقدونه في قلوبكم ، ولا تنكرونه بالسفكم ، بل تشهدون به وتعلمونه ، فالحجة ناهضة عليكم به .

ثم بعد بيان هذا الميثاق وتسجيله عليهم بأنهم يعرفونه لا ينكرون منه شيئاً

ذكر نقضهم إياه فقال ﴿ثم أنتم هؤلاء﴾ الحاضرون الشاهدون المشاهدون

﴿تقتلون أنفسكم﴾ أى يقتل بعضهم بعضاً ، كما كان يفعل من قبلكم مع اعترافكم

بأن الميثاق مأخوذ عليكم كما كان مأخوذاً عليهم : كان بنو قينقاع من اليهود أعداء بنى قريظة إخوانهم في الدين وكان الأولون حلفاء الأوس ، والآخرون مع بنى النضير حلفاء الخزرج . ثم اقترفوا فيبقى بنو النضير مع الخزرج وحالف بنو قريظة الأوس ، وكان الأوس والخزرج قبل الاسلام أعداء وكانوا يقتتلون ومع كل حلفاؤه ، فهذا مااحتج الله تعالى على بنى إسرائيل بقتلهم أنفسهم في عصر التنزيل . ويتبع هذا

القتال الأسر ، ومن لوازمه الإخراج من الديار ولذلك قال ﴿ وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ﴾ والتظاهر التعاون وتظاهرون أصله تظاهرون كما قرأ الجمهور ، وقرأ عاصم وحمره والكسائي بمحذف إحدى التائين للتحفيف وهو مقيس مشهور . كان كل فريق من اليهود يظاهر حلفاءه من العرب ويعاونهم على إخوانه من اليهود بالإثم كالقتل والسلب ، وبالعدوان كالأخراج من الديار . ومن مشارات العجب أنهم كانوا إذا اتفقوا على فداء الأسرى يفسدى كل

فريق من اليهود أسرى أبناء جنسه وإن كانوا من أعدائه ويعتذرون عن هذا بأنهم مأورون في الكتاب بفداء أسرى شعب إسرائيل . فان كانوا مستمسكين بالكتاب فلم قاتلوا شعب إسرائيل وأخرجوهم من ديارهم وهم منهيون عن ذلك في الكتاب ؟ هذا لعب بالكتاب واستهزاء بالدين ولذلك قال تعالى

﴿ وإن يأتوك أسارى فنادوهم ﴾ بعد أن كنتم أسرتوهم وأخرجتموهم بالتظاهر عليهم مع العرب ﴿ وهو محرم عليكم إخراجهم ﴾ بميثاق أغلظ من طاب مفاداتهم

﴿ أنؤمنون ببعض الكتاب ﴾ وهو فداء الأسرى ﴿ وتكفرون ببعض ﴾ آخر منه وهو النهي عن القتل والإخراج ؟ أليس من الحماقة والهزء والسخرية أن يدعى مدع مثل هذا الإيمان بأهون الأمور مع الكفر بأعظمها ؟ والإيمان لا يتجزأ فالكفر ببعض كالكفر بالكل

قال الاستاذ الامام : في التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر دليل على ما سبق بيانه في معنى قوله تعالى (وأحاطت به خطيئته) فالقرآن يصرح هنا وفي آيات كثيرة بأن من يقدم على الذنب لا تضطرب نفسه قبل إصابته ، ولا يتألم ويندم بعد وقوعه فيرجع إلى الله تعالى تائباً ، بل يسترسل فيه بلا مبالاة ينهى الله تعالى

عنه ونحوه له ، فهو كافر به ، لأن المؤمن بأن هذا شيء ، حرمة الله تعالى ، المصدق بأنه من أسباب سخطه وموجبات عقوبته ، لا يمكن أن لا يكون لايمان قلبه أثر في نفسه ، فان من الضروريات أن لكل اعتقاد أثراً في النفس ، ولكل أثر في النفس تأثيراً في الأعمال . وهذا هو الوجه في الاحاديث الصحيحة المناطقة بأنه «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن»

سمى الله الذنب ههنا كفراً لما تقدم وتوعد عليه بوعيد الكفر فقال ﴿فأجزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ الخ أوعدهم الله تعالى كما أوعدهم من قبلهم ومن بعدهم بأنهم يعاقبون على نقض ميثاق الدين الذي يجمعهم ، والشرعية التي هي مناط وحدتهم ، ورباط جنسيتهم ، بالخزي العاجل ، والعذاب الآجل . وقد دل المعقول ، وشهد الوجود ، بأنه ما من أمة فسقت عن أمر ربها ، واعتدت حدود شريعته ، إلا وانتكثتم لها ، وتفرق شملها ، ونزل بها الدل والهوان ، وهو الخزي المراد في القرآن ، وهذه هي سنة الخليفة ذكرها ليعتبر بها من صرفته الغفلة عنها . وأما العذاب الآجل الذي عبر عنه بقوله ﴿وبوم القيامة يردون إلى أشد

العذاب﴾ فهو على كونه من عالم الغيب معقول المعنى ، وهاد إلى حكمة عليا ، ذلك أن النفوس البشرية إذا سجل مريها ، واختلت بفساد الأخلاق أمورها وكثرت في هذا العالم شرورها ، حتى سلبت ما أعده الله تعالى لمن حافظوا على الحقيقة ، واستقاموا على الطريقة ، تكون جديرة بأن تسلب في الآخرة ما أعده الله تعالى للأرواح العالية ، وما وعد به أصحاب النفوس الزاكية ، فان سعادة الدار الدنيا لم تكن أجراً على أعمال بدنية ، لانتعلق بصلاح النفس في خلق ولا نية ، وإنما هي ثمرة تزكية النفس ، التي يتوسل إليها بعمل الحس ، فاذا كان هذا شأن سعادة الدنيا فكيف يكون نعيم الآخرة جزاء حركات جسمية ، وهي الدار التي تغلب فيها الروحانية ؟؟؟ (٧: ٩١-١٠ ونفس وما سواها * فأنهالها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاه * وقد خاب من دساها)

﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو محيط به لا يخفى عليه منه شيء . وقد قرأ عاصم في رواية المفضل (تُردون) بالخطاب لمناسبة قوله (منكم) كما قرأ

الجمهور (يعملون) بالخطاب لذلك ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر ويعقوب (يعملون) على الغيبة لرجوع الضمير إلى (من يفعل)

ثم أكد الله تعالى ذلك الوعيد الشديد وبين سببه بقوله ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أى جعلوا حظوظهم من الحياة الدنيا بدلا من الآخرة بما فرطوا في جنب الله وأهملوا من شريعته حتى لم يقبعوا منها إلا ما يوافق أهواءهم ولا يعارض شهواتهم كالحمية التي حملت كل حليف على الانتصار لمخالفة المشرك ، ومظاهرتة إياه على قومه الذين تجمعهم بهم رابطة الدين والنسب ﴿ فلا يخفف عنهم العذاب ﴾ لأن علتة ذاتية فيهم وهى ظلمة أرواحهم وفساد أخلاقهم ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ بشفاعته شافع أو ولاية ولى من دون الله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وأتى يأذن بالشفاعة لمن سجلت عليهم الشقاء أعمالهم باحاطة الخطايا بهم من كل جانب ، حتى أخذت عليهم طريق الرحمة ، وقطعت عليهم باختيارهم سبيل الرضوان الإلهى ؟ فمن الجهل إهالهم الأمر والنهى ، وتعضهم ميثاق الله تعالى فى أمم ما وافقهم به ، واعتمادهم مع هذا كله على الشفعاء (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون)

ومن مباحث الالفاظ فى قوله (وهو محرم عليكم) أن الضمير للشأن عند المفسر والجاهير . وقال الأستاذ الإمام : إن المعهود فى كلام العرب أن الجملة التى تقضى الحال فيها بتقدم الاسم وتأخر الفعل أو ما يشق منه لا بد أن تصدر بضمير تعتمد عليه ، ولهذا شواهد فى كلام البلغاء يتفق فيها ذوقهم وإن اختلف النحاة فى اعراجها

(٨٧) وَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ . أَفَكُلَّمَا
جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا كَذِبَهُمْ وَفَرِّقَا
تَقُولُونَ (٨٨) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ أَعَمَّهُمْ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مِمَّا مَنُونِ

٢٧٦ إيمان. موسى الكتاب وعيسى البينات وتأيد روح القدس (البقرة: نس ٢)

عهد في سيرة البشر أن الأمة توعظ وتندثر، فتتمتع وتتدبر، فإذا طال عليها الأمد بعد النذير تقسو القلوب، ويذهب أثر الموعظة من الصدور، وتفسق عن أمر ربها، وتنسى ما لم تعمل بعدما أُنذرت به، أو تحرفه عن موضعه بضروب التأويل، وزخرف القول والقييل، ولقد يكون للتأخر منها بعض العذر لجهله بما فعل المتقدم وأخذ ما يؤثر عنه بالنسليم لكمال الثقة وحسن الظن

بين الله تعالى هذه السنة الاجتماعية في سورة الحديد بقوله (ألم بأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) ولهذا كان تعالى يرسل الرسل بعضهم في إثر بعض حتى لا يطول أمد الإنذار على الناس فيفسقوا ويضلوا. ولا يعرف التاريخ شعبا جاءت فيه الرسل تترى كشعب إسرائيل، لذلك كانوا بمنزل عن صحة النذر بطول الأمد على الإنذار. وفي ناحية عما يرجي قبوله من التعلل والاعتذار، لهذا قال تعالى بعد كل ما تقدم

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ﴾ فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبي مرسل أو أنبياء متعددون يأمرؤون وينهون كأنه يقول اعلموا يا بني إسرائيل أنه إن كان لطول الأمد على النبوة وبعد العهد بالرسل يذوق تغيير الأوضاع ونسيان الشرائع، وكان في ذلك وجه لاعتذار بعض المتأخرين، فان ذلك لا يتناولكم، فان الرسل قد جاءكم تترى ثم كان من أمركم معهم ما كان ذكر رسل بني إسرائيل بالإجمال لبيان ما ذكر، ثم خص بالذكر المسيح عليه

السلام فقال ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ فأما البينات فهي ما يقين به الحق من الحجج القيمة والآيات الباهرة. وقال الأستاذ الامام: المراد بها ما دأب إليه من أحكام التوراة. وأما روح القدس فهو روح النوحى الذى يؤيد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم ومعارفهم، وهو هو المراد بقوله تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان) الآية. ويطلق عليه روح القدس لأن التعليم الذى يكون به مقدس أو لأنه يقدر النفوس كما يطلق عليه « الروح الامين » لأن النبي الموحى إليه يكون على بينة من ربه فيه

يؤمن معها التلبيس فيما يليق إليه ، قال تعالى في القرآن (نزل : ٢٦ : ١٩٣ ، ١٩٤)
به الروح الامين * على قلبك لتكون من المنذرين)

(ثم قال الاستاذ) : ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بروح القدس الملك
المسمى بجبريل الذي ينزل على الأنبياء ، ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى
وهو على حد قولهم « حاتم الجود » وذكر بعضهم وجها آخر وهو أن المراد بها
روح عيسى نفسه ، ووصفها بالقداسة والطهارة بمعنى إعادته من الشيطان أن يكون
له حظ فيه ، أولآته أنزل عليه الانجيل بالتماليم التي تقدر النفوس ، بل قال
بعضهم : إن روح القدس هو الانجيل ، والمراد من الكل واحد ، وهو أن الله تعالى
أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين فيهم بعد موسى وأعطاه مالم يعط كل
رسول من أولئك الرسل من الوحي أو من قوة الروح ، وزكاه النفس ومكّاه
الاخلاق ، ونسخ بعض الأحكام ، وقد كان حظه مع ذلك منهم كحظ سابقه
الذين لم يؤتوا من المواهب مثل ما أوتي

ماذا كان حظ أولئك الرسل من بنى اسرائيل ؟ كان حظهم منهم ما أفاده
الاستفهام التوبيخي في قوله * أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم *
فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات ، وعصيتم الرسل واخفيمتم عليهم أن أنذروكم
ودعوكم إلى أحكام كتابكم * ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون * كان المعهود في الخطاب
وكلام الناس أن تذكر هذه المساوئ ثم يوبخون عليها ، ولكن طواها في الخطاب
وأدجها في الاستفهام لتفاجيء النفوس بقوة القشيع والتقبيح ، وتبرز لها في ثوب
الانكار والتوبيخ ، وفي ذلك الالباء إلى أن هذه المعاملة السوء مما لا يخفى خبرها ،
ولا تغيب عن الانكار صورها ، فلا ينبغي الالماع إليها ، إلا في سياق تقرير
بمجتريها ، وهذا من إيجاز القرآن ، الذي لا يرج إليه فكر الإنسان ، وانظر كيف
أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة
الفظيعة وتمثيلها للسامع حتى يثقلها في الخيال ، وإن مرت عليها القرون والأحوال
لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها ، ودماء لا تطير رغوتها ، وإن مثل هذا التعبير لمثل

تلك الصورة المشوهة لأن الالفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة الثلاثة به ، فيكون له من التأثير ما يناسبه .

قتلوا من الأنبياء المرسلين زكريا ويحيى عليهما السلام ، وروى أنهم قتلوا في يوم واحد مائة وخمسين نبياً ، فإن صح هذا فالمراد بأولئك الأنبياء من كانت نبوتهم محصورة في الدعوة إلى إقامة التوراة ، ودليلها محصوراً في الإنبياء ببعض المغيبات وكان هذا الفريق منتشراً في أسباط بني إسرائيل وكثيراً بكثيرتهم .

وفي هذه الآية حجتان للنبي ﷺ — حجة على بني إسرائيل وحجة على الذين يعجبون لعدميمانهم به وإجابتهم دعوته ، وبيان أن المجاهدة والمعاندة من شأنهم ومما عرف من شذفتهم ، وناسب بعد هذا أن يذكر ما كانوا يعتذرون به عن الايمان به ، والاهتداء بكتابه ، بعد تقرير الدعوة ، وإقامة الحجة ، فقال ﴿ وقالوا قلوبنا غلفت ﴾ الغلف بضم وسكون وبضمين جمع أغلف ، وهو ما يحيط به غلاف يمنع أن يصيبه شيء . والمراد أننا لانعقل قولك ولا نبتعد إلى قلوبنا مفهوم دعوتك فهو بمعنى قوله تعالى (وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب)

وقد رد الله تعالى عليهم بما يشعر بكذبهم وعنادهم فقال ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم ﴾ أي أن قلوبهم ليست غلفا لا تفهم الحق بطبيعها ، وإنما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين ، وبالكتاب الذي تركوا العمل به وحرفوه اتباعاً لأهوائهم ، فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه ، فكان ذلك سبباً في حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى بإجابة دعوة خاتم النبيين . هذا هو معنى اللعن وقد ذكرت معه علته ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى في الأسباب والمسببات وأن الله لم يظلمهم بهذا ، وإنما ظلموا أنفسهم بالكفر الذي يستتبع الكفر ، والعصيان الذي يجر إلى التنادي في العصيان ، كما هي السنة في أخلاق الإنسان . ولما ذكر اللعن معللاً بالكفر الذي هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة في أنفسهم ، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين ، بل مؤمنين بالله وكتبه ورسله إليهم ، استدرك فقال ﴿ فقل لا ما يؤمنون ﴾ وإنما التلطف بالإيمان

باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعة ، وبالنسبة إلى اليقين في الإيمان ، وتحكيمه في الفكر والوجدان

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة في الجملة وكما تعطيه ظواهر الألفاظ ، ولكنهم لم يلبسوها مفصلة تفصيلا ، ولم يفقهوها حكمها وأسرارها ، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم ، ولم تكن هي الحركة لإرادتهم في أعمالهم ، وإنما كان يحركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة ، فلا إيمان إنما كان عندهم قولا باللسان ، ورسمًا يلوح في الخيال ، تكذبه الأعمال ، وتطمسه السجايا الراسخة والخلال ، وهذا هو الإيمان الذي لا قيمة له عند الله تعالى . ومن العجب أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة ، والأساليب المؤثرة ، وأهل القرآن عن ذلك غافلون ، فقليلًا ما يعتبرون ويشدّكرون .

ومن مباحث اللفظ في الآية : أن كثيراً من المفسرين يزعمون أن « ما » زائدة وما هي بزائدة وفاقا لابن جرير الطبري ، وجل القرآن أن يكون فيه كلم زائدة وإنما تأتي « ما » هذه لإفادة العموم تارة ولتفخيم الشيء تارة ، ويقول ابن جرير إنما يؤتى بها في مثل هذا المقام كبتداء كلام جديد يفيد العموم كأنه قال : فإيماناً قليلاً ذلك الذي يؤمنون به : وأما التي لتفخيم الشيء فكقوله تعالى (٣ : ١٥٩) فما رحمة من الله لنت لهم) أي فبسبب رحمة عظيمة الشأن خصك الله بها لنت لهم على ما لقيت منهم ، وقد بين تعالى هذه الرحمة بقوله في وصفه ﷺ (٩ : ١٢٨) بالمؤمنين رؤوف رحيم) وقوله (٢١ : ١٠٧) وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

هذا ما اختاره الأستاذ الإمام في تفسير قوله تعالى (فقليلًا ما يؤمنون) وهناك وجه آخر أورده ابن جرير في تفسيره ، وهو أنه لا يؤمن بالنبي وما جاء به إلا قليل منهم . والاستدراك على هذا الوجه أظهر ، فإنه لما بين أن كفرهم المستقر ، وعصيانهم المستمر ، كانا سبباً في لعنهم وإبعادهم ، كان للوهم أن يذهب إلى أنهم قوم قد سجدوا عليهم الشقاء وعصمهم حتى لا مطمع في إيمان أحد منهم ، فجاء قوله تعالى (فقليلًا ما يؤمنون) يبين أن هذا الوهم لا يصح أن ينطلق على إطلاقه ، وأن تأثير ما ذكر في مجموع الشعب لم يستغرق أفراد استغراقاً ، وإنما غمر الأكرهين ، ويرجى أن

ينجو منه النفر القليل ، وكذلك كان . أقول : وفيه من دقة القرآن في الصدق وتحديد الحق مالا يعهد في كلام الناس

(٨٩) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٩٠) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِثْنَا أَنْ نُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فِضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩١) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفَرُ مِنْ بِنَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيكفرون بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ . قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ؟

قال الاستاذ الامام : ان قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم كتاب ﴾ الخ متصل بقوله قبله (قليلا ما يؤمنون) والمعنى ان ايمانهم كان قليلا حال كونهم كانوا ينتظرون نبيا وكتابا مصدقا لما معهم وكانوا يستفتحون به على المشركين فكيف لا يكون قليلا ، أو أقل بعد ما جاء ما كانوا ينتظرون وعرفوا أنه الحق ثم كفروا ؟ فالجالة حالية : ويصح أيضا هذا الاتصال الذي ذكره على الوجه الثاني في تفسير (قليلا ما يؤمنون) والكتاب هنا القرآن نكره للتفخيم وقوله ﴿ مصدق لما معهم ﴾ معناه أنه موافق له في التوحيد وأصول الدين ومقاصده ، والاستفتاح في قوله ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ معناه طلب الفتح وهو الفصل في الشيء والحكم يستعمل بمعنى النصر لأنه فصل بين المتحاربين . وكانت اليهود تستفتح على مشركي العرب بالنبي المنتظر يقولون إنه سيظهر فينصر كتابه التوحيد الذي نحن عليه ويخذل الوثنية التي تنحلونها ويبطلها ، فيكون مؤيدا لدين موسى

(أقول) روى محمد بن اسحاق عن أشياخ من الأنصار أن هذا نزل فيهم وفي يهود المدينة ، قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهرأ في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون إن نبياً سيبعث الآن تنبئه قد أظل زمانه تقتلكم معه قتل عاد وإرم الخ وروى الضحاك عن ابن عباس في تفسير (يسفتحون) : يستنصرون يقولون نحن نعين محمداً عليهم الخ وتتمته في تفسير المهاد ابن كثير . وشذ بعضهم كالبعغوي في تفسيره فقل إنهم كانوا يقولون إذا حزبهم أمراؤ دهمهم عدو : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة والإنجيل . فكانوا ينصرون وفيه روايات ضعيفة عن ابن عباس لم يرج ابن كثير على شيء منها ، ولعله لأنها على ضعف روايتها ومخالفتها للروايات المعقولة شاذة المعنى يجعل الاستفتاح دعاء بشخص النبي ﷺ وفي بعض الروايات «بحقه» وهذا غير مشروع ولا حق لأحد على الله فيدعى به كما قال الإمام أبو حنيفة وغيره . وكذلك فعل ابن جرير لم يذكر شيئا من روايات الدعاء بحقه والاستنصار بشخصه ، بل ذكر عدة روايات في أنهم كانوا يدعون الله بأن يبعثه ليقتل المشركين وفي بعضها أنهم كانوا يرجون أن يكون منهم . والكلام هنا في محي . الكتاب لا في محي . الرسول ﷺ الذي يأتي ذكر محيئه قريبا ، على أنهما متلازمان ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ﴾ أعاد فلما جاءهم وهي عين الأولى لطول الفصل ووصل به الجواب وهو «كفروا به» ذلك أنه راعاهم كونه بعث في العرب فحسدوه فحلمهم الحسد على الكفر به جحودا وبغيا ، فسجلت عليهم اللعنة التي أصابتهم بكفرهم الأول بأن الكفر صاروصفا لازما لهم ولذلك قال ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ ولم يقل عليهم لأن المظهر أبلغ وأعم وأشمل ثم ذكر علة هذا الكفر وسببه وبين فساد رأيهم فيه بقوله ﴿ بثسما اشتروا

به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله ﴾ أي بثس شيئا اشتروا به أنفسهم هو كفرهم بما أنزل الله مصداقا لما معهم ، كما كانوا ينتظرون . شري الشيء واشترأ يستعمل كل منهما بمعنى باع الشيء ، وبمعنى ابتاعه ، لأن الحرف يدل على المعاوضة . وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن «اشتروا» هنا بمعنى باعوا أي إنهم بذلوا أنفسهم وباعوها بما حرصوا عليه من الكفر بغيا وحسدا للنبي ، وحباً في الرياسة واعتزازاً

بالجنسية، وبما كان لكل من الرؤساء والمرءوسين من المنافع المتبادلة في المحافظة عليها، فهذا كله يعد ثمننا لأنفسهم التي خسروها بالكفر حتى كأنهم فقدوها كما يفقد البائع المبيع. وذكر ابن جرير وجه آخر وهو أن «اشتروا» هنا بمعنى ابتاعوا، أي إنهم جعلوا أنفسهم ثمنًا للكفر الذي ذكرت علمته آنفاً. وفيه من الزيادة على معنى المعاوضة في الوجه الأول أنهم قد أنقذوا أنفسهم بذلك الكفر، أي أنهم يزعمون ذلك ويدعونه في الظاهر، وإن كانوا في الباطن قد عرفوا أن ما جاءهم هو الحق الذي كانوا ينتظرون، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يكتمون.

وقد فهم مما تقدم معنى قوله تعالى ﴿بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده﴾ فهو تعليل لكفرهم لا لشرائعهم، أي كفروا به لمحض البغي الذي أثاره الحسد كراهة أن ينزل الله الوحي من فضله بمقتضى مشيئته، وأي بغي أقبح من بغي من يريد أن يحجر على فضل الله ويفيد رحمته فلا يرضى منه أن يجعل الوحي في آل اسماعيل كما جعله في آل أخيه اسحاق؟ فرأى ابن كثير وأبو عمرو (ينزل) بالتخفيف من الإنزال والباقون بالتشديد من التنزيل. وأما قوله ﴿فبأعوانهم﴾ فبأعوانهم على غضبهم من قبل باعانات موسى عليه السلام والكفر به، وقد ذكر في قوله (١١٣: -) وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأعوانهم بغضب من الله) ثم توعدهم بعد الغضب المزروع فقال ﴿والللكافرين عذاب مهين﴾ أي مقرون بالاهانة والإذلال، وبذلك صار بمعنى الآية السابقة، فكان الجزاء واحداً تكرر بتكرر الذنب. وقال (والللكافرين) ولم يقل (ولهم) لما في المظهر من بيان التعليل بالوصف الذي سجله عليهم كما تقدم آنفاً وهذا العذاب مطلق يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وقد تقدم أن ذنوب الأمم تتبعها عقوبتها في الدنيا لأنها أثر طبيعي لها، وإنما جعلها الله كذلك لتكون عبرة يتأدب المتأخرون بما أصاب منها المتقدمين. وكذلك الحال في عقوبة الآخرة بالنسبة إلى الأفراد، فإن عذاب كل شخص إنما يكون بحسب تأثير الجهل في عقله وفساد الأخلاق وسوء الأعمال في نفسه.

اعتذر بعض اليهود في عصر التنزيل عن عدم الإيمان به بأن قلوبهم غلفت

لم تفهم الدعوة ولم تعقل الخطاب ، فرد الله تعالى عليهم ببيان السبب الحقيقي في ترك الإيمان ، وما استحقوه عليه من الغضب والهوان . ثم ذكر اعتذاراً آخر لهم مقروناً بالرد والإبطال ، وإقامة الحجة عليهم به فقال ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْفِنَا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا ﴾ ضيغة الدعوة تشعر بوجوب الإيمان بما أنزل الله تعالى لأنه هو الذي أنزله لا لأن المنزل عليه فلان . ولذلك لم يقل : آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ . فان ما أنزل عليه لو أنزل على غيره لوجب الإيمان به . فان الوحي هو المقصود بالذات والأنبياء إنما هم مبلغون ، فتقييد الخضوع لوحي الله بكونه لا بد أن يكون منزلاً على شخص من شعب كذا بعينه يحكم على الله تعالى وقضاء عليه بأن تكون رحمته مقيدة بأهواء فريق من خلقه . فايراد الدعوة بما ذكر من الإطلاق مع إيراد الجواب مقيداً بقيد (تَوْفِنَا بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا) يشعر بقوة حجة الدعوة ، ووهن ما بنى عليه الجواب من الشبهة . ثم صرح بالحقيقة وهي أنهم إنما يدعون هذا الإيمان بالسنتهم ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ ﴾ من مدلول ولازم لا ينفك عنه كالبشارة برسول من بنى إخوانهم أى ولد لإسماعيل ، وكون ما تثبت به نبوة محمد بمساواته لما تثبت به نبوة موسى يستلزم وجوب اتباع محمد كما اتبع موسى لأن المدلول يتبع دليله في كل زمن وكل موضوع . قال : إنهم يكفرون بما وراء المنزل إليهم ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ ﴾ أى والحال أنه الحق الثابت في نفسه بالدلائل حال كونه ﴿ مَصْدَقًا لِمَا مَعَهُمْ ﴾ فهو مؤيد عندهم بالعقل والنقل ، وقد كان من مكابرتهم وعنادهم ما كان فلم يبق إلا إلزامهم الحجة بما اقتروا من نخس المخالفة لما أنزل إليهم والفسوق عنه . ليعلم أنهم إنما يتبعون أهواءهم ويحكمون شهواتهم بما أنزل إليهم وما أنزل على محمد ﷺ ، ولذلك قال ﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بما أنزل اليكم وليس فيه الأمر بقتل الأنبياء بل فيه النهي الشديد عن قتل أنفسكم .

ومن مباحث اللفظ أو البلاغة : أنه لجاء بالجملة الحالية في بيان كون ما كفروا به هو الحق لأن الجملة الحالية تدل على تقدم ثبوت مضمونها على حدوث ما جعلت قيداً له ، وما كفروا به كذلك هو الحق من قبل كفرهم . وهذا المعنى للجملة الحالية

هو ما حققه الإمام عبد القاهر في دلائل الإعجاز ، ولم يشر إليه شيخنا هنا لأنه لم يكن عند تفسير هذه الآيات قد قرأ دلائل الإعجاز ، وقوله (مصدقا لما معهم) حال مفردة مؤكدة والأصل فيها المقارنة لما هي قيد له ، وهو يتضمن إثبات كفرهم بالنوراة بالنسبة لكفرهم بالقرآن المصدق لها ولو فيها صدقها فيه ، والكفر ببعضه كالكفر به كله كما تقدم بيانه قريبا . ومن مباحث اللفظ أيضاً : وضع المضارع (تقتلون) موضع الماضي (قتلتم) لما سبق بيانه في مثل هذا التعبير من إرادة استحضار صورة هذا الجرم الفظيع مبالغة في التقرير ، وإغراقاً في التشنيع ، ولما كانت هذه الصيغة تدل على الحال فتوهم أن الذين في زمن التنزيل كانوا لا يزالون يقتربون هذه الجريمة على أنه لم يكن في ذلك العهد أنبياء إلا من يبيحتهم ويحتج عليهم - وصلها بقوله (من قبل) دفعاً لذلك الوهم . والقاء في قوله (فلم) واقعة في جواب شرط دل عليه ما بعده .

وقد سبق القول غير مرة بأن خطاب الخائف بإسناد ما كان من سلفهم إليهم مقصود لبيان وحدة الأمة وتكافلها وكونها في الأخلاق والسجايا المشتركة بين أفرادها كالشخص الواحد ، وبيان أن ما تبلى به الأمم من الحسنات والسيئات إنما هو أثر الأخلاق الغالبة عليها والأعمال الفاشية فيها منبعثة عن تلك الأخلاق فما جرى من بني إسرائيل من المسكرات لم يكن من قذافات المصادفة ، وإنما كان عن أخلاق راسخة في الشعب تبع الآخرون فيها الأولين ، إما بالعمل وإما بالقرار وترك الإنكار . ولو أنكرك المجموع ما كان من بعض الأفراد لما تغافم الأمر ، ولما تمادى واستمر . فالحجة تقوم على الحاضرين بأن الغابرين قبلوا الأنبياء فأقرهم من كان معهم ، ولم يعدوا ذلك خروجاً من الدين ولا رفضاً للشرعة ، وتبعهم من بعدهم على ذلك ، وفاعل الكفر ومحبزه واحد ، وقد سبق تقرير هذا غير مرة .

(٩٢) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ
خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا ، قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ، وَأُشْرُوا فِي

قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٤) قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٥) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٦) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ، يُؤْذُوا أَحَدَهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزَحٍ مِنْ الْعَذَابِ إِنْ يُعَمَّرُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .

سبق التذكير باتخاذ العجل في قوله تعالى (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة) ثم أعاده هنا بعبارة وأسلوب آخرين في سياق آخر . أما اختلاف العبارة والأسلوب فظاهر وأما السياق فقد كان أولا في تعداد النعم على بني إسرائيل وبيان ما قابلوها به من الكفران وهو هنا في ذكر الآيات ورد شبهاتهم المانعة بزعمهم من الإيمان بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فهناك يقول إن النعم التي أسبغها الله عليكم لم يكن لها من شكر عندكم إلا اتخاذ عجل تعبدونه من دونه . وههنا يقول إن الآيات البينات على النبوة والوحدانية ، لم تزكم إلا إيفالا في الشرك وانهماكا في الوثنية ، فكيف تعتقدون عن الإيمان بمحمد بأنكم لا تؤمنون إلا بما أنزل اليكم وهذا شأنكم فيه ؟ ومجموع الآيتين ينبيء بفساد قلوب القوم وفساد عقولهم حتى لا مطمع في هداية أكثرهم من جهة الوجدان ، ولا من ناحية العقل والجنان . وهذه النبينات التي ذكرها ههنا قد كانت في مصر قبل الميعاد الذي نزلت فيه التوراة وأما النعم التي ذكرها هناك فقد كانت في أرض الميعاد كما تقدم . ووجه الاتصال بين هذه الآية وما قبلها قد علم مما قلناه في السياق وفيه المقابلة بين معاملتهم لموسى عليه السلام ومعاملتهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ قالوا : قلوبنا غلف : وادعوا أنهم مأمورون بأن لا يؤمنوا إلا بما أنزل عليهم خاصة . وقد علم من هذه « تفسير القرآن الحكيم » « ٢٥ » « الجزء الأول »

الحجج كلها بطلان شبههم وكذبهم في دعواهم وأنه لا عذر لهم في ترك الإيمان قال ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أى من بعد هذا الحجة . لا من بعد موسى والمراد أنه لم يكن لهم عذر في ذلك الاتخاذ فإنه بعد بلوغ الدعوة : وقيام الحجة ، ولذلك قال ﴿ وأنتم ظالمون ﴾ وأى ظلم أعظم من الشرك بالله تعالى ؟ ولا تغفل عن الإيجاز في قوله (من بعده) وحذف مقول (اتخذتم) أى اتخذتموه إلهاً

نمذركم هنا أيضاً يأخذ الميثاق ورفع الطور كما ذكرهم به في آية تقدمت ، وقد قال هناك (خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه) وقال هنا (خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا) وأمرهم في تلك بالحفظ وأمرهم في هذه بالفهم والطاعة . وقلنا في تفسير (واذكروا) إن المراد الحث به على العمل فالعبارتان تتلاقيان في المعنى والمراد . وفي اختلاف النظم والأسلوب حجة على الذين توهوا أن إعجاز القرآن في البلاغة إنما هو في السبق إلى العبارة التي يتأدى بها المعنى على أكل الوجوه الممكنة في نظم الكلمات العربية . رأى هؤلاء أن المعنى الذي يفيد علماً بشئ ما له كلمات في اللغة تؤديه بوجوه من النظم وأن الكلمات والوجوه محدودة فمن سبق إلى أتباعها أداء وأبلغها تأثيراً كان كالسابق إلى انتقاء أكرم جوهره من طائفة من الجواهر أمامه أو إلى أنفس عقيد وأحسنه نظماً من عقود عرضت عليه . مثال ذلك قوله تعالى (٤٠: ٢٨) وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله قال علماء هذا الشأن إنه يتألف من هذه الكلمات عشرة ضروب من النظم بالتقديم والتأخير ، ما من ضرب منها إلا وهو منتقد بالخطأ أو إيهام خلاف المراد أو الخطأ في الأعراب إلا نظم الآية فهو الذى يؤدي المعنى على أكل الوجوه ولا يتأتى نظم آخر يؤدي مؤداه . وزعم بعض الناس أن هذا الإعجاز ليس إلهياً لو أخذ ما قالوه مسلماً على إطلاقه لكان لنا أن نقول إنه ليس في قدرة أحد من البشر أن يأتى بكلام طويل يتجلى له في كل جملة منه جميع الكلمات التي تدخل في تأدية المعنى المراد له وجميع ضروب النظم ووجوه الأساليب الممكنة في ترتيب تلك الكلمات وتأليفها فيختار الأحسن الأبلغ منها . وإذا لم يكن هذا في قدرة

البشر كما هو ظاهر فلا بد أن يكون من جاء به مؤيداً بعناية من الله تعالى . على أننا لا نسلم بما قالوه على إطلاقه فانه لا يتجه إلا في ألفاظ معينة كألفاظ آية (وقال رجل مؤمن من آل فرعون) الخ وإذا نظرنا إلى المعاني لا سيما السكينة نراها تتجلى في صور كثيرة من النظم الذي تختلف ألفاظه . وأما الآن معنى الآية التي نفسرها وهو أن الله أخذ العهد على بنى إسرائيل بأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وأن يعملوا بشرعته ووصاياه وكان أخذ هذا العهد في موقف رهبة وخشوع يعين على أخذه بالجهد والعزيمة إذ كان الجبل مرفوعاً فوقهم بصفة لم يعدهوها حتى ظنوا أنه يريد أن يقع بهم ولكنهم لم يلبثوا أن نقضوا هذا الميثاق وتركوا العمل به وعبدوا العجل الذي صاغوه من حليهم بأيديهم عن حب متمكن من النفس ، وغالب على العقل والحس ، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في كتابه غير مرة ولكن بعبارات مختلفة كالآية التي تقدمت وذكر هناك أنهم تولوا عن الميثاق بعد الأمر بحفظه والعمل به رجاء التقوى ، وكآية الأعراف (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة) وتقدمت الإشارة إليها هناك وكلاهما غاية في البلاغة .

وذكره هنا بنظم آخر تنتهى إليه البلاغة في سياق آخر فقال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ﴾ ثم التفت عن خطاب الحاضرين إلى الحكاية عن الغابر بن فقال ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ أى إنهم قبلوا الميثاق وفهموه ولكنهم لم يعملوا به بل خالفوه تعنتاً وتأولوا وليس المراد أنهم نطقوا بهاتين الكلمتين (سمعنا وعصينا) بل المراد أنهم بمثابة من قال ذلك ، ومثل هذا التجوز معروف في عهد العرب وفي هذا العهد - يعبرون عن حال الانسان وغيره بقول يحكيه عن نفسه حتى حكى مثل ذلك عن الحيوانات والطيور وعن الجمادات أيضاً وهو أسلوب أظن أنه يوجد في كل لغة أو في اللغات الراقية فقط . ثم ذكر أقبح أمثلة هذا العصيان بعبارة مدهشة في بلاغتها فقال ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ هذه الاستعارة من فرائد الاستعارات يتمثل بها عند ذكر بلاغة القرآن . وإشرب الشئ الشئ مخالطته إياه وامتزاجه به ،

يقال بياض مشرب بحمرة ، أو هو من الشرب كأن الشيء المحبوب شراب يساغ فهو يسرى في قلب الحب و يمازجه كما يسرى الشراب العذب البارد في لهاته . وقد قدر الآكثرون هنا مضافا محذوفا ، فقالوا المراد « حب العجل » وذهب بعض الجامدين على الظواهر إلى أن المراد بالشرب هنا حقيقته . وزعموا أن موسى لما سحق العجل وذراه في اليم طفقوا يشربون المسحوق مع الماء . وغفل صاحب هذا الزعم عن قوله تعالى (في قلوبهم) والشراب الحقيقي لا يكون في القلب . والشراب غير الإشراب . ولبعض المفسرين مزاعم وقصص في العجل لا يدل عليها وحى منزل ، ولا تاريخ صحيح ينقل ، والباء في قوله (بكفرهم) للسببية أى سبب هذا الحب الشديد لعبادة العجل هو ما كانوا عليه من الوثنية في مصر ، فقد رسخ الكفر في قلوبهم بطول الزمن وورثه الأبناء عن الآباء

وأما السياق الذي وردت فيه هذه الآية بهذا النظم والأسلوب الخالفين لأسلوب تلك الآية مع الاتحاد في المعنى فهو إقامة الحجة على اليهود الذين لم يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وورد زعمهم أنهم مؤمنون بشرية لا يظلمهم الله بالإيمان بغيرها كما قلنا في التي قبلها ، ولذلك ختم الآية بقوله تعالى مخاطباً للنبي عليه الصلاة والسلام

﴿ قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن صح زعمكم أنكم مؤمنون بشرية - والإيمان الحقيقي يقتضى العمل بما له من السلطان على الإرادة - فبئسما يأمركم به ذلك الإيمان من الأعمال التي منها عبادة العجل وقتل الأنبياء ونقض الميثاق . لكن هذا الزعم مشكوك فيه بل يصح القطع بعدمه ، بدليل الأعمال التي يستحيل أن تكون أثراً له . ولا ينسى القارئ ما تقدم من ربط الإيمان بالعمل الصالح في تفسير قوله تعالى (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته) الآية هذه حجة عليهم بطبيعة الإيمان وأثره في عمل المؤمن . وتليها حجة أخرى

تتعلق بفائدة الإيمان ومثوبته في الحياة الآخرة ، وهى قوله عز وجل : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ المراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها ، لأن حال الإنسان فيها لا يخلو من أحد الأمرين - الثوبة بالنعيم المقيم ، والعقوبة بالعذاب الآليم ، واستغنى

عن التصريح بالنعيم أو الثواب بقوله (لستم) فانه يشعر بالمحذوف . وانما أوجز هنا في خطاب اليهود لانه يحكى عن شئ يعرفونه في أنفسهم ، وقد أوضح المراد بقوله (خالصة من دون الناس) والخالصة هى السالمة من الشوائب .

(قال الاستاذ الامام) فسر مفسرنا (الجلال) الخالصة بالخالصة وقالوا إنه استعمال لم يعهد في الكلام الفصيح ، والتخصيص مفهوم من قوله (من دون الناس) يقول إن صحت دعواكم وصدق قولكم إنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً وأنكم شعب الله المختار فلن تمسك النار إلا أياماً معدودات لاتزيد على أيام عبادة العجل ولا تتجاوز عابديه ، فتمنوا الموت الذى يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم ، الذى لا منازع لكم فيه ولا مزاحم ، وإن لم تمنوا الموت فما أنتم بمصدقين ، إذ لا يعقل أن يرغب الانسان عن السعادة ويختار الشقاء عليها . والتمنى هو ارتياح النفس وتشوقها إلى الشئ . تودع وتحب المصير اليه . وروى عن ابن عباس تفسير التمنى بالسؤال والطلب ، وهو غير معروف عن غيره من العرب . وامله فسر باللازم ، فان من تمنى شيئاً طلبه بالقول أو الفعل أو بهما . وقد روى عن كثير من الصحابة عليهم رضوان الله تمنى الموت عند القتال وبعده القتال يعبرون بالسنتهم عما في نفوسهم ، وما هو إلا صدق الإيمان بما أعد الله للمؤمنين في الدار الآخرة (أقول) تفسير التمنى بلازمه القولى كما نقل عن ابن عباس أو العملى كالعرض للقتل

في سبيل الإيمان كما نقل عن غيره يدفع إيراد من يقول : إذا كان المراد بالتمنى تمنى النفس فلا يظهر صدق قوله تعالى في الآية التى بعد هذه الآية (ولن يتمنوه) وقد ظهر صدقها على الوجه الاول فلم يتمن أحد من المخاطبين الموت ، وقد ورد أنهم لو تمنوا الموت لما تواروا البخارى : وما قاله الاستاذ الإمام في تفسير التمنى بحقيقته يدفع كل إيراد . فقد قال : إن الكلام حجة على مدعى الإيمان واستحقاق ما أعد الله لأهله في الآخرة تقنعهم في أنفسهم بأنهم إما صادقون في دعواهم وذلك إذا كانوا يتمنون في أنفسهم الموت والوصول الى الدار الآخرة ويمثلون أرواحهم في سبيل الله بارتياح إذا كان حفظ الحق يقتضى بذلها ، وإما كاذبون فيها ، وذلك إذا كانوا شديدي الحرص على هذه الحياة . وليس المراد به الحجة

الإلزامية أمام الناس . ولذلك كانت العبرة في الآية عامة فهي واردة في سياق الاحتجاج على اليهود ويجب على المسلمين أن يتخذوها ميزانا يزنون به دعواهم اليقين في الإيمان والقيام بحقوقه لأن الله أنزلها لذلك .

لو كان المراد بقوله ﴿ ولن يتمنوه أبداً ﴾ أنهم لن يقولوا : ياليتنا نموت . أو كلمة هذا معناها لكان الاحتجاج عليهم إنما هو بالتعجيز عن لفظ يحركون به أنفسهم ولكن ذلك من الخوارق السكونية ولما صح تعليل نفى التمني بقوله ﴿ بما قدمت أيديهم ﴾ فإن هذا التعليل صريح بأن المانع لهم من تمنى الموت هو أنهم يعرفون من أنفسهم أنهم عاصون مقترفون للذنوب التي يستحقون عليها العقوبة لا أن أنفسهم عاجزة عن النطق بكلمة تدل على تمنى الموت وإن كذبنا ، وكثيراً ما كانوا يكذبون ، وقد أسند الفعل إلى الأيدي لأن أكثر الأعمال تزاوّل بها ولذلك جرى عرف اللغة على جعلها كناية عن الشخص باعتبار أنه عامل مطلقاً . وقد ختم الآية بقوله ﴿ والله علم بالظالمين ﴾ ليبين أنهم ظالمون في حكمهم بأن الدار الآخرة خالصة لهم وأن غيرهم من الشعوب محروم منها ، وأن كل من كان مثلمهم مفتاتاً على الله تعالى فهو ظالم مثلمهم .

ثم بين حقيقة حالهم في الإخلاد إلى الأرض ، والفناء في حب البقاء ، وأنهم ليسوا على بينة مما يدعون ، ولا ثقة لهم بأنفسهم فيما يزعمون ، فقال ﴿ واتجدنهم أحرص الناس على حياة ﴾ كذلك كانوا وكذلك هم الآن . والظاهر من سيرتهم ونظام معيشتهم أنهم كذلك يكونون إلى ما شاء الله وإن كان الظاهر أن الكلام خاص بمن كانوا في عصر التنزيل يحاجهم النبي ﷺ ويشاغبونه ويحاجدونه ، معتزّين بشعبهم مغترّين بكتابهم ، بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد علمناؤهم فقط . ونكر الحياة للمتقين ، كأنه يقول : إنهم شديدو الحرص على الحياة وإن كانت في بؤس وشقاء . ثم خص طائفة من الناس بالذكر عرفوا بشدة الحرص على الحياة وتمنى طول البقاء في الدنيا لأنهم لا يؤمنون بحياة بعدها فقال ﴿ ومن الذين أشركوا ﴾ أي أنهم أحرص الناس من جميع الناس حتى

من الذين أشركوا ، ثم بين مثالا من هذا الحرص مستأنفاً فقال ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ أى يتمنى لو يعمره الله ويقيه ألف سنة ، أو أكثر ، فإن لفظ الألف عند العرب منتهى أسماء العدد فيعبر به عن المبالغة في الكثرة لأنه يعرف من نفسه أنه مخالف لكتابه ويتوقع سخط الله وعقابه فيرى أن الدنيا على ما فيها من المنفصات خير له من الآخرة وما يتوقعه فيها . قال تعالى ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ أى وما تعميره الطويل بمزحزحه أى منحيه ومبعده عن العذاب المعد له ولأمثاله فإنه ميت مهما طال عمره وكل ماله حد فهو منته إليه ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ لا تخفى عليه خافية من أمرهم ولو عرفوه حق معرفته لعلوا أن طول العمر لا يخرجهم من قبضته ، ولا ينجيهم من عقوبته ، فإن المرجع إليه ، والأمر كله بيديه . ومن مباحث اللفظ أن الضمير فى قوله (وما هو) مبهم يفسره ما بعده كما اختاره الأستاذ الامام وأكثر المفسرين على أن «ما» حجازية والضمير العائد على (أحدهم) اسمها ومزحزحه خبرها ، والباء زائدة فى الأعراب و (أن يعمر) فاعل مزحزحه .

(٩٧) قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٨) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٩) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (١٠٠) أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهِدًا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

الكلام متصل بما قبله من ذكر تعلات اليهود واعتذارهم عن الإيمان بالنبي عليه الصلاة والسلام وبما جاء به من البينات والهدى — زعموا أنهم مؤمنون بكتاب لا حاجة لهم بهداية فى غيره ، فاحتج عليهم بما ينقض دعواهم ، وزعموا أنهم ناجحون فى الآخرة على كل حال لأنهم شعب الله وأبنائه فأبطل زعمهم ، ثم

ذكر لهم تلة أخرى أغرب مما سبقها ، وفندها كما فند ما قبلها ، وهي أن جبريل الذي ينزل بالوحي على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عدوهم فلا يؤمنون بوحي ينجيهم هو به . وقد جاء في أسباب النزول روايات عنهم في ذلك . منها أن عبد الله بن سوريا من علمائهم سأل النبي ﷺ عن الملك الذي ينزل عليه بالوحي؟ فقال: هو جبريل ، فزعم أنه عدو اليهود ، وذكر من عداوته أنه أنذرهم خراب بيت المقدس ، فكان . ومنها أن عمر بن عبد الخطاب رضى الله عنه دخل مدراسهم فذكر جبريل ، فقالوا : ذاك عدونا ، يطلع محمداً على أسرارنا ، وأنه صاحب كل خسف وعذاب ، وميكائيل صاحب الخصب والسلم : الخ ، وهذا القول هراء ، وخطله بين ، وإنما عني القرآن بذكره ورده لأنه مؤذن بتعنتهم وعنادهم ، وشاهد على فساد تصورهم وعدم تدبرهم ، ليعلم الذين كانوا ينتظرون ما يقول أهل الكتاب وفيه أنه لا قيمة لأقوالهم ، ولا اعتداد بمرائهم وجداهم

قال تعالى ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك بأذن الله ﴾ أى قل لهم أيها الرسول حكاية عن الله تعالى : من كان عدواً لجبريل فان شأن جبريل كذا - فهو إذاً عدو لوحي الله الذي يشمل التوراة وغيرها ولهداية الله تعالى خلقه وبشراه للمؤمنين ، على ما يأتي في بيان ذلك . قال شيخنا في تقييد تنزيله بأذن الله : وإذا كان يناجي روحك ويخاطب قلبك بأذن الله ، لا افتياتاً من نفسه ، فعداوته لا يصح أن تصد عن الإيمان بك ، وليس للعاقل أن يتخذها تلة ويفتحلها عدواً ، فان القرآن من عند الله لا من عنده . ف قوله (بأذن الله) حجة أولى عليهم ، ثم قال ﴿ مصداقاً لما بين يديه ﴾ أى حال كونه موافقاً للكتب التي تقدمته في الأصول التي تدعو إليها من التوحيد واتباع الحق والعمل الصالح وطابقاً لما فيها من البشارات بالنبي الذي ينجيهم من أبناء إسماعيل ، كأنه يقول : فآمنوا به لهذه المطابقة والموافقة ، لأن جبريل واسطة في تبليغه وتنزيله . وهذه حجة ثانية ثم عززها بثالثة وهي قوله ﴿ وهدي ﴾ أى نزله هادياً من الضلالات والبدع التي طرأت على الأديان ، فألقت أهلها في حضيض الهوان ، والعاقل لا يرفض الهداية التي تأتيه ، وتمنقذه من ضلال هوفيه ، لأن الواسطة في مجيئها كان عدواً له من

قبل ، فإن هذا الرفض من عمل النبی الجاهل الذی لا یعرف الخیر بذاته وإنما یعرفه
 بمن کان سبباً فی حصوله . ثم أید الحجة الثلاث برابعة فقال ﴿وإشری للمؤمنین﴾
 أى إذا كنتم تعادون جبریل لانه أنذر بخراب بیت المقدس فهو إنما أنذر المفسدين
 وقد أنزل هذا القرآن على إشری للمؤمنین فما لكم أن تتركوا هذه البشرى إن
 كنتم من أهل الإيمان ، لأن الذی نزل بها قد نزل بانذار أهل الفساد والطفیان
 ومن مباحث اللفظ فی الآیة : أن جبریل اسم أعجمی مركب من «جبر» ومعناه
 بالعبرانية أو السريانية القوة ومن «إیل» ومعناه الإله أى قوة الله وقيل معناه
 عبد الله . وفيه ١٣ لغة منها ثمان لغات قرىء بهن أربع فی المشهورات : جبرئیل
 كلسبیل قرأ بها حمزة والكسائي وجبریل بفتح الراء وحذف الهزة قرأ بها ابن كثير
 والحسن وابن محيصن وجبرئیل كجهمرش قرأ بها عاصم برواية أبی بكر ، وجبریل
 كقندیل قرأ بها الباقر . وأربع فی الشواذ جبریل وجبرائیل وجبرئیل وجبرین .
 ومنها أن قوله (نزله على قلبك) ورد على طریق الالتفات عن التكلم إلى الخطاب
 إذ كان مقتضى السياق أن يقول (نزله على قلبی) وقد قالوا فی نكته إنها حكاية
 ما خاطبه الله تعالى به . ولا أرى صاحب الذوق السليم إلا مستنكراً صيغة التكلم
 فی هذا المقام ، والعلّة فی ذلك لا تبعد عن الأفهام ، ومنها أن الضمير المنصوب
 البارز فی (نزله) للقرآن وهو لم يذكر فيما قبلها وإنما عيفته قرينة الحال ، وذلك
 يدل على فخامة شأنه ، كانه لشهرته قد استغنى عن ذكره (قاله البيضاوى)

أقام الحجج على حماقتهم وسخفهم فی دعوى عداوة جبریل وبيان أنها لا يصح
 أن تكون مانعة من الإيمان بكتاب أنزله الله بتلك الصفات التي طويت فيها الحجج
 ثم بين فی آية أخرى حقيقة حالهم فی هذه العداوة فقال ﴿من كان عدواً لله﴾
 بكفره بما ينزله من الهداية ﴿وملائكته﴾ برفض الحق والخير الذی فطروا عليه وكرهه
 القيام بما يعهد به إليهم ربه عز وجل ، لأنهم (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون
 ما يؤمرون) ﴿ورسله﴾ بتكذيب بعض وقتل بعض ﴿وجبریل وميکال﴾ بأن
 الأول ينزل بالآيات والنذر ، ومن كان عدواً لجبریل فهو عدو لميکال لأن

فطرتيما واحدة وحقيقتيما واحدة من مقتيها وعاداهافي أحدهما فقد عاداهافي الآخر * فان الله عدو للكافرين * أي من عادى الله وعادى هؤلاء المقرين من الله الذين جعلهم رحمة لخلقهم فان الله عدو له ، لانه كافر بالله ومعاد له ، والله عدو للكافرين أي يعاملهم معاملة الاعداء للاعداء ، وهم الظالمون لأنفسهم إذ دعاهم فلم يقبلوا أن يكونوا مع الأولياء (ميكال) بوزن ميعاد قراءة أبي عمرو ويعقوب وعاصم برواية حفص ، وقرأ نافع ميكائل وحمزة والكسائي وابن عامر ميكائيل . وفي الشواذ ميكثل وميكثيل وميكائيل

(قال الاستاذ الامام) هذا وعيد لهم بعد بيان فساد العلة التي جاءوا بها وهم لم يدعوا عداوة هؤلاء كلهم ولكنهم كذلك في نفس الامر ، فأراد أن يبين حقيقة حالهم في الواقع ، وهي أنهم أعداء الحق وأعداء كل من يمثل به وينقله ويدعو إليه ، فالتصريح بعداوة جبريل كالتصريح بعداوة ميكال الذي يزعمون أنهم يحبونه وأنهم كانوا يؤمنون بالنبي لو كان هو الذي ينزل بالوحي عليه . ومعاداة القرآن كمعاداة سائر الكتب الالهية ، لأن الغرض من الجميع واحد . ومعاداة محمد ﷺ كمعاداة سائر رسل الله لأن وظيفتهم واحدة . فقولهم السابق وحالهم يدلان على معاداة كل من ذكر . وهذا من ضروب إيجاز القرآن التي انفرد بها .

وفي قوله تعالى (للكافرين) وضع المظهر في موضع المضمحل لبيان أن سبب عداوته تعالى لهم هو الكفر ، فان الله لا يعادى قوما لذواتهم ولا لأنسابهم ، وإنما يكره لهم الكفر ويعاقبهم عليه معاقبة العدو للعدو

(أقول) وقد تقدم غير مرة أن عذاب الله وانتقامه من الكفرة الفجرة لا يشبه انتقام ملوك الدنيا وزعمائها ، وإنما قضت سنته تعالى بأن يكون لكل عمل يعمل به الانسان في ظاهره أو في نفسه وضميره أثراً في نفس العامل يزيكها ويدسيها وسعادة الانسان في الآخرة أو شقاؤه تابع لآثار اعتقاداته وأعماله في نفسه . ولذلك قال تعالى (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين)

ثم صرح بأن القرآن منزل من عند الله وحده ، وأنه في نفسه آيات بينات لا يحتاج إلى آية أخرى تبينه وتشهد له ، فان ما كان بيناً في نفسه أولى بالقبول مما

يحتاج في بيانه إلى غيره ، فقال ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ﴾ وقد تقدم أن الوحي من الله للنبي يسمى تنزيلاً وانزالاً ونزولاً لبيان علوم مرتبة الربوبية لأن هناك نزولاً حسياً من مكان مرتفع إلى مكان منخفض .

قال هذا شيخنا : علو الله تعالى على خلقه حقيقة أثبتتها لنفسه في كتابه ، لا حاجة إلى تأويلها بعلوم مرتبة الربوبية على مرتبة المخلوقين هر با من استلزامها الحصر والتخير في جهة واحدة ، فإن التنزيه القطعي يبطل اللزوم . ومسألة الجهات نسبية لاحتمالية ، وإذا كان الرب تعالى بائناً من خلقه وهو من ورائهم محيط فهم أينما كانوا يتوجهون إليه إلا أنه فوقهم وإذا كان الملائكة (يخافون ربهم من فوقهم) فماذا يقال فيمن دونهم ؟ وتوجه البشر إلى ربهم في جهة العلو وقبل السماء فطرى معروف في جميع أهل الملل ، فهو فوق الخلق في جملته وفوق العباد أينما كانوا من أرض أو سماء ، وهناك مقام الاطلاق الذي لا يقيد بقيد ولا يحصر في حيز ، وإنما الحيز والحصر من الأمور النسبية والاعتبارية في داخل دائرة الخلق . وصح في الحديث أن الملائكة إذا سمعوا كلام الله في السموات عراهم ماعراهم مما أشير إليه في قوله تعالى (حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلى الكبير) وشيخنا على دعوته إلى مذهب السلف كان لا يزال متأثراً بمذهب الاشعرية . وأما كون آيات القرآن بينات فهي أنها باعجازها البشر وبقرون المسائل الاعتقادية فيها ببراهينها ، والأحكام الأدبية والعملية بوجوه متافعا ، لا تحتاج إلى دليل آخر يدل على أنها هداية من الله تعالى وأنها جديرة بالاتباع ، بل هي دليل على نفسها عند صاحب الفطرة السليمة كالنور يظهر الأشياء وهو ظاهر بنفسه . لا يحتاج إلى شيء آخر يظهره ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ الذين خرجوا من نور الفطرة وانغمسوا في ظلمة التقليد فتركوا طلب الحق بذاته لاعتقادهم أن فطرتهم ناقصة لا استعداد فيها لادراكه بذاته على شدة ظهوره ، وإنما يطلبونه من كلام مقدسيهم . وكذا الذين ظهر لهم الحق فاستحبوا العمى على الهدى حسداً لمن ظهر الحق على يديه وعناداً له

بعد هذا كله بين الله تعالى شأنين من شئون أهل الكتاب وهما أنه لا ثقة بهم

في شيء لما عرف عنهم من نقض العهد وأنه لارجاء في إيمان أكثرهم لأن الضلالة قد ملكت عليهم أمرهم إلا قليلا منهم ، فمن كان ما تقدم من الأعمال والأقوال قد صدر عن بعضهم - وإن كان نقض العهد قد وقع في كل زمن من فريق منهم دون فريق - فلا يتوهم أحد أن أولئك هم الأقلون ، كلا بل هم الأكثرون ، ولذلك قال ﴿أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ همزة الاستفهام التوبيخي داخله على محذوف أي أ كفروا بالآيات وقالوا ما قالوا وكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم؟. النبذة طرح الشيء وإلقاؤه والمراد بالعهد هنا عهودهم للنبي ﷺ ولما كان لفظ «فريق» يوهم العدد القليل وكان الواقع أن الذين كانوا يرون الوفاء له ﷺ قليلون ، والتاقيضين هم الأكثرون - أضرب عنه وقال ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ فهم لا أيمان لهم لأنهم لا إيمان لهم ، أي لا عهد لهم . وفيه من خبر الغيب أن أكثر اليهود لا يؤمنون بالنبي ﷺ وكذلك كان وصديق الله العظيم

(١٠١) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرُ سَلِيمٍ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِمَائِلٍ هُرُوتَ وَمُرُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ شُرُوءَهُمْ مَالٌ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَلْقِ ، وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣) وَأُولَٰئِكَ

آمَنُوا وَاتَّقُوا لِمَثُوبَةٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ

قوله تعالى ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم ﴾ تقدم معناه في تفسير الآية ١٢١ والآية ٨٩ وقوله ﴿ نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم ﴾ بيان لحال جديدة من أحوال أهل الكتاب يصح أن تكون علة لجميع ماصدر عنهم من الشناعات في معاداة النبي عليه السلام ومجاحدته ، وهي أن فريقاً منهم قد نبذوا كتاب الله الذي يفاخرون به ويحتجون بأنهم اكتفوا بالهداية به ، وأنه لا حاجة لهم بسواه - نبذوه أن جاءهم رسول مصدق له بحاله وصفاته لأن البشارات التي فيه بالنبي الذي يحى ، من آل اسماعيل لا تنطبق إلا على هذا الرسول ومصدق له بمقاله باعتراقه بنبوة موسى عليه السلام وصدقه فيما جاء به من الهدى والشرعية ، وتوبيخه اليهود على تحريف بعضها ونسيان بعض وترك العمل بما بقي لهم منها (قال الاستاذ الامام) ليس المراد بنبذ الكتاب وراء ظهورهم أنهم طرحوه برمته ، وتركوا التصديق به في جملته وتفصيله ، وإنما المراد أنهم طرحوا جزءاً منه وهو ما يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم ويبين صفاته ويأمرهم بالإيمان به واتباعه ، أى فهو تشبيه لتركهم إياه وإنكاره بمن يلقى الشيء وراء ظهره حتى لا يراه فيتركه . وترك الجزء منه كتركه كله لأن ترك البعض يذهب يحرمه الوحي من النفس ويجرى ، على ترك الباقي (٣٢: ٥) من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) (قال) ولا فرق فى هذا الحكم بين اليهود والنصارى فكل منهما مبشر بالنبي عليه الصلاة والسلام فى كتابه ، وكل منهما قد نبذ الكتاب فلم يعمل به . ولم يضر النبي ﷺ هذا الجحود من الفريق الواحد لأن دعوته قد قبلها الآخرون واهتدى بها من لا يحصى من الامتين ومن سائر الأمم ، وإنما يضر الجاحدين لأنهم تركوا كتابهم الذى يزعمون أنه المنجى والمخلص لهم وحرّموا من هداية خاتم النبيين ، التى هى أكل هداية أنعم الله بها على العالمين

قال تعالى بعد ما ذكر نبذهم الكتاب ﴿ كأنهم لا يعلمون ﴾ أى نبذوه نبذ من لا يعلم أنه كتاب الله ، يريد أنهم بالغوا فى تركه وإهماله ، ومن ترك شيئاً من أمر الله وهو يعلم أنه أمره وسكن طاف به طائف من الشيطان فغلب على أمره

فانه لا يلبث أن يعود ، ولكن هذا الفريق النابذ لكتاب الله تعالى من حيث هو مبشر بالنبي وأمر باتباعه ، يتأذى بهم الزمان ولا يتوبون ولا يرجعون ، وما أحسن التعبير عن ذلك بنفي الحال والاستقبال دون نفي الماضي

مبحث السحر وهاروت وماروت

ثم ذكر تعالى أن أولئك الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم مجاهدة للنبي صلى الله عليه وسلم وحسداً له قد تبدلوا الكفر بالإيمان واشتروا الضلالة بالهدى ﴿واتبعوا ما تنالوا الشياطين﴾ من الإنس في قصصها وأساطيرها ، أو من الجن في وسوستها ، أو منهما جميعاً ، على حد قوله تعالى (١٦:٦) شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) ﴿على ملك سليمان﴾ أي ما كانت تتلو على عهده وفي أيام ملكه ، إذ زعموا أن ملكه قام على أساس السحر والطمس ، وأنه ارتد في آخر عمره وعبد الأصنام مرضاة لنسائه الوثنيات ﴿وما كفر سليمان﴾ وما سحر ﴿ولكن﴾ أولئك ﴿الشياطين﴾ الذين يسندون إليه ما انتحلوه من السحر ، وما تلبسوا به من الكفر ، هم الذين ﴿كفروا - يعلمون الناس السحر﴾ ليفتنوا به العامة ويضلونهم عن طلب الأشياء من أسبابها الظاهرة ومناهجها المشروعة هذه الأوهام والأكاذيب على نبي الله سليمان عليه السلام مما افترجه بعض الدجالين من بنى إسرائيل ووسوسوا به إلى بعض المسلمين فصدقوهم في بعض ما زعموه من حكايات السحر ، وكذبوهم فيما رموا به سليمان من الكفر ، وإنك لترى دخالة المسلمين إلى اليوم يتلون أقساماً وعزائم ، ويخطون خطوطاً وطلاسم ويسمون ذلك خاتم سليمان وعهوده ، ويزعمون أنها تقي حاملها من اعتداء الجن ومس العفاريات ، ولقد رأى كاتب هذا التفسير شيئاً من ذلك ، وكان في أيام حدائثه يصدق به ويعتقد فائدتَه

وقد زعم اليهود أن سليمان سحر ودفن السحر تحت كرسيه ، وأنه أضاع خاتمه الذي كان به ملكه ، فوقع في يد آخر وجلس مجلسه للحكم الخ ما خلطوا فيه التاريخ بالدجل . وروى عنهم أن سليمان هو الذي جمع كتب السحر من الناس ودفنها

تحت كرسية ثم استخرجها الناس وتماقلوها . وفي رواية أخرى أنه انما دفن تحت كرسية كتباً أخرى في العلوم فلما استخرجت أشاع الشياطين أنها كتب سحر ، وأنشأ الدجالون بعد ذلك يفتحون ما شاءوا وينسبون إلى تلك الكتب . ولا شك أن ما قالوه على سليمان وملسكه من خبر السحر والكفر مكذوب افتراء أهل الأهواء وقد قصه الله تعالى علينا لتعبر بما افتراه هؤلاء الناس على الأنبياء ، وبترجيح فريق من خلفهم الاشتغال بذلك على الاهتداء بالنبي ﷺ حتى إنهم نبذوا كتابهم الذي بشر به وراء ظهورهم

ومن البديهي أن ذكر القصة في القرآن لا يقتضى أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحاً فذكر السحر في هذه الآيات لا يستلزم اثبات ما يعتقد الناس منه كما أن نسبة الكفر إلى سليمان التي علمت من النفي لا تستلزم أن تكون صحيحة لأنها ذكرت في القرآن ولولم يكن ذكرها في سياق النفي

(قال الأستاذ الإمام ماثله) بينا غير مرة أن القصص جاءت في القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وإنه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار ، لأجل الموعظة والاعتبار ، فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية ، ولا بد أن يأتى في العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح . وقد يأتى في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وإن لم تكن صحيحة في نفسها كقوله (كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) وقوله (بلغ مطلع الشمس) وهذا الأسلوب مألوف فأننا نرى كثيراً من كتاب العربية وكتاب الأفرنج يذكرون آلهة الخير والشر في خطبهم ومقالاتهم لا سيما في سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ولا يعتقد أحد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية . ويقول أهل السواحل غربت الشمس أو سقط قرص الشمس في البحر أو في الماء ، ولا يعتقدون ذلك وإنما يعبرون به عن المرنى

جاء ذكر السحر في مواضع متعددة في القرآن وأكثره في قصة موسى وفرعون

وذكر هنا في الكلام عن اليهود . وإذا أردنا فهمه من عرف اللغة وجدنا أن السحر عند العرب كل ما لطف مأخذه ودق وخفي ، وقالوا سحره وسحره بمعنى خدعه وعلاه ، وقالوا عين ساحرة وعيون سواحر . وفي الحديث الصحيح « إن من البيان لسحراً » والسحر بالفتح وبالتحريك الرثة وهي أصل هذه المادة والرثة في الباطن فما لطف مأخذه ودق صتمه حتى لا يهتدى إليه غير أهله فهو باطن خفي ومنه الخداع وهو أن يظهر لك شيئاً غير الواقع في نفس الأمر فالواقع باطن خفي ، وتأثير العيون في عشاق الحسان ، والكلام البليغ في عشاق البيان ، مما يخفي مسلكه ويندق سببه ، حتى يعسر على أكثر الناس الوقوف على العلة في تأثيره .

وقد وصف الله السحر في القرآن بأنه تخيل يخدع الأعين فيرهبهم ما ليس بكائناتاً فقال (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) والكلام في حبال السحرة وعصيتهم وفي آية أخرى (فسحرُوا أعين الناس واسترهبوهم) وفي هذه الآية التي نفسرها أن السحر كان يؤخذ بالتعليم والتاريخ يشهد بهذا ، وقد كان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم كما يؤخذ من قوله تعالى (وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك) ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكترون فيسمون العمل بها سحراً خلفاء سببه ولطف مأخذه ، ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الانسانية في نفس أخرى لمثل هذه العلة . وقد قال المؤرخون إن سحرة فرعون قد استمعوا بالتربق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى

وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة المعاش أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة اشتهر عند الناس أنهم من أسماء الشياطين وملوك الجن وأنهم يحضرون إذا دعوا بها ويكونون مسخرين للداعي . ولمثل هذا الكلام تأثير في إثارة الوهم عرف بالتجربة ، وسببه اعتقاد الواهم أن الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره ، ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير وليس فيه خاصية وإنما تلك العقيدة الفاسدة تفعل في النفس الواهمة ما يغني منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته . وهذا هو السبب في اعتقاد الداهم أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح النكواب

وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء في حقيقة السحر وفي أحكامه وعده بعضهم من خوارق العادات ، وفرقوا بينه وبين المعجزة ، ولم يذكروا في فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل فهو أمر عادي قطعاً بخلاف المعجزة (قال الاستاذ الامام) في قوله تعالى (يعلمون الناس السحر) وجهان (أحدهما) أنه متصل بقوله (ولا تكن الشياطين كفراً) أى ان الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر (والثانى) وهو الاظهر أنه متصل بالكلام عن اليهود وان الكلام في الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم . وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهوراً في زمن التنزيل ولا يزالون يفتحلون ذلك إلى اليوم . أى إن فريقاً من اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ماتلو الشياطين على ملك سليمان . وههنا يقول القائل : بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان في رميه بالكفر وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التى كانت تحت كرسيه ؟ فأجاب على طريق الاستئناف البياني (يعلمون الناس السحر) الخ ، ونفى السكفر عن سليمان . وإلصاقه بالشياطين الكاذبين ذكر بطريق الاعتراض فعلم أيضاً أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الغريرة أيضاً . وانما كان القصد إلى وصف اليهود بتعليم السحر لأنه من السيئات التى كانوا متلبسين بها ويضرون بها الناس خداعاً وتوهمياً وتلميساً ثم قال ﴿ وما أنزل على الملكين بابل هاروت وماروت ﴾ فأجل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصة كانوا يتحدثون بها كما أجل في ذكر تعليم السحر فلم يذكر ماهو ؟ أشعوذة وتخيل ، أم خواص طبيعية ، وتأثيرات نفسية ؟ وهذا ضرب من الاعجاز في الایجاز انفرد به القرآن — يذكر الأمر المشهور بين الناس في وقت من الاوقات لأجل الاعتبار به فينظمه في أسلوب يمكن لكل أحد أن يقبله فيه ، مما يمكن اعتقاده لذلك الشيء في تفصيله ، ألا ترى كيف ذكر السحر هنا وفي مواضع أخرى بأساليب لا يستطيع أن ينكرها من يدعى أن السحر حيلة وشعوذة أو غير ذلك مما ذكرناه ولا يستطيع أن يردّها من يدعى أنه من خوارق العادات ؟

والحكمة في ذلك أن الله عز وجل قد وكل معرفة هذه الحقائق الكونية إلى

« تفسير القرآن الحكيم » « ٢٦ » « الجزء الأول »

بحث الإنسان واشتغاله بالعالم لأنه من الأمور الكسبية ، ولو بين مسائلها بالنص القاطع لجاءت مخافة علم الناس واختبارهم في كل جيل لم يرتق العلم فيه إلى أعلى درجة ، ولكانت تلك المخافة من أسباب الشك أو التكذيب فأننا نرى من الناس من يظعن في كتب الوحي لتفسير بعض تلك الأمور المجملة بما يتراءى لهم وإن لم تكن نصاً ولا ظاهراً فيه ، ويزعمون أن كتاب الدين جاء مخافةً للعلم وإن كان ذلك الذي يطلقون عليه اسم العلم ظنيّاً أو فرضياً

في (المسكين) قراءتان فتوح اللام وكسرهما ، فالأولى قراءة الجمهور والثانية قراءة ابن عباس والحسن وأبي الأسود والضحاك . وحمل بعضهم قراءة الفتح على قراءة الكسر ويؤيده ما قبل إن المراد بهما داود وسليمان عليهما السلام . وقيل بل هما رجلان صاحبان وقار وسمت فشيها بالملائكة ، وكان يؤمهما الناس بالخواجج الأهلية ويجلوئهما أشد الأجلال فشيها بالملوك ، وتلك عادة الناس فيمن ينفرد بالصفات المحمودة يقولون : هذا ملك وليس بإنسان كما يقولون فيمن كان سيّداً عزيزاً يظهر الغنى عن الناس من حيث يحتاجون إليه : هذا سلطان زمانه . جلت حكمة الله في خلقه فقد قدّ هؤلاء الأدميين من أديم واحد ، كان الناس على عهد هاروت وماروت - اللذين كان يتحدث بخبرهما ولا يحدد تاريخهما - على مثالهم اليوم لا يقصدون للفصل في شئونهم الأهلية من الجهة الروحانية إلا إلى أهل السمات والوقار اللابسين لباس أهل التقوى والصلاح ، هذا ما نشاهد من عليه في زماننا وهذا ما حكى الله تعالى عنهم في الزمن القديم ، وقال الأستاذ الامام : لعل الله تعالى سماها مسكين (بفتح اللام) حكاية لاعتقاد الناس فيهما وأجازاً أيضاً كون إطلاق لفظ المسكين عليهما مجازاً كما قال بعض المفسرين . قال تعالى في اليهود (يعلمون الناس السحر وما أنزل على المسكين بيا بل) والظاهر من العطف أن ما أنزل عليهما هو غير السحر ضم إليه لأنه من جنسه في كون تعليمه سيئة مذمومة أو هو لتغاير الاعتبار أو النوع . وليس معنى الانزال عليهما أنه وحى من الله كوحى الانبياء فيشكل عده من الشر والباطل الذي يذم تعلمه ، فان كلمة أنزل تستعمل في مواضع لاصلة بينها وبين وحى الأنبياء . قالوا : أنزلت حاجتي على كريم ، وانزل لي عن هذه الآيات :

ويقال : قد أنزل الصبر على قلب فلان : وقال تعالى (٢٥:٥٧) وأنزلنا الحديد) وقال (٢٦:٩) فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) ولعل التعبير عما أوتياه من العلم بالانزال لأنه لم يكن يعرف له مأخذ غيرها يراد أنهما ألماه إلهاما واهتديا إليه من غير أستاذ ولا معلم . ويصح أن يسمى مثل هذا وحيا خلفاء منبهه وليس الوحي وإلهام الخواطر خاصا في عرف اللغة ولا عرف القرآن بالأنبياء ولا بما يكون موضوعه خيرا أو حقا فقد قال تعالى (٦٨:١٦) وأوحى ربك إلى النحل) وقال (٧:٢٨) وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقال (شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وقال الشاعر :

رأس الغواية في العقل السقيم فما فيه فأكثره وحى الشياطين
وذكر ابن جرير الطبري وجها آخر في تفسير (وما أنزل على الممسين)
ونقله كثير من المفسرين وهو أن (ما) نافية أى إن اليهود يعلمون الناس السحر
و يرتقون بسنده إلى الممسين ببابل ، وما أنزل السحر على الممسين فكيف كانوا
يعلمونه بنى إسرائيل ؟ وقد ضعفوه بأن الثابت في الواقع أن بنى إسرائيل كانوا
يعلمون الناس السحر وما أنزل على الممسين . وقد أجاز هذا التضعيف الأستاذ
الإمام . على أنه يمكن أن يراد به نفى الانزال خاصة أى أن ذلك السحر الذى
ينسبونه إلى الممسين لم ينزل عليهما إنزالا من الله فينظمه اليهود في سلك العلوم
المحمودة ويزعمون أنه حق وإنما هو شىء افتجراه واختراعه من عند أنفسهم

ثم قال ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر ﴾ أى إن
ما عندنا هو أمر يبتلى به الله الناس ويختبرهم فلا تتعلم ما هو كفر . فإن أصر علماء
هذا ما عليه الجمهور واقتصروا عليه الأستاذ الإمام في الدرس . وقال البيضاوى : وما
يعلمان أحدا حتى ينصحاه ويقولوا له : إنما نحن ابتلاء من الله فمن تعلم منا وعمل
به كفر ، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الإيمان ، فلا تكفر باعتقاد جوازه
والعمل به ، وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محذور وإنما
المنع من اتباعه والعمل به اهـ . ويجوز أن يكون المعنى إنما نحن أو لو فتنه تبتلوك
ونختبرك أشكر أم تكفر وننصح لك بأن لا تكفر . ولعلمهما يقولان هذا للمحافظة

على حسن اعتقاد الناس بفضلهم إذ كانوا يقولون هما ملكان . وإنما تسمع الدجاجة الذين يفتحون مثل هذا ويوهمون الناس أنهم روحانيون يقولون لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض نوصيك بأن لا تكتب هذا جلب امرأة متزوجة إلى حب رجل غير زوجها . ولا تكتب لأحد الزوجين بأن يبغض الآخر ، وأن تخص هذه الفوائد بالمصلحة كالحب بين الزوجين ، والتفريق بين العاشقين الفاسقين ، وإنما يقولون هذا ليوهموا الناس أن علومهم إلهية ، وأن صناعتهم روحانية ، وأنهم صيحو النية . وقد كان اليهود يسندون سحرهم إل ملكين ببابل ونرى دجاجة المسلمين من المغاربة وغيرهم يسندون خزبلاهم إلى « دانيال النبي » وهذا المعنى يصح على القوم بأن قوله « وما أنزل » نفى بحسب توجيهنا السابق وقال البيضاوي إن معناه على وجه النفي : إنما نحن مفتونون فلا تكن مثلنا .

قال تعالى ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ صيغة المضارع في هذه الجملة وما قبلها لتصوير ما كان كأنه كائن فالكلام تصوير للقصة لاحكم بمضمونها أى أنهم كانوا يتعلمون منهم ماوضع لأجل التفريق بين الزوجين وهو نحو مايسميه الدجاجة الآن « كتاب البغضة » وليس في العبارة مايدل على أن مايتعلمونه لهذا الغرض هو مؤثر فيه بطبعه أو بسبب خفي أو بخارقة لاتعقل لها علة ولا أنه غير مؤثر ، وليس فيها بيان لمايتعلمونه هل هو كتابة تمام ، أو تلاوة رقى وعزائم ، أو أساليب سعاية ، أو دسائس تنفير ونكاية ، أو تأثير نفساني ، أو وسواس شيطاني ؟ وأى شئ من ذلك ثبت علما كان تفصيلا لما أجمله القرآن في الواقع . ولا يجوز لنا أن نتحكم بتفصيل ماأجمله القرآن فنحمله على أحد ما ذكر أو على غيره . ولو علم الله أن الخير لنا في بيان ذلك لبينه كما قلناه في مثله مرارا لمبين القرآن ذلك الإجمال ولا حقيقة ذلك العلم لأنه موكل إلى بحث البشر وارتقاؤهم في العلم كما تقدم ، ولكنه لم يهمل مايتعلق بالمقائد وبيان الحق فيها ولذلك قال بعد حكاية السحر عنهم ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ أى أنهم ليس لهم قوة غيبية وراء الأسباب التي ربط الله بها المسببات فهم يفعلون بها ما يوهمون الناس أنه فوق استعداد البشر ، وفوق ما يمدحوا من القوى والقدر ،

فاذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم فانما ذلك باذن الله أى بسبب من الاسباب التى جرت العادة بان تحصل المسببات من ضر ونفع عند حصولها باذن الله تعالى. وهذا الحكم التوحيدي هو المقصد الأول من مقاصد الدين فالقرآن لا يترك بيبانه عند الحاجة بل يبينه عند كل مناسبة وربما ترد في القرآن قصة مثل هذه القصة لاجل بيان الحق في مسألة اعتقادية كهذه المسألة لان ايراد الاحكام في سياق الوقائع اوقع في النفس وأعصى على التأويل والتحريف

ثم قال بعد نفى القوة التى وراء الاسباب عنهم ﴿ويعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾ يضرهم لانه سبب في الاضرار بالناس وهو محرم يعاقب الله تعالى عليه في الآخرة ومن عرف بايذاء الناس بمقتضى الناس ويكونون عليه . ولما كان بعض الضار من جهة نافعا من جهة أخرى وربما كانت منفعة أكبر من إثمه نفى المنفعة بعد اثبات المضرة . فهذا النفي واجب في قانون البلاغة لا بد منه . وقد صدق الله تعالى فاننا نرى ممنحلى السحر وما في معناه أفقر الناس وأحقهم ، ولوعقل السفهاء الذين يختلفون اليهم يلتمسون المنافع لأنفسهم والايقاع بأعدائهم لعلوا أن الشقى في نفسه لا يمكن أن يهب السعادة لغيره ، لان فاقد الشيء لا يعطيه . هذه حالهم في الدنيا فكيف يكونون في الآخرة يوم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ؟

لاجرم أنها تكون حالا سوء واليهود يعلمون ذلك كما قال ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق﴾ أى إنهم يعلمون أن من اختار هذا واستبدله بما آتاه الله من أصول الدين الحق وأحكام الشريعة العادلة الموصلين إلى سعادة الدنيا والآخرة فليس له نصيب في نعيم الآخرة ، وذلك أن التوراة قد حظرت تعليم السحر وجعلته كعبادة الاوثان وشددت العقوبة على فاعله وعلى اتباع الجن والشياطين

والكهان ، ولا ينافي هذا العلم قوله ﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ فان العلم علمان - علم تفصيلي متمكن من النفس متسلط على إرادتها يحركها الى العمل . وعلم اجمالي خيالى يلوح في الذهن منهما عند ما يعرض ما يذكر به ككتاب وإلقاء سؤال ، وهو يقبل التحريف والتأويل ، وليس له منفذ الى الإرادة ولا سبيل ، فقد كانوا يستحلون أكل السحت كالرشوة والربا بالتأويل كما يفعل غيرهم اليوم

وقبل اليوم . ولو كانوا يعلمون حرمة ما ذكر علما تفصيليا يستغرق جميع جزئيات الحرم ويفقهون علة التحريم وسره ويصدقون بما توعد الله مرتكبه من العقوبة في الآخرة تصديقا جازما ويتذكرونه وقت العمل بما للعقيدة من السلطان على الإرادة لما ارتكبوا ما ارتكبوه مع الإصرار عليه ، ولكنهم فقدوا هذا النوع من العلم ولم يغن عنهم تصور أن السحر والخذاع كلاهما حرام كالربا والرشوة لأن في الكتاب عبارة تدل على ذلك فإن العبارة تحتل ضروبا من التأويل ككون النهي خاصا بمعاملة شعب إسرائيل وكانوا يقولون (ليس علينا في الاميين سبيل) إذا أكلنا أموالهم بالباطل ، وكاشتراط الضرر في السحر مع ادعاء أن ما يأتونه منه نافع غير ضار وغير ذلك وإنا نرى كثيرا من الحرمات قد انتهكت في المسلمين بمثل تلك التأويلات حتى جوز بعض المشتغلين بالفقه هدم ركن من أعظم أركان الاسلام بالحيلة وهو ركن الزكاة الذي يحارب تاركوه شرعا ، وترى هذه الحيل قد أثرت في الإمة أسوأ التأثير فقلما يوجد فيها غنى يؤدي الزكاة . ولا يعتد الممسك بالدين من هؤلاء الأغنياء أنه متعرض لمقت الله وعقوبته ، وأنه قد فسق عن أمر به ، لأنه يمنع الزكاة بحيلة يسميها شرعية ، وقد أخذها عن يسمون فقهاء ، ويفتخرون بأنهم ورثة الانبياء ، ثم إن الحيل على التزوير وأكل أموال الناس بالباطل لها في بعض الكتب وعلى السنة كثيرين من أصحاب المآثم مجال واسع وميدان فسيح ، ولها أقبح التأثير في إفساد العامة واستباحتهم المحظورات ، ولقد صارت هذه الحيل على الله عز وجل والتأويلات الباطلة الهادمة لدينه معبودة من علم الدين حتى إنه لياتيها من لا منفعة له في إتيانها ممن يعدون صالحين ، ومن أعجب ذلك أن بعض أهل العلم الصالحين يشهد الزور بمثل هذه التأويلات ، وقد نقل الثقات أن طالب الشهادة يستعطفه ويستميل قلبه بالشكوى من الظلم وإرادة الاستعانة بشهادته على دفع المظلمة والتخلص من الأذى فيأمر الشيخ بأن تطوى الورقة المشتملة على قول الزور بحيث يحجب سواد الكتابة فلا يراه ويضع توقيعه وختمه في ذيلها كأنه وضعها على ورقة خالية ، وهو يعلم أنها ليست خالية من الكتابة ، ويعرف ما فيها من الكذب . فهل نقول إنه غير عالم بقوله تعالى (والذين لا يشهدون الزور) وقوله (إنما يفترى الكتاب الذين لا يؤمنون)

وبما رواه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكره أن النبى ﷺ قال وكان متكثرا « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراف بالله وعقوق الوالدين - ثم قعد فقال - ألا وقول الزور وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت . وبما رواه من حديث أبى هريرة مرفوعا أيضا « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » وفى رواية لغيرهما « ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وحج واعتمر وقال إنه مسلم » وذكرهن - بلى إنه عالم بكل ذلك ولكنه التأويل أفسد على كل أهل دين دينهم .

أقول : أشار الاستاذ الامام إلى ما كان من إقدام هذا العالم العابد على شهادة الزور واستحلالها بتلك الحيلة السخيفة وذكر أمثلة أخرى وقد تذكرت عند كتابة الحديث فى المنافقين أن بعض شيوخ الارهر المعروفين كان وعدنى وعدا وأخلف فسالته به فقال : إن فقهاءنا الحنفية قالوا بأن الوفاء بالوعد غير واجب ، فقلت وقد تميزت من الغيظ : إن من يقول هذا القول بعد ما ورد من النصوص الصريحة فى الوفاء وفى الوعيد على تركه فهو مخطئ . وقوله مردود كما ورد فى الصحيح (بل قلت أكثر من هذا) واننى أبرئ الأئمة من القول بحل إخلاف الوعد من غير عذر صحيح ولكننى أعذر الفقهاء إذا قالوا بأنه ليس للقاضى أن يحكم على من وعد بالوفاء ويلزمه ذلك إلزاما ، ولا أعذر من يقول إن الوفاء مستحب وتركه جائز وإن كان هو المعروف فى أكثر كتب الفقه المتداولة .

ولقد صار العالم المسلم عاجزا فى أكثر بلاد المسلمين عن إنكار ما يخالف هدى الكتاب والسنة من كتب الميتين لاسيما إذا اشتهروا باختيار كتبهم للتدريس . وحجة هؤلاء المقلدين على نصر كتب الميتين وترجيحها على كتاب الله وسنة رسوله هى أن القادرين على الاهتداء بهما قد انقضوا فوجب على المسلمين ترك العمل بهما والاعتماد على كتب العلماء المتأخرين الذين استنبطوا من قواعد أئمتهم جميع مسائل الدين ، فعملينا أن نأخذ بكل ما قالوا ، وأن لا ننظر فى الكتاب والسنة إلا للتبرك بهما ، فان رأينا خلافا بين قول الله ورسوله وقول الفقه لا يحتمل التأويل فعملينا أن نهم عقولنا وأفهامنا وننزه فهم الفقيه الميت وعقله ونعمل بقوله مكبرين

أنفسنا التي سجل عليها الحرمان من فهم الكتاب المبين والسنة البيضاء التي وصفها صاحبها بأن ليلها كنهارها أي لا يشق فيها أحد !!! هذا ما عليه جماهير المسلمين ، ولم يبعد من قبلهم عن كتاب ربهم أشد من هذا البعد ، وسيعودون إليه بعد حين ، فقد أخذهم العذاب على تركه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

ثم قال تعالى ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ﴾ أي لو أنهم استبدلوا الإيمان بما جاء به النبي ﷺ بهذا السحر الخادع واتباع نزغات الشياطين أو لو آمنوا بكتابهم إيماناً حقيقياً ومنه البشارة بالنبي والامر باتباعه واتقوا بالعمل به والحفاظ على حدوده مغبة ما ينظره المجرمون من العقوبة على العصيان - لكن ثواب الله لهم على الإيمان الصحيح والعمل الصالح خيراً لهم من جميع ما توهموه في المحالفة من المنافع . ثم قال ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي إنهم في كل ما هم عليه من الاباطيل ، ومن زعمهم أنها ترجع إلى الكتاب بضروب من التأويل ، يتبعون الظنون ويعتمدون على التقليد ، وليسوا على شيء من العلم الصحيح - ولو كانوا يعلمون علماً صحيحاً لظهر أثره في أعمالهم ولآمنوا بالنبي ﷺ واتبعوه فكانوا من المفلحين

ومن مباحث اللفظ في الآيات : أن بابل بلدة قديمة كانت في سواد الكوفة (قبل الكوفة) في أشهر أقوال المفسرين ، ويؤخذ من بعض كتب التاريخ أنها كانت في الجانب الشرقي من نهر الفرات بعيدة عنه ، ويقال إن أصل اشتقاقها في العبرانية يدل على الخلط ، إشارة إلى ما يرويه العبرانيون من اختلاط الالسنه هناك . وهاروت وماروت اسمان أعجميان ، ولو كانا مشتقين من الهرت والمرت كما زعم بعضهم لما منعنا من الصرف . و « من » في قوله تعالى (وما يعلمان من أحد) لاستغراق النفي وتأكيد كده ، وقد شدد الاستاذ الامام كادته الانكار على من قال انها زائدة ، وقال إنما الزائدة ما يذكر للتحلية ولا يكون له معنى ماوفقا لكثير من المفسرين . والمثوبة الثواب (لمثوبة) خبر (لو) قال الاستاذ : أي لكانت مثوبة من الله خيراً . وقد قسروا لها فعلا فقالوا : الأصل لا يثيبوا مثوبة ، فحذف الفعل وركب الباقي جملة اسمية ليبدل على ثبات المثوبة ، ونكرت لبيان أنها مها قلت فهي خير لهم ، وأصلها الثوب بمعنى الرجوع ، كأن الحسن يشوب إلى من أحسن إليه بعد الاعراض

(١٠٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا
وَاللَّكَفْرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٥) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

أقول: هذا خطاب للمؤمنين في أمر له علاقة بما كان بينهم وبين اليهود فهو
متعلق بماضى السياق الخاص ببني إسرائيل ، و بدء انتقال منه إلى سياق مشترك
بين المؤمنين واليهود والنصارى جميعا في أمر الدين . و « راعنا » كلمة كانت تدور
على ألسنة الصحابة في خطاب النبي صلى الله عليه وسلم . والمعنى المتبادر منها لغة
هو : راعنا سمعك وهو كأرعننا سمعك أى اسمع لنا ما نريد أن نسأل عنه ونراجعك
القول فيه لنفهمه عنك ، أو راقبنا وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تلقينه
علينا وفهمه . قال في مجاز الأساس : « وراعى الأمر — نظرت إلام يصير .
وأنا أراعى فلانا — أنظر ماذا يفعل ، وأرعىته سمعى وأرعى سمعك وراعى
سمعك اه ولكن الله تعالى نهى المؤمنين عن قول هذه الكلمة والمشهور في كتب
التفسير : أن سبب ذلك هو أن اليهود سمعوها فافتروا وصاروا يخاطبون بها
النبي صلى الله عليه وسلم لاوين ألسنتهم بها لتوافق كلمة شتم بلسانهم العبراني
قيل : كانوا ينطقون بها « راعينا » وقيل : كانوا يريدون بتعريفها نسبته إلى
الرعونته في سورة النساء (٤: ٦٤) من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون
سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا — لياً بألسنتهم وطعناً في الدين) الآية
(الأستاذ الإمام) إن هذا النهي له صلة وارتباط بشأن اليهود لا محالة لأن
الكلام لا يزال في شؤونهم مع النبي ﷺ والمؤمنين ولكن هذا لا يستلزم أن يكون سبب
النهي هو كون الكلمة تستعمل للشتم في العبرانية ولا أقول بهذا إلا بنقل صحيح

عن يعرف هذه اللغة ، وللمفسرين وجوه أخرى في تعليل النهي فعن مجاهد وغيره أن معنى الكلمة « خلاف » والمراد لا يخالفوه كما يفعل أهل الكتاب ، ولكن اعترض على هذا الوجه بأن ليس له شاهد من اللغة . والمعروف في اللغة أن « راعنا » من المراعاة . وهي تقتضى المشاركة في الرعاية أى أرعنا نرعك ، وفي خطاب النبي بذلك من سوء الأدب ما هو ظاهر ، فالنهي عنه تأديب كقوله تعالى (٤٩ : يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض) كأنه يقول لا تكونوا كهؤلاء الغلاظ القلوب الذين قصصنا عليكم خبرهم أو الذين عرقتهم سوء أدبهم مع الأنبياء ، بل اجمعوا بين الطاعة والأدب .

(قال) وههنا وجه آخر وهو أنه يقال في اللغة : راعى الحمار الحر إذا رعى معها ، فيجوز أن اليهود كانوا يحرفون الكلمة بصرفها إلى هذا المعنى فنهى الله المسلمين عن هذه الكلمة وشنع على اليهود بإظهار سوء قصدهم فيها . وقد رضوا بصرف اللفظ إلى هذا المعنى وإن كان يتضمن أنهم حرم لأن السبب يسب نفسه كما يسب غيره فهو على حد قول القائل :

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكاً معي

قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرونا واسمعوا ﴾ فنهى تعالى عن كلمة كانوا يقولونها وأمرهم بكلمة خير منها تفيد ما كانوا يريدونه منها . فكلمة « انظرونا » تفيد معنى كلمة « راعنا » فإن فيها معنى الانظار والامهال ويؤيد هذا المعنى قراءة « انظرونا » من الانظار وفيها معنى المراقبة وهو ما يستفاد من النظر بالعين . تقول : نظرت الشيء ونظرت إليه ، إذا وجهت إليه بصرك ورأيتَه وتقول : نظرتَه بمعنى انتظرتَه ومثله (٣٦ : ٤٩ ما ينظرون إلا صيحة واحدة) أذن الله تعالى لهم بهذه الكلمة « انظرونا » وأمرهم بالسمع لئلا ينهى ليوا عنه ما يقول من الدين وهو أمر يتضمن الطاعة والاستجابة . ثم ختم الآية بقوله ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ ليبين أن ماصداً عن اليهود من سوء الأدب في خطاب الرسول هو أثر من آثار الكفر الذي يعذبون عليه العذاب الموجه أشد الإجماع ، وللتنبية على أن التقصير

فى الأدب معه ﷺ ذنب مجاور للكفر يوشك أن يجر إليه فيجب الاحتراس منه بترك الألفاظ الموهمة للمساواة ، بله الألفاظ المنافية للأدب .

أقول: لاشك أن من يعامل أستاذة ومرشده معاملة المساواة فى القول والعمل يقل احترامه له وتنزل هيئته من نفسه حتى تقل الاستفادة منه أو تعدم . وإذا لم تنزل الاستفادة منه من حيث كونه معلماً فانها تقل وتنزل لالمحالة من حيث كونه مربياً لأن المدار فى التربية على التأسى والقدوة ، ومن أراد مثلى لأرضاء إماما و قدوة لى . فان رضىته بالمواضعة والتقليد وكذبتي المعاملة فأى قيمة لهذا الرضى والمبرة بما فى الواقع ونفس الأمر ، وهو أن من اعتقد أن امرأ فوقه علماً وكلاً وأنه فى حاجة للاستفادة من علمه وإرشاده ومن أخلاقه وآدابه ، فانه لا يستطيع أن يساوى نفسه به فى المعاملة القولية ولا الفعلية ، إلا ما يكون من فلتات اللسان ومن اللعم ، وعن مثل هذا نهى الصحابة رضى الله عنهم لئلا يجرم الانس به ﷺ وكرم أخلاقه إلى اعتداء حدود الأدب الواجب معه الذى لا تكمل التربية إلا بكلمه ، وهو تعالى يقول (٣٣:٢١) لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة (الآية .

(الأستاذ الامام) إنما كان عدم الاصغاء لما يقوله الرسول عليه الصلاة والسلام وخطابه خطاب الأكفاء والنظراء مجاوراً للكفر ، لأنه يتكلم عن الله عز وجل نسعادة من يسمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به بالأدب ويسأل عما لا يفهمه بالأدب ، ومن فاته هذه السعادة فهو الشقى الذى لا يعدل بشقائقه شقاء : ومعنى هذه المجاورة أن سوء الأدب ينحو ما حكى عن اليهود فى سورة النساء هو من الكفر الصريح ولذلك قال بعده (٤:٤٦) ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون (إلا قليلا) فالألفاظ التى تحاكي الألفاظ التى توعدوا عليها بهذا الوعيد على أنها كفر إذا صدرت من المؤمن غير محرقة ولا مقصوداً بها ما كانوا يقصدون تسمى مجاورة لألفاظ الكفر لأنها موهمة وخارجة عن حدود الأدب اللائق بالمؤمنين .

(قال) إن لمن جاء بعد الرسول حظاً من هذا التأديب ، وليس هو خاصاً

عن كان في عصره من المؤمنين . فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم ، وكان يجب الاستماع له والانصات لأجل تدبره ، هو الذي يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيء . وهو كلام الله الذي به كان الرسول رسولا تحب طاعته والاهتداء بهديه ، فما هذا الأدب الذي يقابله به الأكثرون ؟ إنهم يلغظون في مجلس القرآن ، فلا يستمعون ولا ينصتون ، ومن أنصت واستمع قائما ينصت طربا بالصوت واستلذاً بتوقيع نغمات القارئ ، وإنهم ليقولون في استحسان ذلك واستجادته ما يقولونه في مجالس الغناء ، ويهتزون للتلاوة ويصوتون بأصوات مخصوصة ، كما يفعلون عند سماع الغناء بلافرق ، ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه إلا ما يروونه مدعاة لسرورهم في مثل قصة يوسف عليه السلام مع الغفلة عما فيها من العبرة وإعلاء شأن الفضيلة ولا سيما العفة والامانة . أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها ، وتوعد على تركه بجعله مجاوراً للكفر الذي يسوق صاحبه إلى العذاب الآليم (٢٣ : ٦٨ ، ٦٩ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يات آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟)

ثم قال تعالى ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ يقول تعالى للمؤمنين : إن هؤلاء الذين علمتم شأنهم مع أنبيائهم حسدة ، لا يلتفت إلى تكذيبهم ولا يبالي بمدوانهم ، ولا يضرهم كفرهم وعنادهم ، فهم لحسدهم لا يودون أن ينزل عليكم أدنى خير من ربكم ، والقرآن أعظم الخيرات ، لأنه النظام الكامل ، والفضل الشامل ، والهداية العظمى ، والآية الكبرى ، جمع به شملكم ، ووصل حبلكم ، ووحد شعوبكم وقبائلكم ، وطهر عقولكم من نزغات الوثنية ، وزكى نفوسكم من أدران الجاهلية ، وأقامكم على سنن الفطرة ، وشرع لكم الخفيفة السمحة ، فكيف لا يحرق الحسد عليه أكبادهم ويخرج أضغانهم عليكم وأحقادهم ؟

(أقول) الود محبة الشيء . وتمنى وقوعه ، يطلق على كل منهما قصداً ، وعلى الآخر تبعاً . ويكون مفعول الأول مفرداً والثاني جملة ، ونفيه بمعنى الكراهة فالله

(البقرة : س ٢) رحمة الله وفضله العظيم لاشأن للخلق في منحهما ولامنعهما ٤١٣

ما يجب الذين كفروا من اليهود والنصارى ولا من المشركين أن ينزل عليهم أدنى خير من ربكم . أما أهل الكتاب ولا سيما اليهود فلحسبهم للعرب أن يكون فيهم الكتاب والنبوة وهو ما كانوا يحتكرونه لأنفسهم ، وأما المشركون فلأن في نهي التنزيل المرة بعد المرة من قوة الإسلام ورسوخه وانتشاره ماخيب آمالهم في تبصهم الدوائر بالنبي ﷺ وانتهاء أمره .

ثم إن الله تعالى رد عليهم بما بين جهلهم وجهل جميع الحاسدين فقال ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أى أن الحاسد اغباوته وفساد طويته يكون ساخطاً على الله تعالى ومعتزاً عليه أن أنعم على المحسود بما أنعم ، ولا يضر الله تعالى سخط الساخطين ، ولا يحول مجارى نعمه حسد الحاسدين فالله يختص برحمته من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم - أسند كلاً من هذين الأمرين إلى اسم الذات الأعظم لبيان أنهما حق له لذاته فليس لأحد من عبيده أدنى تأثير في منحهما ولا في منعهما .

(١٠٦) مَا تَنَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٧) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٨) أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ؟ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .

قال أئمة اللغة: إن أصل النسخ النقل سواء كان نقل الشيء بذاته، كما يقال: نسخت الشمس الظل: أى نقلته من مكان إلى مكان، أو نقل صورته، كما يقال: نسخت الكتاب: إذا نقلت عنه صورة مثل الأولى، وورد: نسخت الريح الأثر: أى أزالته. وأصل النسيان الترك أو هو غايته اللازمة له، ومنه قوله تعالى (أتنتك

أيأتانا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى تركتها بترك العمل بها فجزاؤك أن تترك في العذاب فاحفظ المعنى اللغوى .

(الاستاذ الإمام) للمفسرين فى تفسير هذه الآية طريقان . أحدهما: أنها على حد قوله تعالى (١٦: ١٠١) وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) فالنسخ هنا بمعنى التبديل أى إذا جعلنا آية بدلا من آية فاننا نجعل هذا البديل خيرا من المبدل منه أو مثله على الأقل، فالآية عند هؤلاء فى نسخ التلاوة ، وقالوا إن المراد بالفسيان هو أن يأمر الله تعالى بعدم تلاوة الآية فنسئى بالمره . (قال) وهذا بمعنى التبديل، فما هى الفائدة فى عطفه عليه بأو؟ وهل هو إلا تكرار يحل كلام الله عنه؟

وثانيهما: أن المراد نسخ حكم الآية وهو عام يشمل نسخ الحكم وحده ونسخه مع التلاوة، وهذا هو القول المختار للجمهور، وقالوا فى توجيهه: إنه لا معنى لنسخ الآية فى ذاتها ولا حاجة إليه وإنما الأحكام تختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، فاذا شرع حكم فى وقت لشدة الحاجة إليه ثم زالت الحاجة فى وقت آخر فن الحكمة أن ينسخ الحكم ويبدل بما يوافق الوقت الآخر فيكون خيرا من الأول أو مثله فى فائدته من حيث قيام المصلحة به . وقالوا إن المراد بالانساء إزالة الآية من ذاكرة النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وقد اختلف فى هذا أياكون بعد التبليغ أم قبله فقبل؟ بعده كما ورد فى أصحاب بئر معونة (*) وقيل

(*) بئر معونة موضع بين الحرمين قبل هذيل وقيل لسلم وهناك اغتيل جماعة من الصحابة أكثرهم قراء فخر النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه عليهم، وروى البخارى وغيره أنه نزل فيهم وحى منه حكاية عنهم « بلغوا قومنا أن قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه » وليس كل وحى قرآنا فان للقرآن أحكاما ومزايا مخصوصة وقد ورد فى السنة كثير من الأحكام مسندة إلى الوحى ولم يكن النبى (ص) ولا أصحابه يعدونها قرآنا، بل جميع ما قاله عليه السلام على أنه دين فهو وحى عند الجمهور واستدلوا عليه بقوله (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى) وأظهره الأحاديث القدسية . ومن لم يفقه هذه التفرقة من العلماء وقعت لهم أو هام فى بعض الأحاديث رواية ودراية فوزعموا أنها كانت قرآنا ونسخت

قبله حتى ان السيوطي روى في أسباب النزول ان الآية كانت تنزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلا فينساها نهاراً فحزن لذلك فنزلت الآية . قال الاستاذ الامام : ولا شك عندي في أن هذه الرواية مكذوبة وان مثل هذا النسيان محال على الانبياء عليهم السلام لانهم معصومون في التبليغ والآيات الكريمة ناطقة بذلك كقوله تعالى (ان علينا جمعه وقرآنه) وقوله (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وقد قال المحدثون والاصوليون : ان من علامة وضع الحديث مخالفته للدليل القاطع عقليا كان أو نقليا كأصول الاعتقاد وهذه المسألة منها فان هذا النسيان يناقض الغضمة المجمع عليها

وقالوا في تفسير قوله تعالى بعدما ذكر ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ انه ورد مورد الاستدلال على القدرة على النسخ بالمعنى الذي قالوه أى انه لا يستنكر على الله كما زعم اليهود لانه مما تناله قدرته ثم استدل على ذلك بقوله ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السموات والارض ﴾ الآية . والخطاب في (تعلم) للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم والمراد به غيره من المؤمنين الذين ربما كانوا يتمتعون من كلام اليهود وغيرهم من المعترضين على النسخ ، وضعيف الايمان يؤثر في نفسه أن يعاب ما يأخذ به فيخشى عليه من الركون الى الشبهة أو الحيرة فيها في الكلام تثبيت لمن كان كذلك من الضعفاء ودعم لايمانهم ، وتوجيه الكلام الى شخص يراد غيره شائع في كلام العرب والمولدين : ولذلك قال بعض العلماء ، نزل القرآن على طريق قولهم « إياك أعني واسمعي يا جاره » واذا كان هذا الملك العظيم لله وحده فلا شك أنه لا يعجزه أن ينسخ حكما من الاحكام . ومن آية ارادة

الامة بالخطاب الانفات عن الافراد الى الجمع بقوله ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أى ان وليكم وناصركم هو الله تعالى وحده فلا تبالوا بمن يشكر النسخ أو يعيبكم به ، ولا ينبغي أن يستهويكم انكارهم فيميلكم عن دينكم فانه لا قيمة له ولا للمنكرين إذ ليس في استطاعتهم أن يضروكم أو ينفعوكم اذا كان الله هو مولاكم وناصركم . واذا أراد الله بكم سوءا فلا يملكون أن يدفعوه عنكم

ثم قال تعالى ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى من قبل ﴾

وهذا كلام جديد منقطع عما قبله وقولوا إن (أم) هنا للاستفهام لا للاضراب لأن أم التي تستعمل بمعنى (بل) يقصد بها الاضراب عن الكلام السابق ولا يظهر الاضراب هنا . هذا ما اختاره الاستاذ الامام من قولهم
(قال) واستشهدوا لام الاستفهامية بقول الشاعر :

فوالله لا أدري أهدى تقول أم القوم ، أم كل إلى حبيب ؟
وبعض المفسرين يقولون إن «أم» هذه منقطعة للاضراب عن عدم علمهم
بالسابق إلى الاستفهام عن اقتراحهم فهي تتضمن الاضراب والاستفهام معاً ،
وتجد الجلالين يقدران ذلك في تفسيرهما وقد قدرا فيه هنا « بل أتريدون »
والحاصل أن المعنى هنا أتريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل موسى قومه تبرما
واعنائاً ؟ يحذر المسلمون ما فعل أولئك وقد أتبع التحذير بالوعيد فقال ﴿ومن يقبل
الكفر بالآيمان فقد ضل سواء السبيل﴾ أي إن ترك الآيات الموجودة والاعراض
عنها لإعنات النبي ﷺ بسؤال غيرها لتكون بدلا منها هو من اختيار الكفر على
الآيمان واستحباب العمى على الهدى . وبدل وتبدل واستبدال يدل على جعل شيء
في موضع آخر بدلا منه والباء تقرر بالمبدل منه لا بالمبدل كما أشرنا إليه في تفسير
(أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير)

(الاستاذ الامام) هذا تقرير ما جرى عليه المفسرون في الآيات . وإذا
وازننا بين سياق آية (ما ننسخ) وآية (وإذا بدلنا آية مكان آية) نجد أن الأولى
ختمت بقوله تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير) والثانية بقوله (والله أعلم
بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر) ونحن نعلم شدة العناية في أسلوب القرآن بمراعاة هذه
المناسبات . فذكر العلم والنزول ودعوى الافتراء في الآية الثانية يقتضي أن يراد
بالآيات فيها آيات الاحكام

وأما ذكر القدرة والتقرير بها في الآية الأولى فلا يناسب موضوع الاحكام
ونسخها وإنما يناسب هذا ذكر العلم والحكمة فلو قال (ألم تعلم أن الله عليم حكيم)
لكان لنا أن نقول إنه أراد نسخ آيات الاحكام لما افترضته الحكمة من انتهاء الزمن
أو الحال التي كانت فيها تلك الاحكام موافقة للمصلحة . وقد تحير العلماء في فهم

الإنساء على الوجه الذي ذكره حتى قال بعضهم إن معنى (نفسها) نتركها على ما هي عليه من غير نسخ وأنت ترى أن هذا وإن صح لغة لا يلتزم مع تفسيرهم إذ لا معنى للاتبان بخير منها مع تركها على حالها غير منسوخة (قال) والمعنى الصحيح الذي يلتزم مع السياق إلى آخره أن الآية هنا هي ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم أي (ما ننسخ من آية) نقيمها دليلاً على نبوة نبي من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأكيد نبي آخر بها أو ننسها للناس لطول العهد بمن جاء بها فانتما بما لنا من القدرة الكاملة والنصرف في الملك تأتي بخير منها في قوة الانقاع وإثبات النبوة أو مثلها في ذلك . ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيد بآية مخصوصة بمنجها جميع أنبيائه . والآية في أصل اللغة هي الدليل والحجة والعلامة على صحة الشيء . وسميت جل القرآن آيات لأنها بإعجازها حجج على صدق النبي ودلائل على أنه مؤيد فيها بالوحي من الله عز وجل ، من قبيل تسمية الخالص باسم العام . ولقد كان من يهود من يشك في رسالته عليه السلام بزعمهم أن النبوة محتكرة لشعب إسرائيل ، ولقد تقدمت الآيات في تفنيدهم هذا وقالوا (لولا أوتى مثلها أوتى موسى) أي من الآيات ، فرد الله تعالى عليهم في مواضع منها قوله عز وجل بعد حكاية قولهم هذا (أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) الخ ومنها هذه الآيات والخطاب فيها المؤمنين الذين كان اليهود يريدون تشكيكهم كأنه يقول إن قدرة الله تعالى ليست محدودة ولا مقيدة بنوع مخصوص من الآيات أو بأحد منها لا تتناول غيرها ، وليست الحجة محصورة في الآيات السابقة لا تتمدها ، بل الله قادر على أن يأتي بخير من الآيات التي أعطاها موسى وبمثلها ، فانه لا يمجز قدرته شيء ، ولا يخرج عن ملكه شيء ، كما أن رحمته ليست محصورة في شعب واحد فيخصه بالنبوة ، ويحصر فيه هداية الرسالة ، كلا إن رحمته وسعت كل شيء ، كما أن قدرته تنصرف بكل شيء من ملك السموات والأرض الذي لا يشاركه فيه مشارك ، ولا ينازعه فيه منازع ، فيكون ولياً ونصيراً لمن كفر بعباده وانحرف عن سننه أنظر كيف أسفرت البلاغة عن وجهها في هذا المقام فظهر أن ذكر القدرة « تفسير القرآن الحكيم » « ٢٧ » « الجزء الأول »

وسعة الملك إنما يناسب الآيات بمعنى الدلائل دون معنى الأحكام الشرعية والأقوال الدالة عليها من حيث هي دالة عليها لامن حيث هي دالة على النبوة .
 ويزيد هذا سفورا ووضوحا قوله عقبه (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟) فقد كان بنو إسرائيل لم يكتفوا بما أعطى موسى من الآيات ونجروا على طلب غيرها وقالوا (يا موسى ان تؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وكذلك كان فرعون وقومه كلما رأوا آية طلبوا غيرها حتى رأوا تسع آيات بينات ولم يؤمنوا . وقوله تعالى (كما سئل موسى) يشمل كل ذلك

قد أوردنا الله تعالى بهذا إلى أن التفنن في طلب الآيات وعدم الاذعان لما يحجى به النبي منها والاكتفاء به بعد العجز عن معاوضته هو دأب المطبوعين على الكفر الجامدين على المعاندة والمجادمة ، فانه قال بعد إنكار هذا الطالب (ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سورة السبيل) ويوضح هذا قوله تعالى في آية أخرى (١٧ : ٥٩ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) والمراد الآيات المقترحة بدلائل السياق ، وهو اتفاق بين المفسرين . ولو كان الموضوع موضوع طاب استبدال أحكام بأحكام تنسخها لما كان للنوعد بالكفر وجه وجبه . وقوله تعالى (فقد ضل سواء السبيل) معناه أنه أخطأ وسط الجادة ومال إلى أحد الجانبين . ومتى انحرف السائر في سيره عن الوسط يخرج عن المنهج و يبعد عنه كلما أوغل في السير فيه لك دون الوصول إلى المقصد . والمراد بسواء السبيل الحق والخير اللذان تكمل الفطرة بالاستقامة على السير في طريقتيهما ، ومن مال عن الحق وقع في الباطل لاحالة (١٠ : ٢٢ فإذا بهد الحق إلا الضلال ؟)

هذا هو التفسير الذى تنصل به الآيات ويلتمس بعضها مع بعض على وجه يتدفق بالبلاغة ، وهو الذى يتقبله العقل يستحليه الذوق إذ لا يحتاج إلى شيء من التكلف في فهم نظمها ولا في توحيه مفرداته كالإنشاء والقدرة والملك^(١) وقد اضطر القائلون بأن المراد بالمسخ نسخ الأحكام - مع ما عرفت من التكلف - إلى القول بمحو

(١) بعد نشر هذا التحقيق في المنار يزمن طويل علمت ان الشيخ محي الدين بن عربى سبق إلى مثله فذكره مختصراً في تفسيره كنبه على طريق المفسرين دون الصوفية

نسيان الوحي ، وطفقوا يلتمسون الدلائل على ذلك ، حتى أوردوا قوله عز وجل (١٨: ٢٤) وإذا ذكر ربك إذا نسيت) وليس من هذا الموضوع ولا المخاطب به النبي ﷺ وإنما جاء على طريق الحكاية^(١) وأما قوله تعالى (٧٨: ٦٧) سنقرئك فلا تنسق إلا ما شاء الله) فهو يؤكد عدم النسيان لأن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار كما في قوله تعالى (١١: ١٠٨) خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) أى غير مقطوع . وقوله (٧: ١٨٨) قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله) والنكته في الاستثناء بيان هذه الأمور الثابتة الدائمة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعته في نفسها ولو شاء الله تعالى أن يغيرها لفعل ، وهذا الاعتقاد من مهات الدين ، فلا غرو أن أن نزاع عنه الأوهام في كل مقام يمكن أن تعرض فيه . فليس امتناع نسيان الوحي طبيعة لازمة للنبي ، وإنما هو تأييد ومنحة من الله تعالى ، وليس خلود أهل الجنة في الجنة واجب عقلي أو طبيعي ، وإنما هو بإرادة الله تعالى ومشيئته

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو ننساها) أى تؤخرها ، ولا يظهر هذا المعنى في مقام نسخ الأحكام كما يظهر في نسخ الآيات والمعجزات المقترحة على الأنبياء فان الآية التي تقترح على نبي لأنها كانت لنبي قبله قد تنسخ بآية جديدة خير منها أو مثلها ، وقد تؤخر بالآية الجديدة ، ثم تعطى في وقت آخر بعد الاقتراح ، ولكن تأخير آيات الأحكام ليس له معنى ظاهر .

(١٠٩) وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَقَرَارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١١٠) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُثْهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

بين الله تعالى في الآية الأولى من هاتين الآيتين أن أهل الكتاب المتعصبين لدينهم من حيث هو جنسية لهم تقوم بها منافع جنسهم لم يكتفوا بكفرهم بالنبي ﷺ والسكيد له ونقض ما عاهدوا عليه حسداً له ولقومه على نعمة النبوة بل هم يزيدون على ذلك ما قصه تعالى بقوله ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فهو بيان لما يضمرونه وما تكنه صدورهم المسلمين من الحسد على نعمة الإسلام التي عرفوا أنها الحق وأن وراءها السعادة في الدارين ، ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتعلموا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفاراً كما كانوا ، وذلك شأن الحاسد يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به ، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه ، كما كان يتوقع علماء يهود في عصر التنزيل ، وقد جاء هذا التنبيه نعمة لقوله تعالى قبل آيات (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) وقد بين الله لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب وتحيلهم على تشكيك المسلمين في دينهم كقول بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره لعلّ ضعفاء الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم ، كما سيأتى في سورة آل عمران ، وفي هذه الآية وما بعدها إشارة إلى أن لذلك بعض الأثر في نفوس بعض المسلمين .

وفائدة هذا التنبيه أو التفتيهات أن يعلم المسلمون أن ما يبدون من أهل الكتاب أحياناً من إلقاء الشبه على الإسلام وتشكيك المسلمين فيه إنما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد لا النصيح الذي يبعث عليه الاعتقاد . وقال (حسداً من عند أنفسهم) ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دينية أو غيره على حق يعقدونه ، وإنما هو خبث النفوس وفساد الأخلاق والجمود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق ، ولذلك ففاه بقوله ﴿ من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ أى بالآيات التي جاء بها النبي ﷺ وبانطباق ما يحفظون من بشارات كتبهم بنبي آخر الزمان عليه

ثم أمر الله تعالى المؤمنين بأن يقابلوا هذا الحسد وما ينبعث عنه بما يليق بهم من محاسن الأخلاق فقال ﴿ فاعفوا واصفحوا ﴾ ولم يقل فاعفوا واصفحوا عنهم لارادة

العموم ، أى عاملوا جميع الناس بالصفح والعفو ، فإن هذا هو اللائق بشأن المؤمنين المتقين (٢٥: ٦٣) الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) أقول : العفو ترك العقاب على الذنب (٩ : ٦٦) إن نعت عن طائفة منكم نعتب طائفة) والصفح الإعراض عن المذنب بصفحة الوجه ، فيشمل ترك العقاب وترك اللوم والتوبيخ .

(قال الأستاذ الإمام) وفي أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلتهم هم أصحاب القدرة والشوكة . لأن الصّحاح إنما يطلب من القادر على خلافه كأنه يقول : لا يفرنكم أيها المؤمنون كثرة أهل الكتاب مع باطلهم فأنكروا على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق ، فعاملوهم معاملة القوى العادل ، للقوى الجاهل (قال) وفى إنزال المؤمنين على ضعفهم منزل الأقوياء ، ووضع أهل الكتاب على كثرتهم موضع الضعفاء ، إيذان بأن أهل الحق هم المؤيدون بالعناية الإلهية ، وأن العزة لهم ما ثبتوا على حقهم ، ومهما يتصارع الحق والباطل فإن الحق هو الذى يصرع الباطل ، كما قلنا غير مرة ، وإنما بقاء الباطل فى غفلة الحق عنه . ثم قال تعالى ﴿ حتى يأتى الله بأمره ﴾ فوعدهم بأن سيهدمهم بمعونته ، ويؤيدهم بنصره ، ثم أحالهم بقوله ﴿ إن الله على كل شئ قدير ﴾ على قدرته النافذة التى لا يشذ عنها شئ فى العالمين ، تأييداً للوعد وكشفاً لشبهة من عساه يقول : أنى لهذه الشريعة القليلة العدد ، الضعيفة القوى ، أن تتفحل لنفسها وصف الملوك العالين ، وتفقد مع الأمم القوية . موقف العافين قادرين ؟ فجاء الجواب يقول لمثل هذا المشتبه : إن الذى أوقفها هذا الموقف ، ومنحها هذا الوصف ، هو القادر على أن يهبها من القوة ما تنضامل دونه جميع القوى ، وهو ما يؤيد به سبحانه من يقوم بالحق ويثبت عليه (٢٢ : ٤٠) ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) وقد فعل .

(أقول) جعل شيخنا الأمر فى الغاية التى قيد بها العفو والصفح واحد الأمور ، إذ فسره بالنصر وأكثر المفسرين جعلوه واحد الأوامر وهو الأمر بقتالهم ، ويعبر بعضهم بآية السيف ويعنون آية التوبة التى فيها حكم الجزية . وقال بعضهم : المراد هنا الأمر بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير ، وقالوا : إنه توقيت لا يصح أن يسمى منسوخاً أى فى عرف الأصوليين ، وإن روى عن ابن عباس

وغيره . وذلك أن النبي (ص) كان عاهد جميع اليهود المجاورين له في المدينة عهداً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم فغدروا ونقضوا العهد بموالاته المشركين عليه مراراً وكان يعفو عنهم ويصفح حتى أذن الله له بقتالهم وإجلالهم (قال الأستاذ) ثم بعد الوعد بالنصر والإرشاد إلى الاعتماد فيه على القدرة دلمهم على بعض وسائل تحقيقه ، وهي الصلاة التي توثق عروة الإيمان وتعلو الهمة وترفع النفس بمناجاة الله العلي الكبير ، وتؤلف بين القلوب بالاجتماع لها ، والتعارف في مساجدها ، والزكاة التي تصل بين الأغنياء والفقراء فتتكون باتصالهم وحدة الأمة حتى تكون كجسم واحد ، فقال ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ ولم تذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة في موضع من الكتاب الحكيم إلا والمقام يقتضي الذكر لبيان فائدة خاصة لهذا الأمر لا يمكن أن تستفاد من ذكرهما في موضع آخر .

وقد تقدم أن إقامة الصلاة ليست عبارة عن أدائها مطلقاً ، وإنما هي عبارة عن القيام بحقوقها الروحية في صورتها العملية ذلك بالتوجه إلى الله تعالى ومناجاته والانقطاع إليه عما عداه ، وإشعار القلب بعظمته وكبريائه ، فهذا الشعور ينمو الإيمان وتقوى الثقة بالله ، وتنزه النفس أن تأتي الفواحش والمنكرات ، وتستقيم البصيرة فتكون أقوى نفاذاً في الحق وأشدّ بعداً عن الأهواء ، فنفوس المصلين جديرة بالنصر لما تعطى الصلاة من القوة المعنوية ومن الثقة بقدرة الله تعالى ، فإذا كان قوله تعالى بعد الوعد بالنصر (إن الله على كل شيء قدير) دليلاً أيده الوعد فقوله (وأقيموا الصلاة) هداية إلى طريق الإقناع التام بهذا الدليل حتى يكون وجداناً للنفس لا تزلزله الشبهات ، ولا تؤثر فيه المشاغبات والمجادلات .

وقد مضت سنة القرآن بقرن الزكاة بالصلاة لأن الصلاة لإصلاح نفوس الأفراد ، والزكاة لإصلاح شئون الاجتماع ، ثم إن فيها من معنى العبادة مافي الصلاة فان المال — كما يقولون — شقيق الروح ، فمن جاد به ابتغاء مرضاة الله تعالى كان بذله مزيداً في إيمانه ، فهي إصلاح روحي أيضاً .

وبعد أن أمر بالصلاة والزكاة في سياق كشف شبهة من يشبهه من ضمهء الإيمان في نصر الله المؤمنين ، وجعل السلطان لهم على الكافرين ، وبيان أن إقامة

هذين الركتين من وسائل النصر والسلطان في الدنيا بين لهم أنها من أسباب السعادة في الآخرة، فقال ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله﴾ ولكن البيان جاء في صورة عامة، وهذا من الأساليب التي لا تكاد تجد لها في غير القرآن نظيراً - يفتقل من بيان حكم إلى آخر، فيكون الثاني قائماً بنفسه وشاملاً للأول بعمومه وتكون صلة العموم والخصوص هي الرابط في النظم . وقوله تعالى (تجدوه) هو كقوله (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) وقالوا : إن المراد أنه يرى ويجد جزاءه ، ولكن لما كان الجزاء مبنيّاً على أثر العمل في نفس العامل وارتقامها به كان الجزاء بمثابة العمل نفسه . ووصل الوعد بالجزاء على العمل بما يبعث المؤمن على الاحسان فيه ويدل على تحققه، فقال ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فلا ينجي عليه منه شيء فتخافوا أن ينقصكم من أجوركم شيئاً

(الاستاذ الامام) هذه الآيات هي آخر ما أدب الله تعالى به المؤمنين في هذا المقام على ما يخامر البعض منهم وما يعين له من الشبه في مستقبل الاسلام وتأيدته تعالى لنبيه وإعزازه لحزبه ، وكان أولها قوله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) وكأن منشأ تلك الخواطر هو ما يروونه في التنزيل المرة بعد المرة وما يشاهدونه من عمل النبي ﷺ من الجزم بأن الأسباب مقرونة بمسبباتها وأن حوادث الكون جارية على سنن مطردة ، وما كان هذا الفريق من المؤمنين يعلم قبل إعلام الله تعالى إياهم بأن الايمان الصحيح الذي يتوكل صاحبه - بعد اتخاذ الأسباب والوسائل - على القدرة الالهية والعناية الغيبية، وعمل الصالحات الذي يصلح النفوس ، ويؤلف مع الاعتقاد بين القلوب ، هما أكبر أسباب القوة، وأقرب وسائل السيادة والسعادة ، وقد جاء هذا الارشاد والتأديب في سياق الكلام على أهل الكتاب، لأن مكرم السوء كان مثاراً لبعض الخواطر في المسلمين قال كلام ناديب للمؤمنين ورد على اليهود . ثم انتقل إلى الكلام على أهل الكتاب عامة وما يلام عليه الفريقان منهم - اليهود والنصارى - فقال :

أَمَانِيهِمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١٢) بَلَىٰ مِنْ أَسْلَمَ
 وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ (١١٣) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ
 النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ . كَذَلِكَ قَالَ
 الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا
 كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

هذا بيان لحالين آخرين من أحوال أهل الكتاب في غرورهم بدينهم ما كان
 المسلمون قبل نزول الآيات يعرفونها - أما الأولى فما بينه تعالى بقوله ﴿ وقالوا ان
 يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ وهو عطف على قوله (ود كثير من أهل
 الكتاب) أى قالت اليهود: ان يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقالت النصارى
 كذلك فى أنفسهم، وهو اختصار بديع غير مغل. وهذه عقيدة الفريقين إلى اليوم ولا
 ينافى انسحاب حكمها على الآخرين، أن نفراً من الأولين قالوا ذلك بين يدي
 النبي ﷺ كما يروى. وقد بين لنا تعالى أن هذا القول لا حجة له فى كتبهم
 المنزلة فقال ﴿ تلك أمانيتهم. قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ والامانى جمع
 أمنية، وهى ما يتمناه المرء ولا يدركه. وهذا القول ناطق بأمنية واحدة ولكنها
 تتضمن أمانى متعددة هى لوازم لها، كنجاتهم من العذاب وكوقوع أعدائهم فيه
 وحرمانهم من النعيم، ولهذا ذكر الامانى بالجمع ولم يقل تلك أمنيته. وقد انفرد
 بهذا الوجه الاستاذ الامام، وهناك وجوه أخرى وهى أن الاشارة بتلك أمانيتهم
 لقوله (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب) الآية وقوله (ود كثير) وقوله
 (وقالوا ان يدخل الجنة) وقيل: إن فى الكلام مضافاً محذوفاً أى أمثال تلك الأمنية
 أمانيتهم، ثم طالبهم تعالى بالبرهان على دعواهم فقرر لنا قاعدة لا توجد فى غير
 القرآن من الكتب السماوية، وهى أنه لا يقبل من أحد قول لا دليل عليه، ولا

يحكم لأحد بدعوى يفتحها بغير برهان يؤيدها ، ذلك أن الأمم التي خوطبت بالكتب السالفة لم تكن مستعدة لاستقلال الفكر ومعرفة الأمور بأدلتها وبراهينها ولذلك اكتفى منهم بتقليد الأنبياء فيما يبلغونهم وإن لم يعرفوا برهانه ، فهم مكلفون أن يفعلوا ما يؤمرون ، سواء عرفوا لماذا أمروا أم لم يعرفوا ، ولكن القرآن يخاطب من أنزل عليه بمثل قوله (١٢ : ١٠٧) قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وقد فسروا البصيرة بالحجة الواضحة ، ويستدل على قدرة الله وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته بالآيات الكونية ، وهي كثيرة جداً في القرآن ، وبالأدلة النظرية والعقلية كقوله (٢١ : ١٠٨) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وغير ذلك ، ويستدل على الأحكام بما يترتب عليها من نفي المضرات والافضاء إلى المنافع . علم القرآن أهله أن يطالبوا الناس بالحجة ، لأنه أقامهم على سواء المحجة . وجدير بصاحب اليقين أن يطالب خصمه به ويدعوه إليه . وعلى هذا درج سلف هذه الأمة الصالح قالوا بالدليل وطالبوا بالدليل ونهوا عن الأخذ بشيء من غير دليل ، ثم جاء الخلف الطالح فحكم بالتقليد ، وأمر بالتقليد ، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد ، حتى كأن الاسلام خرج عن حده ، أو انقلب إلى ضده . وصار الذين يعلمون أن الاسلام امتاز عن سائر الأديان بإبطال التقليد . وبالمطالبة بالبرهان والدليل ، وعلم الناس استقلال الفكر ، مع المشاورة في الأمر ، يطالبون المسلمين بالرجوع إلى الدليل ، ويعيبون عليهم الأخذ بقال وقيل . وباليته كان الأخذ بقال الله ، وقيل فيما يروى عن رسول الله ، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان (٥٣ : ٢٣) إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) قال تعالى رداً عليهم ﴿ بلى ﴾ وهى كلمة تذكّر في الجواب لإثبات نفي سابق فهي مبطلّة لقولهم (لن يدخل الجنة) الخ ، أى بلى إنه يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى ، لأن رحمة الله ليست خاصة بشعب دون شعب ، وإنما هى مبذولة لكل من يطلبها ويعمل لها عملها ، وهو ما بينه سبحانه وتعالى بقوله ﴿ من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ﴾ اسلام الوجه لله هو التوجه إليه وحده وتخصيص

بالعبادة دون سواه ، كما أشار إلى ذلك في قوله (إياك نعبد وإياك نستعين) وغيرها من الآيات . وقد عبر هنا عن إسلام القلب وصحة القصد إلى الشيء بإسلام الوجه كما عبر عنه بتوجيه الوجه في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم (٦ : ٧٩) إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض) لأن قاصد الشيء يقبل عليه بوجهه لا يوليه دبره فلما كان توجيه الوجه إلى شيء له جهة تابعا لقصد واشتغال القلب به عبر عنه به وجعل التوجه بالوجه إلى جهة مخصوصة (وهي القبلة) بأمر الله مذكرا بإقبال القلب على الله الذي لا تحده الجهات ، فالإنسان يتضرع ويسجد لله تعالى بوجهه وعلى الوجه يظهر أثر الخشوع وظاهر أن المراد من إسلام الوجه لله توحيد الله بالعبادة والاخلاص له في العمل ، بأن لا يجعل العبد بينه وبينه وسطاء يقر بونه إليه زلفي ، فانه أقرب إليه من حبل الوريد . ومن هنا يفهم معنى الإسلام الذي يكون به المرء مسلما . ذكر التوحيد والإيمان الخالص ولم يحمل عليه الوعد بالأجر عند الله تعالى واستحقاق الكرامة في دار المقامة إلا بعد أن قيده بإحسان العمل فقال (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه) وتلك سنة القرآن تقرر الإيمان بعمل الصالحات كقوله (٤ : ١٢٣ ، ١٢٤) ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب : من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجز له من دون الله وليا ولا نصيرا * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) وهذا في معنى الآيات التي نفسرها . نفي أمانى المسلمين كما نفي أمانى أهل الكتاب ، وجعل أمر سعادة الآخرة منوطا بالإيمان والعمل الصالح معا . وكقوله (٢١ : ٩٤) فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعیه) الآية .

ثم بعد أن أثبت للمسلم وجهه إلى الله والحسن في عمله الأجر عند الله نفي عنه الخوف الذي يرهق الكافرين والمسيئين في هذه الدنيا وفي تلك الدار الآخرة والحزن الذي يصيبهم فقال ﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ولا شك أن المخاوف والأحزان تساور الذين لبسوا إيمانهم بظلم الوثنية ، وأسأموا أعمالهم بالإعراض عن الهداية الدينية .

ترى أصحاب التزغات الوثنية في خوف دائم مما لا يخيف ، لأنهم يعتقدون

بثبوت السلطة الغيبية القاهرة لكل ما يظهر لهم منه عمل لا يهتدون إلى سببه ولا يعرفون تأويله ، يستخذنون للدجالين والمشعوذين ، ويرتعدون من حوادث الطبيعة الغريبة ، إذا لاح لهم نجم مذنب تخيلوا أنه منذر يهددهم بالهلاك ، وإذا أصابهم مصيبة بما كسبت أيديهم من الفساد توهموا أنها من تصرف بعض العباد ، وتراهم في جزع وهلع من حدوث الحوادث ، ونزول الكوارث ، لا يصبرون في البأساء والضراء . ولا ينفقون في الرخاء والسرور . (١٩: ٧٠-٢٣) إن الانسان خلق هلوياً* إذا مسه الشر جزوعاً* وإذا مسه الخير منوعاً* إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون (هذه حال من فقد التوحيد الخالص وحرّم من العمل الصالح في هذه الحياة الدنيا (١٦: ٤١) ولعذاب الآخرة أحرزى وهم لا ينصرون) وإنما كان صاحب النزغات الوثنية في خوف مما يستقبله ، وحرز مما ينزل به ، لأن ما اخترعه له وهمه من السلطة الغيبية لغير الله التي يحكمها في نفسه ، ويجعلها حججاً بينه وبين ربه ، لا يمكنه أن يعتمد في الشدائد عليها ، ولا يجد عندها غناء إذا هو لجأ إليها ، وما هو من سلطتها على يقين ، وإنما هو من الظانين أو الواهمين

وأما ذو التوحيد الخالص فهو يعلم أنه لا فاعل إلا الله تعالى وأنه من رحمته قد هدى الانسان إلى السنن الحكيمة التي يجري عليها في أفعاله ، فإذا أصابه ما يكره بحث في سببه واجتهد في تلافيه من السنة التي سنّها الله تعالى لذلك ، فإن كان أمراً لا مرد له سلم أمره فيه إلى الفاعل الحكيم ، فلا يحار ولا يضطرب لأن سنده قوى عزيز ، والقوة التي يلجأ إليها كبيرة لا يعجزها شيء ، فإذا نزل به سبب الحزن أو عرض له مقتضى الخوف لا يكون أثرها إلا كما يطيف الخطر بالبال ، ولا يلبث أن يعرض له الزوال (٢٨: ١٣) الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فكأنه تعالى يقول لأهل الكتاب : لا تفرسكم الأمانى ولا يخدعنكم الاتساب الباطل إلى الأنبياء ، فهذه هي طريق الجنة ، أسهلها وجوهكم لله تسلموا واعملوا الصالحات تؤجروا ، وقد أفرد الضمير في قوله (فله أجره) مراعاة للفظ (من) وجمعه في قول (ولا خوف عليهم) الخ مراعاة لمعناها

بعد أن ذكر تزكية كل فريق من أهل الكتاب نفسه وحكمه بحرمان غير

من رحمة الله كيفما كانت حاله ذكر طعن كل فريق منهما بالآخر خاصة فقال ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ من الدين حقيقى يمتد به ، فالشئى فى اللغة هو الموجود المتحقق ، والاعتقادات الخيالية التى لا تنطبق على موجود فى الخارج لا تسبى شيئا ، فكفروا بعيسى وهم يتلون التوراة التى تبشر به وتذكر من العلامات ما ينطبق عليه ، ولا نزال اليهود إلى اليوم تدعى أن المسيح المبشر به فى التوراة لما يأت وتنتظر ظهوره وإعادته الملك إلى شعب اسرائيل ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ من الدين حقيقى يعتد به لإنكارهم المسيح المتم لشريعتهم يقول كل فريق منهم ما يقول ﴿وهم يتلون الكتاب﴾ أى يتلو كل منهم كتابه فكتاب الأولين (التوراة) يبشر برسول منهم ظهر ولم يؤمنوا به فهم مخبأقون لكتبهم ، وكتاب الآخرين (الانجيل) يقول بلسان المسيح : إنه جاء متما لنا موسى ، لانا قضاؤه ، وهم قد نقضوه ، فدينهم واحد ، ترك بعضهم أوله وبعضهم آخره فلم يؤمن به كله أحد منهم ، والكتاب الذى يقرؤون حجة عليهم .

ثم قال تعالى ﴿كذلك﴾ أى نحو ذلك السخف والجزاف ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ من مشركى العرب وغيرهم من أهل الملل ﴿مثل قولهم﴾ تعصب كل ملته التى جعلها جنسية وزعم أنها هى المنجية لكل من وسم بها ورضى باسمها ولقبها ، والحق وراء جميع المزايع لا يتقيد باسماء ولا ألقاب ، وإنما هو إيمان خالص وعمل صالح ، ولو اهندى الناس إلى هذا لما تفرقوا فى الدين واختلفوا فى أصوله ولكنهم تعصبوا وتجزؤوا لأهوائهم ، فتفرقوا واختلفوا فى آرائهم ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ فإنه هو العليم بما عليه كل فريق من حق وباطل . ولم يبين لنا تعالى هنا بماذا يحكم . وقال بعض المفسرين إنه يكذبهم جميعاً ثم يلقهم فى النار ، ولكن الذى يدل عليه القوآن أنه يحق الحق ويجعل أهله فى النعيم ، ويبطل الباطل ويلقى بأهله فى الجحيم .

هذا هو معنى الآية . ويروى فى سبب نزولها أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند النبي ﷺ فقال كل فريق منهم ما قال فى إنكار حقيقة دين

الآخر . قال الأستاذ الإمام : إن فهم الآية لا يتوقف على هذه الرواية ، فالآية تحكي لنا اعتقاد كل طائفة بالأخرى سواء قال ذلك من ذكر أو لم يقله . على أن ما يروى في أسباب النزول من مثل ذلك هو من تاريخ الآيات وما فيها من الوقائع ، وما روى في أسباب النزول عندنا غير كاف في ذلك ، فلا بد لنا من البحث والاطلاع على تاريخ الملل والأمم التي تكلم عنها القرآن لأجل أن نفهم تمام الفهم ونعرف ما يحكيه عنهم من العقائد والشئون والأعمال ، هل كان عامافهم أو كان في طائفة منهم وأسند إلى الأمة لما نبهنا عليه مراراً من إرادة تكافلها ومؤاخذه الجميع بما يصدر عن بعض الأفراد لأنهم كلفوا إزالة المنكر والتناهي عنه؟ والعبرة في الآية أن أهل الكتاب في تضليل بعضهم بعضاً واعتقاد كل واحد في الآخر أنه ليس على شيء حقيقي من أمر الدين مع أن كتاب اليهود أصل لكتاب النصارى ، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود : قد صاروا إلى حال من التهاوت واتباع الأهواء لا يعتد معها بقول أحد منهم في نفسه ولا في غيره ؛ فطعنهم في النبي ﷺ وإعراضهم عن الإيمان به لا ينهض حجة على كونهم علموا أنه مخالف للحق ، بل لا يصلح شبهة على ذلك لأنهم أهل أهواء ، وتعصب للآداب المبتدعة والآراء ، فإذا كانت اليهود كفرت بعيسى وأنكرته وهو منهم وهم ينتظرونه لإعادة مجدهم وتجديد عزهم ، وإذا كانت النصارى قد رفضت النوراة وكفرت أهلها وهي حججهم على دينهم ، فكيف يعتد بكفر هؤلاء هؤلاء بمحمد ﷺ وهو من شعب غير شعبهم ، وقد جاء بشريعة ناسخة لشرائعهم ، وهم لا يفهمون من الدين إلا أنه جنسية دنيوية لهم ؟

وفي الآية إرشاد إلى بطلان التقليد مؤيد لما في الآية التي تطالب المدعى بالبرهان ، وإلى النعي على المقلدين المتعصبين لأرائهم ، المتبعين لأهوائهم ، وإلى التحري في الحكم على الشيء يعتد الحاكم بطلانه لأنه مخالف لما يعتقده ، فلا ينبغي للمعاقل أن يحكم على شيء إلا بعد البحث والتحري ومعرفة مكان الخطأ والتزويل بينه وبين ما عساه يكون معه صواباً . ألم تر أن سياق الآيات ناطق بإنكار حكم كل من الفريقين على الآخر من غير بينة ولا برهان ، ولا فصل ولا فرقان ، مع

أن كل واحد منهم على شيء من الحق وشيء من الباطل لأن أصل دينه حق ثم طرأت عليه نزعات الوثنية والبدع وعرض له التحريف والتأويل ، فتجرده من كل حق لم يكن إلا تعصباً للتقاليد من غير بينة ولا تمحيص ، وأتى للمقلدين بذلك ؟ وأنظر كيف ألحق التقليد أهل الكتاب الذين كانوا على علم بالدين الإلهي بالمشركين الذين لا يعلمون منه شيئاً ؟ هذا ما فعله التقليد بهم وعن بعدهم لأنه عدو للعالم في كل زمان وكل مكان .

(١١٤) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٥) وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٦) وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٍ (١١٧) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

السلام في أهل الكتاب عامة ومن على شاكلتهم ، فقوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ﴾ الآية فيه وجوه (أحدها) أنه يشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة وهي دخول تيطس الروماني بيت المقدس ونخر فيها حتى صارت المدينة تلاً من التراب ، وهدمه هيكل سليمان عليه السلام حتى لم يبق منه إلا بعض الجدر المدعثرة ، وإحراقه ما كان عند اليهود من نسخ التوراة ، وكان المسيح عليه السلام قد أوعد اليهود بذلك . وقال بعض المفسرين إن أتباع المسيح هم الذين هيجوا الرومانيين وأغروهم بهذا العمل قال الأستاذ الإمام : ولا أدري هل يصح هذا الخبر أم لا فإن قائله لم يأتوا عليه بأدلة ولا بنقول تاريخية ، ولكنني أعلم أن المسيحيين على قلوبهم وتشتتهم

واستخفافهم من اضطهاد اليهود كانوا قد وصلوا إلى (رومية) وكانوا يودون الايقاع باليهود الذين اضطروهم إلى الخروج من بلادهم انتقاماً منهم وتحقيقاً لوعيد المسيح ، وأن الرومانيين - وإن كانوا وثنيين يرون أن اليهود ليسوا على شيء - لم تكن حروبهم دينية وإنما كانوا يحاربون اليهود وغيرهم لشعبهم وقتلهم أو للطمع في بلادهم وذلك لا يقضى بهتهم المعبد وإحراق كتب الدين . فهذه قرائن ترجح أنه كان للمسيحيين يد في إغارة تيطس ، ولكن لا يجزم به إلا إذا وجد نقل تاريخي صحيح يؤيد الخبر ومن الغريب : أن ابن جرير الطبري قال في تفسيره : إن الآية في اتحاد المسيحيين مع يختصر البابلي على تخريب بيت المقدس مع أن حادثة يختصر كانت قبل وجود المسيح والمسيحية بست مئة وثلاث وثلاثين سنة . ولو لم يكن مؤرخاً من أكبر المؤرخين لا لتس له العذر بحمل قوله على حادثة أدريدال الروماني الذي جاء بعد المسيح بمئة وثلاثين سنة ، وبنى مدينة على أطلال أورشليم وزينها وجعل فيها الحمامات ، وبنى هيكلًا للمشرقي على أطلال هيكل سليمان ، وحرّم على اليهود دخول هذه المدينة وجعل جزاء من يدخلها القتل ، فلذلك كان اليهود يسمونه يختصر الثاني لشدة ما قاسوا من ظلمه واضطهاده . ولكن هذا لا يصح أن يكون عذراً للمؤرخ (الثاني) ذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) نزل في منع مشركي العرب النبي وأصحابه . من دخول مكة في قصة عمرة الحديبية ، وقالوا إن حادثة الرومانيين كانت قد طال عليها الآمد فلان مناسبة لارادائها بالآية . واعترض هذا القول بأن مشركي العرب ماسعوا في خراب الكعبة ، بل كانوا عمروها في الجاهلية وكانوا يعظمونها ويرونها مناط عزهم ومحل شرفهم ونحرم . وقال (الاستاذ الامام) يصح أن تكون الآية في الأمرين على التوزيع ، فالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم مشركو مكة والذين سعوا في خرابها هم مشركو الرومانيين . ويكون قرن ما عمل المشركون من منع البيت الحرام أن يذكر فيه اسم الله بزيارة النبي وأصحابه بما عمل من قبلهم من مشركي الرومانيين من التخريب من قبيل الإشارة إلى تساوي الفعلين في القبح (الثالث) أن الكلام في أهل الكتاب وأن الآية ليست منبئة بأمر وقع ،

ولكن بأمر سيقع ، وهو ما كان بعد ذلك من إغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره من بلاد المسلمين وصددهم إياهم عن المسجد الأقصى وتخريبهم كثيراً من المساجد (الرابع) وهو مبني أيضاً على أن الآية منبهة عن أمر سيقع أن المراد بها حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها وهدموا كثيراً من المساجد . كأنه بعد أن ذكر حال أهل الكتاب في طعن اليهود منهم بالنصارى وقولهم فيهم إنهم ليسوا على شيء من الدين وطعن النصارى في اليهود كذلك وبعد قوله في المشركين الذين لا يعلمون الكتاب أنهم قالوا مثل قولهم لم يبق إلا ماسيقع للمسلمين وفي المسلمين فأنبأ الله تعالى بهذه الحادثة من الاخبار بالغيب فوقعت وكانت حادثتهم من أكبر الاحداث في المسلمين فانهم استولوا على جزء كبير من ممالك الاسلام وهدموا المساجد وماتوا في الارض فساداً ولم يكن في أيام الحروب الصليبية على طولها من الصد عن ذكر الله وعن الصلاة مثلما كان على عهد القرامطة فالآيات على هذا مبينة لأحوال جميع الملل

(قال شيخنا) سواء كانت الآية في حادثة واقعة أو منتظرة أم كانت وعيداً للذين لا يحترمون المعابد على الاطلاق، هي على كل حال ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح وبتحريم السب في خراب المعابد ، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون في خرابها - أي هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها - بكونهم أظلم الناس كما يستفاد من استفهام الانكار لان المنع من ذكر الله تعالى وباطال شعائر المعابد التي تذكر به وتشعر القلوب عظمتة انتهك الحرمه الدين يفضى إلى نسيان الناس الرقيب المهيمن عليهم فيمسون كلهم وتنفش فيهم المنكرات والفواحش ، وانتهاك الحرمات ، وهضم الحقوق ، وسفك الدماء . وعبادة الله تعالى بذكره والصلاة له تنهى بطبيعتها عن الفحشاء والمنكر ، ولا يتناق ذلك ماعساء يظراً على العبادة أو يوجد في المساجد من الاشياء المبتدعة التي لم يأمر بها الكتاب . فمن علم بهذه البدع فعليه أن ينكرها ويسعى في إزالتها ولا يجوز له السعى في إزالة المعابد من الأرض لما في ذلك من الفساد الذي أشرنا اليه . وهذا هو السر في حكم الشريعة الاسلامية باحترام كنائس أهل الكتاب

وبيعهم وصوامعهم وعبادهم واحترام معابد الذين لهم شبهة كتاب أيضا كالمجوس والصابئين ، بل الأستاذ الأمام بعد الصابئين من أهل الكتاب . وأما الوثنيون الخالص الذين اتخذوا من دون الله أولياء ويبنون المساجد لذكر غيره والتقرب إلى سواه فهو لا لم يتعرض لذكرهم ولم يتوعد من يمنهم من سفهم

(أقول) لكن ذكر بعض الفقهاء أنه يجب هدم ما بنى من المساجد والقباب على قبور كثير من الأئمة آل البيت وأئمة الفقه وغيرهم من الصالحين ، وارتكبوا فيها المحظورات الكثيرة التي بعد بعضها من الشرك الصريح وبعضها من البدع والمعاصي ، ولا سيما المعاصي التي تفعل تديناً وتقرباً وتوسلاً إلى الله تعالى كما ترى في كتاب الزواجر للفقهاء ابن حجر من فقهاء الشافعية وغيره من كتبهم وفي كثير من كتب الحنابلة ويحتجون بهم النبي ﷺ لمسجد الضرار ، وإنما يعنى شيخنا بتعطيل المساجد هنا إبطال التدين والعبادة مطلقاً كما يعلم مما يأتي لا إبطال البدع التي شوهت الإسلام ثم قال تعالى في شأن المعتدين على المساجد ﴿ أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ﴾ أى فكيف يدخلونها مفسدين ومخرين ؟ ولا ينبغي للعاقل أن يقدم على أمر إلا بعد النظر فيه والعلم بدرجة نفعه أو ضرره . وما كانت عبادة الله تعالى إلا نافعة وما كان تركها إلا ضاراً . وما عساه يوجد في عبادات الأمم من الخرافات الضارة فإنما المكروه منه ما فيه مما يبعد عن عبادة الله تعالى ويقع في إشراك غيره فيها . على أن العبادة المزوجة بنزغات الوثنية ، أهون من التعطيل القاضى بالوجود المطلق ، لذلك توعد الله تعالى أولئك المعتدين الظالمين بقوله ﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ فأما خزي الدنيا فهو ما يعقبه الظلم من فساد العمران ، المفضى إلى الذل والهوان ، وناهيك بظلم يحمل القيود ، ويهدم الحدود ، ويفرى الناس بالفواحش والمنكرات ، ويسهل عليهم سبل الشرور والموبقات ، وهو ظلم إبطال العبادة من المساجد ، والسعى في خراب المعابد ، إذا وقع هذا الظلم كان الحاكم الظالم مخذولاً في حكمه ، والفاتح الظالم غير أمين في فتحه ، وإذا أردت « تفسير القرآن الحكيم » « ٢٨ » « الجزء الأول »

تطبيق ذلك على من نسب إليهم هذا الظلم فانظر ماذا حل بالرومانيين ، وماذا كانت عاقبة العرب المشركين ، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين ، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين ، وأما عذاب الآخرة فإله أعلم به ونحن بوعده ووعيده من المؤمنين ثم قال تعالى ﴿ والله المشرق والمغرب ﴾ ذهب المفسر (الجلال) إلى أن المراد بالمشرق والمغرب الأرض كلها لأنهما ناحيتاها ، وقال في قوله ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ أى أى مكان تستقبلونه في صلاتكم فهناك وجه القبلة التي أمر الله بأن يتوجه إليها . ووجه الاستاذ الإمام هذا بقوله : إن من شأن العابد أن يستقبل وجه المعبود ، ولما كان سبحانه منزهاً عن المادة والجهة واستقباله بهذا المعنى مستحيلاً شرع للناس مكاناً مخصوصاً يستقبلونه في عبادتهم إياه ، وجعل استقبال ذلك المكان كاستقبال وجهه تعالى . ثم قال :

هذه الآية متصلة بما قبلها وهو قوله تعالى (ومن أظلم ممن منع مساجد الله) الخ وأكثر المفسرين على خلاف ما قاله الجلال في تفسير المشرق والمغرب : قالوا إن المراد بهما الجهتان المعلومتان لكل أحد ، ولذلك خصهما بالذكر ، فهو كقوله تعالى (١٧: ٥٥) رب المشرقين ورب المغربين ، وهو يستلزم ما قاله الجلال فإن المراد على كل حال : أية جهة استقبلت وتوجهت إليها في صلاتك فأنت متوجه إلى الله تعالى لأن كل الجهات له ﴿ إن الله واسع ﴾ لا يتحدد ولا يحصر فيصح أن يتوجه إليه في كل مكان ﴿ عليهم ﴾ بالتوجه إليه أينما كان ، أى فاعبد الله حينما كنت ، وتوجه إليه أينما حللت ، ولا تنقيد بالامكان فإن معبودك غير مقيد . أقول : بل هو فوق كل شيء . بائناً منه . وأزيد على ذلك أن بعض رواة المأثور قالوا إن هذه الآية نزلت قبل الأمر بالتوجه إلى قبلة معينة . وقال آخرون إنها نزلت في تحويل القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة ، ولكن هذا فيه آيات مفصلة ستأتي في أول الجزء الثاني من هذه السورة وقال بعضهم إنها نزلت في صلاة التطوع في السفر لا يشترط فيها استقبال القبلة . وقال آخرون إنها فيمن يجتهدون في القبلة فيخطئون فإن صلاتهم صحيحة لأن إيجاب استقبال جهة معينة إنما هو المعنى الاجتماعي في الصلاة ووحدانية الأمة فيها . والتعليل يصح في كل قول من هذه الأقوال ، فإنه أينما توجه المصلي في

صلاته الصحيحة فهو متوجه إلى الله تعالى لا يقصد بصلاته غيره وهو تعالى مقبل عليه راض عنه . ومن المعلوم أن أهل الكتاب يلتزمون في صلاتهم جهة معينة كالترام النصراني جهة المشرق وأن استقبال المسلمين الكعبة يقتضى أن يصلى أهل كل قطر إلى جهة من الجهات الأربع فهم يصلون إلى جميع الجهات ، ولا ينافى ذلك توجههم إلى الله تعالى والوجه هنا قيل إنه بمعنى الجهة وهو صحيح لغة ، والمعنى : فهناك القبلة التي يرضاها لكم . وقيل إنه على حد (٥٨ : ٧ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) .

ووجه المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها ظاهر على هذا التفسير فإن فيها إبطال ما كان عليه أهل الملل السابقة من اعتقاد أن العبادة لله تعالى لا يصح أن تكون إلا في الهيكل والمعبد المخصوص ، وفي إبطال هذا إزالة ما عساه يتوهم من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه من أنه وعيد على إبطال العبادة في المواضع المخصصة، لأنه إبطال لها بالمرّة، إذ لا تصح إلا في تلك المواضع، فهذه الآية تنفي ذلك التوهم من حيث تثبت لنا قاعدة من أهم قواعد الاعتقاد وهي أن الله تعالى لا تحدده الجهات ، ولا تحصره الأماكن ، ولا ينقرب إليه بالبقاع والمعاهد ، ولا تنحصر عبادته في الهيكل والمساجد ، وإنما ذلك الوعيد لانتهاك حرمة الله وإبطال نوع من أنواع عبادته ، وهو العبادة الاجتماعية التي يجتمع لها الناس في أشرف المعاهد على خير الأعمال التي تطهر نفوسهم وتهذب أخلاقهم وهذا الضرب من البيان مما امتاز به القرآن على سائر الكلام ، فأنك لترى

فيه فنونا من الاستدراك والاحتراس قد جاءت في خلال القصص وسياق الأحكام تقرأ الآية في حكم من الأحكام ، أو عظة من المواعظ ، أو واقعة تاريخية فيها عبرة من العبر ، فتراها مستقلة بالبيان ، ولكنها باتصالها بما قبلها قد أزلت وهما أو تمت حكما ، وكان ينبغي لأهل العربية أن يقتبسوا هذه الضروب من البيان ، ويتوسعوا بها في أساليب الكلام ، فإن القرآن قد أطلق لهم اللغة من عقابها ، وعلمهم من الأساليب الرفيعة ما كانت تستحليه أذواقهم ، وتتفعل له قلوبهم ، وتهتز له نفوسهم ، وتحرك به أريجيتهم ، ولكنهم لم يوقفوا لاقتباس هذه الأساليب

الجديدة ، على أن ملكتهم في حسن البيان ، قد ارتفعت بعد نزول القرآن .
(قال الأستاذ الامام) وسنعطى هذا الموضوع حقه من البيان في موضع تكون
مناسبته أقوى من هذه المناسبة

ثم عاد الكتاب إلى النسق السابق في تعداد مخازي أهل الكتاب والمشركون
بعد ما ذكر من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ما ذكر وبين أنه
يعبد في كل مكان ، فقال جل وعز ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً ﴾ فهذا عطف على قوله
تعالى (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) وقوله (وقالت
اليهود ليست النصارى على شيء) الخ ويصح أن ينسب هذا إلى اليهود والنصارى
والذين لا يعلمون جميعاً ، وإلى فرقة واحدة منهم . ووجه العموم أن الله تعالى
أخبرنا في مواضع من كتابه بأن اليهود قالت : عزير ابن الله : وأن النصارى قالت :
المسيح ابن الله : وأن المشركين قالوا : إن الملائكة بنات الله . ولا فرق في
الاحكام التي تستد إلى الامم بين كونها صدرت من جميع أفراد الامة أو صدرت
من بعضهم ، فان مثل هذا الإسناد منبئ بشكافل الامم كما تقدم غير مرة . وقد نقل
أن كلمة : عزير ابن الله : قالها بعض اليهود لا كلهم ، وكذلك اعتقاد كون الملائكة
بنات الله لم يكن عاما في مشركي العرب ، وإنما عرف عن بعضهم . ثم رد على
مدعى اتخاذ الولد بقوله ﴿ سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون ﴾
تره تعالى نفسه بكلمة (سبحانه) التي تفيده التنزيه ، مع التعجب مما ينافيه ،
كأن الذي يعرفه تعالى لا ينبغي أن يصدر عنه مثل هذا القول الذي يشعر
بأن له تعالى جنساً يماثله ، فان قائل ذلك لا يكون على علم بالله تعالى وإنما يكون
زاعماً فيه المزاعم وظاناً فيه الظنون : أي تنزيهاً له أن يكون له ولد كما زعم هؤلاء
الجاهلون الظانون بالله غير الحق ، فانه لا جنس له فيكون له ولد منه ، وهذا الولد
الذي نسبوه اليه تعالى لا بد أن يكون من العالم العلوى وهو السماء ، أو من العالم
السفلى وهو الأرض ، ولا يصلح شيء منهما أن يكون مجانساً له عز وجل ، لأن
جميع ما في السموات والأرض ملك له ، فانت لعزته وجلاله ، أي خاضع لقهرة
مسخر لمشيئته ، فاذا كانوا سوءاً في كونهم مسخرين له بفطرتهم ، منقادين لإرادته

بطبيعتهم واستعدادهم ، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب اليه وجعله ولداً مجانساً له (١٩: ٩٣) إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) نعم إن له سبحانه أن يختص من شاء بما شاء كما اختص الأنبياء بالوحي ولكن هذا التخصيص لا يرتقي بالخلق إلى مرتبة الخالق ، ولا يعرج بالموجود الممكن إلى درجة الوجود الواجب، وإنما يودع سبحانه في فطرة من شاء ما يؤهله لما شاء منه (٢٠: ٥٠) أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وليست شبهة الذين اتخذوا بعض البشر آلهة بأمثل من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة ، إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهر مثلاً من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه وقالوا هو ابن الله أو هو الله

وقد غلب في الملكية ما لا يعقل فقال (له ما في السموات) الخ لأن المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، لا التسخير الشرعي المعبر عنه بالتكليف الذي يفعله الكاسب باختياره ، ويستوى في التسخير الطبيعي العاقل وغيره، ولكنه في غير العاقل أظهر . ولما ذكر القنوت له تعالى جمعه بضمير العاقل فغلب فيه العقل لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره ، وإن كان لغير العاقل قنوت يليق به . وجملة القول : أن الآية ناطقة بأن ما في السموات والأرض ملك لله تعالى ومسخر لإرادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره ، فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذي يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة ، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالباً في غير العاقل وهي كلمة (ما) لأن المهود في ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل ، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقل لأنه من أعمالهم ، ومما يعهد منهم ويسند إليهم لغة وعرفا . وهذا كما نرى من أدق التعبير والطفه ، وأعلى البيان وأشرفه

ثم زاد هذين الحكمين بياناً وتأكيداً فقال ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ قال المفسرون ، إن البديع بمعنى المبدع فهو مشتق من الرباعي «أبدع» واستشهدوا ببيت من كلام عمرو بن معدى كرب جاء فيه (سميع) بمعنى مسمع ، وقالوا قد تعاقب

فمفعول ومفعول في حروف كثيرة، كحكيم ومحكم وقعيد ومقعد وسخين ومسخن . وقالوا إن الإبداع هو إيجاد الشيء بصورة مختصرة على غير مثال سبق وهو لا يقتضى سبق المادة ، وأما الخلق فمعناه التقدير وهو يقتضى شيئاً موجوداً يقع فيه التقدير . وإذا كان هو المبدع للسموات والأرض والمخترع لهما والموجد لجميع ما فيهما فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منهما على أنه جنس له ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكان الأصمعي يشكر فصيلاً بمعنى مفعول لأن القياس بناؤه من الثلاثي ويقول إن بديعاً صفة مشبهة بمعنى لا نظير له ، و بديع السموات بمعناه البديعة سمواته وفي هذا ترك للقياس الذى قضى فى الصفة المشبهة التى تضاف إلى الفاعل أن تكون متضمنة ضميراً يعود على الموصوف ، والحق أن تحكيم القياس فيما ثبت من كلام العرب تحكيم جائز ، فما كان للدخيل فى القوم أن يعتمد إلى طائفة من كلامهم فيضع لها قانوناً يبطل به كلاماً آخر ثبت عنهم ويعمد خارجاً عن لغتهم بعد ثبوت نطقهم به . فإذا كان كل واحد من الوجهين صحيح المعنى ، حكمنا بصحة كل منهما ، والأول أظهر ، وشواهد المسموعة أكثر .

وأما قوله ﴿ وَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فمعناه أنه إذا أراد إيجاد أمر وإحداثه فإِنَّمَا يأمره أن يكون موجوداً فيكون موجوداً ، فكن ويكون من كان النامة . وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا ضرب من التمثيل أى أن تعلق إرادته تعالى بإيجاد الشيء يعقبه وجوده ، كأمر يصدر فيعقبه الامتنال ، فليس بعد الإرادة إلا حصول المراد . وقال بعضهم بل هو قول حقيقى . قال الأستاذ الامام وقد وقع هذا الخلاف من أهل السنة وغيرهم وعجيب وقوعه منهم ، فان عندهم مذهبين فى المتشابهات التى يستحيل حملها على ظاهرها وهما مذهب السلف فى التفويض ، ومذهب الخلف فى التأويل ، وظاهر أن هذا من المتشابه ، والقاعدة فى تأويل مثله معروفة ومتفق عليها وهى إرجاع النقي إلى العقلى لأنه الأصل ، وههنا يقولون : إن الأمر بمعنى تعلق الإرادة وأن معنى (يكون) يوجد .

وأقول : إن الأمر بكلمة كن هنا هو الأصل فيما يسمونه أمر التكوين ، ويقال به أمر التكليف ، فالأول متعلق بصفة الإرادة ، والثانى متعلق بصفة الكلام ،

وأمر التكليف يخاطب به العاقل فيسمى المكلف ، ولا يخاطب به غيره فضلا عن المعلوم ، وأمر التكوين يتوجه إلى المعلوم كما يتوجه إلى الموجود ، إذ المراد به جعله موجوداً ، وإنما يوجه إليه لأنه معلوم فالله تعالى يعلم الشيء قبل وجوده وأنه سيوجد في وقت كذا . فتتعلق إرادته بوجوده على حسب ما في علمه فيوجد . وشيخ الإسلام ابن تيمية يسميه الأمر القدرى الكونى ، ويسمى مقابله الأمر الشرعى . قرأ الجمهور (يكون) في كل موضع بضم النون على تقدير فهو يكون كما أرادوا قرأه ابن عامر بفتحها في كل موضع إلا في آل عمران والأناعام بناء على أن جواب الأمر بالفاء يكون منصوباً ذلك شأنه تعالى في الابداع والتكوين وهو أغض أسرار الألوهية فن عرف حقيقته فقد عرف حقيقة المبدع الأول وذلك مالا مطمع فيه . وقد عبر عن هذا السر بهذا التعبير الذى يقر به من الفهم ، بما لا يتشعب فيه الهم ، ولا يوجد في الكلام تعبير آخر أليق به من هذا التعبير : يقول للشيء «كن» فيكون ، فالتوالد محال في جانبه تعالى لأن ما يعمد في حدوث بعض الأشياء وتولدها من بعض فهو لا يعدو طريقين - الاستعداد القهرى الذى لا مجال للاختيار فيه كحدوث الحرارة من النور وتولد العفونة من الماء يتحد بغيره ، والسعى الاختيارى كنولد الناس بالازدواج الذى يساقون إليه مع اختياره والقصد اليه . وإذا كان كل واحد من الأمرين محالاً على الله تعالى وكان تعالى هو المبدع لجميع الكائنات وهى بأسرها ملكه ومسخرة لأرادته فلا معنى لاضافة الولد اليه (٣٧: ١٨٠- ١٨٢ سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين)

(١١٨) وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنْزِيلُنَا آيَةً ، كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ . قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٩) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١٢٠) وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنَّ آيَاتِ

٤٤٠ طلب المشركين تكليم الله لهم أو آية كطلب من قبلهم (التفسير ج ١)

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

قلنا إن السياق قد انتقل من الكلام في بني إسرائيل تجاه القرآن ودعوة الإسلام ورسوله إلى الكلام في شئون المؤمنين معهم ومع النصارى والوثنيين .
وشيخنا لا يزال يجعل السياق واحداً غير ملتفت في التناسب بين الآيات إلى هذا التفصيل لذلك المجمل ، وقد قال هنا ما مثاله :

الكلام لا يزال في القرآن ، وما كان من أمر الناس في الإيمان به وعدم الإيمان ذكر في الآيات المتقدمة آنفاً من شأن أهل الكتاب ماتين به أن عدم إيمانهم بالنبي وما جاء به غير قادح فيه ، ولا ينهض شبهة عليه ، وأن مطاعنهم فيه متهافة منقوضة بطعنهم في أنفسهم ، وتخبطهم في أمر كتبهم ، ثم انتقل إلى ذكر شبهة مشركي العرب وبين أنهم جروا فيها على الأصل المعبود من أمثالهم المشركين الذين سبقوهم بالضلال فقال ﴿ وقال الذين لا يعلمون ﴾ أي الجاهلون بالكتاب والشرائع من مشركي العرب . وقال الجلال إن المراد بالذين لا يعلمون كفار مكة

خاصة ولا دليل على التخصيص ويرجح العموم كون الآية مدنية ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ كما كلم هذا الرسول مع أنه بشر مثلنا ﴿ أو تأتينا آية ﴾ من الآيات التي اقترحناها ، يعنون ما حكاه الله تعالى عنهم بمثل قوله (وقالوا لن نؤمن لك حتى

تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) الآيات ﴿ كذلك قال الذين خلوا من قبلهم مثل قولهم ﴾ أي مثل هذا القول قال الكفار الذين أرسل الله إليهم الرسل من قبلهم في معناه وهو أنهم أنكروا على الرسل الاختصاص بالوحي من دونهم واقترحوا عليهم الآيات تعنتاً وعناداً ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ لأن الطغيان قد ساوى بينهم حتى كأنهم نواصوا بما يقولون كما قال في سورة الطور (أنواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون) ويشبه هذا ما ورد من أن الكفر ملة واحدة وذلك أن الحق واحد ومخالفته هي الباطل أو الضلال وهو واحد وإن تعددت طرقه واختلفت وجوهه . وآثار الشيء الواحد الكلّي تتشابه فيمن تصدر عنهم وإن اختلفت الجزئيات . والتشابه

هنا إنما هو في مكابر الحق واستبعاد كون واحد من البشر رسولا يوحى إليه واقتراح الآيات تعنتاً وعناداً

ومثال الأخلاف في الجزئيات طلب قوم موسى رؤية الله جهرة ، وطلب قوم محمد أن يرقى في السماء أمامهم فيأتيهم بكتاب يقرأونه . والطلب الذي مصدره العناد والتعنت لانفيده إجابته لأن صاحبه لا يقصد به معرفة الحق ولذلك قال تعالى ^(١) (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) والدليل المعقول على هذا أنه مامن نبي إلا وقد جاء بآية أو آيات كونية أو عقلية وكانوا مع ذلك يصفونهم بالسحر ثم يقترحون عليهم الآيات ولذلك قال تعالى بعد حكاية شبهة هؤلاء الجاهلين ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ أى أننا لم ندعك يا محمد بغير آية بل بينا الآيات على يدك بياناً لا يدع للريب طريقاً إلى نفس من يعقلها . وقد قال (بينا الايات) ولم يقل أعطيناك الايات للتمفرقة والفصل بين آيات القرآن التي هي من علم الله وكلامه يظهر بها الحق بطريق معقول بين لا يشتبه فيه الفهم ، ولا يحار فيه الذهن ، وبين الايات الكونية التي هي من صنعه يستخذي لها العقل ويخضع لها لشعوره بأنها من قوة فوق قوته . وللناس فيما يرونه فوق ما يعقلون طريقان معهودان : منهم من يسنده إلى القوة الغيبية العليا سواء كان له سبب خفى في الواقع أم لا ومنهم من يسنده إلى الأسباب الخفية التي يسمونها السحر ، وإن كان فوق قدرة البشر ، ولذلك ضلت الأمم في آيات الانبياء السابقين وليس لأحد أن يضل في آيات القرآن لأنها بينة معقولة ولذلك قال (ذلك الكتاب لا ريب فيه)

نعم إن الايات العلمية لا يعقلها إلا أهل الاستعداد للعلم واليقين . ولذلك قال (لقوم يوقنون) قال الأستاذ الإمام . الذين يوقنون هم الذين خلصت نفوسهم من كل رأى وتقليد وتوجها إلى طلب الحق في الأمور الاعتقادية ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن يطلبوه بدليله وبرهانه ، فهم إذا قام عندهم البرهان اعتقدوا

وأيقنوا إيقانًا، وإنما يتوقع اليقين من مثلهم لامن قوم يعتقدون الشيء أولاً بلا دليل ولا برهان، ثم يلتصسون به الدليل لأن مقدماتهم قالوا بوجوب معرفة الدليل فإذا أصابوه موافقاً لما اعتقدوا رضوا به وإن كان ظنيًّا، وإذا نهض لهم مخالفًا لتقابليدهم رفضوه وتعللوا بالتعللات المنتحلة، وهؤلاء هم الجماهير من الناس الذين وصفوا في الآثار بأنهم أتباع كل ناعق : والعبرة في خطاب الشرع بأهل اليقين الذين صفت نفوسهم، ومحضت أفكارهم، فسلموا من علة العناد والمكابرة المانعين لشعاع الحق أن ينفذ إلى العقول، ولحرارته أن تخترق الصدور إلى القلوب، هؤلاء هم أنصار الحق لأنهم يبينهم لا يستطيعون المروق منه، ولا السكوت عن الانتصار له، ألم تر أن كبار الصحابة كانوا يراجعون النبي ﷺ فيما لم يظهر لهم دليله لأنهم طبعوا على معرفة الحق بالدليل. هؤلاء هم الناس الذين تنزل الشرائع لأجلهم، ولولا استعدادهم لها لما شرعت أولما نجحت^(١) وأما سائر الناس فتبع لهم وعيال عليهم

ثم قال تعالى ﴿إنا أرسلناك بالحق﴾ أي بالشيء الثابت المتحقق الذي لا يضل من يأخذ به ولا تعبت به رياح الأباطيل والأوهام، بل يكون الآخذ به سعيدًا بالطمأنينة واليقين. قال الأستاذ الإمام إن الحق في هذا المقام يشمل العلوم الاعتقادية وغير عافيه يقول: إنا أرسلناك بالعقائد الحق المطابقة للواقع، والشرائع الصحيحة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿بشيرا﴾ لمن يتبع الحق بالسعادتين ﴿ونذيرًا﴾ لمن لا يأخذ به بشقاء الدنيا وخزي الآخرة ﴿ولا تسئل عن أصحاب الجحيم﴾ أي فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم لأنك لم تبعث ملزمًا لهم ولا جبارًا عليهم فبعدم إيمانهم تقصيرًا منك تسئل عنه، بل بعثت معلمًا وهاديًا بالبيان والدعوة، وحسن الأسوة، لاهاديًا بالفعل ولا ملزمًا بالقوة، (ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء) وفي الآية تسليمية للنبي ﷺ لئلا يضيق صدره كما تدل على ذلك آيات أخرى (١) راجع مقالة «الإصلاح والإسعاد على قدر الاستعداد» في مجلد المنار الرابع.

وفي الآية من العبرة أن الأنبياء بعثوا معلمين لأمسيطين ، ولا متصرفين في
الأنفس ولا مكرهين ، فإذا جاهدوا فأنما يجاهدون دفاعاً عن الحق لا إكراها عليه
وفيها أن الله تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم الذي يهديهم إلى
معرفة حقوق الله وحقوق العباد وفي قراءة نافع ويعقوب (ولا تسأل عن أصحاب
الجهنم) بالنهي ، بالنهي أي لا تسأل عما سيلاقون من الانتقام فإنه عظيم ، فمثل
هذا النهي مستعمل في التحويل لافي حقيقته وهو استعمال معروف بين الناس حتى اليوم
وزعم بعض المفسرين أن النهي على حقيقته وأنه خاص بنهي النبي ﷺ
عن السؤال عن أبيه ورووا في ذلك أنه سأل جبريل عن قبر بهما فدل عليه
فزارهما ودعا لهما وتمنى لو يعرف حالهما في الآخرة وقال « لست شعري ما فعل أبوي »
فنزلت الآية في ذلك . والحديث قال الحافظ العراقي إنه لم يقف عليه ، وقال
السيوطي لم يرد في ذلك إلا أثر معضل ضعيف الإسناد . قال الأستاذ الإمام وقد
فشا هذا القول ولولا ذلك لم تذكره ، وإنما نرى بدكره التنبيه على أن الباطل صار
يفشو في المسلمين بضعف العلم والصحيح بهجر وينسى . ولا شك أن مقام النبي
عليه الصلاة والسلام في معرفة أسرار الدين ، وحكم الله في الأولين والآخرين ، ينافي
صدور مثل هذا السؤال عنه ، كما أن أسلوب القرآن يأنى أن يكون هو المراد منه .

ثم قال عز وجل ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾
فماد إلى ذكر أهل الكتاب على ما عهدنا في أساليب القرآن من ضروب الانتقال
بالمناسبات الدقيقة . وقد قال الأستاذ الإمام غير مرة إن القرآن لم يأت على طريقة
المنشئين والمؤلفين الذين يخصون كل طائفة من الكلام بموضوع معين ويسمونها
فصلاً أو باباً ، ولكن للقرآن أغراضاً يبرزها بصور مختلفة ، فكما لاحظت المناسبة
لذكر شيء منها أو الاحتجاج عليه أو الدفاع عنه ، جاء به يجذب إليه الأذهان ،
و يسارق به خطرات القلوب ، مع مراعاة التناسق ، وحفظ الأسلوب البليغ ، لهذا
يتكرر فيه المعنى الواحد بعبارات متعددة ، ويتجلى الروح الواحد في أشكال متنوعة
فلم يذكر ههنا المشركين إلا لما بينهم وبين أهل الكتاب من التناسب والتقارب
في المحاجدة والمماندة ، فكان ذكرهم من متممات الحجج على أهل الكتاب من حيث

أدى غرضاً مقصوداً في ذاته . ولما كان ذكرهم في عرض الكلام كالجملية الاعتراضية كان الرجوع إلى سر دشؤون أهل الكتاب مع النبي عليه السلام رجوعاً إلى أصل الموضوع وقال في معنى الآية : من شأن الانسان أن يتألم من القبيح أشد التألم إذا وقع ممن لا يتوقع منه فكان النبي عليه الصلاة والسلام يرجو أن يبادر أهل الكتاب إلى الايمان به وأن لا يرى منهم المكابرة والمجاهدة والعناد ، ولهذا كبر عليه أن رأى من إعراض اليهود والنصارى عن إجابة دعوته ، وإسرافهم في مجاهدته أشد مما رأى من مشركي العرب الذين جاء لحو دينهم من الأرض ، مع موافقته لأهل الكتاب في أصل دينهم ومقصده من توحيد الله تعالى والاخلاص له وتقويم عوج الفطرة الانسانية الذي طرأ عليها بسبب التقايد ، وترقية المعارف الدينية إلى أعلى ما استعد له الانسان من الارتقاء العقلي والأدبي ، ولذلك كان يخاطبهم بمثل قوله تعالى (٣ : ٦٣) قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم (الآية وغيرها من الآيات . ولقد كان من الصعب لولا إعلام الله تعالى أن تعرف درجة فنك التقليد بعقول أهل الكتاب وإفساد الأهواء لقلوبهم ، لذلك سلى الله تعالى نبيه عما كان يجده من عنادهم وإيذائهم بآيات كثيرة عرفه فيها حقيقة حالهم ، منها هذه الآية الناطقة بأن كلا من اليهود والنصارى على اتحادهم في أصل الدين قد تعصب لتقاليدهم واتخذ الدين جنسية لا يرضيه من أحد شيء إلا الدخول فيها وقبول لقبها بقوله تعالى (حتى تتبع ملتهم) مراد به ما هم عليه من التقاليد والأهواء التي غيروا بها وجه الدين الواحد حتى صار بعضهم يحكم بكفر بعض كما تقدم في الآيات السابقة .

ثم أمره تعالى في مقابلة ذلك بقوله ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ أي اجهر بقول الحق وهو أن الهدى الصحيح هو هدى الله الذي أنزله على أنبيائه دون ما أضافه اليه اليهود والنصارى بأرائهم وأهوائهم ففرقوا دينهم وكانوا شيعا كل شيعه تكفر الأخرى وتقول إنها ليست على شيء ، أي فإن أردت استرضاءهم فلن يرضوا عنك إلا أن تتبع أهواءهم ، ﴿ ولئن اتبعت أهوائهم ﴾ التي أضافوها على كتبهم ، وجعلوها أصولا وفروعا لدينهم ، ﴿ بعد الذي جاءك من العلم ﴾

اليقين ؛ بالوحي الالهي المبين ، الذي بين ما كان منهم من تحويل القول عن معناه بالتأويل ، وتحريفهم الكلم عن مواضعه ، ونسيانهم حظا مما ذكروا به ❀ مالك من الله ولي ولا نصير ❀ أى فأنك لن تنجح ولن تصل إلى حقلك بمجاراتهم على باطلهم ، لأن الله لا ينصرك على ذلك إذ لا يرضيه أن يكون اتباع الهوى ؛ طريقا إلى الهدى ، والصال لا يرضيه إلا موافقته على ضلاله ، ومجاراته على فساد ، وإذا لم يكن الله هو الذي يتولى شئونك وينصرك بمعونته فمن ذا الذي ينصرك ويقول لك من بعده؟ (أقول) ومفهوم هذا المصريح به في آيات أخرى أن ثباته على هدى الله المؤيد بالعلم هو الذي يكون سببا لتوليه تعالى له ونصره إياه عليهم . ومن المعلوم أن شرط إن لا يقتضى الوقوع فهو لا يدل على أن اتباع أهوائهم متوقع منه ﷺ وإنما هو فرض فرض لبيان مضمونه الذي ذكرنا ، وفيه أن من سنن الله تأييد متبعي الهدى على علم صحيح وأنهم هم الغالبون المنصورون ؛ وهو ما يعبر عنه علماء الاجتماع ببقاء الأمثل في كل تنازع بينه وبين مادونه .

(الأستاذ الامام) من تدبر هذا الانذار الشديد الموجه من الله تعالى إلى نبي الرحمة ، المؤيد منه بالكرامة والعصمة ، علم أن المراد به الوعيد والتشديد على الأمة ، على حد « إياك أعنى واسمعى يا جاره » فان الله تعالى يخاطب الناس كافة في شخص النبي ﷺ كما جرى عرف التخاطب مع الرؤساء والزعماء فقد يقال للملك : إذا فعلت هذا كانت عاقبته كذا ؛ والمراد إذا فعلته دولتك أو أمستك وقد تقدم غير مرة إسناد عمل بعض الأفراد إلى الأمة كلها ولكن قوله (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم) وهو يعلم جل شأنه أنه لا يتبع أهواءهم في حال من الأحوال ، وقد عصمه من الزيغ والضلال ، إنما جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتي بعده ممن يتبع سنته ويأخذ بهديه . فهو يرشدنا بهذا التهديد العظيم إلى الصدع بالحق والانتصار له ، وعدم المبالاة بمن يخالفه . مهما قوى حزبهم ، واشتد أمرهم ، وإنه لتهديد ترتد منه فرائص الذين يخشون ربهم ، ولا سيما إذا أنسوا من أنفسهم ضعفا في الحق كأن تركوا الجهر به أو الدفاع عنه خوفا من إنكار العامة عليهم ، ولغط الناس بهم ، فمن عرف الحق وعرف

أن الله تعالى ولي أهله وناصرهم ، لا يخاف في تأييده لومة لائم ، ولا يفترق أحد
 عن يسميهم الناس علماء وعارفين في سكوتهم عن الحق ، ومجاراتهم لأهل الباطل
 فانهم ايسوا على شيء من العلم الحقيقي ؟ وإن هي إلا كلمات يتلقونها ، وعادات
 يتقلدونها ، لاحجة للأحياء فيها ، سوى قولهم إن الميتين درجوا عليهما (قال)
 « وليس هذا هو العلم الذي جاء به النبي ﷺ وإنما هو شيء كان يلقب بالعلم عند
 الضالين من أهل الكتاب والمشركين كذلك ، وقد نفى عنه كونه علما على الحقيقة
 بمثل قوله (إن يتبعون إلا الظن) وقوله (لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم
 إلا يظنون) فمن أخذ بقول القائلين ، واتبع ما وجد عليه السابقين ، بدون بينة
 يعرف بها وجه الحق من ذلك - وكتاب الله بين يديه لا ينظر فيه ولا يرجع إليه
 فقد اتبع الهوى بعد الذي جاء من العلم إلى النبي ﷺ وباء بالخزي في الدنيا
 وبالنكال في الآخرة ولم يكن ولن يكون له من الله ولي ولا نصير ، اللهم أعنا على
 الجهر بالحق بعد ما عرفناه ، واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا :

(١٢١) الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ أَكْثَرُ أُولَئِكَ يَتْلُوهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ
 يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢٢) يَبْنِي
 إِسْرَءِيلَ إِذْ ذُكِّرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى
 الْعَالَمِينَ (١٢٣) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا
 يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

الصلة بين قوله تعالى (الذين آتيناكم الكتاب) الآية وبين ما قبلها واضحة
 جلية وهي أن هذه جادت في موضع الاستدراك على ما سبقها من إيمان النبي
 والمؤمنين من أهل الكتاب . فقد علمنا أن آية (وإن ترضى عنك اليهود ولا
 النصارى) قد سلت ما كان يحتاج النفوس من الرجاء بإيمان أهل الكتاب كلهم ، وهذه
 الآية تنطق بأن منهم من يرجى إيمانه وهم الذين وصفهم بما هو علة الرجاء ومناط

الامل وهو تلاوة كتابهم حق تلاوته ، وعدم الجود على الظواهر والتقاليد ،
والا اكتفاء بالأمانى والظنون ، كأنه يقول إن كانت نفسك تمحدثك بأن أهل
الكتاب أقرب إلى الإيمان بما جئت به لأنه يشبه ما عندهم ويصدق أنبياءهم
وأصول شرائعهم من حيث يقتنع جذور دين الوثنيين ويمحوه محو فيكون الوثنيون
أجدر من أهل الكتاب بمعادتك ومحادثتك فاعلم أن هؤلاء قد ألحقوا بدينهم
من التقاليد والمخترعات ، وألصقوا به من البدع والعادات ، ما غرهم في دينهم
بغير فهم ؛ وجعلهم يتعصبون له بغير عقل ، فكانوا بذلك أبعد عن حقيقة الإيمان
من أولئك الذين يعبدون الأوثان ، وذلك أنهم اتخذوا الدين جنسية فليس له
منه إلا الجود على عادات صارت مميزة للمنتسبين إليه ، ولكن لا يزال فيهم نفر
يرجى منهم تدبر الشيء والتمييز بين الحق والباطل وهم ﴿ الذين آتيناهم الكتاب ﴾
وهم ﴿ يتلون حق تلاوته ﴾ أى يفهمون أسرارهم ويفقهون حكمة تشريعهم ، وقائده
نوط التكليف به ، لا ينتقدون في ذلك بآراء من سبقهم فيه ، ولا يتحرفهم كله عن
مواضعه ﴿ أولئك ﴾ هم الذين بقدر ما جئت به من الترفى في الدين ، وإقامة
قواعده على الأساس المتين ؛ و ﴿ يؤمنون به ﴾ بعد العلم بأنه الحق الذى يزيل ما
بينهم من الخلاف ويهديهم إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة ﴿ ومن يكفر به ﴾
من الرؤساء المعاندين والمقلدين الجاهلين وهم الاكثرون ، ﴿ فاولئك هم الخاسرون ﴾
لهذه السعادة ، المحرومون مما يكون للمؤمنين من المجد والسيادة ، سواء كان
كفرهم بتحريفه ليوافق مذاهبهم التقليدية ، أم باهماله اكتفاء بقول علمائهم .
ويجوز أن يكون الضمير في قوله (به) للهدى الذى ذكر في الآيات السابقة .

(الاستاذ الامام) عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة ليرشدنا إلى
أن ذلك هو المقصود من التلاوة التى يشترك فيها أهل الاهواء والبدع مع أهل العلم
والفهم . والتعبير يشعر بأن أولئك الذين حكم بنفى رضاهم عن النبى ﷺ نفيًا وكذا
لاحظ لهم من الكتاب الإجمرد التلاوة وتحرريك اللسان بالالفاظ ؛ لا يعقلون عقائده ،
ولا يتدبرون حكمه ومواعظه ، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه ، لأنهم استغنوا عنه
بتقليد بعض الرؤساء والا اكتفاء بما يقولون ، فلا عجب إذا أغرضوا عما جاء به

النبي ولا ضرر في إعراضهم . وأما الآخرون فأنهم لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين ، وعلمهم بوجوب مطابقتها لمصالح المكلفين ، يقولون ان ما جاء به هو الحق الذي يتفق مع مصلحة البشر في ترقية أرواحهم ، وفي نظام معاشهم ، فيؤمنون به وانما ينتفع بايمان أمثالهم

وجملة القول أن هذا التعبير أفاد حكماً جديداً وإرشاداً عظيماً وهو أن الذي يتلو الكتاب مجرد التلاوة مثله كشل الحمار يحمل أسفاراً فلاحظ له من الايمان بالكتاب لأنه لا يفهم أسرارها ولا يعرف هداية الله فيه . وقراءة الألفاظ لاتفيد الهداية وان كان القاري ، يفهم مدلولاتها كما يقول المفسر والمعلم لها ^(١) لأن هذا الفهم من قبيل التصور ، وما التصور إلا خيال يلوح ويترأى ، ثم يغيب ويقضى ، وانما الفهم فهم التصديق والإذعان من يتدبر الكتاب مستهدياً مسترشداً ملاحظاً أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيمتدئ ويرشد ، والمفكدون محرومون من هذا فلا يخطر لهم ببال أنهم مطالبون بالاهتداء بكتاب الله تعالى وانما الهداية عندهم محصورة في كلام رؤسائهم الدينيين ، ولا سيما إذا كانوا مبينين .

وإذا كنا نعتبر بما قص الله تعالى علينا من خبر أهل الكتاب، كما قال (لقد

(١) يؤيد هذا ما ذكره الامام الغزالي في بحث النخلى عن هوانع فهم القرآن عند التلاوة وهو أن حجب الفهم أربعة (أولها) أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراءة ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل . (ثانيها) أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع المسموع من غير وصول اليه بصيرة ومشاهدة، فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوز فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فان لمع برق على بعدو بداله معنى من المعاني التي تخالف مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة قال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ؟ فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله ، ولمثل هذا قالت الصوفية . ان العلم حجاب . و ارادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها اكثر الناس بمجرد التقليد او بمجرد كلمات جدلية جررها المتعصبون للمذاهب وألقوها اليهم « اه المراد منه ينصه (راجع الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن في الاحياء)

كان في قصصهم عبرة لأولى الباب) فإنتنا نعرف حكم أهل القرآن عنده تعالى مما ذكره عن أهل التوراة والإنجيل كما نعرفه من مثل قوله عز وجل (٤٧: ٢٣ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقوله (٣٨: ٢٨) كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) فكل هذه الآيات والعبر لم تحل دون اتباع هذه الأمة سنن من قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع كما أنبئت للتحذير ، والقرآن حجة عليها كما ورد في الحديث «والقرآن حجة لك أو عليك»^(١) ولا شك أن من يتلو ألفاظ القرآن وهو معرض عن هدايته غير معتبر بوعده ووعيده فهو كالمتسهيىء به .

سأل سائل من المقلدين حاضري الدرس بأن العلماء قالوا : إن القرآن يتعبد بتلاوته . فقال الأستاذ الإمام : نعم ولكنهم لم يقولوا إنه أنزل لذلك وكيف يقولون ذلك والله الذي أنزله يقول إنه أنزله (ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب) فالقرآن وكذلك السنة يصرحان في مواضع كثيرة بخلاف هذا القول إذا أخذ على إطلاقه وجعل معناه أو من معناه أن الله تعالى يطالب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر ولا تذكر . وقد جاء من الأحاديث ما يصف حال قوم يأتون بعد « يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم » وقد ساهم شرار الخلق ، فهؤلاء الأشرار قد اتخذوا القرآن من الأغاني والمطربات ، وإذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالإثم واحتج عليك بكلمة قالها فلان أو حلم رآه فلان، وهكذا انقلب على المسلمين وضع الدين ، ثم هم يتعجبون مع ذلك كيف حرموا من وعد الله في قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) وضرب الأستاذ مثلاً رجلاً يرسل كتاباً إلى آخر فيقرأه المرسل إليه هزيمة أو يترنم به ولا يلتفت إلى معناه ولا يكاف نفسه إجابة ما طلب فيه ثم يسأل الرسول أو غيره : ماذا قال صاحب الكتاب فيه وماذا يريد منه ؟ أيرضى المرسل من المرسل إليه بهذا أم يراه استهزاء به ؟ فالمثل ظاهر وإن كان الحق لا يقاس على الخلق ، فإن الكتاب لا يرسل لأجل ورقه ، ولا لأجل نقوشه

(١) جملة من حديث رواه مسلم والنسائي وابن ماجه عن أنى مالك الأشعري مرفوعاً

ولا لأجل أن تكيف الأصوات حروفه وكلمه ولكن ليعلم مراد المرسل منه ويعمل به^(١) (الأستاذ الإمام) إن الاستهداء بالقرآن، واجب على كل مكلف في كل زمان ومكان، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر وأن يطالب نفسه بفهمه والعمل به، ولا شك أن كل من له معرفة ولو قليلة باللغة العربية فإنه يفهم من القرآن ما يهتدى به، ومن كان أمياً أو عجمياً فإنه يلغى له أن يسأل القارئ أن يقرأوا له القرآن ويفهموه معناه، وقد تقدم التنبيه على هذا في مقدمة تفسير سورة الفاتحة. بل قال الأستاذ في هذا المقام: إنني أعتقد أنه يجب على كل مسلم أن يقرأ القرآن أو يسمعه كله ولو مرة واحدة في عمره، ومن فوائد ذلك أن يأمن من إنكار شيء منه إذا عرض عليه أو سمعه مع التشكيك فيه.

أقام الله تعالى الحجج الدامغة على أهل الكتاب ثم ناداهم ودعاهم إلى ترك أسباب الغرور المانع من الإيمان فقال ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾ وقد سبق التذكير بهذه النعمة في أول الحاجة ثم أعيد هنا للناسبة الظاهرة، وهي أنه بعد ما ذكر أن الإعراض عن تدبر الكتاب والتقفه فيه هو كفر به، وذكركم بأنه لا يليق بمن كرمه ربه وفضله على غيره من الشعوب بايتائه الكتاب أن يكون حظه منه كحظ الحمار يحمل أسفاراً. فإذا كان ابتداء العظة والدعوة بهذا التفضيل لتوجه إليها الأنظار وتصغى إليها الأسماع كما تقدم في تفسير الآية الأولى (٤٧) فلا غرو أن يذكر هذا التفضيل ثانياً بعد

(١) سبق الاسم الغزالي إلى مثل هذا المثل فذكره في الأحياء غير مرة وهذه عبارة له فيه قال «مثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرهه مثل من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه فلعلة لو ترك الدراسة عند مخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء والمقت «أه من الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن. ونقول: إن الأحاديث التي وردت في الترغيب بالتلاوة من غير ذكر التدبر تحمل على اعتبار التدبر المعلوم من الآيات والأحاديث الأخرى. على أن حفظ ألفاظ القرآن مقصوده لينقل بالتواتر ولا ينفى هذا كونه حجة على القارئ، الذي لا يهتدى ولا يعتبر به كما في الحديث الصحيح

التوبيخ والتقريع ، لإزالة ما ربما يحدثه ذلك من الاستياء الذي يتوقع أن يكون من أسباب التنفير عما في الآية التالية ، وليس هذا من التكرار الذي يتحاماها البلغاء وإنما هو من إعادة الشيء لإفادة ما لا يستفاد بدونه . كأن هذه الآية تمهيد لما بعدها وهو فذللكة القصة ، والمقصود من إقامة الحجة

ذلك قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ فلا ينفعكم يوم القيامة أن تعتذروا عن الاعراض عن فهم كتاب الله بأن بعض سلفكم كانوا يفهمونه ويتدبرونه ، وإنكم استغنيتم بتدبرهم وفهمهم عن أن تفهموا وتتدبروا ، فانه يوم لا يغني فيه أحد عن أحد شيئاً . ويؤيد الآية حديث الصحيحين «يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً» الخ وإذا كان لا يجزى فهم سلفكم عنكم أنكم أعرضتم عن هداية كتابه فلا تنفعكم شفاعتهم أيضاً ، كما أنه لا يقبل منكم عدل ولا فداء تفتيدون به وتجعلونه معادلاً لما فرطتم فيه كما قال ﴿ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ وكانوا يعتقدون بالملكفرا ت تؤخذ عدلاً عما فرطوا فيه وبشفاعة أنبيائهم فأخبرهم الله تعالى أنه لا يقوم مقام الاهتداء بكتابه شيء آخر ثم قطع حبل رجائهم من كل ناصر ينصرهم فقال ﴿ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ أي إنه لا يأتيهم نصر من هاتين الجهتين ولا من غيرها . وقد تقدم في تفسير الآيات الأولى ما يغني عن الإطالة هنا وليس في هذه زيادة في المعنى إلا أن التعبير قد اختلف تفتناء في الآية الأولى تقدم ذكر الشفاعة منفية القبول ، وتأخر ذكر العدل غير مأخوذ ، وفي هذه الآية نفى قبول العدل أولاً ثم نفى نفع الشفاعة ثانياً . وكأنه يشير بهذا التفتن إلى أنه لا فرق بين الفداء والشفاعة في الجواز والمنع فمن منع العوض في الآخر لزمه منع الشفاعة فان جوزها جوزة

(١٢٤) وَإِذْ أُنْتَلَىٰ إِلْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ، قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي . قَالَ لَا يَنَالُ هَهْدَى الظَّالِمِينَ

أقول : بعد أن أقام الله الحجة على أهل الكتاب وبين شؤونهم في الكفر

بالنبي الذي كانوا ينتظرونه لبشارة رسلمهم به وشؤونهم في التلاعب بدينهم وشؤونهم مع المؤمنين - بين في هذه الآيات وما بعدها ما يستند إليه الاسلام ونبي الاسلام من أصل ونسب يحله أهل الكتاب والعرب جميعاً وهو ملة إبراهيم ونسبه ، فهو في هذا السياق يبين لأهل الكتاب ولا سيما اليهود المحتركين للوحي في قومهم والمفضلين لأنفسهم على العرب بأنفسهم أن هذا لو كان حجة لما قامت هذه الحجة على محمد ﷺ وقومه ، إذ الملة في الأصل واحدة والنسب واحد ولكنهم كفروا النعمتين بما تقدم ذكره من أعمالهم فجاء النبي الموعود به لإصلاح حالهم وحال غيرهم وسيأتى قوله تعالى في هذا السياق (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وجرى شيخنا في الدرس على طيته في التناسب بين هذا السياق وما قبله فقال ما مثاله :

كان الكلام في أول السورة إلى هذه الآية بأسلوب واحد في سياق واحد : ذكر حقيقة الكتاب وكونه من فصوح البرهان بحيث يدفع ريب المرتابين أن يدنو منه أو يتسامى إليه ، ثم ذكر أصناف الناس في أمر الإيمان به وعدم الإيمان به وأطال الحجاج والمناظرة في خطاب أهل الكتاب خاصة لما تقدم من أنهم كانوا موضع الرجاء في المبادرة إلى الإيمان بالنبي وما جاء به لأنه وافقهم في أصل الدين وصدق أنبياءهم ، وكنبهم وذكركم بما نسوا ، وعلمهم ما جهلوا ، وأصلح لهم ما حرفوا وزادهم معرفة بأسرار الدين وحكمته ، كما أنهم كانوا في موضع الشبهة عند المشركين والمنافقين بما كفروا ، وفي موضع الحجة عليهم بما آمنوا ، قال تعالى في الاحتجاج على المشركين (٢٦ : ١٩٧) أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل) وقد جاءت بحاجة أهل الكتاب على طريقة الإطناب لما كانوا عليه من جمود القرائح والبعد عن البلاغة كما حكى عنهم أنهم قالوا « قلوبنا غلف » ومن فساد الأذهان بال تعود على التأويل والتحريف ، فكان يبدأ لهم المعنى ويعاد ، ويساق إليهم القول بطرق بيّنة ، ويؤكد بضرب من التأكيد ، تبعد به عن قبول التأويل والتحويل ، وكان مما حجوا به التذكير بحال سلفهم الأنبياء وبحالهم معهم من عصيانهم وإيذائهم بل قتلهم في عهدهم ، والغرور بانتظار شفاعتهم والاستغناء بها من بعدهم ثم إن الكلام في هذه الآية « وإذ ابتلى إبراهيم ربه » وما بعدها موجه إلى

مشركي العرب ، ووجه الاتصال بينها وبين ما قبلها أن ذلك كان يتضمن الاحتجاج على أهل الكتاب بسلفهم الصالح ، وهذا يتضمن الاحتجاج على مشركي قريش وأمثالهم بسلفهم الصالح ، فانهم ينتسبون إلى إسماعيل وإبراهيم ويفتخرون بأنهما بنيا لهم النكبة معبدهم الأكبر : وكانوا في عهد التنزيل قد اختلطوا بالأمم المجاورة التي تعرف لهم هذا النسب .

و إنك لترى الكلام هنا جاريا على طريقة الإيجاز والإشارة لما كان عليه العرب من حدة الفكر وصفاء الأذهان ، ودقة الفهم ورقة الوجدان ، على أن هذه الآيات تصلح حجة على الفريقين لأن أهل الكتاب كافة يجولون إبراهيم عليه الصلاة والسلام ويعتقدون نبوته ، والأسرائيليون منهم ينتسبون إليه ، ولكن الخطاب في قصته موجه إلى العرب أولا وبالذات ، فذلك حجج القرآن على أهل الكتاب الذي جاء لإصلاح دينهم وترقيتهم فيه ودين الله واحد في جوهره ، وهذه حججه على أهل الشرك والوثنية الخاصة التي جاء لمحوها من الأرض وإثبات نقيضها وهو التوحيد والتنزيه وإثبات البعث والنشور ، وقد أقام الحجج على هذين الأصلين من الطرق العقلية والسكونية في مواضع كثيرة ولا سيما في السور المكية .

قال تبارك اسمه ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أقول أشهر الأقوال وأظهرها في متعلق « إذ » هنا قولان (١) أنه ، قدر معلوم من السياق ومن أمثاله وهو « اذكر » ، وإذا جعل الخطاب للرسول ﷺ أي « واذكر » لأهل الكتاب ولقومك وغيرهم (إذا ابتلى إبراهيم ربه) الخ وإذا جعل الخطاب للكافرين (واذكروا) وتقدم نظيره في خطاب بني إسرائيل (٢) أنه متعلق بقوله (قال إني جاعلك للناس إماما) والكلمات جمع كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الجمل المفيدة من الكلام . والمراد منها عنا مضمونها من أمر ونهي ، روى عنكم عن ابن عباس قال : لم يبتل أحد بهذا الدين فأقامه كله إلا إبراهيم ابتلاه الله بثلاثين خصلة من خصال الإسلام . واستنبطها ابن عباس بالعدد من أربع سور ليس فيها خطاب له عليه الصلاة والسلام . وقال شيخنا في الدرس : جعل التكليف بالكلمات لأنها تدل عليه وتعرف بها طاعة ولم يذكر الكلمات ماعى ولا الاتعام كيف كان ، لأن العرب تفهم المراد بهذا الإبراهيم والجمال

وأن المقام مقام إثبات أن الله تعالى عامل ابراهيم معاملة المبتلى أى المختبر له لتظهر حقيقة حاله و يترتب عليها ما هو أثر لها ، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله بإتمامه ما كلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه السكال . هذا هو المبادر ولكن المفسرين لم يألووا في تفسير الكلمات والخبط في تعيينها فقال بعضهم : إنها مناسك الحج ، وقال آخرون : إنها خصال الايمان واستخرجوها من آيات من القرآن ، وذهب بعضهم إلى أن الإشارة بالكلمات إلى الكوكب والقمر والشمس التى رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى ، وكان قائل هذا يعتقد أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان يظن أن هذه الكواكب أربابا وحاش لله ما كان منه إلا أن قال (هذا ربى) تميذاً للحجة والبرهان ولذلك قال تعالى بعد حكاية ذلك عنه (٦: ٨٢) وتلك حجتنا آتيناهما ابراهيم على قومه) وذهب قوم إلى أن المراد بها جعل الله إياه إماماً وتكليفه بإقامة البيت وتطهيره وأن بقية الآية مفسر للإيهام فيها . وادعى بعضهم أن المراد أمره فى المنام بذبح ولده وإنما هذا الأمر كلمة واحدة فكيف جعلوها عشرًا ؟ وزعم آخرون أن الكلمات هى الخصال العشر التى تسمى خصال الفطرة : وهى قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وتقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونف الإبط والاستحداد وقيل غير ذلك .

قال الأستاذ الامام عند إيراد قول المفسر (الجلال) فى تفسير الكلمات إنها الخصال العشر : إن هذا من الجراءة الغريبة على القرآن ولا شك عندى فى أن هذا مما أدخله اليهود على المسلمين ليستخذوا دينهم هزواً ، وأى سخافة أشد من سخافة من يقول : إن الله تعالى ابتلى نبياً من أجل الأنبياء بمثل هذه الأمور وأثنى عليه بإتمامها وجعل ذلك كالتهميد لجسده إماماً للناس وأصلاً لشجرة النبوة — وإن هذه الخصال لو كلف بها صبي ممزق سهل عليه إتمامها ولم يعد ذلك منه أمراً عظيماً . ؟ والحق أن مثل هذا يؤخذ كما أخبر الله تعالى به ولا ينبغي تعيين المراد به إلا بنص عن المعصوم

هذا ملخص ما قاله شيخنا فى الدرس وهو صفوة الحقيقة ، ولكن كتب إليه رجل من المشتغلين بالعلم فى سوربة كتاباً عقب قراءته ذلك فى المنار يقول فيه : إن

تفسير الكلمات بخصال الفطرة مروى عن ترجمان القرآن ابن عباس رضى الله عنهما فكيف يخالفه فيه؟ وشدد النكير في ذلك وأطنب في مدح ابن عباس . وقد أرسل إلى الأستاذ كتابه عند وصوله وكتب عليه : الشيخ رشيد يجيب هذا الحيوان... فكتبت إليه وكان صديقاً لى كتاباً لطيفاً كأل مما قلته فيه على ما أتذكر : إننا لم نر أحداً من المفسرين ولا من أئمة العلماء ألزم موافقة ابن عباس في كل ما يروى عنه وإن صح سنده عنده ، فكيف إذا لم يصح ؟ وقد قال الشيخ محمد عبده إنه يحل ابن عباس عن هذه الرواية ولا يصدقها ، ولما كانت مثل هذه الشبهة أو الطعن في أى عالم بأنه خالف فلاناً الصحابى أو الامام فلاناً مما يروج في سوق العوام نذكر هنا ما قاله شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى بعد ذكر رواياته المختلفة في تفسير (الكلمات) عن ابن عباس وغيره من مفسرى السلف ونقله عنه ابن كثير مقراً له ، قال هذا : قال أبو جعفر ابن جرير ما حاصله : إنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشئ منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع (قال) ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له اه المراد منه وهو عين ما ذهب إليه شيخنا وهذه الحجة يدلى بها ابن جرير في مواضع كثيرة من تفسيره وهي الحق

ذكر تعالى أن إبراهيم أتم الكلمات وأنه تعالى (قال) له ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ وقد فصلت الجملة عما قبلها لأنها جواب عن سؤال مقدر تدل عليه القرينة قال شيخنا ولم يقل فقال إني جاعلك : للاشعار بأن هذه الامامة بمحض فضل الله تعالى واصطفائه لا بسبب إتمام الكلمات ، فان الامامة هنا عبارة عن الرسالة وهي لا تنحل بكسب الكاسب . وليس في الكلام دليل على أن الابتلاء كان قبل النبوة . وأما فائدة الابتلاء فهي تعريف إبراهيم عليه السلام بنفسه وأنه جدير بما اختصه الله به ، وتقوية له على القيام بما يوجه إليه وقد تحققت إمامته للناس بدعوته إياهم إلى التوحيد الخالص . وكانت الوثنية قد عمتهم وأحاطت بهم - فقام على عندهم بالحنيفية وهي لايمان بتوحيد الله والبراءة من الشرك وإثبات الرسالة ، وتسلسل ذلك في ذرته خاصة فلم ينقطع منها دين التوحيد ، ولذلك وصف الله الإسلام بأنه ملة إبراهيم .

وماذا قال ابراهيم لما بشره الله تعالى بجعله إماما للناس ﴿وقال ومن ذريتي﴾
أى قال: واجعل من ذريتي أئمة للناس، وهو إيجاز فى الحكاية عنه لا يعهد مثله
الا فى القرآن. وقد جرى ابراهيم عليه السلام على سنة الفطرة فى دعائه هذا فان
الانسان لما يعلم من أن بقاء ولده بقاء له يحب أن تكون ذريته على أحسن حال
يكون هو عليها، ليكون له حظ من البقاء جسدا وروحا. ومن دعاء ابراهيم الذى
حكاه الله عنه فى السورة المسماة باسمه (١٤: ٤٠) رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى
وقد راعى الأدب فى طلبه، فلم يطلب الامامة لجميع ذريته بل لبعضها، لأنه الممكن
وفى هذا مراعاة لسنة الفطرة أيضاً. وذلك من شروط الدعاء وآدابه فمن خالف
فى دعائه سنن الله فى خليقته أو فى شريعته فهو غير جدير بالإجابة، بل هو سىء
الأدب مع الله تعالى، لأنه يدعو لان يبطل لأجله سنته التى لا تبدل ولا تتحول
أو ينسخ شريعته بعد ختم النبوة وإتمام الدين.

وبماذا أجاب الله ابراهيم حين دعاه هذا دعا؟ ﴿قال لا ينال عهدى الظالمين﴾
أى إننى أعطيك ما طلبت وسأجعل من ذريتك أئمة للناس ولكن عهدى
بالامامة لا ينال الظالمين. لأنهم ليسوا بأهل لأن يقتدى بهم، وفى العبارة من الإيجاز
ما يناسب ما قبلها. وإنما اكتفى فى الجواب بذكر المانع من منصب الامامة
مطلقا وهو الظلم لتنفير ذرية ابراهيم من الظلم وتبغيضه اليهم ليتعاضدوا وينشئوا
أولادهم على كراهته، ويربوه على التباعد عنه لسكيا يقفوا فيه فيحرموا من
هذا المنصب العظيم الذى هو أعلى المناصب وأشرفها، ولتنفير سائر الناس من الظالمين
وترغيبهم عن الاقتداء بهم، فان الناس قد اعتادوا الاقتداء بالرؤساء والملوك
الظالمين لأنفسهم ولغيرهم بالخروج عن الشريعة إلا ما يوافق أهواءهم، ويحرفون
أو يؤولون الاحكام لتطابق شهواتهم، وقد درجوا على ذلك فى كل عصر ماعدا
عصر النبوة وما قاربته، كمصر خلافة النبوة كما يعلم من شهادة التاريخ التى لا ترد
أقول: وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالظلم هنا أشد أنواعه قبحا وضرا، وهو
الشرك والكفر، ومنه (٣١: ١٣) إن الشرك اظلم من الظلم (٢: ٢٥٤) والكافرون هم الظالمون
ولكن لا دليل هنا على الحصر أو القصر، ومن يظلم الناس من الموحدين المقرين

(البقرة: س ٢) الامامة الممنوعة للناس واشتراط العدالة في الخلافة ٤٥٧

بالرسالة غير أهل لامامتهم لأنه قدوة باطل وشر يفسد عليهم دينهم ودينهم . وإذا كان فقهاؤنا يقولون بأن الامام لا يقبذ عهده إلا بالكفر الصريح دون الظلم والفسق فانما يقولون ذلك خوفاً من وقوع الفتنة ، لا لأن الظالم أهل للامامة ، ألم تر أنهم يشترطون في اختياره وبيعته العدالة ، ومن قواهم أنه يغتفر في البقاء والاستمرار ما لا يغتفر في الابتداء ، وليس هذا في كل شيء أيضاً

(قال الأستاذ) الامامة الصحيحة والأهوية الحسنة هي فيما تكون عليه الأرواح من الصفات الفاضلة والمملكات العلمية التي تملك على صاحبها طرق العمل فتسوقه إلى خيرها وترعه عن شرها ، ولا حظ للظالمين في شيء منها ، وإنما هم أصحاب الرسم وأهل الخداع والانخداع بالظاهر ، ولذلك يصفون أعماهم وأحكامهم بالرسمية . وقد جعل الله إبراهيم إماماً للناس وذكر لنا في كتابه كثيراً من صفاته الجليلة كقوله تعالى (١٦ : ١١٩) إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً (الآيات وقوله (١١ : ٧٤) إن إبراهيم الخليل أواه منيب) ولم يذكر لنا شيئاً من زيه وصفة ثيابه ، ولا وصف أنواع طعامه وشرابه ، بل أرشدنا إلى أن دعوته الصالحة لا يدخل فيها ولا ينتفع بها أحد من ذريته إلا من اجتنب الظلم لنفسه وللناس

قال : وقد أخذوا من هذه الآية حكماً أصولياً وهو أن الظالم لا يجوز أن يولى منصب الامامة العظمى ، واشتراطوا لصحة الخلافة فيما اشترطوا العلم والعدل ، ونقل أن أبا حنيفة (رح) كان يفتي سراً بجواز الخروج على المنصور ويساعد علياً بن الحسن على ما كان ينزع إليه من الخروج عليه . اكتفى الأستاذ الامام من الدرس بهذا القدر من الاستشهاد . ومن الناس من يعمل إباء أبي حنيفة وغيره من الأئمة منصب القضاء في زمن المنصور وأمثاله من الامراء باعتقاد عدم صحة إمامتهم وعدم انعقاد ولايتهم ، ويروى أن أبا حنيفة كان يرى يومئذ أن الامامة يجب أن تكون للعلويين خاصة

ثم ذكر الأستاذ الامام هنا أئمة العلم وقال : إن الناس لم يعرفوا عن الاقتداء بالظالمين حتى بعد هذا التحذير الذي أوحاه الله إلى إبراهيم ثم أعلم به محمداً عليه

الصلوة والسلام فانهم ظلوا على دين ملوكهم وهم اليوم وقبل اليوم يدعون الافتداء بالأئمة الأربعة رضى الله عنهم وهم كاذبون في هذه الدعوى فانهم ليسوا على شئ ممن سيرتهم في التخلق بأخلاق القرآن، وتحري اتباع الكتاب والسنة في جميع الأعمال. اكتفى الأستاذ الإمام بهذه الإشارة في الدرس ونزيدها إيضاحاً فنقول: قد غلبت على الناس أهواء السلاطين والحكام الظالمين، حتى إن هؤلاء الأئمة الأربعة لم يسلموا من أولئك الظالمين، فقد سجن أبو حنيفة وحاولوا إكراهه على قبول القضاء لما رأوا من إقبال الناس على الأخذ عنه فلم يقبل، فضر به وحبسوه ولم يقبل كما هو مشهور. وضرب الإمام مالك سبعين سوطاً لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان، نقله ابن خلدون عن شذوذ العقود لابن الجوزي، ونقل عن الواقدي أنه لم يكن في آخر عهده يشهد الصلوات في المسجد ولا الجمعة وكان يقول ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بمنزله. وسعى به إلى جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس (رضى الله عنهما) وهو عم أبي جعفر المنصور وقالوا له إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشيء، فغضب جعفر ودعا به وجرده وضر به حتى شفيط ومدت يده حتى انخلعت كتفه وارتكبت منه أمراً عظيماً. وخبر طلب هارون الرشيد الشافعي للقضاء وإبائه واختفائه ثم هر به مشهور وسببه الورع، وأشهر منه بحنة الإمام أحمد وحبسه وضر به الضرب المبرح ليقول بخلق القرآن. فهكذا عامل الملوك الظالمون هؤلاء الأئمة وبلغوا منهم ومن الناس بظلمهم ما أرادوا من إفساد الدين والدنيا وكلنا يعلم أن أولئك الذين ظلموا الأئمة الذين يدعى الأمراء والحكام اليوم اتباعهم كانوا أقل توغلاً وإسرافاً في الظلم من أكثر الملوك والأمراء المتأخرين، وإنك لترى أكثر الناس تبعاً لأهواء هؤلاء الرؤساء إلا من وفقه الله وهداه وقليل ما هم بل هم الغرباء في الأرض.

والعبرة في مثل ما أشرنا إليه من الأحداث أن الظالمين من حكام هذه الأمة بدأوا بتحكيم أهوائهم السياسية في الدين وأهله من القرن الأول، وكانوا إذا رأوا الناس قد أقبلوا على رجل من رجال الدين استمالوه، فان لم يعمل إليهم آذوه وأهانوه. ولكن كل الدين وطلب الحق غالباً على أمر المسلمين، فقد نقل المؤرخون أن

الامام مالمسكا لم يزل بعد ذلك الضرب في علو ورفعة ، وكأنما كانت تلك الشياطين حلياً حلي به . ولو أمر أحد السلاطين المتأخرين بضرب عالم من أعلام أهل العصر لأنه لا يرى عهد بيعته صحيحاً أو لأنه أفتى بما لا يوافق غرضه (كما نقل عن مالك) لما رأيت له رفعة ولا احتراماً عند الناس ، ولأعرض الجميع عنه . فأما العقلاء العارفون بفضلهم فيعرضون عنه بوجوههم ، وأما الغوغاء من العامة ومن في حكمهم فيعرضون عنه بقلوبهم ووجوههم ، ويعتقدون كفره أو فسقه وابتداعه .

ذلك أن الظالمين من الأمراء قد استعانوا بالظالمين من الفقهاء على إقناع العامة بأنهم أئمة الذين الذين يجب اتباعهم حتى في الأمور الدينية وحلوا بينهم وبين كتاب الله الذي ينطق بأن عهد الله بالأمامة لا ينال الظالمين . وغشروهم بأن أئمة الفقه الأربعة يحكمون بذلك ، ولو عرف الناس سيرتهم مع خلفاء زمنهم لمسا تيسر غشهم . هذا وإن الحاكمين على عهدهم كانوا على علم بالكتاب والسنة واتباع لها في أكثر أعمالهم وأحكامهم . وأما المتأخرون فلا يعرفون من ذلك أكثر مما يعرفه السوقة ويعملون بخلاف ما يعلمون ، بل يشرعون للناس أحكاماً جديدة يأخذونها من قوانين الأمم تخالف الشريعة ولا توافق مصلحة الأمة ويازمون عائلهم وقضاتهم الحكم بها باسمهم لا باسم الله تعالى (٥: ٥٠ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون)

(١٢٥) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٦) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آتَيْنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرُ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ معطوف على ما قبله

والمعنى واذا ذكر أيها الرسول - أو أيها الناس - إذ جعلنا البيت الحرام مثابة للناس وأمنا أى ذا أمن ، بأن خلقنا بما لنا من القدرة في قلوب الناس من الميل إلى حجه والرجلة إليه المرة بعد المرة من كل فيج وصبوب ما كان به مثابة لهم ، ومن احترامه وتعظيمه وعدم سفك دم فيه ما كان به أمنا ، وافظ «البيت» من الأعلام الغالبة على بيت الله الحرام بمكة كالنجم على الثريا ، كان كل عربى يفهم هذا من إطلاق الكلمة .

يذكر الله تعالى العرب بهذه النعمة أو النعم العظيمة وهى جعل البيت الحرام مرجعاً للناس يقصدونه ثم يشوبون إليه ، وأمنا لهم فى تلك البلاد بلاد المخاوف التى يتخطف الناس فيها من كل جانب ، وبدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام للبيت وأهله المؤمنين ، وفى هذا التذكير ما فيه من الفائدة فى تقرير دعوة النبي ﷺ وبيان بنائها على أصول ملة إبراهيم ، الذى تحترمه قرىش وغيرها من العرب وقد اختار المثابة على نحو القصد والمزار ، لأن لفظ المثابة يتضمن هذا وزيادة فإنه لا يقال : تاب المرء إلى الشيء إلا إذا كان قصده أولاً ثم رجع إليه . ولما كان البيت معبدًا وشعاراً عاماً كان الناس الذين يدينون بزيارته والقصد إليه للعبادة يشترطون الرجوع إليه ، فمن سهل عليه أن يشوب إليه فعل ، ومن لم يتمكن من الرجوع إليه بجمانه ، رجع إليه بقلبه ووجدانه ، وكونه مثابة للناس أمر معروف فى الجماعية والإسلام ، وهو يصدق برجوع بعض زائريه إليه ، وحنين غيرهم وتعظيمهم له عند عجزهم عنه . وكذلك جعله أمناً معروف عندهم فقد كان الرجل يرى قاتل أبيه فى الحرم فلا يزعمه ، على ما هو معروف عندهم من حب الانتقام والتفاخر بأخذ الثأر (الاستاذ الإمام) قد يقال : ما وجه المنة على العرب عامة بكون البيت أمناً للناس والفائدة فيه إنما هى للجنة والضغفاء الذين لا يقدرّون على المدافعة عن أنفسهم ؟ والجواب عن هذا : أنه ما من قوى إلا وبوشك أن يضطر فى يوم من الأيام إلى مفرع يلجأ إليه لدفع عدو أقوى منه أو لهدنة يصطلىح فى غصونها مع خصم يرى سلمه خيراً من حربته ، وولاءه أولى من عدائه ، فبلاد كلها أخطار ومخاوف لراحة فيها لأحد . وقد بين الله المنة على العرب إذ جعل لهم مكاناً آمناً بقوله فى سورة العنكبوت (٢٩: ٦٧) أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من

حولهم ، أفيالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟)

قال تعالى ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ قرأ نافع وابن عامر « واتخذوا » بفتح الخاء على أنه فعل ماضٍ معطوف على « جعلنا » والباقون بكسرها على أنه أمر أي وقلنا اتخذوا أو قائلين اتخذوا من مقام إبراهيم مصلى . حذف القول للإيجاز وفائدته أن يستحضر ذهن التالى أو السامع المأمورين حاضرين والأمر يوجه إليهم ، فهو تصوير لماضى بصورة الحاضر ليقع في نفوس المخاطبين بالقرآن أن الأمر يقتضاهم ، وأنه موجه إليهم كما وجه إلى سلفهم في عهد أبيهم إبراهيم ، وهم ولده إسماعيل وآل بيته ومن أجاب دعوتهم ما إلى حج البيت ، لأنه حكاية تاريخية سبقت للفكاهة والتسلية بل شريعة ودين . وهذا القول أحسن من قول بعضهم إن « اتخذوا » أمر لآمة عهد ﷺ لأن ذلك القول يقتصر على معنى صيغة الأمر ومما قلنا يتضمن مع ذلك معنى القراءة بصيغة الماضى الدالة على أن إبراهيم ومن معه قد اتخذوا مقامه مصلى ، ولأنه أبلغ لما فيه من تحريك شعور الخلف يشرف عمل السلف وبعنهم على الاقتداء بهم

و «مقام» اسم مكان من القيام ، وقد اختلف المفسرون في مقام إبراهيم ، فقال بعضهم إنه الحجر الذى كان يقوم عليه عند بناء الكعبة . قاله ابن عباس وجابر وقتادة وغيرهم ورواه البخارى ، وعليه مفسرنا (الجلال) وقال آخرون : إنه الحرم كله وهو مروى عن النخعى ومجاهد . وروى عن ابن عباس وعطاء أنه مواقف الحج كلها ، وقال الشعبي : إنه عرفة ومزدلفة والجمار . واختلفوا أيضا في تفسير المصلى فقال من فسر المقام بالحجر إنه مكان الصلاة أى صلاتنا المخصوصة وعليه الجلال واستبدلوا له بحديث جابر عند مسلم قال « إن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ الآية » وذهب الآخرون إلى أن المراد بالمصلى موضع الصلاة بمعناها اللغوى العام وهو الدعاء والتوجه إلى الله تعالى وعبادته مطلقا . والأستاذ الإمام يرجح قول هؤلاء وذكر من دليله أن الحجر لا يسع الصلاة المخصوصة ولذلك قال جابر « إن النبي صلى خلفه » فكيف يتخذ منه محل للصلاة ؟ وأجاب عن حديث مسلم وحديث أبى نعيم مرفوعا « هذا مقام إبراهيم »

بأنه ليس فيهما ما يدل على أن الحجر هو المراد بمقام إبراهيم في الآية دون غيره وإنما صلاته تدل على أن الصلاة هناك مشروعة . على أن في سند حديث أبي نعيم مقالا ، والخطاب في الأصل للمؤمنين في زمن إبراهيم عليه السلام ولم تكن صلاتنا هذه صلاتهم ، فحمل المقام على جميع شعائر الحج التي قام فيها إبراهيم والصلاة على معناها اللغوي الذي يشمل صلاة إبراهيم ومن كان معه على عبادته كما يشمل صلاتنا ومناسكتنا أظهر ، كما قال الأستاذ الإمام . والصلاة عند العرب وغيرهم من الأمم تشمل الدعاء والثناء على الله والتوسل إليه بكل قول وعمل يدل على التوجه إليه سبحانه ، ويقول الحقوقيون من الفقهاء : حينما صليت من المسجد فتم مقام إبراهيم . والناس يتخرون صلاة ركعتي الطواف خلف البناء المرتفع الذي وضع فيه الحجر الذي فيه أترقدم إبراهيم عليه السلام إن أمكن ، والمرى أنه كان ملاصقا للكعبة فأخره إلى ذلك المكان عمر (ر ض) كما رواه عبد الرزاق بسند قوى عندهم ، وروى ابن مردويه عن مجاهد بسند ضعيف أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي أخره . وسيأتي في تفسير آل عمران من أول الجزء الرابع مزيد كلام في هذا المقام

قال تعالى ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي﴾ الخ عهد إليه بالشيء وصاه به ، والمراد أن الله كفهما أن يطهرا ذلك المكان الذي نسبته إليه وسماه بيته لأنه جعله معبداً يعبد فيه العبادة الصحيحة . ولم يذكر ما يجب أن يطهراه منه ليشمل جميع الرجس الحسى والمعنوى كالشرك وأصنامهم والأغور والرفث والتنازع . وتخصيص الله تعالى ذلك البيت بالنسبة إلى ذاته المنزهة عن صفات الأجسام ليس لخصوصية في موقعه ولا في أحجاره ، وإنما كان بيتا لله لأن الله تعالى سماه بيته وأمر بأن يتوجه إليه المصلون ، وبأن يعبد فيه عبادة خاصة . والحكمة في ذلك أن البشر يعجزون عن التوجه إلى موجود غيبي مطلق لا يتقيد بمكان ولا ينحصر في جهة وهم في حاجة إلى التوجه إلى خالقهم وشكره والتوسل إليه والثناء عليه واستمداد رحمته ومعونته لما في ذلك من الفائدة لهم لأنه يعمل مداركهم عن التقيد في دائرة الأسباب المعروفة على ضيقها وعن الاستخذاء لما لا يعرفون له سببا ، ورفع نفوسهم عن الرضى بالحياة الحيوانية . فله الحمد والمنة أن عين لهم مكانا نسبته إليه فسماه بيته .

رمزاً إلى أن ذاته المقدسة تحضره ، فإذا كان الحضور الحقيقي محالاً عليها ، فإنها تحضره رحمته الإلهية ، ولذلك كان التوجه إليه بمنزلة التوجه إلى تلك الذات العلية ، لو وجد العبد إلى ذلك سبيلاً . ولو كاف الله عباده بعبادته مطلقاً - وقد علمهم بنظر العقل وإرشاد الشرع أنه ليس كمثله شيء لوقعوا في الحيرة والاضطراب لا يدرون كيف يتوجهون إلى ذات غيبية مطلقة . ولو اختار بعضهم لنفسه عبادة تليق بهذا التنزيه الذي أرشد إليه الكتاب وصدقه العقل لما اهتدى إليه الآخرون وبذلك يفقد المؤمنون الجامعة التي تجمعهم على أفضل الأعمال التي تؤلف بين قلوبهم ، لذلك قلنا : إن الله رحمهم إذ جعل لنفسه بيتاً يقصدونه ويشوبون إليه عند الإمكان ، ويتوجهون إليه في صلاتهم وإن بعد المسكان ، ولا يخشى على المؤمنين توهم الخلول في ذات الله بنسبة البيت إليه بعد ما نفى سبحانه كل إيهام بقوله (والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم) .

أقول : ولا يرد على هذا كون السماء قبلة الدعاء لاشعارها بعلوه تعالى على جميع خلقه للفرق الظاهر بين الصلاة والدعاء .

وقوله تعالى ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يؤيد ما رجحه الأستاذ الامام من جعل المصلي بالمعنى العام أى المعبود ، فانه بعد أمر الناس باتخاذ مقام إبراهيم مصلى ، بين لنا أن إبراهيم واسماعيل طهرا بأمره لاداء أنواع من العبادات فيه كالطواف وفي معناه السعى بين الصفا والمروة والعكوف في المسجد والركوع والسجود وهما من أعمال الصلاة . والركع السجود جمع الركع والساجد والآية تدل على أن إبراهيم كان مأموراً هو ومن آمن به بهذه العبادات ، ولكن لا دليل فيها على أنهم كانوا يؤدونها على الوجه المشروع عندنا

﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ هذه الآية معطوفة على ما قبلها مسوقة لبيان منة أو منن أخرى على أهل الحرم وهي ما تضمنه دعاء إبراهيم من جعل البلد آمناً في نفسه ، وهو غير ما سبق به المننة من جعل للبيت آمناً . وقد فسر الجلال (آمناً) بقوله : ذا أمن : مع أن المعنى ظاهر وهو أن يكون محفوظاً من الأعداء الذين يقصدونه بالسوء ، وهو غير معنى كونه ذا أمن ، أى إن من يكون فيه يكون آمناً

٤٦٤ رزق أهل مكة من الثمرات . العقاب أثر طبيعي للعمل (التفسير : ج ١)

ممن يسطو عليه فيظلمه أو ينتقم منه . وقد استجاب الله دعاء إبراهيم في ذلك ، ومن تعدى على البيت لم يطل زمن تعديه بحيث يقال : إنه قدم زمن طويل لم يكن البيت فيه آمنا ؛ بل لم ينجح أحد تعدي عليه لذاته ، وإنما كان التعدي القصير هو التعدي العارض على بعض من اعتصم فيه ~~و~~ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ~~و~~ فسر الجلال الرزق من الثمرات بنقل جبريل الطائف من حوران في بلاد الشام أو من فلسطين إلى مكانه الآن في أرض الحجاز مع أن الكلام في البيت وبلده مكة لا في الطائف . ورزق أهل هذا البلد الأمين من الثمرات ظاهر معروف بالمشاهدة والاختبار المصدقين لما جاء به الكتاب في سورة القصص بقوله (٥٧ : ٢٨) أو لم تمكن لهم حرما آمنا يجي إليه ثمرات كل شيء) فالثمرات تجي وتجمع من حيث تكون وتساق إلى مكة ، ولا فرق في ذلك بين كونها من الطائف أو من الشام أو مصر أو الروم مثلا ، وكونها تجمع من أقطار متفرقة أظهر في صدق الآية وأدل على التسخير . وحديث نقل الطائف لا يصح ولكنهم ألقوه بكتاب الله وجعلوه تفسيرا له وهو برى منه وغير محتاج في صدقه إليه

وقد خص إبراهيم بدعائه المؤمنين كما هو اللائق به ، ولكن الله واسع الرحمة وقد جعل رزق الدنيا عاملا للمؤمن والكافر (٢٠ : ١٧) كلاً بمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) ولكن تمتنع الكافر محدود بهذا العمر القصير ، ومصيره في الآخرة إلى شر مصير ، وذلك جواب الله تعالى لإبراهيم قال ~~و~~ ومن كفر فأمته قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ~~و~~ أي وأرزق من كفر أيضا فأمته بهذا الرزق قليلا وهو مدة وجوده في الدنيا ثم أسوقه إلى عذاب النار سوقا اضطراريا لا يقصده هو ولا يعلم أن كفره ينتهي به إليه ، وذلك أن لجميع أعمال البشر الاختيارية غايات وآفارا اضطرارية تفضي وتنتهي إليها بطبيعتها بحسب نظام الأسباب والمسببات ، كما يفضي الإسراف في الشهوات أو التعمب أو الراحة إلى بعض الأمراض في الدنيا . فالكفار والفساق مختارون في كفرهم وفسقهم ، فعقابهم عليها إنما هو عقاب على أعمال اختيارية ، وهو أن كفرهم بآيات الله سيسوقهم إلى عذاب الله بما أقام الله تعالى عليه الإنسان من السنن الحكيمة ،

وأساسها أن علم الإنسان وأعماله النفسية والبدنية لها الاثر الذي يفضي به إلى سمادته أو شقاءه اضطراراً ، ولما كانت هذه السنة بقضاء الله وتقديره صح أن يقال : إن الله قد اضطر الكافر إلى العذاب وألجأه إليه إذ جعل الأرواح المدنسة بالعمائد الفاسدة والأخلاق المذمومة محل سخطه وموضع انتقامه في الآخرة ، كما جعل أصحاب الأجساد القذرة عرضة للأمراض في الدنيا .

ولما كانت هذه العمائد والمعارف والأخلاق والأعمال كسبية وكان الإنسان متمكناً من اختيار الحق على الباطل والطيب على الخبيث ، وقد هداه الله إلى ذلك بما أعطاه من العقل ، وما نزله من الوحي — صح أن يقال : إنه ظلم نفسه وعرضها للعذاب والشقاء بأعماله التي مبدؤها كسبي ، وأثرها ضروري

وفي قوله تعالى (ومن كفر) الخ إيجاز بالمعطف على محذوف علم منه أنه تعالى استجاب دعاء إبراهيم في المؤمنين ، فجعل لهم هذا الخير في الدنيا وأعد لهم ما هو أفضل منه في الآخرة . وهو إيجاز لم يكن يمهّد في غير القرآن جار على الأصل الذي تقدم بيانه في خطاب القرآن للعرب خاصة دون ما كان يخاطب به بنى إسرائيل وإن كان كل ما في القرآن عبرة عامة لجميع المعترين ، كما تكرر عن الاستاذ الامام

(١٢٧) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ : رَبَّنَا قَبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٩) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

ذكر الله تعالى العرب أولاً بنعمته عليهم بهذا البيت : أن جعله مثابة للناس وأمناء ، وبدعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام لبلد البيت واستجابة الله تعالى دعاءه « تفسير القرآن الحكيم » « ٣٠ » « الجزء الأول »

إذ جعله بلداً آمناً تجي إليه الثمرات من البلاد البعيدة فيتمتع أهلها بها ، وهي نعم يعرفونها لا ينكرها أحد ، وانتقل منها إلى التذكير بالنعم المعنوية فذكر عهده إلى ابراهيم واسماعيل بأن يظهرأ بينه للطائفتين والعاكفين والركع السجود لئيبهم بإضافة البيت إلى نفسه أنه لا يلبق أن يعبد فيه غيره، وبتطهيره لأجل الطواف والاعتكاف والصلاة أنه يجب تنزيهه عن الاصنام والتماثيل وعبادتها الفاسدة وعن سائر الأعمال الذميمة كطواف العريان وكانوا يفعلونه

ثم ذكرهم بعد هذا بأن ابراهيم هو الذي بنى هذا البيت بمساعدة ابنه اسماعيل وذكر لهم من دعائهما هنالك ما يرشدهم إلى العبادة الصحيحة والدين الحق ويحببهم إلى الاقتداء بذلك انساب الصالح الذي ياتشمنون إليه ويفاخرون به ، فإن قريشا كانت تنسب إلى ابراهيم واسماعيل بحق وتدعى أنها على ملة ابراهيم، ولذلك كانت ترى أنها أهدي من الفرس والروم . وسائر العرب تبع لقريش

قوله تعالى ﴿ وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ﴾ ظاهر في أنهما هما اللذان بنيا هذا البيت لعبادة الله تعالى في تلك البلاد الوثنية ولكن القصاصين ومن تبعهم من المفسرين جاءونا من ذلك بغير ما قصه الله تعالى علينا وتفننوا في رواياتهم عن قدم البيت وعن حج آدم ومن بعده من الأنبياء إليه وعن ارتفاعه إلى السماء في وقت الطوفان ثم نزوله مرة أخرى ، وهذه الروايات يناقض ، أو يعارض بعضها بعضاً ، فهي فاسدة في تناقضها وتعارضها ، وفاسدة في عدم صحة أسانيدها ، وفاسدة في مخالفتها لظاهر القرآن ، ولم يستبح بعض الناس من ادخالها في تفسير القرآن والساقها به وهو برى منها . ومن ذلك زعمهم أن السكبة نزلت من السماء في زمن آدم ووصفهم حج آدم إليها وتعارفه بحواء في عرفة بعد أن كانت قد ضلت عنه بعد هبوطهما من الجنة ، وحاولوا تأكيد ذلك بتزوير قبر لها في جدة . وزعمهم أنها هبطت مرة أخرى إلى الأرض بعد ارتفاعها بسبب الطوفان وحليت بالحجر الأسود ، وأن هذا الحجر كان ياقوته بيضاء - وقيل زمردة - من يواقيت الجنة أو زمردها وأنها كانت مودعة في باطن جبل أبي قبيس فتمخض الجبل فولدها وأن الحجر إنما اسود للملاسة النساء الحيض له ، وقيل لاستلام المذنبين إياه ، وكل

هذه الروايات خرافات اسرائيلية بثها زنادقة اليهود في المسلمين ليشوهوا عليهم دينهم وينفروا أهل الكتاب منه

(الأستاذ الامام) لو كان أولئك القصاصون يعرفون الماس اقالوا إن الحجر الأسود منه لأنه أبهج الجواهر منظراً وأكثرها بهاء ، وقد أراد هؤلاء أن يزينوا الدين ويرقشوه بروايتهم هذه ولكنها إذا راقت للبله من العامة فانها لا تروق لأهل العقل والعلم الذين يعلمون أن الشريف هو الضرب من الشرف المعنوى هو ما شرفه الله تعالى ، فشرف هذا البيت إنما هو بتسمية الله تعالى إياه بيته ، وجعله موضعاً لضروب من عبادته لا تكون في غيره كما تقدم ، لا يكون أحجاره تفضل سائر الأحجار ، ولا يكون موقعه يفضل سائر المواقع ، ولا بكونه من السماء ، ولا بانه من عالم الضياء ، وكذلك شرف الأنبياء على غيرهم من البشر ليس لمزية في أجسامهم ولا في ملابسهم ، وإنما هو لاصطفاء الله تعالى إياهم ، وتخصيصهم بالنبوة التي هي أمر معنوى . وقد كان أهل الدنيا أحسن زينة وأكثر نعمة منهم

وقد أفصح عن هذا المعنى الذى قرره الأستاذ الامام أمير المؤمنين ومشيده دعائم الاسلام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إذ قال عند استلام الحجر الأسود «أما والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك : ثم دنا فقبله» رواه أبو بكر بن أبى شيبة والامام أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم من عدة طرق . وروى ابن أبى شيبة والدارقطنى فى العلل عن عيسى بن طلحة عن رجل رأى النبى ﷺ وقف عند الحجر فقال «انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ثم قبله ، ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال : انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا انى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» وحديث عمر يؤيد الرواية المرفوعة ، وإنما قدمناه لأنه أصح سنداً . وما روى من مراجعة على لعمر فى ذلك غير صحيح ، فلا يعول عليه . والحديث يرشدنا إلى أن الحجر لا مزية له فى ذاته فهو كسائر الحجارة ، وإنما استلامه أمر تعبدى فى معنى استقبال الكعبة وجعل التوجه إليها توجهاً إلى الله الذى لا يحدده مكان ولا تحصره جهة من الجهات ، على

أنه قد غرز في طبائع البشر تكريم البيوت والمعاهد والآثار والمشاهد التي تنسب للاحياء ، أو تضاف إلى العظماء

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي وليكن حب من سكن الديارا

وإنما يكون التعظيم والتكريم للديار ، في حال غيبة الساكن والديار ، لأن النفس إذا حرمت من المشاهدة التي تذكي نار الحب ، وتهيج الاحساس والشعور بلذة القرب ، نحاول أن تذكي تلك النار ، بالتعلل بالاطلال والآثار ، ولا يقل لماذا خصص الحجر الاسود بالتقبيل ؟ فان كل مشعر من تلك المشاعر قد خص بزيادة تثير شعوراً دينياً خاصاً يليق به ، فلا يقال : لماذا كان الوقوف والاجتماع ، وتعارف أهل الآفاق والاصقاع ، مخصوصا بعرفة دون غيرها من البقاع . ولهذا المشاعر والشعائر معان وأسرار أخرى عند بعض الخواص ، لا ينبغي شرحها لعامة الناس وقد جهل القصاص تلك الاحاديث والآثار ، وهذه المعاني والأسرار ، وجعلوا مزية البيت الحرام ومشاعره وحجره المكرم محصورة في مخالفتها لسائر الحجارة وكون أصلها من جواهر الجنة التي هي من عالم الغيب ، ولو كان ذلك صحيحاً لبقيت حجارتها كما كانت عند منازل من الجنة بزعمهم وقدر اجبت بضاعتهم المزجاة عند أهل العلم والعقل عند من لا يعرف من الدين إلا هذه الرسوم الظاهرة ، ومنها كسوة السكبة الحريرية المزركشة فانها عند عامتنا في هذه الأزمنة من أعظم شعائر الدين ، وإن حرم حضور احتفالها أو رؤيتها بعض علماء الأزهر المتأخرين (كالباجوري) وليس هذا التحريم لذاتها فانها مشروعة بل لما في الاحتفال بها من البدع وما عليه العوام من اعتقاد البركة فيها وفي جعلها الذي يقبله قوده الأمراء والوزراء ورؤساء العلماء الرسميين المدهنين لهم ، وهكذا كل واحد يفهم الدين ، ويأخذ من كتب الأولين والآخرين ، ما يناسب استعداد عقله ، ويحسن في نظر جيرانه وأهله ، حتى يخرج المسلمون من هذه الفوضى في الدين والعلم ، ويدير شئونهم الاجتماعية أهل الحكمة والفهم ، فيضعون لهم نظاما يتبع في تعميم التربية والتعليم (٣ : ١٠١) ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم

ومن مباحث اللفظ في الجملة : أن القواعد جمع قاعدة وهي ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس أو من الساقات ، ورفعها إعلاء البناء عليها أو إعلاؤها نفسها على الخلاف و«من البيت» قال الجلال إنه متعلق برفع ، وهذا إنما يصح إذا أريد بالبيت العرصة أو البقعة التي وقع فيها البناء ، والا كثرون على أن «من» للبيان وعليه يكون البيت بمعنى نفس البناء والجدران ، وهناك قول ثالث وهو أن «من» للتبويض بناء على أن البيت مجموع العرصة والبناء ، قال الاستاذ الامام : وفي الكلام نكتة لطيفة وهي أن ذكر القواعد أولاً ينبه الذهن ويحركه إلى طلب معرفة القواعد ماهي ؟ وقواعد أى شئ هي ؟ فإذا جاء البيان بعد ذلك كان أحسن وقعاً في النفس ، وأشد تمكناً في الذهن ، وأما النكتة في تأخير ذكر اسماعيل عن ذكر المفعول ، مع أن الظاهر أن يقال : وإذ يرفع ابراهيم واسماعيل القواعد من البيت : فهي الامناع إلى كون المأمور من الله ببناء البيت هو ابراهيم ، وإنما كان اسماعيل مساعداً له وقد ورد أنه كان يناوله الحجارة

وقوله تعالى ﴿ ربنا تقبل منا ﴾ الخ حكاية لدعاء ابراهيم واسماعيل عند البناء وعو أنهما كانا يقولان ذلك ، حذف القول للايجاز الذي عهد من القرآن في خطاب العرب كما تقدم ، وجملة القول بيان لحالهما وقتئذ . وتقبل الله العمل : قبله ورضى به ﴿ إنك أنت السميع ﴾ لاقوالنا ﴿ العليم ﴾ بأعمالنا وبنيتنا فيها

﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ المسلم والمسلم المستسلم واحد وهو المقداد الخاضع والمراد بالسكامة ما يشمل التوحيد والاخلاص لله تعالى في الاعتقاد والعمل جميعاً ومعنى الأول - أى الاخلاص في الاعتقاد - أن لا يتوجه المسلم بقلبه إلا إلى الله ولا يستعين بأحد فيما وراء الأسباب الظاهرة إلا بالله ، ومعنى الثاني أن يقصد بعمله مرضاة الله تعالى لا اتباع الهوى وإرضاء الشهوة ، وإنما يرضيه تعالى منا أن نذكر نفوسنا بمكارم الأخلاق ، ونزقي عقولنا بالاعتقاد الصحيح المؤيد بالبرهان ، فبذلك نسكن محل عنايته تعالى ومستودع معرفته وموضع كرامته ، ومن يقصد بأعماله إرضاء شهوته واتباع هواه لا يزيد نفسه إلا خبثاً ، وبذلك يكون بعيداً عن الإسلام ويصدق عليه قوله (٤٣: ٢٥) رأيت من اتخذ أهله هواه فأنت تكون عليه وكيلاً؟

وقد يقال : إن الانسان يندفع لمعظم الأعمال بسائق طلب المنفعة واللذة وهو سائق فطري ، فكيف يتنافيه الاسلام وهو دين الفطرة . ومثاله طلب الغذاء لقوام الجسم يسوق اليه التلذذ بالطعام ، ومنزل ذلك طلب اللذات العقلية والأدبية فكيف يمكن أن يكون ما يطلب للذة خالصاً لله وحده ؟ والجواب : أن الاسلام قد حل هذه المسألة حلاً لا يجده الانسان في ديانة أخرى ، ذلك أنه لم يحرم علينا إلا ما هو ضار بنا ، ولم يوجب علينا إلا ما هو نافع لنا ، وقد أباح لنا ما لا ضرر في فعله ولا في تركه من ضروب الزينة واللذة إذا قصد بها مجرد اللذة . وأما إذا قصد بها مع اللذة غرض صحيح وفعلت بنية صالحة فهي في حكم الطاعات التي يثاب عليها ، ومن نية المرء الصالحة في الزينة والطيب أن يسر اخوانه بملقائه ، وأن يظهر نعم الله عليه ، وأن يتقرب إلى امرأته ويدخل السرور عليها ، وأما الهوى المذموم في الاسلام هو الهوى الباطل كأن يتزين الرجل ويتطيب للمفاخرة والمباهاة أو يستميل اليه النساء الأجنبيات عنه ، وبذلك تكون الزينة مذمومة شرعاً «وأما الأعمال بالنيات» دعا هذا النبيان العظيمان لأنفسهما بحقيقة الاسلام ثم دعوا بذلك لذريتهما

فقالا ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ أى واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك كاسلامنا ليستمر الاسلام لك بقوة الأمة وتعاون الجماعة . قال الاستاذ الامام : أضافا الذرية إلى ضمير الاثنين للدلالة على أن المراد الذرية التي تنسب إليهما ما وهى ما يكون من ولد اسماعيل ، اللفظ ظاهر في هذا المعنى ويرجحه الحال والحل الذى كانا فيه ، وعزم ابراهيم على أن يدع اسماعيل في بلاد العرب داعياً إلى توحيد الله ، وإسلام القلب اليه ، ويرجع هو إلى بلاد الشام ، وكذلك الدعاء لهذه الذرية بأن يبعث الله فيهم رسولاً منهم كما سيأتى . وقد استجاب الله تعالى دعاء ابراهيم وولده عليهما السلام ، وجعل في ذريتهما أمة الإسلام ، وبعث فيهما خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، وإلى هذا الدعاء الإشارة بقوله في سورة الحج (٢٢: ٧٨) ألمة أيسكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل (١) وعلم مما تقدم أن المراد بالإسلام

(١) ظاهر استشهاد شيخنا بالآية : أنه كان يفهم أن الضمير في قوله (هو سماكم المسلمين) يرجع إلى ابراهيم . والتحقيق أنه يرجع إلى الله تعالى

معناه الذى شرحناه فن قام به هذا المعنى فهو المسلم فى القرآن وليس المراد به اسم فى حكم الجامد يطلق على أمة مخصوصة حتى يكون كل من يولد فيها أو يقبل لقبها مسلماً ذلك الإسلام الذى نطق به القرآن ، ويكون من الذين تنالهم دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وقد جرى إبراهيم وولده على سنة الفطرة فى هذا الدعاء أيضاً فخصه ببعض الذرية لأنه قد يكون منها من لا يتناول الإسلام

﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أى علمنا إياها علماً يكون كالرؤية البصرية فى الجلاء والوضوح ، والمناسك جمع منسك بفتح السين فى الأفصح من المنسك (بضمين) ومعناه غاية العبادة ، وغلب استعمال المنسك فى عبادة الحج خاصة ، والمناسك فى معالمة أو أعماله ﴿ وتب علينا ﴾ أى وقفنا للتوبة لنتوب ونرجع إليك من كل حال أو عمل يشغلنا عنك . ويدل عليه قوله تعالى (١٨:٩) ثم تاب عليهم ليتوبوا) أو المعنى اقبل توبتنا ، ومنه الحديث « ويتوب الله على من تاب » وتاب - بالمشاة - كتاب (بالثلثة) ومعناه رجع . ويقال : تاب العبد إلى ربه أى رجع إليه لأن اقرار الذنب إعراض عن الله أى عن طريق دينه وموجبات رضوانه ، ويقال : تاب الله على العبد : لأن التوبة من الله تتضمن معنى الرحمة والعطف كأن الرحمة الإلهية تنحرف عن المذنب باقترافه أسباب العقوبة فإذا تاب عادت إليه ، وعطف ربه عليه ، والتوبة تختلف باختلاف درجات الناس فعبدك يتوب إليك من ترك ما أمرته بفعله ، أو فعل ما أمرته بتركه ، وصديقك يتوب إليك ويعتذر إذا هو قصر فى عمل لك فيه فائدة عما فى إمكانه واستطاعته ، وولدك يتوب إذا قصر فى أدب من الآداب التى ترشده إليها ليكون فى نفسه عزيراً كريماً . وكذلك تختلف توبات التائبين إلى الله تعالى باختلاف درجاتهم فى معرفته ، وفهم أسرار شريعته ، فعامة المؤمنين لا يعرفون من موجبات سخط الله تعالى وأسباب عقوبته إلا المعاصى التى شددت الشريعة فى النهى عنها ، وإذا تابوا من عمل سيئ فأنما يتوبون منها ، وخواص المؤمنين يعرفون أن لكل عمل سيئ لؤة فى النفس تبعدها عن الكمال ، ولكل عمل صالح أثراً فيها يقر بها من الله وصفاته ، فالتقصير فى الصالحات يمد عند هؤلاء من الذنوب التى تهبط بالنفس وتبعدها عن الله تعالى ، فهى إذا

قصرت فيها تتوب ، وإذا شمرت لا تأمن النقائص والعيوب ، ويختلف اتهام هؤلاء الأبرار لأنفسهم باختلاف معرفتهم بصفات النفس وما يعرض لها من الآفات في سيرها ، ومعرفتهم بكمال الله جل جلاله ومعنى القرب منه واستحقاق رضوانه ، ولذلك قال بعض العارفين : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومن هنا نفهم معنى التوبة التي طلبها إبراهيم وإسماعيل ، عليهما وعلى آلهما الصلاة والسلام ، ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ أى إنك أنت وحدك الكثير التوب عن عبادك وإن كثرت نحوهم عن سبيلك بتوفيقهم للتوبة إليك وقبول توبتهم منهم الرحيم بالتائبين ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ أى من أنفسهم ويتضمن هذا الدعاء لهم بالارتقاء الذى يؤهلهم ويعدهم لظهور النبی منهم . وقد أجاب الله تعالى هذه الدعوة بخاتم النبيين والمرسلين ﷺ كما ورد في حديث أحمد « أنادعوة إبراهيم وبشارة عيسى » الخ ، ثم وصف هذا الرسول بقوله ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ الدالة على وحدانيتك وتنزيلك وعظمة شأنك ، والدالة على صدق رسلك إلى خلفك ، فالمراد بالآيات الآيات السكونية والعقلية ، أو المراد آيات الوحي التي تنزلها عليه فتكون دليلا على صدقه ، ومشتملة على تفصيل آيات الله في خلقه ، كبراهين التوحيد والتنزيه ، ودلائل النبوة والبعث ، وتلاوتها . ذكرها المرة بعد المرة لترسخ في النفس ، وتؤثر في القلب

﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ قال الاستاذ الامام : فسر والكتاب بالقرآن والحكمة بالسنة والثاني غير مسلم على عمومه ، أما الأول فله وجه ، وعليه يكون المراد بالآيات فيما سبق دلائل العقائد وبراهينها كما تقدم فيما سبق دون الوحي وإلا كان مكرراً . وفيه وجه ثان وهو أن المراد بالكتاب مصدر كتب يقال : كتب كتابا وكتابة : وإنما الدعاء لآمة أمية لا بد في إصلاحها وتهذيبها من تعليمها الكتابة وقد كانت الأمم المجاورة لها من أهل الكتاب فلا يتيسر لها اللحاق بها أوسبقها ، حتى تكون من السكتبين مثلها ، وأما الحكمة فهي في كل شيء معرفة سره وفائدته والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ومقاصدها ، وقد بين النبي ﷺ ذلك بسيرته في المسلمين ، وما فيها من الفقه في الدين ، فإن أرادوا من السنة هذا

المعنى فى تفسير الحكمة فهو مسلم ، وهو الذى كان يفهم من اسمها فى الصدر الأول وإن أرادوا بالسنة ما يفسرها به أهل الأصول والمحدثون فلا تصح على إطلاقها فالحكمة مأخوذة من الحكمة - بالتحريك - وهى مأخاطة بحنكى الفرس من اللجام وفيها العذاران ، وفى ذلك معنى ما يضبط به الشيء ، ومن ذلك إحكام الأمر واتقانه . وما كل من يروى الأحاديث بحقق له هذا المعنى ، ولكن الذى يتفقه فى الدين ويفهم أسرار ومقاصده يصح أن يقال : إنه قد أوتى الحكمة التى قال الله فيها (٢ : ٢٦٩) ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً (ولن يكون أحد داخلاً فى دعوة إبراهيم حتى يقبل تعليم الحكمة من هذا النبي الكريم

علم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن تعليم الكتاب والحكمة لا يكتفى فى إصلاح الأمم وإسعادها ، بل لابد أن يقرن التعليم بالتربية على الفضائل والحل على الأعمال الصالحة بحسن الأسوة والسياسة فقالا ﴿ ويزكهم ﴾ أى يطور نفوسهم من الأخلاق الذميمة ، وينزع منها تلك العادات الرديئة ، ويعودها الأعمال الحسنة التى تطبع فى النفوس ملكات الخير ، ويبغض اليها الأعمال القبيحة التى تغريها بالشر ، ثم ختما الدعاء بهذا الشاء ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ العزيز هو القوى الغالب على أمره فلا ينال بضيم ، ولا يغلب على أمر ، والحكيم هو الذى يضع الأشياء أحسن موضع ، ويتقن العمل ويحسن الصنع ، والسرفى ذكر هذين الوصفين هنا إزالة ما ربما يعلق بالذهن ، أو يسبق إلى الوهم ، من أن هذه الأمور التى دعى بها للعرب منافية لطبائعهم ، بعيدة من أحوالهم ومعايشهم ، فإنهم جمدوا على بدائنتهم ، وألفوا غلظتهم وخشونتهم ، فهم أعداء العلم والحكمة ، خصماء التهذيب والتربية ، لا يخضعون لنظام ، ولا يؤخذون بالأحكام ، ولا استعداد فيهم للمدنية والحضارة ، التى هى أثر تعليم الكتاب والحكمة ، وتركية أفراد الأمة ، فكان يتوقع أن يقول قائل : من يقدر أن يغير طباع هذه الأمة المعروفة بالخشونة والقسوة ، فيجعلها من أهل العلم والمدنية والحكمة ؟ لولا أن علم أن المدعو والمستول هو العزيز الذى لا مرد لأمره ، والحكيم الذى لا معقب لحكمه

(١٣٠) وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ
 اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣١) إِذْ قَالَ لَهُ
 رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣٢) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ
 وَيَعْقُوبُ يَبْنَى إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ
 (١٣٣) أَمْ كُنْتُمْ شُرَكَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبُ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ
 مِنْ بَعْدِي ؟ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٤) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ
 مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

الكلام في هذه الآيات متصل بما سبقه من ابتداء قوله (وإذ ابتلى ابراهيم
 ربه بكلمات) فقد ذكر أنه تعالى ابتلى ابراهيم بكلمات فآمنهم ، وأنه جعله إماماً
 للناس وجعل من ذريته أئمة ، وأنه عهد إليه ببناء بيته وتطهير لعبادته ففعل ، وكان
 يومئذ يدعو بما علم منه ما هي ملته ، وإن هي إلا توحيد الله وإسلام القلب إليه
 والاخلاص له بالأعمال ، وتعظيم البيت بتطهيره وإقامة المناسك فيه عن بصيرة
 بأسرارها تجعل المعنى المتصور ، كالحسوس المبصر . ثم قال بعد هذا * ومن يرغب
 عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه * أى امتنها واستخف بها . كأنه تعالى
 يقول : هذه هي ملة أيكم ابراهيم الذى تنقسمون اليه وتفخرون به ، فكيف ترغبون
 عنها ، وتنتحلون لانفسكم أولياء لا يملكون لكم نفعاً ولا ضرراً ولا يملكون موتاً ولا
 حياة ولا نشوراً لا بالذات ولا بالوساطة .

قال * ولقد اصطفيناه في الدنيا * بهذه الملة فجعلناه إماماً للناس وجعلنا في
 ذريته الكتاب والنبوذة * وإنه في الآخرة لمن الصالحين * لجوار الله بعمله بهذه
 الملة ودعوته إليها وإرشاده الناس بها . فله جعلت لابراهيم هذه المسكنة عند الله

تعالى في الدنيا والآخرة لا يرغب عنها إلا من سفه نفسه ، وحنى على إدراك عقله
فاستحب العمى على الهدى ، وإن خسر الآخرة والأولى

ومن مباحث اللفظ في الآية: قول الجلال في تفسير (سفه نفسه) أى جهل
أنها مخلوقة لله : قال الأستاذ الامام: ولم يقل بهذا أحد من المفسرين الذين يعتمد بهم
والسياق لا يقتضيه ، وسفه يستعمل لازماً ومتعدياً ومعنى المتعدى استخف وامتن
وأخره الجلال وهو الراجح . وفي الكشف أن (نفسه) تمييز لفاعل (سفه) ولا
يمنع من ذلك الإضافة إلى الضمير لأنه تعريف لفظي ، والمعنى أنه لا يرغب عن
ذلك إلا من سفهت نفسه أى حقت . وقدم هذا القول كأنه رجحه على ما قبله اه
وأقول: سفه بالضم - كضخم - سفاهة صار سفيهاً ؛ وسفه بالكسر - كتعب -
سفيهاً هو الذى قيل : إنه يستعمل لازماً ومتعدياً ، وقيل بل هو لازم دائماً وأن أصل
سفه نفسه بالرفع ، فنصب على التمييز كسفه نفساً ، فأضيفت النفس إلى ضميره كما
تقدم ومثله غبن رأيه . وسيأتى توضيح معناه في تفسير (سيقول السفهاء)

﴿ إذ قال له ربه أسلم ﴾ أى اصطفاه إذ دعاه إلى الإسلام بما أراه من آياته
ونصب له من بيناته ، فأجاب الدعوة و ﴿ قال أسلمت لرب العالمين ﴾ والجلال
قدر كلمة « أذكر » متعلقاً للظرف « إذ » كما هي عادته في مثله وإن وجد في الكلام
ما يتعلق به ، كقوله هنا « اصطفيناه » وقد نشأ إبراهيم عليه السلام في قوم يعبدون
الكواكب ويتخذون الأصنام ، فأراه الله حجته ، وأثار بصيرته ، فنفذت أشعتها
من العالم الشمسى ، وأدركت أن لجميع العالمين رباً واحداً منفرداً بالخلق والتدبير
وحاجه قومه فبهروهم ببرهانه ، وأخضعهم ببيانه ، وقد قص الله تعالى خبره معهم في
سورة الأنعام ، وسيأتى تفسير الآيات إن شاء الله تعالى

﴿ ووصى بها ﴾ أى بالملة أو الخصلة التى ذكرت أخيراً ﴿ إبراهيم بنيه
ويعقوب ﴾ بنيه أيضاً، إذ قال كل منهما لولده ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين ﴾
أى اختاره لكم بهدايتكم إليه وجعل الوحي فيكم ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾
أى فحافظوا على الإسلام لله والاخلاص في الانقياد إليه بحيث لا تتركوا ذلك لحظة

واحدة اثلاثاً تموتوا فيها فتموتوا غير مسلمين ، فإن الإنسان لا يضمن حياته بين الشهيق والزفير . ويتضمن هذا النهي إرشاد من كان منحرفاً عن الإسلام إلى عدم اليأس ، وأن يبادر بالرجوع إليه والاعتصام بحبله لئلا يموت على غيره .

وفي هذه الآية انتقال إلى إشراك أهل الكتاب وغيرهم من العالمين مع العرب في التذكير والإرشاد إلى الإسلام ولذلك ذكرت وصية يعقوب ، واختلف الأسلوب ، فقد كان جارياً على طريقة الإيجاز ، فانتقل إلى طريقة الإطناب والإلحاح ، لما تقدم الإلماع إليه من مراعاة الأولى في خطاب العرب والثانية في خطاب أهل الكتاب ، الذين لا يكتفون بالإشارة والعبارة المختصرة لجود أذهانهم واعتيادهم على التأويل والتجريف . وفصل بين العاطف والمعطوف بالمفعول ولم يقل : ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما ، لئلا يتوهم أن الوصية كانت منهما في وقت واحد أو أنها خاصة بأبنائهما معاً وهم أولاد يعقوب على نحو ما تقدم في تفسير (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)

ذكر ملة إبراهيم وحكم الراغب عنها ووصية بنيه بها ووصية حفيده يعقوب بنيه بها أيضاً ، وذلك يشعر بأن بني إبراهيم كانوا يوصون بما أوصاهم أبوه ، فإن يعقوب أخذ الوصية عن أبيه استحق . وذلك من ضروب الإيجاز الدقيقة . ثم أراد أن يقرر أمر هذه الوصية ويؤكدها ويقم الحجج بها على أهل الكتاب

فقال ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ﴾ أقول : هذا إضراب عما قبله وانتقال إلى استفهام إنكاري وجه إلى اليهود عن وصية جدهم يعقوب لأبنائهم الأسباط ، ويجوز أن يكون معناه أ كنتم غائبين أم كنتم شهداء إذ احتضر يعقوب فسأل بنيه عما يعبدون من بعده سؤال تقرير لمشهدوه على أنفسهم بالتوحيد الخالص والسؤال بما أعم من السؤال عن لأن هذا خاص بمن يعقل وما نزل منزلته بسبب يحيز ذلك ، والسؤال بكلمة « ما » يعم العاقل وغيره ، وتعين « ما » في السؤال عن العاقل إذا أريد وصفه نحو (قال فرعون وما رب العالمين ؟) وهذا الاصطلاح للنحاة لا يدل على جواز وصف الله تعالى بلفظ « العاقل » شرعاً لأن أسماء وصفاته تعالى توقيفية ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل

واسحق ﴿ عرفوا الاله بالاضافة إلى آبائهم لأنهم هم الذين انفردوا بعبادة رب العالمين خالق السموات والأرض وحده ، ودعوا الامم إلى ذلك في وقت فشت فيه عبادة آلهة كثيرين من الكواكب والاصنام والحيوانات وغيرها ، ولذلك قال سحرة موسى عندما آمنوا (آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون) واسماعيل عم يعقوب ذكر مع آبائه للتغليب أو لتشبيهه العم بالأب ، كما في حديث « عم الرجل صنو أبيه » رواه الشيخان . والجمع بين الحقيقة والحجاز جائز يكثر في القرآن وفاقا للشافعي وابن جرير الطبري وخلافا لجمهور الاصوليين ﴿ إلهها واحدا ﴾ أي نعبد له حال كونه إلهها واحدا ، أو نخص بالعبادة إلهها واحدا لا نشرك معه أحدا بدعا ، ولا توجه في قضاء حاجة ولاغير ذلك من العبادات ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي والحال أننا نحن منقادون مدعنون مستسلمون له وحده دون غيره كما يدل عليه تقديم الظرف « له » وقال الأستاذ الامام في الآية مامعناه :

خلاصة هذه الوصية عقيدة الوحداية في العبادة واسلام القلب لله تعالى والاخلاص له . وتكرار لفظ (الاسلام) في هذه الآيات يراد به تقرير حقيقة الدين . ذلك أن العرب كانت تدعى أن لها ديناً خاصاً بها وأنه الحق ، وإن اختلفت فيه القبائل والشعوب ، ومنهم من كان ينتمى إلى ابراهيم على وثنيته ، وكذلك اليهود والنصارى كل يدعى ديناً خاصاً به وأنه الحق ، فبينت هذه الآيات أن هذه الدعاوى من التعصب للثقاليذ وأن دين الله تعالى واحد في حقيقته ، وروحه التوحيد والاستسلام لله تعالى والخضوع والاذعان له بداية الانبياء ، وبهذا كان يوصى أولئك النبيون أبناءهم وأممهم . فتبين أن دين الله تعالى واحد في كل أمة وعلى اسان كل نبي ، ولذلك قال في آية أخرى (٤٣ : ١٣) شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) فالتفرق في الدين ما جاء إلا من الجهل والتعصب للاهواء ، والحفاظة على الحظوظ والمنافع المتبادلة بين المرءوسين والرؤساء ، فالقرآن يطالب الجميع بالاتفاق في الدين والاجتماع على أصله : العقلي وهو التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، والقلبي وهو الاسلام والاخلاص لله في جميع الأعمال .

وعلم من هذا أن لفظ الاسلام والمسلمين في كلام ابراهيم واسماعيل ويعقوب يراد به معناه الذى تقدم ، فمن لم يكن متحققاً بهذا المعنى فليس بمسلم أى ليس على دين الله القيم الذى كان عليه جميع أنبياء الله . وأما لفظ الاسلام في عرفنا اليوم فهو لقب يطلق على طوائف من الناس لهم مميزات دينية وعادية تميزهم عن سائر طوائف الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى . ولا يشترط في إطلاق هذا اللقب العرفي عند أهله أن يكون المسلم خاضعاً مسلماً لدين الله مخلصاً له أعماله ، بل يطلقونه أيضاً على من ابتدع فيه ما ليس منه ، أو ما ينافيه ، ومن فسق عنه واتخذ إنّه هواه . ومعنى الاسلام الذى دعا إليه القرآن تقوم به الحجة على المشركين ، ويعترف به اليهود والنصارى لأنه روح كل دين ، وهو الذى دعا إليه النبي ﷺ ، والدعوة إلى اللقب لا معنى لها . قال الأستاذ الامام : بعد تقريره هذا المعنى : وبه يظهر خطأ من خصص الرغبة عن ملة ابراهيم بليل إلى اليهودية أو النصرانية ومن مباحث اللفظ في الآية أن « أم » تستعمل في الاستفهام إذا كان مبنيّاً على كلام سابق كما هنا لما فيها من الاشعار بالانتقال ففيها معنى الاضراب

﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون ﴾
أقول : الامة هنا الجماعة من الناس والمشار إليه يعقوب وآبؤه وأبناءؤه . وإذا بدأت بالافضل قلت ابراهيم وأولاده وأحفاده المذكورون في الآية السابقة . (قد خلت) مضت وذهبت من هذا العالم (لها ما كسبت) من عمل تجزى به ، (ولكم ما كسبتم) من عمل تجزون به ، ولا يجزى أحد بعمل غيره (ولا تسئلون) يوم الحساب والجزاء (عما كانوا يعملون) سؤال حساب وجزاء ، ولا يسئلون عما تعملون كذلك ، بل كل يسئل عن عمله ويجازى به دون عمل غيره ، فلا ينتفع أحد بعمل غيره ولا يتضرر به من حيث هو عمله ، إلا أنه قد ينتفع أو يتضرر بعمل غيره إذا كان هو سبباً له لأنه أرشده إليه وكان قدوة له فيه

(الأستاذ الامام) جاءت هذه الآية الكريمة بعد الكلام عن وصية ابراهيم لبنيه واسماعيل واسحاق ويعقوب لبنيهم استدراكاً على ما عساه يقع في أذهان ذراري هؤلاء الانبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام من أن هذا السلف الذى له

عند الله هذه المسكنة يشفع لهم فينجون و يسعدون يوم القيامة بمجرد الانتساب اليهم . فبين الله في هذه الآية أن سنته في عباده أن لا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله . وقد بين في سورة النجم أن هذه القضية من أصول الدين العامة التي جاء بها الأنبياء من قبل (أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفي * أن لا تزوا وازرة وزر أخرى * وأن ليس للانسان إلا ما سعى) الخ . وبين في آيات متعددة في سور متفرقة ، أن المرسلين لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن بهم وعمل بما يرشدون اليه كان ناجياً ، وإن بعد عنهم في النسب ، ومن أعرض عن هديهم كان هالكا وإن أدلوا إليهم بأقرب سبب (قال ١١: ٤٥ يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) وإذا لم تنتفع بهم ذرياتهم الذين لم يقتدوا بهم فكيف ينتفع بهم أولئك البعداء الذين ليس بينهم وبينهم صلة إلا الأقوال الكاذبة التي يعبر عنها أهل هذا العصر (بالمحسوبية) ويقولون في مخاطبة أصحاب القبور عند الاستغاثة بهم « المحسوب كالمحسوب » وما أحسن قول الإمام الغزالي : إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه ، والظمان يروى بشرب والده وإن لم يشرب فالعاصي ينجو بصلاح والده . والآيات التي تؤيد هذه الآية كثيرة جداً فهي أصل من أصول الدين الإلهي لا يفيد معها تأويل المغرورين ، ولا غرور الجاهلين

(١٣٥) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٦) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٧) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٨) صِبْغَةَ اللَّهِ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ؟ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ

بين في الآيات السابقة حقيقة ملة إبراهيم في سياق دعوة العرب إلى الاسلام ثم أشرك معهم أهل الكتاب لأنهم أقرب إلى الإيمان بإبراهيم وأجدر بإجلاله واتباعه ، وانتقل الكلام بهذه المناسبة إلى بيان وحدة الدين الإلهي واتفاق النبيين في جوهره ، وبيان جهل أهل الكتاب بهذه الوحدة ، وقصر نظرهم على ما يمتاز به كل دين من الفروع والجزئيات ، أو التقاليد التي أضافوها على التوراة والإنجيل فبعد بها كل فريق من الآخر أشد البعد ، وصار الدين الواحد ككفرًا وإيمانًا ، كل فريق من أهله يحتكر الإيمان لنفسه ويرى الآخر بالكفر والإلحاد . وإن كان نبيهم واحدًا وكتابتهم واحدًا .

فقوله تعالى ﴿ وقالوا كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا ﴾ بيان لعقيدة الفريقين في التفرق في الدين والضمير في (قالوا) لأهل الكتاب و « أو » للتوزيع أو التنويع ، أي إن اليهود يدعون إلى اليهودية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها والنصارى يدعون إلى النصرانية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها — وهذا الأسلوب معهود في اللغة — ولو صدق أي واحد منهما لما كان إبراهيم مهتدياً لأنه لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، وكيف وهم متفقون على كونه إمام الهدى والمهتدين لذلك قال تعالى ملقنا لنبيه البرهان الأقوى في حاجتهم ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ أي بل تتبع أو اتبعوا ملة إبراهيم الذي لا نزاع في هدايته ولا في هديه ، فهي الملة الحنيفية القائمة على الجادة بلا انحراف ولا زيغ .

المريقة في التوحيد والاخلاص بلا وثنية ولا شرك .
والحنيف في اللغة : المائل . وإنما أطلق على إبراهيم . لأن الناس في عصره كانوا على طريقة واحدة وهي الكفر ، فخالفهم كلهم وتنكب طريقهم ولا يسمى المائل حنيفاً إلا إذا كان الميل عن الجادة المعبدة وفي الأساس : من مال عن كل دين أعوج . ويطلق على المستقيم ، وبه فسر الكلمة بعضهم وأورد له شاهداً من اللغة وهو أقرب . ومن التأويلات البعيدة : ما روى من تفسير الحنيف بالحاج ووجه القول به أنه مما حفظ من دين إبراهيم .

الأستاذ الإمام : قال بعض المشغلين بالعربية من الأفرنج إن الحنيفية هي

ما كان عليه العرب من الشرك واحتجوا على ذلك بقول بعض النصارى في زمن الجاهلية « إن فعلت هذا أكون حنيفيا » وإنها لفلسفة جاءت من الجهل باللغة وقد ناظرت بعض الافرنج في هذا فلم يجد ما يحتج به إلا عبارة ذلك النصراني وهو الآن يجمع كل ما نقل عن العرب من هذه المادة لينظر كيف كانوا يستعملونها ، ولا دليل في كلمة النصراني العربي على أن الكلمة تدل لغة على الشرك ، وإنما مراده بكلمته البراءة من دين العرب مطلقا . ذلك أن بعض العرب كانوا يسمون أنفسهم الخلفاء وينتسبون إلى إبراهيم ويزعمون أنهم على دينه ، وكان الناس يسمونهم الخلفاء أيضا ، والسبب في التسمية والدعوى أن سلفهم كانوا على ملة إبراهيم حقيقة ثم طرأت عليهم الوثنية فأخذتهم عن عقيدتهم وأنستهم أحكام ملتهم وأعمالها . نسوا بعضها بالمرة وخرجوا ببعض آخر عن أصله ووصفه كالخج ، ونفى الشرك عن إبراهيم في آخر الآية اختراس من وهم الواهمين ، وتكذيب لدعوى المدعين . أقول : لا بدع أن ينسى الأميون ما كانوا عليه فإن أهل الكتاب خرجوا بدينهم عن وضعه الأول ففسدوا بعضا وحرفوا بعضا وزادوا فيه ونقصوا منه . فاليهود أضافوا التلمود إلى ما عندهم من التوراة وسموا مجموع ذلك مع تفاسيره وآراء أبحارهم فيه باليهودية . وأما النصارى فقد ظهر دينهم بشكل لوراء الحواريون الذين أخذوا الدين عن المسيح مباشرة لما عرفوا أي دين هو . وهؤلاء المسلمون على حفظ كتابهم في الصدور والسطور يعملون باسم الدين أعمالا يظنها الجاهلون بدينهم أعظم أركان الدين ، وماهى من الدين وإنما هى بدع المضلين ، فالافرنج يكتبون في رحلاتهم أن رقص المولوية ، من أعظم العبادات الإسلامية ، وأن ما يكون في جامع القلعة في ليالى المولد والمعرّاج ونصف شعبان من الرقص والعزف بالطبول والدفوف وغيرها من أهم الشعائر الإسلامية ، وسماها بعضهم (الصلاة الكبرى) ولولا أن القرآن محفوظ وسنة الرسول وسيرة السلف الصالح مدونتان في الكتب لنسينا الأصل واكتفيناه بهذه البدع فإن مثات الألوف التى تهج مشاهد أهل البيت والجيلاني بالعراق والبدوى وأمثاله بمصر كل عام لا يقيم الصلاة

« تفسير القرآن الحكيم » « ٣١ » « الجزء الأول »

و يؤتى الزكاة ويحج البيت منهم إلا أقلهم ، ولهم في عبادتهم الباطلة أخشع منهم في عبادتهم المشروعة ، ولكن الله أراد بقاء هذا الدين وحفظه وسيرجع إلى كتابه الراجعون ، ويهتدى به المهتدون ولو كره المقلدون ، وعند ذلك تنقشع ظلمات هذه البدع التي هم فيها يتخطبون .

وقد توهم بعض العلماء أن هذا الجواب « بل ملة إبراهيم » الخ جاء على طريقة الإقناع وليس حجة حقيقية ، ووجهه بقولهم : إن أهل الكتاب يماندون الحق ويكافرون في معجزة النبي ﷺ فأمر الله نبيه بأن يلزمهم بالدلائل الإقناعية التي لا يقدر على مكابرتها والمراء فيها . والحق أن هذا الجواب حجة حقيقية ، وقد أشرنا إلى وجهها الوجه أول الكلام في تفسير الآية . وقد تجرأ كثير من العلماء على مثل هذا الكلام في كثير من الآيات التي احتج بها القرآن حتى في إثبات الوحدة . والسبب في ذلك : افتتانهم بالطريقة النظرية التي أخذوها عن كتب اليونان ، ولقد اهتدى بحجج القرآن الألوف وألوف الألوف وقما اهتدى بتلك الأدلة النظرية الحضة أحد من الناس ، وإنما تفيد في دفع شبهاتهم التي يوردونها على العقائد ، ولا فائدة فيها سوى المراء والجدل . وقد محيت في عصرنا تلك الشبهات ، ورغب الناس عن هاتيك النظريات ، وقام بناء العلم على أسس الوقائع والحوادث والمجربات .

وقال الجلال : إن الآية نزلت في يهود المدينة ونصارى نجران فهم القائلون ماذكر . والنحقيق أن الآية في بيان طبيعة أهل الملتين كاتقدم ، وقول يهود المدينة ونصارى نجران ماذكر - إن صح - لا يقتضى التخصيص فإنهم ما قالوا إلا ما هو لسان حال ملتهم . وغيرهم يقول مثل قولهم ، أو يصدق الثالمين باعتقاده وسيرته أمر الله النبي بأن يدعو إلى اتباع ملة إبراهيم ثم أمر المؤمنين بمثل ذلك فقال

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ﴾ أى لا تكن دعوتكم الى شىء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الأديان السماوية بل انظروا الى جهة الجمع والاتفاق ، رادعوا الى أصل الدين وروحه الذى لا خلاف فيه ولا نزاع ، وهو التسليم بنبوة جميع الأنبياء والمرسلين ، مع

الاسلام لرب العالمين ، لا نعبد إلا الله ، ولا نفرق بين أحد من رسل الله .
والأسباط أولاد يعقوب والفرق أو الشعوب الإثني عشر المنتسبة منهم . قال
تعالى (١٥٩:٧) وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً) وقد ورد أن أولاد يعقوب كانوا
أنبياء. ولم يرد أنهم كانوا مرسلين فان صح هذا كما يفهم من إطلاق الأستاذ الامام
في الدرس فالمراد بالأسباط الاطلاق الاول و إلا كان في الكلام تقدير مضاف أى
أنبياء الأسباط ، كأنه قال : وسائر أنبياء بنى إسرائيل وهو المختار ، ولم يصح في
نبوة غير يوسف من أبناء يعقوب شيء .

﴿وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم﴾ قال الأستاذ الامام
وهنا نكتة دقيقة في اختلاف التعبير عن الوحي الذى منحه الله الأنبياء إذ عبر
بأنزل تارة وبأوتى تارة أخرى ، وهى أن التعبير بأنزل ذكر هنا في جانب الأنبياء
الذين ليس لهم كتب تؤثر ، ولا صحف تنقل ، وذلك أن إنزال الوحي على نبي
لا يستلزم إعطائه كتاباً يؤثر عنه ، وهذا ظاهر إذا كان النبي غير مرسل فان الوحي
إليه يكون خاصاً به ، ويكون إرشاده للناس أن يعملوا بشرع رسول آخر إن كان
بعث فيهم رسول وإلا كان قدرة في الخير ومعداً للنفوس لبعثة نبي مرسل ، وأما
النبي المرسل فقد يؤمر بالتبليغ الشفاهي ولا يعطى كتاباً باقياً وقد يكتب ما يوحى
اليه في عصره فيضيع من بعده ، فهؤلاء الرسل الكرام الذين عبر عنهم بقوله (وما
أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط) لا يؤثر عن أحد منهم
كتاب مسند صحيح ولا غير صحيح ، وإنما تؤمن بأنهم كانوا أنبياء . وأن ما نزل
عليهم هو دين الله الحق ، وأنه موافق في جوهره وأصوله لما أنزل على من بعدهم .
وما ذكر الله من ملة إبراهيم بالنص هو روح ذلك الوحي كله . وقد جاء في سورة
النجم وسورة الأعلى ذكر صحف لإبراهيم . وقال الجلال هنا: إنها عشر . فتؤمن أنه
كان له صحف ولا تزيد على ما ورد شيئاً ، وأما إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط
فلم يثبت أن لهم صحفاً ولا كتباً ، فتؤمن بما أنزل إليهم بالاجمال وتعتقد أنه عين
ملة إبراهيم وجاء التعبير عن وحي الذين كان لهم كتب تؤثر بقوله (وما أوتى
موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم) فهو يشير بالإتيان إلى أن ما أوحى إليهم

له وجود يمكن الرجوع إليه والنظر فيه فان أقوامهم يؤثرون عنهم كتباً .
وأقول الآن : إن المراد بالإيمان بما أنزل الله تعالى وما أعطاه لأولئك النبيين
والمسلمين إجمالاً ، وأنه كان وحياً من الله فلا تكذب أحداً منهم بما ادعاه ودعا
إليه في عصره ، بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعض .
فان ذلك لا يضرنا ، لأن الإيمان التفصيلي والعمل مقصور على ما أنزل إلينا ، فقد
روى البخاري من حديث أبي هريرة « أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة
بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال النبي ﷺ لا تصدقوا أهل
الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا (آمنا بالله) الآية » وروى ابن أبي حاتم في تفسيره
عن معقل بن يسار مرفوعاً « آمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وليسعكم القرآن »
وأما ما ذكره شيخنا من نكتة اختلاف التعبير فيشكل بقوله في أول الآية (وما
أنزل إلينا) أي معشر المسلمين وهو القرآن وقوله بعبد (وما أوتى النبيون) ولم
يعلم أنه كان لغير داود منهم كتاب منزل . على أن عدم العلم بكتب أنزلت على
إبراهيم وإسماعيل وإسحق لا يدل على عدم تلك الكتب . ولعل نكتة اختلاف
التعبير أن يشمل ما أوتى موسى وعيسى تلك الآيات التي أيدهما بها كما قال (ولقد
آتينا موسى تسع آيات بينات) وقال (وآتيناه عيسى ابن مريم البينات) ثم قال (وما
أوتى النبيون من ربهم) ليدل على أن ذلك لم يكن خاصاً بموسى وعيسى والله أعلم
وقال بعد ما ذكر الفريقين ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ أي سواء منهم
من له كتاب يؤثرون من ليس له ذلك ، تؤمن بالجميع إجمالاً وتأخذ التفصيل عن
خاتمهم الذي بين لنا أصل ملتهم التي كانوا عليها وزادنا من الحكم والأحكام .
ما يناسب هذا الزمان وما بعده من الأزمان ، والعمدة في الدين على إسلام القلب
لله تعالى ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي مدعونون منقادون كما يقتضى الإيمان الصحيح
ولستم كذلك أهل الكتاب وإنما أنتم متبعون لأهوائكم وتقاليدهم لا تحولون عنها
﴿ فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ قال صاحب الكشاف : إن الآية
تعريض بأهل الكتاب وتبكيك لهم ، وقال الجلال : إن لفظ « مثل » زائد واستنكر
الاستاذ الإمام ذلك واستكبره كمادته فانه بخطى كل من يقول : إن في القرآن كلمة

زائدة أو حرفاً زائداً ، وقال : إن لمثل هنا معنى لطيفاً ونكتة دقيقة . وذلك أن أهل الكتاب يؤمنون بالله و بما أنزل على الأنبياء ولسكن طرأت على إيمانهم بالله نزغات الوثنية ، وأضاعوا لباب ما أنزل على الأنبياء وهو الإخلاص والتوحيد ونزكية النفس والتأليف بين الناس ، وتمسكوا بالشعور وهى رسوم العبادات الظاهرة ونقصوا منها وزادوا عليها ما يبعد كلا منهم عن الآخر ويزيد فى عداوته و بغضائه له ، ففسقوا عن مقصد الدين من حيث يدعون العمل بالدين . فلما بين الله لنا حقيقة دين الأنبياء وأنه واحد لا خلاف فيه ولا تفرق ، وأن هؤلاء الذين يدعون اتباع الأنبياء قد ضلوا عنه فوقعوا فى الخلاف والشقاق ، أمرنا سبحانه وتعالى أن ندعوهم إلى الإيمان الصحيح بالله و بما أنزل على النبيين والمسلمين بأن يؤمنوا بمثل ما تؤمن نحن به لا بما هم عليه من ادعاء حلول الله فى بعض البشر ، وكون رسولهم إلهاً أو ابن الله ومن التفرق والشقاق لأجل الخلاف فى بعض الرسوم والتقاليد . فالذى يؤمنون به فى الله ليس مثل الذى تؤمن به ، فنحن نؤمن بالتزوية ، وهم يؤمنون بالتشبيه ، وعلى ذلك القياس ، فلو قال : فإن آمنوا بالله و بما أنزل على أولئك النبيين وما أوتوه ، فقد اهتمدوا . لكان لهم أن يجادلونا بقولهم : إننا نحن المؤمنون بذلك دونكم ، ولفظ «مثل» هو الذى يقطع عرق الجدل .

على أن المساواة فى الإيمان بين شخصين بحيث يكون إيمان أحدهما كإيمان الآخر فى صفته وقوته وانطباقه على المؤمن به وما يكون فى نفس كل منهما من متعلق الإيمان يكاد يكون محالاً فكيف يتساوى إيمان أم وشعوب كثيرة مع الخلاف العظيم فى طرق التعليم والتربية والفهم والإدراك . ولو كانت القراءة : فإن آمنوا بما آمنتم به . كما روى عن ابن عباس فى الشواذ لكان الأولى أن يقدر المثل فكيف نقول وقد ورد لفظ مثل متواتراً : إنه زائد ؟

﴿ وإن تولوا ﴾ أى أعرضوا عما تدعوهم إليه من الرجوع إلى أصل دين الأنبياء ولبابه بإيمان كمايمانكم ﴿ فإنما هم فى شقاق ﴾ أى إن أمرهم محصور فى العداوة والمشاقة أى الإيذاء والإيقاع فى المشقة أو شق المعصاة بتحزى الخلاف والتعصب لما يفصلهم ويبينهم منكم ﴿ فسيقضيكم الله وهو السميع العليم ﴾ أى يكفيك إيذاءهم ومكرهم

الشيء . ويؤيد دعوتك ، وينصر أمتك ، فهذا الوعد بالكفاية عام للمؤمنين وإن كان الخطاب خاصاً . فإن أهل الكتاب وغيرهم ماشاقوا النبي لذاته وما كان لهم حظ في مقاومة شخصه ، فلا يذاهب كان متوجهاً إليه من حيث هو نبي يدعو إلى دين غير ما كانوا عليه . وقد أنجز الله وعده للنبي والمؤمنين عند ما كانوا على ذلك الإيمان وكان الناس يقاومونهم لأجله ، فلما انحرفوا من بعدهم عنه خرجوا عن الوعد ، ولو عادوا لعاد الله عليهم بالكفاية والنصر (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز)

﴿صبغة الله﴾ أي صبغنا بما ذكر من ملّة إبراهيم صبغة الله وفطرته فطرنّا عليها وهي ماصبغ الله به أنبياءه ورسله والمؤمنين من عباده على سنة الفطرة فلا دخل فيها للتقاليد الوصفية ولا لأراء الرؤساء وأهواء الزعماء ، وإنما هو من الله تعالى بلا واسطة متوسط ولا صنع صانع . والصبغة في أصل اللغة صبغة لا يمتد من

صبغ الثوب إذا لونه بلون خاص ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي لا أحسن من صبغته فهي جماع الخير الذي يؤلف بين الشعوب والقبائل ، ويزكي النفوس ويظهر العقول والقلوب . وأما ما أضافه أهل الكتاب إلى الدين من آراء أخبارهم ورهبانهم فهو من الصنعة الإنسانية ، والصبغة البشرية ، قد جعل الدين الواحد مذاهب متفرقة مفرقة ، والأمة الواحدة شيعاً متنافرة متمركة ﴿ونحن له﴾ وحده ﴿عابدون﴾ فلا نتخذ أخبارنا وعلماءنا أرباباً يزيدون في ديننا وينقصون ، ويجلون لنا بأرائهم ويحرمون ، ويمحون من نفوسنا صبغة الله الموجبة للتوحيد ، ويثبتون مكانها صبغة البشر القاضية بالشرك والتنديد .

قال الأستاذ الإمام : والآية تشير إلى أنه لا حاجة في الإسلام إلى تمييز المسلم من غيره بأعمال صناعية كالعمودية عند النصارى مثلاً ، وإنما المدار فيه على ماصبغ الله به الفطرة السليمة من الإخلاص وحب الخير والاعتدال والتقصّد في الأمور (٣٠ : ٣٠ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

(١٣٩) قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَكُنَّا عَمَلُكُمْ .

وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٤٠) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى ؟ قُلْ أَنَا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا اللَّهُ ؟ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ . وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤١) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَآلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

هذا ضرب آخر من محاجة أهل الكتاب جار على نسق سابقه . مؤتلف معه متصل به غير منقطع ولا نازل في واقعة خاصة للرد على كلمات قائلها اليهود كإذهب اليه (الجلال) وغيره ، إذ قالوا : إن اليهود قالوا يجب أن يكون جميع الناس تابعين لنا في الدين لأن الأنبياء منا والشرعية نزلت علينا ولم يعمد في العرب أنبياء ولا شرائع . نعم لا تنكر صدور هذا القول من اليهود فانهم كانوا يقولون مثله دائماً وإنما نقول إن الآيات متناسقة مع ما قبلها متممة له مزيلة لشبهات كانت فاشية في القوم في كل مكان ، لا خاصة برد قول لأحد يهود الحجاز .

الآيات السابقة بينت أن الملة الصحيحة هي ملة إبراهيم وهي لم تكن يهودية ولا نصرانية ، وإنما هي صبغة الله التي لا صنع لأحد فيها ، بل هي بريئة من اصطلاحات الناس وتقاليدهم الرؤساء ، فهي الجديرة بالاتباع ، ولكن التقاليد والأوضاع قد طمسها بعد ما جرى الأنبياء عليها ، وحملت تلك التقاليد محلها حتى ذابت هي فيها وخفيت فلم تعد تعرف ، ولذلك جاء محمد عليه الصلاة والسلام ببيانها ، ودعوة الناس إلى الرجوع إليها ، فبين تعالى بتلك الحاجة الحق الذي يجب التعويل عليه ، ثم أخذ في هذه الآيات يزيل الموانع ويبطل الشبهات المعترضة في طريق ذلك الحق ، فأمر نبيه بما ترى من الحجة في قوله :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حُجَّتِي إِلَى اللَّهِ ﴾ بدعواكم الاختصاص بالقرب منه وزعمكم أنكم أبناء الله وأحباؤه ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، ومن أين جاءكم هذا القرب والاختصاص بالله دوننا ؟ وهو ربنا وربكم ﴿ ورب العالمين ﴾ ، فغسبية

الجميع إليه واحدة : هو الخالق وهم المخلوقون ، وهو الرب وهم المربرون ، وإنما يتفاضلون بالأعمال البدنية والنفسية ﴿ ولنا أعمالنا ﴾ التي تختص آثارها بنا إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ ولكم أعمالكم ﴾ كذلك ، وروح الأعمال كلها الإخلاص فهو وحده الذي يجعلها مقربة لصاحبها من الله تعالى ووسيلة لمرضاته ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ من دونكم ، فانكم انكأتم على أنسابكم وأحسابكم ، واغترتم بما كان من صلاح آبائكم وأجدادكم ، واتخذتم لكم وسطاء وشفعاء منهم تعتمدون على جاههم ، مع انحرافكم عن صراطهم ، وما هو إلا التقرب إلى الله تعالى باحسان الأعمال ، مع الإخلاص المبني على صدق الإيمان ، وهو ما ندعوكم إليه الآن ، فكيف تزعمون أن الإدلاء إلى ذلك السلف الصالح بالنسب ، والتوسل إليهم بالقول هو الذي ينفع عند الله تعالى ، وأن الاستقامة على صراطهم المستقيم والتوسل إلى الله تعالى بما كانوا يتوسلون إليه به من صالح الأعمال والإخلاص في القلب لا ينفع ولا يفيد ، وما كان سلفكم مرضياً عند الله تعالى إلا به ؟ هل كان إبراهيم مقر بآ من الله تعالى بأبيه آزر المشرك ، أم كان قر به وفضله بإخلاصه وإسلام قلبه إلى ربه ؟ فكما جعل الله النبوة في إبراهيم وجعله إماماً للناس في الإسلام والإخلاص جعلها كذلك في محمد ﷺ ، فاذا صح السك إنكار نبوة محمد لأنه لم يكن في سلفه العرب أنبياء فأنكروا نبوة إبراهيم ، فان العلة واحدة ، فكيف لا يتحد المعلول ؟

وحاصل معنى الآية : ابطال معنى شبهة أهل الكتاب أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنه لا ينجو من كان على غير طريقتهم وإن أحسن في عمله وأخلص في قصده ، وأنهم هم الناجون الفائزون وإن أساءوا وعملاؤنية ، لأن أنبياءهم هم الذين ينجونهم ويخلصونهم بجاههم ، فالفوز عندهم بعمل سلفهم ، لا بإصلاح أنفسهم ولا أعمالهم وهذا الاعتقاد هدم لدين الله الذي يمث به جميع أنبيائه ودرج تعالىه من اتباع سيبلهم ، فان روح الدين الألهي وملاكه هو التوحيد والإخلاص المعبر عنه بالإسلام وكل عمل أمر به الدين فانما الغرض منه إصلاح القلب والعقل بسلامة الاعتقاد وحسن القصد ، فاذا زال هذا المعنى وحفظت جميع الأعمال الضرورية فإنها لا تفيد شيئاً ، بل إنها تضر بدونه ، لأنها تشغل الإنسان بما لا يفيد ، وتصد عنه المفيد

ولا شك أن أهل الكتاب كانوا قد أزهقوا هذا الروح الالهى من دينهم فسواء كان ما حفظوه من التقاليد والأعمال ماثوراً عن أنبيائهم أم غير ماثور ، إنهم ليسوا على دين الله ، ومن كان على بصيرة منهم عرف أن ما جاء به محمد ﷺ هو إحياء لروح الدين الذى كان عليه جميع الأنبياء والمرسلين . وتكميل لشرائعه وآدابه بما يصلح لجميع البشر فى كل زمان ومكان .

ثم إن من تأمل هذا وتأمل حال المسلمين يظهر له أنهم قد اتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وسيرجع من يريد الله بهم الخير إلى دين الله تعالى بالرجوع إلى كتابه الذى حرم عليهم تقليد آراء الناس فجازوه بأن حرموا العمل به ، كما رجع الآلاف وألوف الآلاف من أهل الكتاب إلى ذلك فى القرون الأولى من ظهور الإسلام وسيرجع غيرهم من سائر البشر إليه فيعم العالمين (ولتعلمن نبأه به مدحين)

﴿ أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا هوداً أو نصارى ؟ ﴾ قال الأستاذ الامام : ان «أم» هنا معادلة لما قبلها خلافاً للجلال ومن على رأيه القائلين : إنها بمعنى بل - كأنه قال : أتقولون إن هذا الامتياز لكم علينا والاختصاص بالقرب من الله دوننا هو من الله والحال أنه ربنا وربكم الخ ؟ أم تقولون : إن امتياز اليهودية أو النصرانية التى أنتم عليها بأن ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط كانوا عليها ؟ إن كنتم تقولون هذا فان الله يكذبكم فيه ، وأنتم تعلمون أيضاً أن اسمى اليهودية والنصرانية حدثا بعد هؤلاء ، بل حدث اسم اليهودية بعد موسى واسم النصرانية بعد عيسى كما حدث لليهود تقاليد كثيرة صار مجموعها مميزاً لهم . وأما النصارى فجميع تقاليدهم الخاصة بهم المميزة للنصرانية حادثة ، فان عيسى عليه السلام كان عدو للتقاليد ، ولهذا كان النصارى على كثرة ما أحدثوا أقرب إلى الإسلام ، لأنهم لم ينسوا جميعاً كيف زلزل روح الله تقاليد اليهود الظاهرة ما كان منها فى التوراة وما لم يكن ، ولكن الذين ادعوا اتباعه زادوا عليهم من بعده فى ابتداع التقاليد والرسوم .

وزعم بعض المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الرد على اليهود ، إذ كانوا يقولون : إن ابراهيم كان يهودياً ، وعلى النصارى إذ كانوا يقولون : إنه كان نصرانياً . قال

الاستاذ الامام: وهذا غير صحيح . كلا إن الآية نزلت في إقامة الحجّة عليهم بأنهم يعتقدون أن ابراهيم كان على الحق وأن ملته هي الملة الالهية المرضية عند الله تعالى وإذا كان الأمر كذلك وكانت هذه التقاليد التي تقلدوها غير معروفة على عهد ابراهيم فما بالهم صاروا ينوطون النجاة بها ويزعمون أن ما عداها كفر وضلال ؟ فهو لا يثبت لهم القول بأن ابراهيم كان يهودياً أو نصرانياً وإنما يقول أنهم لا يقدرّون على القول بذلك لأن البداهة قاضية بكذبهم فيه ، ولذلك قال لنبيه ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ أي إذا كان الله قد ارتضى للناس ملة ابراهيم باعترافكم وتصديق كتبكم وذلك قبل وجود اليهودية والنصرانية فلماذا لا ترضون أنتم تلك الملة لأنفسكم ؟ أأنتم أعلم بالمرضى عند الله أم الله أعلم بما يرضيه وما لا يرضيه ؟ لا شك أن الله يعلم وأنتم لا تعلمون . وقد صرح ابن جرير الطبري بأن قراءة (أم يقولون) بالتحية شاذة وعلى القول بأنها سبعية يكون في الكلام التفتت (وأقول) قراءة التاء هي لابن عامر وحزرة والكسائي وحفص وهي للخطاب ، وقراءة الياء للباقيين فلا عبرة بعد ابن جرير أيها شاذة

﴿ ومن أظلم ممن كنتم شهادة عنده من الله ؟ ﴾ في هذا الاستفهام وجهان أحدهما أنه متمم لما قبله من إقامة الحجّة بملة ابراهيم ، يقول إن عندكم شهادة من الله بأن ابراهيم كان على حق وكان مرضياً عند الله تعالى فإذا كنتم ذلك لأجل الطعن بالإسلام فقد كنتم شهادة الله وكنتم أظلم الظالمين ، وإذا اعترفتم به فاما أن تقولوا إنكم أنتم أعلم من الله بما يرضيه ، أو إما أن تقوم عليكم الحجّة وتحق عليكم الكلمة إن لم تؤمنوا بما تدعون اليه من ملة ابراهيم ، وأحد الأمرين ثابت ، لا يقبل مراوغة مباحة . والوجه الثاني - وهو أظهر - أن الشهادة المكتومة هي شهادة الكتاب المبشرة بأن الله يبعث فيهم نبياً من بني اخوتهم وهم العرب أبناء اسماعيل ، وكانوا ولا يزالون يكتُمونها بالانكار على غير المطلع على التوراة وبالتحريف على المطلع ، فهو يبين هنا - بعد إقامة الحجّة بابراهيم على أن زعمهم حصر الوحي في بني إسرائيل - باطل - أن هناك شهادة صريحة بأن الله سيبعث فيهم نبياً من العرب ، فكان هذا دليلاً ثالثاً وراء الدليل العقلي المشار اليه بقوله (وهو ربنا وربكم) والدليل الاثرائي المشار اليه بقوله (أم تقولون إن ابراهيم واسماعيل) الخ ، فكانه يقول :

(البقرة : س ٢) النفع في الدنيا بالاسباب والامر في الآخرة لله وحده ٤٩١

إن هؤلاء إلا مجادلون في الحق بعد ما تبين ، مباهتون للنبي مع العلم بأنه نبي ، إذ ما كان لهم أن يشكوهوا في أمره بعد شهادة كتابهم له ، فإذا كان ظلمهم أنفسهم قد انتهى بهم إلى آخر حدود الظلم ، وهو كتمان شهادة الله تعالى تعصبا لجنسيتهم الدينية التي ارتبط بها الرؤساء بالمرؤسين بروابط المنافع الدنيوية من مال وجاه فكيف ينتظر منهم أن يصنعوا إلى بيان ، أو يخضعوا لبرهان ؟ والاستفهام هنا يتضمن التوبيخ والتفريع ، المؤكدين بالوعيد في قوله ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ وإنما الجزاء على الأعمال ، ثم ختم المحاجة بتأكيد أمر العمل وعدم فائدة النسب فقال ﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ وإنما تسألون عن أعمالكم وتجاوزون عليها ، فلا ينفعكم ولا يضركم سواها ، وهذه قاعدة يثبتها كل دين قويم ، وكل عقل سليم ، ولكن قاعدة الوثنية القاضية باعتماد الناس في طلب سعادة الآخرة وبعض مصالح الدنيا على كرامات الصالحين تغلب مع الجهل كل دين وكل عقل ، ومنبع الجهل التقليد المانع من النظر في الأدلة العقلية والدينية جميعا ، اللهم إلا مكاربة الحس والعقل ، وتأويل نصوص الشرع ، تطبيقا لها على ما يقول المقلدون المنبشون (بفتح اللام والباء) وقد أول المؤولون نصوص أديانهم تقريراً لاتباع رؤسائهم والاعتماد على جاههم في الآخرة لذلك جاء القرآن يباليغ في تقرير قاعدة ارتباط السعادة بالعمل والكسب وتبيينها وفي الانتفاع بالأنبياء والصالحين لمن لم ينأس بهم في العمل الصالح ، ولذلك أعاد هذه الآية بنصها في مقام محاجة أهل الكتاب المفتخرين بسلفهم من الأنبياء العظام ، المعتمدين على شفاعتهم وجاههم وإن قصر واعن غيرهم في الأعمال. وطائفة الاعادة تأكيد تقرير قاعدة بناء السعادة على العمل دون الآباء والشفعاء ، بحيث لا يطعم في تأويل القول طامع ، والاشعار بمعنى إعطيه السياق هنا وهو أن أعمال هؤلاء المجادلين المشاغبين من أهل الكتاب مخالفة لأعمال سلفهم من الأنبياء فهم في الحقيقة على غير دينهم وقد سبق القول بأن الآية أفادت في وضعها الأول أن إبراهيم وبنيه وحفدته قد مضوا إلى ربهم بإسلامة قلوبهم وإخلاصهم في أعمالهم ، وانقطعت النسبة بينهم وبين من جاء بعدهم ، فتشكك طريقهم وانحرف عن صراطهم ، وإن أدلى إليهم بالنسب

فكل واحد من السلف والخلف مجزى بعمله لا ينفع أحداً منهم عمل غيره من حيث هو عمل ذلك الغير ولا شخصه بالأولى ، وذلك أنها جاءت عقب بيان ملة إبراهيم وإبصاء بعضهم بعضها وبيان دروهم عليها ، ثم جاء بعد ذلك الاحتجاج على القوم بمن يعتقدون فيهم الخير والكمال وكونهم لم يكونوا على هذه اليهودية ولا هذه النصرانية اللتين حدثتا بعدهم ، فجاءت قاعدة الأعمال في هذا الموضع تبين أن المتخالفين في الأعمال والمقاصد لا يكونون متحدين في الدين ولا متساوين في الجزاء ، فأفادت هنا ما لم تفده هناك . وللمسلمين أن يحاسبوا أنفسهم ، ويحكموا قاعدة العمل والجزاء بينهم وبين سلفهم ، ولا يغفروا بالتسمية إن كانوا يعقلون وأريد على ما تقدم أن انتفاع الناس بعضهم ببعض في الدنيا إنما يكون بمقتضى سنن الله تعالى في الأسباب والمسببات ، ومن المعلوم شرعاً وعقلاً : أن الميت ينقطع عمله بخروجه من عالم الأسباب إلى البرزخ من عالم الغيب ، وأما الآخرة فلا كسب فيها ، وأمرها إلى الله وحده ظاهراً وباطناً ، كما قال تعالى (٨٢ : ١٩ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله)

﴿ استدراكات وبيان لأغلاط معنوية في هذا الجزء ﴾

(١)

في أواخر ص ٤٨ : أقول إن هذه الأمثلة تؤيد ما قاله الأستاذ الإمام الخ وهذا القول لا يصح على إطلاقه فان كلام ابن القيم مخالف لكلام شيخنا من بعض الوجوه كما يعلم من بياننا لكل منهما وزد على ذلك ان اسم « الرحمن » جاء في التنزيل ثانياً لاسم الذات « الله » فهو لا يلاحظ فيه تعلق الرحمة بالرحومين فعلاً كما يدل عليه استعماله في مقامات ليست من موضوع الرحمة بل بعضها عام وبعضها في موضوع العذاب كقوله تعالى في حكاية إنذار إبراهيم لأبيه (يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن) وقوله (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً) وقوله (وخشى الرحمن بالغيب) وقوله (إن يردن الرحمن بضر) ومن الآيات التي موضوعها عام ما ورد في الرد على من قالوا « اتخذ الله ولداً » فحكي قولهم باسم الرحمن كما حكاه باسم الله

(٢)

أشرنا في ص ٥٤ إلى حديث الأجر على حروف القرآن في التلاوة ولم نذكر تخريجه كعادتنا، وهو في الترمذى من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً عن طريق محمد بن كعب القرظى بلفظ « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها . لا أقول « ألم » حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . ثم قال: روى عن غير هذا الوجه عن أبي الأحوص عن ابن مسعود رفعه بعضهم ووقفه بعض . اهـ أقول: وهو في مستدرک الحاكم بلفظ « إن هذا القرآن مادة الله فاقبلوا من مادته ما استطعتم . إن هذا القرآن جبل الله والنور المبين والشفاء النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن تبعه، لا يزغ فيستعيب ولا يعوج فيقوم، ولا تنقض عجايبه، ولا يخلق من كثرة الرد، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنة، أما أناي لا أقول « ألم » حرف ولكن ألف ولام وميم » قال الحاكم هذا حديث صحيح ولم يخترجاه بصالح بن عمر . اهـ . أقول: رواه من طريق صالح بن عمر عن إبراهيم بن مسلم الهجرى - بفتح الهاء والجيم - قال الحافظ الذهبي في تليخيصه: صالح ثقة خرج له مسلم ولكن إبراهيم بن مسلم ضعيف اهـ أقول: ومما أخذ عليه رفع عدة أحاديث موقوفة وفي ص ٥٨ الاستشهاد بحديث « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » من سياق شيخنا غير مخرج . وهو في الكبير للطبرانى من حديث ابن عباس وسنده ضعيف

(٣)

قولنا في القاعدة الأولى (في ص ١١١) ولكنه في الدنيا اضافى مطرد في الأمم الخ فيه ضعف وإيهام اجمال، والمراد به الوعد بسعادة متبع هدى الله عز وجل باعتبار متعلقه، أعنى أن الأمم المهتدية بالدين تكون سعيدة بالنسبة إلى الأمم غير المهتدية باطراد، وأما الأفراد فتكون سعادتهم حتى بالاضافة إلى غير المهتدين غير مطردة فإن منهم من يصيبه من الأمراض وشدة الفقر والبؤس ما يكون به أسوأ حالاً من بعض غير المهتدين إلا أن يعتبر في المقابلة بين كل فردين من المهتدين وغير المهتدين تساويهما في الأحوال البدنية والاجتماعية والمعاشية فينبذ ليكون المهتدى أسعد من غيره بالحالة النفسية لأنه يكون أصبر على البؤس والضراء من غير المهتدى . وهذا أمر خفى لا تظهر به سعادة بعض الأفراد على بعض للناس، ويراجع ما يدل على هذه القاعدة من هذا الجزء بالاستعانة بالفهرس العام، ككلمة السعادة في حرف السين وكلمة الدين في حرف الدال

(٤)

قولنا في السطر الرابع من ص ١٢٠ « وكله من ثمرات الايمان » جملة خبرية معترضة بين قولنا « ان الايمان » وما عطف عليه وبين خبر ان الذي هو « سيبان من أسباب نصر العدد الفيلبي على العدد الكثير » وقولنا في السطر الثامن من هذه الصفحة « ومنها تعليل تحريم الربا » خطأ صوابه ومن أدلتها تعليل الخ وقولنا في السطر العاشر « فان الذي يقرض المحتاج » الخ صوابه : فان الذي كان يقرض المحتاج إلى أجل كان يقول له إذا حل الأجل : إما أن تقضى الخ

(٥)

في ص ٢٠٩ إيراد في ادعاء كهنة أهل الكتاب أن كتبهم المقدسة سالمة من التعارض والتناقض ومخالفة حقائق الوجود الثابتة، والجواب عنه، وإن كان الجواب لم يبين فيه كل ما يجب بيانه ولا أهمه، وهو أن علماء اللاهوت لا يدعون ما ذكر في الإيراد بل يصرحون بأن فيها مسائل كثيرة مخالفة لما هو مقرر في العلوم والفنون والتاريخ ولكن هذه المخالفة لا تنافي عندهم صحة الدين ولا قداسة هذه الكتب لأن المسائل المذكورة ليست من أمور الدين التي تتعاقبها عصمة الأنبياء عليهم السلام . وقد طرقت أبواب هذا البحث في (المنار) مراراً وتغلغلنا فيها أحياناً. ومن ذلك مقال نشرناه في الجزء الثاني من المجلد السادس (صفحة ٣٢١) عقب ما كتب في شأنه عن بعض علماء الآثار العادية من الألمان على شريعة حموري منقوشة على صفيحة من صم الصفا في العراق ، فقد ظهر لهم أن معظم شريعة التوراة موافقة لهذه الشريعة ، كما ظهر لبعض المحققين منهم أن أسفار هذه التوراة مشتملة على المئات أو الألوف من الألفاظ البابلية المحضة ، فجزم الأحرار من هؤلاء الباحثين بأن التوراة مقتبسة ليست وحياً من الله تعالى . وقد صرح بذلك العلامة اللاهوتي الأثري (دليش) أحد أعضاء جمعية الشرق في خطبة له (محاضرة) حضرها قيصر ألمانية (غليوم الثاني) والقيصرة وجاهير العلماء والكبراء وقد صرح هذا العالم الألماني الكبير في خطبته - أو محاضرتة - هذه بما استنتجه مما ذكره وهو أنه لا حاجة إلى دين وراء وجدان الخير المغروس في الفطرة فائلاً « إنما نضع أيدينا على قلوبنا ولا نحتاج إلى وحى غير الوحى الذى يصدر عنها » وقد أثيرت الصحف الدينية عليه طعنه، وعلى القيصر المشهور بالتدين أنه جالس بهد

إلقاء الخطبة ولا طقه ولم ينكر عليه هدمه لصريح الدين من أساسه فكتب القيصر إلى صديقه الأميرال (هولن) كتابا طويلا يثبت فيه تمسكه بالدين كما اشتهر عنه وما قاله فيه : « من البديهي عندي أن التوراة تحتوى على غنة فصول تاريخية . وهي من البشر لأن وحي الله ، ومن ذلك الفصل الذي ورد فيه أن الله أعطى موسى على جبل سيناء شريعة بنى إسرائيل فأنى أعتقد أنه لا يمكن اعتبار تلك الشريعة موحى بها من الله إلا اعتباراً شعرياً رمزياً لأن موسى قد نقل تلك الشرائع عن شرائع أقدم منها على الأرجح ، وربما كان أصلها مأخوذاً من « شرائع حموري » إلى أن قال : - وإني أستنتج بما تقدم ما يأتي :

« (١) إننى أؤمن بالله واحد (٢) إننا نحتاج الرجال لنحتاج في معرفة هذا الإله إلى شئ ، يمثل إرادته ، وأولادنا أشد احتياجاً منا إلى ذلك (٣) إن الشئ الذى يمثل إرادة الله عندنا هو التوراة التى وصات إلينا بالتقليد . وإذا فُتحت المكتشفات الأثرية بعض رواياتها وذهبت بشئ من رونق تاريخ الشعب المختار - شعب إسرائيل - فلا ضير فى ذلك لأن روح التوراة تبقى سليماً مهما يطرأ على ظاهرها من الاعتلال والاختلال . وهذا الروح هو الله وأعماله .

« إن الدين لم يسكن من محدثات العلم فيختلف باختلاف العلم والتاريخ ، وإنما هو فيضان من قلب الإنسان ووجدانه بما له من الصلة بالله » اهـ المراد منه

وقد بينا فى تعليقنا على كتاب القيصر هذا وفى مقالات أخرى فى المنار وفى تفسيرنا هذا بأن مجموع ما ثبت عند علماء التاريخ والآثار العادية وسائر العلوم فى شأن التوراة - وكذا الانجيل - يؤيد حكم القرآن فيهما وفى أهلها وهو أن الفريقين أوتوا نصيباً من الكتاب الإلهى لا الكتاب كله ، وأنهم نسوا حظاً عظيماً منه ، وأنهم حرقوا ما عندهم منه . فمقلد الأفرنج وعلماءهم المنتسبون يرون أن ما بقي فيه من النور والهدى وسيرة الأنبياء تجب المحافظة عليه والاهتمام به . ولولا الجهل بحقيقة الاسلام من بعضهم والعصبية السياسية من بعض لآمنوا بالقرآن الذى سبقهم كلهم إلى تصفية سيرة أولئك الأنبياء الكرام من الشوائب ، وبيان خلاصة هدايتهم وطرحه ما عدا ذلك ثم تكمله بالهدى والنور المأثور عنهم حتى كانت النسبة بين نورهم ونوره كالنسبة بين نور سراج الزيت ونور الكهرباء بل نور الشمس على أنه أوحى إلى رجل أمى لم يقرأ من تلك الكتب ولا غيرها شيئاً

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قبيلاً

لا تذكروا الكتب السوائف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا
على أنهم سيلجئون أو سوف يأوون إلى حظيرة الاسلام ونور القرآن على
حين نرى مقلداتهم من ملاحدة المسلمين يرقون من الاسلام تقليدا لأحرارهم
الذين سرقوا من النصرانية بعد أن عجزوا عن التوفيق بين حقائق العلم ونصوص
كتبهم ، فانظر إلى هذا العمى والارتباك في قوم يدينون الدين الذي أبدى العلم
والتاريخ بما يعده معجزة له ، تقليدا لقوم يدينون دينهم لمخالفة العلم والتاريخ له
عمى القلوب عموا عن كل فائدة لأنهم كفروا بالله تقليداً
(وليراجع القارىء في هذا البحث نفسه ص ٢١٢ - ٢١٤ من هذا الجزء نفسه)

(٦)

ذكرت في ص ٢٩٤ ماقاله الأستاذ الامام في تفسير (واركعوا مع الراكعين) بعد
الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . وفاتى ان أذكر ما أتهمه أنا في هذا الأمر
بعد الأمر من أمره أنه أمر بصلاة الجماعة أى وصلوا مع المصلين لا فرادى ، وهو
يزيد بظاهره قول من قال بوجودها . وبصبح الجمع بينه وبين ما قاله شيخنا رحمه
الله تعالى . ويأتى مثله في أمر مريم عليها السلام بذلك وحديث لا يحتاج إلى بيان
حكمة أو نكتة لقوله تعالى (مع الراكعين) دون الراكعات لأن تغليب الذكور
في صلاة الجماعة أظهر من تعليمهم في الصلاة مطلقاً .

(٧)

تكرر في هذا الجزء ويتكرر في سائر الأجزاء الكلام في جعل الدين عصبية
جنسية ورابط من الروابط السياسية وأن اليهود والنصارى قد فعلوا هذا من قبل
فاتبع المسلمون سنتهم فيه . وأن هذا لا يقع أحبابه في الآخرة وقد يضرهم إذا
خالقوا الحق أو اتبعوا الباطل لمحض العصبية وإنما ينفعهم هنالك الإيمان الصحيح
والعمل الصالح وتزيد على ذلك : أن الجمع بين هذا وبين التمسك بالجنسية الدينية
يخلق لا بالعصبية الاجتماعية مما تتم به قوة الحق والدين . والله يتولى المتقين .

تم طبع هذا الجزء لأول مرة بفضل الله وبمحمد في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٤٦ هـ
وكان قد نشر مختصراً متفرقاً في مجلدات المنار من الثالث (كما تقدم في
فاتحنا) إلى الجزء الثاني من المجلد السابع الذي صدر في غرة صفر سنة ١٣٢٢
وقد ظهر لنا بعد طبعه بعض الخطأ والابهام فبيناه فيما ترى .

وقعت الطبعة الثمانية في شهر ذى الحجة ١٣٦٦ هـ